د. يوسف القرضاوى

كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟

دار الشروق

كيف نتعامل مع القــرآن العظيم؟

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م
الطبعة الثانية
١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م
الطبعة الثالثة
١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ
رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص . ب: ٣٣ البانوراما ـ تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

* * * * *

مقدمة
الطبعة الثانية

الحمد لله، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على رحمة الله للعالمين، وحجته على الناس أجمعين، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلمنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

(أما بعد):

فهذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟)، وقد عنيت بتصحيحها وتنقيحها عناية بالغة. وقد أضفت إليها في بعض الأحيان فقرات أو عبارات رأيتها لازمة لاستكمال المعنى المنشود، أو لدفع وهم غير مقصود، راجيا أن يفي هذا الكتاب بما أردته من إلقاء شيء من الضوء على كيفية التعامل مع أعظم كتب الله المنزلة وخاتمها، وهو: القرآن العظيم.

هذا، وقد صدرت طبعة محدودة من هذا الكتاب، نشرها (مركز بحوث السنة والسيرة النبوية) بجامعة قطر.

واليوم تقوم (دار الشروق) بالقاهرة بنشر هذه الطبعة، آملا أن ينفع الله بها، وأن يجعلنا ربنا من أهل القرآن الذين يهتدون بهداه، ويقتبسون من سناه، حتى يكون خلقهم القرآن، كما كان خلق محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣].

يوسف القرضاوي

الدوحة: المحرم ١٤١٩ هـ.
مـــــــايو ١٩٩٨ م.

مقدمة
الطبعة الأولى
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحمْدُ لله الَّذي أنزل علىٰ عبْده الْكتاب ولمْ يجْعل لَّهُ عوجا (١) قيما لِّيُنذر بأْسا شديدًا مِّن لَّدُنْهُ ويُبشر الْمُؤْمنين الَّذين يعْملُون الصَّالحات أنَّ لهُمْ أجْرا حسنا (٢) مَّاكثين فيه أبدا ﴾ [الكهف : ١ - ٣] .

والصلاة والسلام على من كانت معجزته القرآن ، وكان إمامه القرآن ، وكان خلقه القرآن ، وكان ربيع صدره ، ونور قلبه ، وجلاء حزنه القران : محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون . وعلى كل من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أما بعد)

فقد أكرمنا ربنا ـ نحن المسلمين ـ بخير كتاب أنزل ، كما أكرمنا بخير نبي أرسل ، كما قال تعالى : ﴿ لقدْ أنزلْنا إليْكُمْ كتابا فيه ذكْرُكُمْ أفلا تعْقلُون ﴾ [الأنبياء : ١٠] . فنحن المسلمين ـ وحدنا ـ الذين نملك الوثيقة السماوية الفذة ، التي تحمل كلمات الله الأخيرة لهداية البشرية ، محفوظة من كل تبديل أو تحريف لفظي أو معنوي ، وذلك أن الله تعالى تكفل بحفظ هذا الكتاب ، ولم يكله إلى أحد من خلقه : ﴿ إنَّا نحْنُ نزَّلْنا الذّكْر وإنَّا لهُ لحافظُون ﴾ [الحجر : ٩] . فهو كتاب إلهي مائة في المائة : ﴿ كتابٌ أُحْكمتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصّلتْ من لَّدُنْ حكيمٍ خبيرٍ ﴾ [هود : ١] ، ﴿ وإنَّهُ لكتابٌ عزيزٌ (٤١) لا يأْتيه الْباطلُ من بيْن يديْه ولا منْ خلْفه تنزيلٌ مّنْ حكيمٍ حميدٍ ﴾ [فصلت : ٤١ ، ٤٢] .

ولم يوجد في الدنيا كتاب ديني أو دنيوي حفظ من التحريف والتبديل، كما حفظ هذا القرآن، وإن أحدا لا يستطيع أن يزيد فيه حرفا أو يخرم منه حرفا.

آياته تتلى وتسمع وتحفظ وتشرح، كما أنزلها الله على محمد - ﷺ - بواسطة الروح الأمين.

ولقد اشتمل على مائة وأربع عشرة سورة (١١٤) ابتدأت كلها بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) إلا سورة واحدة منها: سورة التوبة، فجاءت خالية منها، فلم يجترئ أحد أن يزيد هذه البسملة في مطلع السورة لا خطا ولا لفظا، لأنه لا مجال للرأي في القرآن.

لقد بلغ من اهتمام المسلمين بالقرآن أن عدوا آياته - بل كلماته، بل حروفه - فكيف يستطيع امرؤ أن يزيد أو ينقص في كتاب أحصيت كلماته وحروفه ؟!

ولم يعرف في الدنيا كتاب يحفظه الألوف وعشرات الألوف عن ظهر قلب، إلا القرآن الذي يسره الله للذكر والحفظ. فلا عجب أن نجد من الرجال والنساء من جمعه في قلبه ووعاه، كما حفظه كثير من صبيان المسلمين، لا يضيعون منه حرفا، وكذلك كثير من الأعاجم، لا يسقطون منه كلمة واحدة، وأحدهم لو سألته بالعربية عن اسمه لم يجبك ! فهو يحفظ كتاب ربه تعبدا وتقربا إليه سبحانه، وإن لم يفهم ما يقرأ ويحفظ، لأنه بغير لغته.

ولم تحفظ معاني القرآن وكلماته وألفاظه فحسب، بل طريقة أدائه ومخارج حروفه، وما ينبغي لها من مد وغن، وإظهار وإدغام، وإخفاء وإقلاب، وهو ما قام به علم خاص سمي علم (تجويد القرآن).

حتى رسم المصحف بقي يرسم ويطبع إلى اليوم، كما رسم في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، رغم تطور قواعد الرسم والإملاء. ولم تجرؤ حكومة مسلمة ولا مجمع علمي إلى اليوم، على أن يغير من طريقة رسمه، وأن يطبق عليه من القواعد ما يطبق على سائر ما يكتب ويطبع من كتب ورسائل وصحف وغيرها.

أنزل الله هذا القرآن ليهدي البشرية إلى أفضل غاية، وإلى أقوم طريق: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فالقرآن هو (نور) من الله لعباده إلى جوار نور الفطرة والعقل ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور:٣٥]. وقد وصف هو نفسه بأنه (نور) في آيات كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]. ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨]. ووصف الصحابة بقوله: ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن خصائص النور: أنه بين في نفسه، مبين لغيره، فهو يكشف الغوامض، ويوضح الحقائق، ويدحض الأباطيل، ويدفع الشبهات، ويهدي الحائرين إذا التبس عليهم السبيل أو عدم لديهم الدليل، ويزيد الذين اهتدوا هدى.

وإذا وصف القرآن بأنه (نور) وأنه (النور)، فقد وصفت التوراة بلفظ آخر: ﴿ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وكذلك وصف الإنجيل، فقد قال تعالى عن عيسى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة:٤٦].

وهذا التمييز بين التعبيرين يدل على الفرق بين القرآن وغيره من الكتب، وهو ما عبر عنه البوصيري رحمه الله في لاميته فقال:

الله أكبر، إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتبَ السوالف عنده ... طلع الصباح، فأطفئ القنديلا

وذلك أن هذا القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب، أى في أصولها العقدية والأخلاقية قبل أن تحرف، ومهيمنا عليها، أي مصححا لها فيما أدخل عليها من أوهام البشر وانحرافاتهم. وفي هذا قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولهذا القرآن - كما أنزله الله - خصائص تميزه عن غيره، فهو كتاب إلهي، وهو كتاب معجز، وكتاب مبين ميسر، وكتاب محفوظ، وهو كتاب الدين كله، وكتاب الزمن كله، وكتاب الإنسانية كلها.

كما أن لهذا القرآن مقاصد وأهدافا يسعى إليها، ويحرص عليها، من: تصحيح العقائد

والتصورات، عن الألوهية والنبوة والجزاء، وتصحيح التصور عن الإنسان وكرامته ورعاية حقوقه، وخصوصا الضعفاء من بني الإنسان.

كما يحرص على وصل الإنسان بربه، ليعبده وحده ويتقيه في كل أموره.

وكذلك على تزكية نفسه التي إذا صلحت صلح المجتمع كله، وإذا فسدت فسد المجتمع كله.

وكذلك يعمل على تكوين الأسرة التي هى نواة المجتمع، وإنصاف المرأة التي هي عمود الأسرة.

ومثل ذلك: إنشاء الأمة الصالحة التي حملها الله أمانة الشهادة على البشرية، والتي أخرجها لنفع الناس، وهداية الناس.

وبعد ذلك: الدعوة إلى عالم إنساني يتعارف ولا يتناكر، ويتسامح ولا يتعصب، ويتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

ومن حق هذا القرآن أن نحسن التعامل معه: حفظا واستظهارا، وتلاوة واستماعا، وتدبرا وتأملا.

وأن نحسن التعامل معه: فهما وتفسيرا، فليس هناك أفضل من أن نفهم عن الله مراده منا. وما أنزل كتابه إلا لنتدبره، ونفقه أسراره، ونستخرج لآلئه، كل بقدر ما يتسع واديه.

ومما يؤسف له أن هذا المجال قد وقع فيه خلل خطير، في الفهم والتفسير. ولهذا كان لا بد من وضع معالم مضيئة على الطريق، وضوابط عاصمة من كل قاصمة، ومن التحذير من المزالق التي توقع في الهاوية. وما أدراك ماهيه؟

ولا يليق بأمة القرآن أن تقع فيما وقعت فيه أمة التوراة، التي وصفها الله بقوله: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥].

كما يجب أن نحسن التعامل مع القرآن اتباعا له، وعملا به، وحكما بشريعته، ودعوة إلى هدايته. فهو منهاج لحياة الفرد، ودستور لسياسة الحكم، ودستور للدعوة إلى الله تعالى.

وهذا ما يحاول هذا الكتاب أن يعالجه في أبوابه الأساسية الأربعة، معتمدا - بصورة أساسية - على القرآن ذاته، فهو الموضوع، وهو الدليل.

وقد أحسنت أمتنا في قرونها الأولى - وهي خير القرون - التعامل مع هذا القرآن، فأحسنت

فهمه، وفقهت مقاصده، وأحسنت العمل به إلى حد كبير، في مجالات الحياة المتنوعة، وأحسنت الدعوة إليه على بصيرة. وخير مثال لذلك هم الصحابة، الذين غير القرآن حياتهم تغييرا كليا، فنقلهم من انحرافات الجاهلية إلى استقامة الإسلام، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتبعهم بإحسان تلاميذهم، وتلاميذ تلاميذهم من الأجيال القرآنية، التي هدى الله بها العباد، وفتح البلاد، ومكن لهم في الأرض، فأقاموا فيها دولة العدل والإحسان، وحضارة العلم والإيمان.

ثم خلف من بعدهم خَلْفٌ أو خلوف، اتخذوا القرآن مهجورا، حفظوا حروفه، وضيعوا حدوده، وأساءوا التعامل معه، فلم يحسنوا فهمه، ولم يقدموا ما قدمه، ويؤخروا ما أخره، ولم يكبروا ما كبره، ويصغروا ما صغره. ومنهم من آمن ببعضه وكفر ببعض، كمافعل بنو إسرائيل من قبلهم. وهم لم يحسنوا العمل به، كما يحب الله ويرضى، وإن تبركوا بحمله وزينوا بآياته جدرانهم، ونسوا أن البركة في اتباعه وتطبيق أحكامه، كما قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

ولا سبيل إلى إنقاذ الأمة من ضياعها وتخلفها وتمزقها إلا بالرجوع إلى هذا القرآن، تتخذ منه الدليل الذي يهدي، والإمام الذي يتبع، وكفى بالقرآن دليلا: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾؟! [النساء: ١٢٢].

وقد كنت منذ سنوات أصدرت كتابي «كيف نتعامل مع السنّة النبوية؟» بطلب من الإخوة في (المعهد العالمي للفكر الإسلامي). وكان له - بفضل الله تعالى وتوفيقه - صدى طيب، وأثر حميد، فقد أزاح كثيرا من الشبهات، وصحح كثيرا من المفاهيم، ووضع من المعالم الهادية، والضوابط العاصمة، ما يعين عل صحة الفهم، واستقامة السلوك.

وكان الكثيرون يقولون لي: ما أحوجنا إلى كتاب آخر يتمم الهدف من إخراج هذا الكتاب، يكون موضوعه: «كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟».

وقلت لهؤلاء الإخوة: هذا أمر واجب، ولعله كان ينبغي أن يكون البدء به، فالقرآن هو المصدر الأول، والسنة هي المصدر الثاني، ولكن لأن الخلل والخطأ في فهم السنة والتعامل معها أكثر وأشهر، بدأنا بها، وسأشرع في ذلك متوكلا على الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣].

وكان شيخنا محمد الغزالي - رحمه الله - قد صدر عنه كتاب تحت هذا العنوان نفسه (كيف

نتعامل مع القرآن ؟) هو عبارة عن مطارحات بينه وبين الأستاذ عمر عبيد حسنة ، عندما كان الشيخ في الدوحة ، يطرح الأستاذ حسنة السؤال مطولا ، ويجيبه الشيخ الغزالي مفصلا .

ولكن الكتاب كان يركز على قضايا معينه يسأل عنها ، وكانت الإجابة على قدر السؤال ، ولهذا لم يصغ بطريقة منهجية في تصنيفه ، ولم يستوعب كل ما يقال في التعامل مع كتاب الله .

فكانت الحاجة إلى هذا الكتاب المنهجي متعينة . وقد قسمناه إلى أربعة أقسام أو أبواب رئيسة أو أساسية :

الباب الأول : عن خصائص القرآن العظيم ومقاصده .

الباب الثاني : عن التعامل مع القرآن : حفظا وتلاوة واستماعا .

والباب الثالث : عن التعامل مع القرآن : فهما وتفسيرا ، وبيان معالم المنهج الأمثل في التفسير ، والكشف عن المزالق والمحاذير ، والموقف من التفسير العلمي بين المؤيدين والمعارضين . وهو أوسع أبواب الكتاب وأهمها .

والباب الرابع : عن التعامل مع القرآن : اتباعا وعملا ، وحكما ودعوة .

وبهذا تم الكتاب بحمد الله تبارك وتعالى وتسديده .

وقد استفدت مما كتبته عن القرآن في كتب سابقة ، مثل كتابي (ثقافة الداعية) ، ومقدمة كتابي (تفسير سورة الرعد) ، وكتابي (المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة) ، فقد اشتملت على مباحث مهمة حول الباب الثالث - فهم القرآن وتفسيره - فلا غرو أن اقتبست منها ما رأيت أن موضعه الأساسي هنا .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب كاتبه وقارئه ، وكل من أسهم في نشره وتعميم النفع به ، ضارعين إليه تعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وأن يرد أمتنا إلى القرآن ردا جميلا ، حتى يكون منهاج حياتها ، ودستور سياستها ، وأن يجعلنا تبارك وتعالى من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ، آمين .

الدوحة المحرم ١٤١٨ هـ
مايــو ١٩٩٧ م

يوسف القرضاوي

البـــاب الأول
خصائص القــرآن ومقاصـــده

١ـ خصائـــص القـــرآن

٢ـ مقاصـــد القــــرآن

الفصل الأول

خصائص القرآن

١ ـ القرآن كتاب إلهي

٢ ـ كتاب محفوظ

٣ ـ كتاب معجز

٤ ـ كتاب مبين ميسر

٥ ـ كتاب الدين كله

٦ ـ كتاب الزمن كله

٧ ـ كتاب الإنسانية كلها

١ـ القـــرآن كتـــاب إلهـــي

أولى خصائص القرآن: أنه كتاب الله تعالى، الذي يتضمن كلماته إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد عليه الصلاة والسلام.

فهو إلهي المصدر: مائة في المائة (١٠٠ ٪) لفظا ومعنى، أوحاه الله إلى رسوله ونبيه محمد ﷺ عن طريق (الوحي الجلي) وهو نزول (الرسول الملكي) جبريل على (الرسول البشري) محمد، وليس عن طرق الوحي الأخرى من الإلهام أو النفث في الروع، ومن الرؤيا الصادقة، أو غيرها.

يقول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سبحانه يخاطب رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]. ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقد قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]: إن الروح المسئول عنه في الآية هو القرآن، فإن السياق قبله وبعده يتحدث عن القرآن، وهو لا شك روح من أمر الله تبارك وتعالى.

وربما يدل لذلك قوله تعالى في أوائل سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

كما يؤكده قوله تعالى في أواخر سورة الشورى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا

مَا كُنت تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالقرآن روح رباني تحيا به العقول والقلوب، كما أنه دستور إلهي ينظم حياة الأفراد والشعوب.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزله منجما وفقا للحوادث، ليكون أرسخ في القلوب، وأوقع في العقول، وهو يعالج الوقائع بآيات الله، ويرد على الأسئلة، ويثبت فؤاد الرسول في مواجهة المحن والشدائد التي تنزل به وبأصحابه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

وحكمة أخرى، وهي أن يقرأه الرسول الكريم على المؤمنين به على مهل، بحيث يستوعبونه حفظا وفهما وعملا، كما قال عز وجل: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ولكن القرآن عند الله تعالى كتاب معلوم أوله وآخره، مسجل في أم الكتاب أو اللوح المحفوظ أو الكتاب المكنون، كما صرح بذلك القرآن نفسه: ﴿ حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١ - ٤]. ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

يجب أن ينظر إلى القرآن بوصفه «كلام الله» تعالى، المعبر عما يحبه ويرضاه من خلقه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة: ٦].

ليس لجبريل - أمين الوحي - من القرآن إلا نقله من (أم الكتاب) أو (اللوح المحفوظ) إلى قلب محمد، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وليس لمحمد منه إلا قراءته وحفظه حتى لا ينسى، كما قال تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦]. ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧]. ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقد كان من مهمة الرسول ﷺ تلاوة آيات الله على الناس، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢].

ثم ترتيله وتدبره: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٤].

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

ثم تبليغه إلى الناس كما أنزل، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد بلغ عليه الصلاة والسلام كل ما أنزل إليه من ربه إلى الناس عامة، وإلى أصحابه خاصة، فحفظوه في صدورهم، وتلوه بألسنتهم، وكتبه (كتاب الوحي) بأيديهم.

قالت عائشة: لو كان محمد كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هؤلاء الآيات: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ [التحريم: ١].

ثم بعد ذلك يبينه للناس بما علمه الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

فمن أراد أن يفهم القرآن أو يفسره، فليعد له عدته، وليتأهب له عقليا وعلميا ونفسيا، فإنما هو مخلوق يفسر كلام الخالق، وهو مخلوق يمثل ما في المخلوقات من قصور وعجز ومحدودية بحدود الزمان والمكان والإمكان، أمام الواحد القهار، الذي لا يحد علمه ولا مشيئته ولا قدرته شيء.

أما النظر إلى القرآن باعتباره مجرد (منتج ثقافي) أو أثر ونضح للثقافة العربية السائدة في مجتمع الحجاز وقت نزوله، أو وقت ظهوره - فهم لا يعتبرونه منزلا - كما زعم بعضهم [(١)]، فهو أساس الخلط والخبط، وهو مخالفة للحقيقة، ومناقضة للعقيدة.

ونزول القرآن بلغة ينطقها البشر لا يخرجه عن كونه كلام الله، ولا ينزع عنه الصفة الإلهية، أو القداسة الربانية. وإلا لم يكن هناك فرق بين الوحي الإلهي والتفكير البشري.

ولا أدري أهؤلاء ينكرون كلام الله سبحانه للبشر؟ إن كانوا كذلك فهم خصوم كل الأديان السماوية التي قامت على أن الله تعالى يكلم من خلقه رسلا اصطفاهم، وحملهم أمانة تبليغ وحيه إلى عباده. وإذا أثبتوا ذلك، فلابد أن يكلم الله الناس بما يفهمونه من اللغات: مباشرة كما كلم موسى، أو بواسطة الوحي الجلي كما في القرآن الذي أنزله الله بلسان عربي مبين، كما ذكرنا ذلك.

فعربية القرآن ليست من صنع البشر. وأحكامه ومفاهيمه ليست من نضح ثقافة البشر مثل عرب الحجاز وتأثيرها، بل هي منزلة على البشر من سلطة أعلى منهم، سلطة الرب الخالق المعلم للإنسان: وهذا واضح من أول سورة أنزلت في القرآن: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [**العلق**: ١ - ٥].

وقد أكد القرآن نفسه أن الله تعالى أنزله عربيا، كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [**يوسف**: ٢]. ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا** ﴾ [**الرعد**: ٣٧].

ومن قرأ القرآن وتدبره، وكان على شيء، من العلم بحال المجتمع العربي، والمجتمعات الأخرى، وقت نزوله، تبين له - بما لا يقبل الشك - أن القرآن كان فاعلا لا منفعلا، ومؤثرا لا متأثرا، فقد صحح العقائد الباطلة السائدة، وصوب المفاهيم الخاطئة المسيطرة، وأبطل التقاليد

---

(١) هو د. نصر حامد أبو زيد الذي ادعى ذلك فيما كتبه عن القرآن. وقد رد عليه د. محمد عمارة ردا علميا رصينا في كتابه: (التفكير الماركسي للإسلام) نشر دار الشروق بالقاهرة. فينبغي مراجعته.

الظالمة، وألغى الأوضاع الفاسدة، وحمل على الأباطيل المتوارثة حملة لا نظير لها، ورد على الجاحدين المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وبين أنهم حرفوا وبدلوا، وكتبوا الكتب بأيديهم ثم قالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، ووضح أنه جاء ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

فمن زعم أن القرآن نتاج الثقافة السائدة، فقد جهل القرآن، وجهل الواقع التاريخي، وغاب عن الوعي.

ولقد قرأ بعض الأجانب المنصفين القرآن، فقال: لو وجد هذا المصحف في فلاة، لعلم قارئه أنه كلام الله. وقالت (نبيا أبوت) [1] أستاذة الدراسات السامية بجامعة الملكة في كاليفورنيا: القرآن مهما كان محتواه، فإنه ليس من صنع البشر، فإذا أنكرنا كونه من الله فمعناه: أننا اعتبرنا محمدا هو الإله!

ولا ريب أن كل كلام يدل على شخصية قائله، أهو رجل أم امرأة؟ شاب أم شيخ؟ حضري أم بدوي؟ سعيد أم محزون؟ عميق أم سطحي؟

ومن هنا وجدنا بعض النقاد يعزون بعض القصائد إلى قائليها بالحس النقدي الأدبي فتكون كما حدسوا.

وأي قارئ للقرآن - له عقل وحس - يستيقن أنه ليس كلام بشر، وأنه متميز عن كلام الرسول ﷺ، الذي يتمثل في الحديث النبوي، وإن كان في ذروة البلاغة البشرية. وإن وجود آية قرآنية ضمن حديث نبوي، يجعل لها نورا خاصا يحس به من يقرؤها أو يسمعها، ويشعر أنها ليست من جنس ما قبلها وما بعدها.

ومن روائع ما قاله الإمام ابن القيم عن (الخطاب القرآني) قوله في كتابه (التبيان في أقسام القرآن):

«تأمل خطاب القرآن تجد ملكا له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومواردها إليه، مستويا على العرش، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته، عالما بما في نفوس عبيده، مطلعا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي، ويدبر الأمور، نازلة من عنده، دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه. لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه،

---

(١) في كتابها (الخط العربي). نقل ذلك عبد الله عباس الندوي في كتابه: معاني ترجمات القرآن الكريم ص ٨

ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، يذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكّر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكرهم غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه . . . » أ. هـ.

موقف المستشرقين والمبشرين من إلهية القرآن:

وللغربيين موقف من القرآن يكاد يكون عاما بينهم، وهو: إنكار نسبه الإلهي، واعتباره كتابا بشريا، من صنع محمد وتأليفه:

ومنهم من زعم أن محمدا اختلق هذا القرآن اختلاقا، وافتراه من عند نفسه، ثم نسبه إلى الله تعالى عمدا وكذبا!

ومنهم من قال: إنه اقتبسه من كتب اليهود والنصارى: التوراة والإنجيل!

ومنهم من قال: إنه لم يختلقه عمدا، بل خيل إليه إنه يوحَى إليه ويكلّم من الله. وهو في الواقع صادر من داخل نفسه، لا من مصدر خارج عنه، وهو ما يسمونه (الوحي النفسي). وهو ما رد عليه الشيخ رشيد رضا بكتابه الشهير (الوحي المحمدي) الذي جدد فيه التحدي بالقرآن.

إلى غير ذلك من الدعاوي التي ادعوها على محمد (الصادق الأمين) كما كان قومه يسمونه، قبل بعثته عليه الصلاة والسلام. فما جربوا عليه كذبا قط. وما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى، كما قال (هرقل) إمبراطور الروم بعد أن وصلته رسالة محمد يدعوه فيها إلى الإسلام، وجاء بجماعة من قومه و من خصومه، فسألهم جملة من

الأسئلة الدقيقة الذكية، عرف من أجوبتها أن محمدا هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح. وأنه لو كان عنده لغسل عن قدميه، ولكن من حوله لم يوافقوه على اتجاهه، فآثر إرضاءهم، وغلب حب ملكه على الإسلام.

المهم أن هرقل سألهم: هل جربتم عليه كذبا؟ فقالوا: ما جربنا عليه كذبا. فقال: ما كان ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله!

وهذه الدعاوي أو التهم التي يرددها المبشرون والمستشرقون اليوم، أشبه بالتهم التي كان يرددها كفار قريش الوثنيون، ورد عليها القرآن في حينها، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٤ - ٦]

وأحيانا يتحيرون في حقيقة هذا القرآن، وحقيقة من جاء به، وينتقلون من دعوى إلى أخرى في الحال، لا يثبتون على شيء منها. كما قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]. ثم غلبهم القرآن بحججه وبيناته، فأذعنوا له، وآمنوا به، وتركوا العناد والكبر وتقليد الآباء، واتباع الأهواء، وقالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣]. وغدا أعداء القرآن بالأمس أنصاره اليوم. وأصبح القرآن ربيع قلوبهم، ونور صدورهم، وقرة أعينهم.

وقد يجد المرء بعض العذر للماديين من الغربيين الذين لا يؤمنون بما وراء الطبيعة المادية المحسة، فهم لا يؤمنون بوحي ولا نبوة، بل لا يؤمنون بإله للكون، ولا بروح للإنسان، فلا عجب أن يجحدوا بكل كتاب أنزل، ويكفروا بكل نبي أرسل. فهم يدخلون تحت قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

فهؤلاء منطقيون مع فلسفتهم المادية الجاحدة، إذا أنكروا نبوة محمد وأصروا على بشرية القرآن.

أما الذي لا ينقضي عجب الإنسان من موقفهم، فهم المبشرون والمستشرقون الذين يؤمنون

بنبوة موسى وعيسى، ويؤمنون بإلهية التوراة والإنجيل، وأنهما كتابان من عند الله، مقدسان. مع ما دخل على التوراة من تحريف وتبديل، فقد فقدت التوراة الأصلية حين حرّقها البابليون فى غزوهم لبني إسرائيل، وظلت مفقودة عشرات السنين، ثم جاء (عزرا) فكتبها من حفظه، ومما سمعه ممن حوله، فشابها ما شابها من الأوهام والأغلاط والتحريفات اللفظية والمعنوية.

وقد تجسد هذا فيما نلحظه فى أسفار التوراة الحالية: من تشويه لحقيقة (الإله) الخالق، الذى يجب أن يتصف بكل كمال، ويتنزه عن كل نقص. فالتوراة تصفه ـ كما في سفر التكوين ـ بالجهل والعجز والندم والحسد ونحوها من صفات البشر المخلوقين الناقصين.

ومثل ذلك: تشويه صورة الرسل والأنبياء، الذين بعثهم الله هداة ومعلمين للناس، وجعلهم أسوة حسنة لهم، يقتبسون من هديهم، كما يتعلمون من كلامهم. فقد نسبت إليهم التوراة من النقائص وسوء السلوك ما لا يصدر إلا من أراذل الناس.

وفي التوراة الحالية: تعاليم غريبة، مثل محاكمة الحيوان الأعجم وعقوبته، ومثل التفرقة بين الناس بسبب عروقهم وأجناسهم، وتفضيل بعضهم على بعض، بل استعباد بعضهم لبعض، مثل (شعب كنعان) الذي يجب أن يعيش أبدا معبّدًا لبني إسرائيل!

هذا في شأن التوراة: أما الإنجيل الذي أنزله الله على المسيح عليه السلام، فلا يعرف ولا يوجد في أي مكان. وإنّما الذي وجد: سير كتبها بعده بزمن غير يسير: بعض تلاميذه مثل متى، أو تلاميذ تلاميذه، بلغة لا توجد منها نسخة أصلية، إنما توجد ترجمات لها بلغات أخرى. وقد اختير من بين سبعين إنجيلا كانت موجودة: أربعة منها، هي التي اعترفت بها الكنيسة، وألغت ما عداها. وفى هذه الأناجيل من الاختلاف والتناقض بين بعضها وبعض، وبينها في أنفسها: ما يعلمه الدارسون المتخصصون، وألفت فيه الكتب.

فأين هذه التوراة القائمة، وهذا الإنجيل القائم اليوم، من القرآن الحكيم، الذي لا يجرؤ امرؤ على أن يزيد عليه حرفا أو ينقص منه حرفا؟ وقد تولى الله تعالى حفظه بنفسه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. كما سنبيِّن ذلك عما قريب.

وأين ما تضمنته التوراة والإنجيل مما تضمنه القرآن من عقائد وعبادات، ومعارف ومفاهيم، وقيم وأخلاق، وتشريعات ومعاملات، وأنباء عن عالم الغيب وعالم الشهادة ولفت الأنظار إلى آيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس؟

لا يستطيع عاقل أن يقارن بين الكتابين السابقين في وضعهما الحالي (التوراة والإنجيل) وبين القرآن: الكتاب الخالد المبين: في التوجّهات، وفي الموضوعات، وفي الصياغة والأسلوب، في الشكل والمضمون والتأثير، إلا أن ينشد ما قاله البوصيري قديما في بردته:

لا تَعْجَبَنْ لحسود راح ينكرها تجاهلا، وهو عينُ الحاذق الفهم!
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سَقَم!

٢ـ كتـــاب محفـــوظ

ومن خصائص القرآن: أنه كتاب محفوظ. تولى الله تعالى حفظه بنفسه، ولم يكل حفظه إلى أحد، كما فعل مع الكتب المقدسة الأخرى، التي استحفظها أهلها، كما قال تعالى: ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومعنى حفظ القرآن: صيانته من كل تحريف وتبديل تتعرض لهما النصوص، كما تعرضت التوراة والإنجيل، من قبل.

أما التوراة: فقد كانت ألواحا مكتوبة في السطور، ولم تكن محفوظة في الصدور، فلما تعرضت النسخ المكتوبة للإحراق والضياع، عند غزو البابليين (نبوخذ نصر) لبني إسرائيل الذين ﴿ جَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ [الإسراء: ٥]. ولم يكن في القوم من يحفظ الكتاب كله.. فكتبوا منه نسخة لفقوها من هنا وهناك، وقالوا: هذا من عند الله، كتبها (عزرا) الوراق، دون أصل يرجع إليه، وربما ساعده غيره.

وقد أثبت علماء المسلمين ـ من قديم ـ تحريف التوراة، من عهد كتاب (الملل والنحل) إلى عهد الشيخ رحمة الله الهندي صاحب (إظهار الحق)، وأكد ذلك البحث العلمي في عصرنا.

ومن الدراسات الجديرة بالتنويه: ما قام به د. بدران محمد بدران عن (التوراة) فقد عكف على دراسة أسفار (العهد القديم) دراسة علمية موضوعية، وانتهى من دراسته إلى نتائج غاية في الخطورة، ومن أهمها:

أولا: أصول العهد القديم ثلاثة: النسخة السامرية، والنسخة العبرية، والنسخة اليونانية، وبين هذه الأصول من الاختلافات والتناقض والتضارب ما فيها، فضلا عما فيها من زيادة ونقصان، مما يجعلنا نفقد الثقة بهذه الأصول جميعا.

ثانيا: طبعات العهد القديم عديدة، لا تكاد طبعة منها تتفق والطبعات الأخرى. وهي تتغاير من بلد إلى بلد، ومن طائفة إلى طائفة، ومن جيل إلى جيل، والمشرفون على هذه

الطبعات يتعاورونها بالتعديل والتبديل والحذف والإضافة، مما يجعلها موضع الشك والارتياب.

ثالثا: أسفار العهد القديم مليئة بالروايات المتناقضة، التي لا سبيل إلى التوفيق بينها بأي حال، مما يجعل بعض الأسفار الأخرى تنطق بالكذب والبهتان، بل إن السفر الواحد تتناقض بعض إصحاحاته مع البعض الآخر.

رابعا: والعهد القديم غاص بالأساطير الوهمية، والقصص الجنسية الداعرة، والأخلاق السيئة التي تنأى به عن مظاهر الطهر والتقديس.

خامسا: وهو إلى هذا يناقض الحقائق العلمية الثابتة بالتجربة الواقعية، والنظر العقلي الرشيد، ولو كان وحيا سماويا ما ظهرت فيه هذه الأخطاء.

سادسا: انتهى من دراساته إلى الأصول التي استمد منها كتّاب العهد القديم معلوماتهم ومن أهمها:

١ ـ نشيد إخناتون

٢ ـ حِكَم أمينوبي.

٣ ـ قانون حمورابي.

والواقع أن الدارس للعهد القديم يجد فيه تيارات عديدة شنيعة، منها: تشويه صورة الذات الإلهية، وتلويث الأنبياء، ومجافاة العقل السليم، ومناقضة العلم الصحيح، والتناقضات العديدة بين أسفار العهد القديم، بل بين إصحاحات السفر الواحد. هذا إلى جانب التعصب الأعمى لشعب بني إسرائيل، مما يجعلنا لا نمنحه أي ثقة، ولا نضفي عليه أي تصديق [(١)].

وهذا يتفق مع ما انتهى إليه الغربيون من بحوث جادة حول الموضوع، فقد أثبتت الدراسات الحديثة للغربيين أنفسهم ـ بالأدلة العلمية ـ تحريف التوراة، وأن فيها نصوصا لا يمكن أن تكون مما أنزله الله على موسى. فقد كتب إسبينوزا الفيلسوف اليهودي المتحرر نقدا قويا للعهد القديم، أثبت فيه عدم صحة نسبته لمن نسب إليهم من الأنبياء، وبخاصة التوراة، حيث أثبت بالدليل القاطع أنها كتبت بعد موسى بمئات السنين، وذلك في كتابه القيم (رسالة في اللاهوت والسياسة).

وقد طالب بعض العلماء والمفكرين في الغرب بوجوب إبعاد (الكتاب المقدس) ـ ولا سيما العهد القديم ـ عن مدارس الأولاد والبنات، لما تضمنه من أمور تنافي الحياء والآداب العامة.

---

(١) من مقدمة د. علي عبد العظيم لكتاب د. بدران عن التوراة: العقل ـ العلم .. التاريخ، ص ٧، ٨.

هذا في شأن التوراة .

أما الإنجيل الذي أوحاه الله إلى المسيح عيسى ، فيبدو أنه قد فقد بعد عيسى بزمن قصير ، ولم يعد يعرف عنه شيء ، كل ما يعرفه الناس هو (الأناجيل) المنسوبة إلى أصحابها . والمعروف منها الآن أربعة ، لمتى ومرقص ولوقا ويوحنا ، وهذه الأربعة اختيرت من بين حوالي سبعين إنجيلا ، حكم بتحريم قراءتها ، بل بإتلافها .

وهذه الأناجيل لا تخرج عن كونها سيرة للمسيح ، مشتملة على بعض مواعظه وأقواله ، وهي مختلفة متناقضة فيما بين بعضها وبعض ، بل كل إنجيل منها متناقض في نفسه .

وقد اختلف في تاريخ تأليف هذه الأناجيل ، وفي اللغة التي كتبت بها أساسا ، والتي ترجمت إليها ، وشكك الدارسون المحققون في صحة نسبتها إلى مؤلفيها . ونقل الشيخ رشيد رضا في (مجلة النار) عن دائرة المعارف الفرنسية : أن الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى النصارى لم تظهر إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح .

وقرر الأب عبد الواحد داود ، المطران المسيحي الآشوري ، الذي اعتنق الإسلام ، في كتابه (الإنجيل والصليب) : أن الأناجيل المعتبرة الآن لم تكن معترفا بها قبل القرن الرابع الميلادي(1) .

وهذا الذي حدث للتوراة وللإنجيل - من تحريف وتبديل وتضييع - ناشئ من أن الله تعالى لم يتكفل بحفظهما ، بل وكل ذلك إلى أهلهما ، لأن كلا منهما كتاب موقوت ، لرسالة موقوتة ، لقوم مخصوصين ، وهذا بخلاف رسالة الإسلام العامة والخالدة والدائمة ، فهي تقتضي حفظ مصادرها من أن تمتد إليها يد التغيير .

ومن أجل هذا تكفل الله تعالى بحفظ هذا القرآن ، ووعد بذلك وعدا مؤكدا ، بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

والصيغة تدل على التأكيد من عدة أوجه يعرفها دارسو العربية ، منها : اسمية الجملة وتأكيدها بحرف «إن» ودخول اللام المؤكدة على الخبر (لحافظون) .

---

(١) انظر كتاب (النصرانية والإسلام) للمستشار محمد إسماعيل محمد الطهطاوي ص ١٤ - ٢٦ ، نشر دار الأنصار بالقاهرة ، وكتاب (الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف) للدكتور يحيى محمد ربيع : فصل سند الأناجيل ص ١١٥ - ١٨٥ نشر دار الوفاء بمصر ، وكتاب العلامة الشيخ محمد أبو زهرة (محاضرات في النصرانية) ، وكتاب (الأسفار المقدسة) للدكتور علي عبد الواحد وافي .

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

ومن دلائل ذلك: أن أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمن مرت على نزول هذا القرآن، ولم يزل كما أنزله الله، وكما بلغه محمد ﷺ، وكما تلقاه أصحابه، ومن بعدهم، جيلا إثر جيل محفوظا في الصدور، متلوًا بالألسنة، مكتوبا في المصاحف، يستظهره عشرات الألوف من أبناء المسلمين، حتى الصبيان منهم، بل حتى الأعاجم الذين لا يعرفون لغته.

تهيئة الأسباب لحفظ القرآن:

وقد هيأ الله الأسباب لحفظ هذا القرآن، وفاء بوعده عز وجل بحفظه، ليبقى إلهيا كما أنزل، ولا تتطرق إليه أهواء البشر، وأوهام البشر.

وكان من هذه الأسباب:

أمة متميزة بالحفظ:

١ ـ نزوله في أمة متميزة بالحفظ، عرف ذلك في الشعر وغيره، فكيف بكتابها المقدس؟ ساعد على ذلك سهولة القرآن وعذوبته، والترغيب في حفظه، فحفظه من الأمة أعداد هائلة على مدار التاريخ. حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أمتنا ليست مثل أهل الكتاب، الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم، بل لو عدمت المصاحف كلها، كان القرآن محفوظا في قلوب الأمة (١).

كتابة القرآن بعد نزوله:

٢ ـ ومن هذه الأسباب: أن الرسول الكريم اتخذ له (كتّابا) للوحي، فأمرهم بكتابة كل ما ينزل عليه من القرآن فور نزوله. وكانوا يكتبونه على ما تيسر من الجلود والعظام وجريد النخل والخشب، والأوراق وغيرها، ونهاهم الرسول في أول الأمر عن أن يكتبوا شيئا غير القرآن، قال: «ومن كتب شيئا غير القرآن فليمحه» (٢). وذلك لتوفير كل الأدوات لكتابة القرآن،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٧ / ٤٣٦.

(٢) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري.

وتوفير الهمم والجهود للحفاظ عليه قبل كل شيء. ولم يلحق الرسول بربه إلا بعد أن كان القرآن كله مكتوبا، وإن لم يكن بين دفتين، لأنه ما دام حيا، فهو يتوقع نزول الوحي.

جمع القرآن في عهد أبي بكر:

٣ـ ومن ذلك: ما تم في عهد خلافة أبي بكر، باقتراح من عمر، بعد معركة اليمامة في حروب الردّة المعروفة، واستشهاد كثير من قراء القرآن بها، والخشية أن يفقدوا القراء في مواطن الجهاد، فأشار عمر بجمع القرآن جمعا رسميا، تشرف عليه الخلافة، وترسم له منهجه، وتختار له من يحسن القيام به. وقد اختير له زيد بن ثابت أبرز كتاب الوحي، وأحد المتقنين لفن الكتابة. وكان المنهج يعتمد على مصدرين:

أولهما: ما كتب بين يدي النبي ﷺ.

والآخر: ما كان محفوظا في صدور الرجال، وكان زيد لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان.

قال السخاوي: المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي النبي ﷺ.

قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال، ما كان بأثقل علي، مما كان أمروني به من جمع القرآن.

وقد تم هذا الجمع الدقيق الموثّق على أكمل وجه، وأصبح هناك مصحف رسمي، ظل عند أبي بكر حتى توفي، ثم عند عمر حتى استشهد، ثم سلم إلى حفصة أم المؤمنين. وقال عليّ: أعظم الناس في المصاحف أجرا: أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله [1].

كتابة المصحف الإمام في خلافة عثمان:

٤ـ ولقد كمل ذلك: ما تم في عهد الخليفة الثالث عثمان، فقد جاء حذيفة بن اليمان، بعد فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق، فأفزعه اختلاف الناس في القراءة، فقال لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى!

---

(١) انظر البرهان للزركشي (١/ ١٣٩)، والإتقان للسيوطي (١/ ١٠٢، ١٠٣).

وفي بعض الروايات: أن بعضهم قال لبعض: قراءتنا خير من قراءتكم! فقد كان أهل الشام يتبعون قراءة أبي بن كعب، وأهل العراق يتبعون قراءة ابن مسعود، وهناك من يتبع قراءة أبي موسى الأشعري.

ولقد استجاب الخليفة لإشارة حذيفة، وأرسل إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف التي عندك، ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت حفصة بها إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف . . فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق [1].

وكانت مزية الجمع العثماني هذا تتمثل في أمور:

الأول: أنه كتب بلغة قريش، لأنه إنما نزل بلسانهم.

والثاني: أنه جرد المصاحف من الشروح والتعليقات التي كان بعض الصحابة يضيفونها في مصاحفهم، من كل ما ليس قرآنا.

والثالث: كانت هذه المصاحف خالية من النقط والشكل، مما منح الفرصة لقراءة القرآن بأي من الحروف السبعة، التي أنزل عليها، وبذلك لم يسقط عثمان شيئا من قراءات القرآن، أو من أحرفه السبعة في إطار ما يحتمله المصحف المكتوب.

كان عمل عثمان بموافقة من الصحابة ورضا منهم، ولذلك قالوا له: نعم ما رأيت.

وقال علي بن أبي طالب: لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل ما فعل[2]. وفي رواية: لو لم يصنعه عثمان لصنعته[3].

وقال: يأيها الناس اتقوا الله، وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حراق المصاحف! فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ﷺ[4].

ولو كان هو أو غيره من الصحابة معارضين لصدعوا برأيهم، فما كانوا يخافون في الله لومة لائم، ولا سيما فيما يتعلق بكتاب الله.

---

(١) انظر البخاري ٦ : ٩٩ .

(٢) ذكره أبو بكر الأنباري في كتاب (الرد على من خالف عثمان) .

(٣) المصاحف لأبي بكر السجستاني بسنده إلى علي - ص ١٢ .

(٤) أبو بكر الأنباري في الرد : انظر : القرطبي، المقدمة (١ : ٤٧) .

وأرسل عثمان إلى كل مصر من الأمصار الكبرى بنسخة من هذا المصحف الإمام، قيل: إن عددها أربعة، وقيل: ستة، وقيل سبعة.

وذكر ابن فضل الله العمري في منتصف القرن الثامن الهجري (ت ٧٤٩ هـ) في كتابه (مسالك الأبصار) (١)، وهو يصف مسجد دمشق، قال: «وإلى جانبه الأيسر: المصحف العثماني بخط أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه».

ويرجح المتصلون بالتراث العربي: أن هذا المصحف هو الذي كان في دار الكتب بمدينة (لينينجراد) ثم انتقل منها إلى إنجلترا، ولا يزال بها إلى اليوم.

ويقول السفاقسي في كتابه (غيث النفع في القراءات السبع): ورأيت فيه - يعني مصحف عثمان - أثر الدم، وهو بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة (٢).

وأذكر أني قرأت أن مصحفا آخر يوجد بمدينة (طشقند) عاصمة أوزبكستان، لا يزال بها إلى اليوم.

ولقد لقي عمل عثمان هذا القبول والرضا من أمة الإسلام في عصورها كافة، فقد حفظ الله الأمة أن تختلف في القرآن. وهو في الواقع عمل الأمة، فقد كان هذا من عثمان، بعد أن جمع المهاجرين والأنصار، وجلة أهل الإسلام، وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمع القرآن بما صح وثبت من القراءات المشهورة عن النبي ﷺ، وطرح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان - كما قال القرطبي - رأيا سديدا موفقا.

وكانت الصحف التي عند حفصة هي التي جعلت إماما في هذا الجمع الأخير، كما قال الطبري، وصححه القرطبي (٣).

ومصحف عثمان هو الذي اعتمدته الأمة إلى اليوم بكل طوائفها، وكل مذاهبها، وكل مدارسها، من كلامية وفقهية وفلسفية وصوفية وأثرية.

وقد يقال: إن الشيعة الإمامية ينازعون في ذلك. والحق أنه لا ينازع في ذلك إلا الغلاة. ولكن الذي نعلمه ونستيقنه: أن هذا المصحف المعروف عند أهل السنة هو نفسه المعروف عند الشيعة، هو الذي تطبعه مطابعهم في إيران والعراق ولبنان، وهو الذي يحفظه صبيانهم في

---

(١) جـ ١ / ١٩٥ ط دار الكتب المصرية.

(٢) غيث النفع: ٢٣٠ نقلا عن تاريخ القرآن لإبراهيم الأبياري ط دار الشروق ص ٩٨.

(٣) مقدمة تفسير القرطبي (١ / ٤٥).

المدارس، وتذيعه إذاعاتهم وتلفازاتهم، ويفسره مفسروهم، ويحتجون به في كتبهم على أصول العقائد، كما يستدلون به في فقههم على الأحكام. وما يحكيه بعض (الأخباريين) منهم عن وقوع نقص في المصحف، يرده (الأصوليون) من علمائهم. وقد نقل شيخنا د. محمد عبد الله دراز عن كتاب أبي جعفر: الأم قوله: «إن اعتقادنا في جملة القرآن الذي أوحى به الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ هو كل ما تحتويه دفتا المصحف المتداول بين الناس، وعدد السور المتعارف عليه هو ١١٤ سورة، أما عندنا سورتا الضحى والشرح تكونان سورة واحدة. وكذلك سورتا الفيل وقريش، وأيضا سورتا الأنفال والتوبة. أما من ينسب إلينا الاعتقاد في أن القرآن أكثر من هذا، فهو كاذب» (١).

افتراء العشماوي على مصحف عثمان:

ومما نعجب له: أن نجد أحد فروخ العلمانية: ودعاة التغريب والتبعية في عصرنا، ينكر على عثمان ما فعله في كتابة المصحف، زاعما أنه ألغى بعمله الأحرف السبعة التي رخص الرسول في القراءة بها، والذي ادعى أنه كان يجيز فيها القراءة بالمعنى!

هذا ما ادعاه المستشار سعيد العشماوي، وهي دعوى لم يقلها أحد من الأولين ولا الآخرين (٢). وهي مردودة من وجوه:

الأول: أن عثمان لم يصنع شيئا جديدا، بل اعتمد على ما صنعه أبو بكر، بإشارة عمر وموافقة الصحابة. ولهذا كان إمامه الصحف التي كانت عند حفصة، وكل ما صنعه هو إلغاء المصاحف الفردية التي لم تخل من شروح وتعليقات.

الثاني: أن الأحرف السبعة لم تسمح للمسلمين أن يقرءوا بالمعنى كما يشاءون، إنما أجازت لهم أن يقرءوا بلهجاتهم، وما لانت به ألسنتهم، رخصة من الله لهم. ومن المعلوم الثابت: أن القرآن موحى به بلفظه ومعناه، وأنه معجز بصياغته ونظمه، كما هو معجز بمعانيه ومضامينه. ولهذا أجمع علماء الأمة على منع قراءة القرآن بالمعنى، على حين أجاز كثير منهم رواية الحديث بالمعنى.

---

(١) المدخل للقرآن الكريم للدكتور - دراز.

(٢) انظر كتاب (سقوط الغلو العلماني) للدكتور محمد عمارة، الذي فند فيه المشروع الفكري للعشماوي بالبراهين العلمية، وأسقط مقولاته كلها، وبين تهافتها وتناقضها، وخصوصا: الموقف من القرآن: ٢ - ٣٦ طبعة دار الشروق.

ومن المعلوم أن الأحرف السبعة كلها منزلة من الله تعالى. ولهذا قال النبى ﷺ لعمر بن الخطاب وهشام بن حكيم، حين اختلفا في حرف من سورة الفرقان: «هكذا أنزلت». ثم قال: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه»(١).

فلم تترك الأحرف السبعة لرغبات الأفراد ولا لآرائهم، يغير كل منهم في كتاب الله ما شاء، بل هي مما نزل به الوحي، وعرضه جبريل على الرسول، وليس لأحد أن يبدل في كتاب الله حرفا من عند نفسه. حتى الرسول نفسه، أمره الله أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

الثالث: أن الأحرف السبعة لم تلغ تماما في مصحف عثمان، إلا على قول من الأقوال، ذهب إلى أنها كانت رخصة في أول الأمر، ولم تكن واجبة على الأمة حتى تعصي بتركها أو إهمالها. وقد انتهى وقت هذه الرخصة فلم تعد في حاجة إليها. وهناك رأي يقول: إن الأحرف السبعة لم تلغ، بل بقيت في المصحف كلها، وهي أساس اختلاف القراءات السبع أو العشر أو غيرها، التي لا تزال إلى اليوم.

وهناك رأى جمهور العلماء وهو أن المصاحف العثمانية اشتملت على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة، وبين هذه المصاحف اختلاف يسير. ولعل هذا هو الراجح في هذا الموضوع(٢).

فكيف يقول العشماوي عن عمل عثمان، الذي جمع به الناس على مصحف واحد: إنه «ضيع الإنسان المسلم، فدخل في طور الجمود والتقليد وعدم الاجتهاد، لأنه جعل منه إنسان النص لا المعنى، إنسان النقل لا العقل، إنسان الحرف لا الروح» (٣)؟!

ولا أدرى ما الذي يضيع الإنسان المسلم إذا وجد له مرجعية إلهية ثابتة لا يتطرق إليها شك، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؟!

وإنا لنعجب أن يجعل العشماوي حفظ القرآن بمعانيه وألفاظه من التحريف والتبديل:

---

(١) متفق عليه عن عمر (اللؤلؤ والمرجان: ٤٦٨).

(٢) انظر: علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور: ١١٦ ـ ١١٨ طبعة المكتب الإسلامي.

(٣) انظر حصاد العقل للعشماوي: ٧٢، ٧٣.

نكبة على المسلمين، ضيعت الإنسان المسلم! وهو الأمر الذي تعتز به الأمة، وتفخر به على كل أصحاب الأديان والكتب الأخرى. إننا لا نملك هنا إلا أن ننشد قول البحتري.

إذا محاسني اللاتي أُدِلّ بها كانت ذنوبي، فقل لي كيف أعتذر؟!

وقد كفانا صديقنا الدكتور محمد عمارة مئونة الرد على هذه الدعوى الكاذبة، وبين أنها فرية ما فيها مرية، في كتابه القيم «سقوط الغلو العلماني»، فليراجع.

٣- كتـــاب معجـــز

ومن خصائص القرآن: الإعجاز، فهو المعجزة الكبرى لمحمد صلى الله عليه وسلم، التي لم يتحدَّ العرب بغيرها، برغم ما ظهر على يديه من معجزات لا تحصى[1].

شروط الإعجاز:

ولكي يتم الإعجاز ويتحقق التسليم به لا بد من توافر شروط ثلاثة في الأمر المعجز:

الأول: أن يوجد التحدي به، فهو الذي يدفع إلى المعارضة من الخصم، وبغير هذا لا يكترث أحد لدعواه، على خطورتها.

الثاني: أن يوجد المقتضي للمعارضة من الخصوم، كالدفاع عن معتقداتهم، وما ورثوه عن آبائهم، وما تواضعوا عليه من نظم حياتهم، وقواعد عباداتهم ومعاملاتهم. فمن جاء بدعوة تعارض هذا كله، وتسفِّه كل ما هم عليه، وترميهم بالضلال والغي، كان من الطبيعي أن توجد البواعث لمعارضته، وخصوصًا عند تحديهم.

الثالث: أن تنتفي الموانع من معارضته، فلو ظهر إنسان يدعي النبوة في أستراليا مثلا، وادعى أن معجزته كناب عربي أنزل عليه، وهو يتحدى بعضًا من العرب أن يأتوا بمثله، ولم يتقدم أحد لمعارضته، لم يثبت الإعجاز بذلك، لوجود الموانع التي تمنع القادرين على المعارضة من مقابلة التحدي لبعد مكانهم منه.

وقد توافرت هذه الشروط الثلاثة في إعجاز القرآن.

فقد وجد التحدي بأبلغ صورة: تحداهم أولاً أن يأتوا بقرآن مثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ

(١) ذكر منها ابن تيمية في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ما ملأ أكثر من مائة صفحة من جـ ٤: ١٣٣-٢٥٠.

إن كَـانُوا صَـادِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٤]. ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : ١٣].

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨].

وهذا كله في القرآن المكي. ومع هذا كله عجزوا عن المعارضة، وهم فرسان البيان، ورجال البلاغة والفصاحة، والقرآن يخلب ألبابهم، ويؤثر في عقولهم وقلوبهم، ولا يملكون إلا أن يقولوا: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت :٢٦].

وأكد ذلك تجديد التحدي في العهد المدني، ففي سورة البقرة دعاهم إلى التوحيد، ثم قال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [البقرة : ٢٣، ٢٤].

فهنا سجل عليهم أنهم لن يفعلوا، بهذه الصيغة المستقبلية. وفي هذا أقوى حافز لهم على المعارضة، لو كان لديهم ما يعارضون به، بل بذلوا الأنفس والأموال، وقاتلوا وقتلوا، ولم يستجيبوا للتحدي.

وبهذا غلبوا وانقطعوا، وحق عليهم قول الله تعالى:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨].

وجوه إعجاز القرآن:

وقد كتب العلماء والبلغاء قديما وحديثا حول (إعجاز القرآن) ووجوه هذا الإعجاز، وألفت في ذلك كتب شتى.

فمنهم من عني بإخباره بالغيوب، التي وقعت كما أخبر في قوله: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : ٢ - ٣].

وقوله: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٤٥].

ومنهم من عني بالنظم والعبارة والأسلوب، أو مايسمى (الإعجاز البياني). وقد كتب فيه القدماء مثل الباقلاني والرماني والخطابي والجرجاني والرازي وغيرهم، وكتب فيه المحدثون، مثل: مصطفى صادق الرافعي، وسيد قطب في كتابه الرائع (التصوير الفني في القرآن). ومثله (مشاهد القيامة في القرآن) وطبقه في تفسيره (في ظلال القرآن)، وكتاب الدكتور بدوي طبانة: (بلاغة القرآن)، والكتاب القيم الأصيل لشيخنا العلامة د. محمد عبد الله دراز (النبأ العظيم)، وكتاب د. بنت الشاطئ (الإعجاز البياني للقرآن).

ومنهم من عني بالإعجاز التشريعي أو الإصلاحي الذي جاء به القرآن، كما فعل العلامة رشيد رضا في كتابه (الوحي المحمدي) حيث جدد التحدي بالقرآن، وبين المقاصد التي جاء القرآن ليحققها في الحياة، وأنه يستحيل أن يأتي بها رجل أمي في أمة أمية، وقد فاقت كل ما جاء به الفلاسفة والمصلحون. ومثل ذلك: المقالات التي كتبها العلامة محمد أبو زهرة في مجلة (المسلمون) الشهرية المصرية، تحت عنوان (شريعة القرآن دليل على أنه من الله).

وفي عصرنا ظهر نوع جديد أطلق عليه (الإعجاز العلمي) ويقصد به: ما تضمنه القرآن من إشارات ودلالات على (حقائق علمية) كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، وتعتبر سابقة لعصرها، ولا يتصور أن تصدر من رسول أمي في بيئة أمية، وفي عالم لا يعرف عن هذه الحقائق شيئا.

وأكثر من اهتم بهذا اللون من الإعجاز: هم علماء الكون والحياة من الطبيعيين والبيولوجيين والرياضيين وأمثالهم، وبعضهم وصل إلى نتائج مقبولة، وثمرات طيبة، كما رأينا في علم الأجنة، في ضوء آيات القرآن في سورتي الحج والمؤمنون [1]، وفي تفسير: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]. وتفسير ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٧] وغيرها.

وبعضهم بالغ مبالغات لا يقبلها علماء الشريعة، ولا علماء الطبيعة.

وسنعرض لهذا اللون من الإعجاز عندما نتحدث عن (التفسير العلمي) للقرآن في بابه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [الحج: ٥]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

الآيات (المعجزات) نوعان: حسية ومعنوية:

ولقد علمنا أن الآيات والمعجزات التي أيد الله بها رسله نوعان:

نوع حسي مادي، يدرك بالحس، ويشاهد بالعين. وآيات الأنبياء السابقين التي ذكرها القرآن من هذا النوع، كناقة صالح، وعصا موسى، وفهم سليمان للغة الطير، وإبراء عيسى الأكمه والأبرص، وإحيائه الموتى بإذن الله، ونحو ذلك.

والنوع الثاني: أدبي عقلي، كالقرآن الكريم، المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ فهو معجزة معنوية لا مادية، وآية عقلية لا حسية.

والفرق بين النوعين:

١ - أن الأول يعتمد على إدهاش الأبصار، وإخضاع الأعناق، بما يعجزهم من الخوارق المادية. والثاني يعتمد على إخضاع العقول، وإنارة البصائر، بما يعجزهم من العلم والحكمة.

ولهذا كان الأول لائقا بالأمم في طفولة النوع الإنساني، والثاني لائقا بها بعد أن ارتقت الإنسانية وبلغت رشدها. وفي هذا قال القرآن: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، لكن اقتضت حكمته ألا يشاء ذلك.

٢ - أن النوع الأول ينتهي بانتهاء وقوعه، ولا يكون حجة إلا على من شاهده أو وصل إليه بالتواتر القطعي. وأما الثاني فيبقى ويستمر إعجازه إلى ما شاء الله.

ولما كانت الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات، أيد الله الرسول المبعوث بها، بآية أو بمعجزة أدبية باقية ما بقيت السموات والأرض، لتظل حجة قائمة على العالمين في كل زمان، مخاطبة للعقول، متحدية المعارضين.

ومن هنا قال - ﷺ -: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» متفق عليه (١).

وفي ذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته (نهج البردة):

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جُدُدٌ ... يَزِينهن جلالُ العِتق والقِدم

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة. انظر: اللؤلؤ والمرجان (٩٣).

٣ ـ أن الآية ـ أو المعجزة ـ الحسية المادية ، تدل على صحة النبوة والرسالة ، ولكن بأمر خارج عن الرسالة ؛ فعصا موسى ، غير ما جاء به في التوراة التي أنزلها الله عليه ، وإبراء المسيح الأكمه والأبرص ، غير ما جاء به في الإنجيل الذي أنزله الله عليه .

أما المعجزة العقلية ، فتدل على صحة الرسالة بموضوع الرسالة ذاتها ، فالقرآن آية محمد الكبرى ، ومعجزته العظمى ، وهو ـ في الوقت ذاته ـ دستور رسالته ، وموضوع هدايته . ولذا قال تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] . فالقرآن في نفسه بينة على نبوة محمد ، وهو في ذات الوقت هداية ورحمة .

وفي المفاضلة بين النوعين من الآيات أو المعجزات : المادي والعقلي ، يقول الفيلسوف ابن رشد ما ملخصه : إن دلالة القرآن (على نبوة محمد) ﷺ ليست كدلالة انقلاب العصا حية (على نبوة موسى) ولا إحياء الموتى وإبراء المرضى (على نبوة عيسى) فإن تلك ـ وإن كانت لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء ، وفيها ما يقنع الجماهير من العامة ـ إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة ، وأهداف الوحي ، ومعنى الشريعة .

أما القرآن فدلالته على صحة النبوة ، وحقيّة الدين ، مثل دلالة الإبراء على الطب . ومثال ذلك : لو أن شخصين ادعيا الطب ، فقال أحدهما : الدليل على أني طبيب : أني أطير في الجو . . وقال الآخر : دليلي أني أشفي الأمراض ، وأذهب الأسقام ، لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى الأمراض قاطعا ، وعند الآخر مقنعا فقط ! أ هـ .

ومن هنا نفهم الحكمة الإلهية في عدم استجابة الله تعالى لمقترحات المشركين الذين طلبوا من الرسول محمد ﷺ خوارق حسية وآيات مادية ، مثل الرسل السابقين ، فأبى الله تعالى إلا هذا القرآن ، وأنكر عليهم أن يسألوا آية غيره ، وهو آية الله الكبرى لو كانوا يعقلون . يقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٠ ، ٥١] .

بلى ، وإن القرآن لكاف كل الكفاية لقوم يعقلون .

٤ـ كتـــاب مبـــين ميسَّـــر

ومن خصائص القرآن: أنه (كتاب مبين) ميسر للفهم والذكر، ليس ككتب الفلاسفة، التي تجنح إلى الإلغاز والتعقيد، حتى قال بعض المتفلسفين: إن الفلسفة إذا وضحت وأصبحت مفهومة، لم تعد جديرة بأن تسمى فلسفة!

وليس كالأدب الرمزي الذي يغلو في إخفاء الدلالة، والإفهام بالرمز، والإشارة البعيدة، وتغليف المعنى المراد بأغلفة شتى، تجعله عسير الفهم، عصي الإدراك على العقل العادي.

إن القرآن كتاب هداية، جاء يخاطب الكيان الإنساني كله بكلمات الله: يخاطب في الإنسان عقله وقلبه، حسه ووجدانه، فيضيء العقل، ويهز القلب، ويمتع الوجدان، ويحرك الإرادة، ويدفع إلى العمل.

وليس معنى هذا أنه ينزل إلى مستوى العوام والأغبياء من الناس ليفهمهم. كلا، إنه يخاطبهم بأرقى الأساليب، وأعمق المعاني، وأروع البيان، مما لا يطمع بشر أن يسمو إلى أفقه. ولكنه ـ مع هذا السمو البلاغي والبياني ـ مشرق كطلعة الصباح، سلس كالماء العذب الزلال، ميسر لكل من يريد أن يعقل ويدَّكر. كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

إن الله أنزل هذا الكتاب لتعقل معانيه، وتفقه أحكامه، وتدرك أسراره، وتتدبر آياته.

ولهذا أنزله الله مبينا منيرا، لا غامضًا ولا مغلقا، ولا ملغزا ولا معقدا. يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ٣]. ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

ولكن الناس ليسوا سواء في فهم القرآن والاستنباط منه، فكل يأخذ من القرآن على قدر ما يتسع له واديه: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧]. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وليس في القرآن أسرار خاصة محجوبة عن أهل العلم، ولا بواطن خفية لا يصل إليها إلا أناس يزعمون أنهم متميزون عن سائر البشر، تفتح لهم وحدهم المغاليق، ويفسح لهم ـ دون غيرهم ـ الطريق.

فما زعمه (الباطنية) من معان للقرآن مخالفة لما تدل عليه لغة العرب، وما فهمه منه الصحابة وتابعوهم بإحسان، وما استنبطه منه علماء الأمة في خير قرونها: هو ضلال مبين، وزيغ عن الصراط المستقيم، واتباع لغير سبيل المؤمنين.

ومثل ذلك: ما ادعاه المنحرفون من الصوفية، الذين شابهوا هؤلاء الباطنية في زعم أن لكل حرف في القرآن ظهرا وبطنا، وذكروا في ذلك حديثا رفعوه إلى النبي ﷺ.

وقد بين الأئمة المحققون أن هذا الحديث لم يصح عن النبي ﷺ، وإن رواه ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعا: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها، ظهر وبطن»[1].

ولو سلمنا بصحة الحديث، فما معنى الظهر والبطن، أو الظاهر والباطن؟

فهناك من قال: إن ظاهرها لفظها، وباطنها تأويلها..

ومن قال: إن القصص ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وباطنها عظة للآخرين.

ومن قال: ما من آية إلا عمل بها قوم، ولها قوم سيعملون بها [2].

وقال الطبري: ظهره: الظاهر في التلاوة، وبطنه: ما بطن من تأويله. وهو القول الأول.

---

(١) هو الحديث (٧٥) من (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان)، وقد مال محققه إلى تضعيفه، كما جزم بذلك في تحقيق (موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان) رقم (١٧٨١) طبعة مؤسسة الرسالة بيروت.

(٢) انظر: البرهان للزركشي ج٢ ص ١٥٩.

وعلق على ذلك محققه العلامة محمود محمد شاكر حفظه الله، فقال: الظاهر: هو ما تعرفه العرب من كلامها، وما لا يعذر أحد بجهالته من حلال وحرام. والباطن: هو التفسير الذي يعلمه العلماء بالاستنباط والفقه. ولم يرد الطبري ما تفعله الطائفة الصوفية وأشباههم في التلعب بكتاب الله وسنة رسوله، والعبث بدلالات ألفاظ القرآن، وادعائهم أن لألفاظه (ظاهرا) هو الذي يعلمه علماء المسلمين، و(باطنا) يعلمه أهل الحقيقة فيما يزعمون [(١)].

وسنعود إلى هذا الأمر بتفصيل أوفى عند حديثنا عن فهم القرآن وتفسيره إن شاء الله.

ومما ينكر هنا: ما ذهب إليه بعض المتكلمين من اعتبار نصوص القرآن والسنة ظواهر لفظية أو سمعية، لا تفيد اليقين، لأنها مبنية على مقدمات ظنية، والمبني على المقدمات الظنية ظني، وبناؤها على المقدمات الظنية، لأنها مبنية على نقل اللغة، ونقل النحو والتصريف، وعدم الاشتراك، والمجاز والنقل، والإضمار، والتخصيص، والتقديم والتأخير، والنسخ، والمعارض العقلي، وهذه كلها ظنيات، فما بني عليها يكون ظنيا! كما قال الفخر الرازي وغيره [(٢)].

وقد خصص شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه الكبير (درء تعارض العقل والنقل) لنقض هذه الدعوى، بالأدلة العقلية والنقلية [(٣)].

وقد اعترف الفخر الرازي في كتابه (المحصول في علم الأصول) بأن الدلائل اللفظية يمكن أن تقترن بها قرائن تفيد اليقين. سواء كانت تلك القرائن مشاهدة أم كانت منقولة إلينا بالتواتر [(٤)].

كما ذكر في كتابه (الأربعين) قوله: «وأعلن أن هذا الكلام على إطلاقه ـ القول بظنية الظواهر السمعية ـ ليس بصحيح، لأنه ربما اقترن بالدلائل النقلية أمور عرف وجودها بالأخبار المتواترة. وعلى هذا التقدير تكون الدلائل السمعية المقرونة بتلك القرائن الثابتة بالأخبار المتواترة مفيدة لليقين» اهـ [(٥)].

---

(١) انظر: مقدمة تفسير الطبري ج١ ص ٧٢ حاشية رقم: ٢.

(٢) ذكر هذا الرازي في عدد من كتبه الكلامية: مثل (أساس التقديس) و(المطالب العالية) و(محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) و(نهاية العقول).. كما ذكر هذا في (المحصول في علم أصول الفقه). انظر: مقدمة (درء تعارض العقل والنقل) لمحققه د. محمد رشاد سالم رحمه الله. ج١ ص ١٠ ـ ١٤.

(٣) نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عشرة مجلدات بتحقيق د. محمد رشاد سالم.

(٤) المحصول ج١ ص ٤٠٨ طبعة مؤسسة الرسالة. بتحقيق د. طه جابر العلواني.

(٥) حاشية (المحصول) السابق.

وإني لأعجب غاية العجب من هؤلاء المتكلمين ـ ومنهم الإمام الرازي ـ الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن عقائد الإسلام، أمام الفلاسفة والمبتدعين ـ أو هكذا أعلنوا عن أنفسهم ـ كيف يقولون مثل هذا القول عن آيات القرآن الذي وصفه الله بأنه بيان ونور، وبينة وهدى، وشفاء ورحمة: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

فإذا كانت الاحتمالات العشرة التي ذكروها قائمة في كل آية من آياته، فأين بيانه وبينته وهداه وشفاؤه؟!

هل كل القرآن حمّال أوجه؟:

كما تمسك بعض الناس بالكلمة التي رويت عن الإمام علي كرم الله وجهه، حين وجه ابن عباس رضي الله عنهما لمحاجة الخوارج، فقال له: لا تجادلهم بالقرآن، فإنه حمال أوجه، وخذهم بالسنن [(١)]. ولا أدري مدى صحة نسبة هذه الكلمة إلى علي، فقد بحثت عنها في مظان كثيرة فلم أجدها بهذه الصيغة، رغم اشتهارها، ولكن الشهرة ليست دليل الصحة.

اتخذ بعض الناس من كلمة أمير المؤمنين علي تكأة يعتمدون عليها في دعوى عريضة: أن القرآن كله يحتمل تفسيرات مختلفة، وأفهاما متباينة، بحيث يمكن أن يحتج به على الشيء وضده!!

ولو صح ما ادعوه على القرآن الكريم، لم يكن هناك معنىً لإجماع الأمة بكل طوائفها على أن القرآن هو المصدر الأول للإسلام عقيدة وشريعة.

ولم يكن هناك معنى لوصف الله تعالى القرآن بأنه: ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤)﴾ [النساء: ١٧٤]. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ

(١) ذكرها الشوكاني في مقدمة فتح القدير ١ / ٥٨ ونسبها إلى ابن سعد، ولم أجدها في ابن سعد، رغم طول البحث عنها.

شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]. إلى غير ذلك من الآيات التي استفاضت في هذا المعنى.

فكيف يكون الكتاب المبين، التبيان، الهدى، البينة، الفرقان، الرحمة، غامضا أو قابلا لأي تفسير يشرّق صاحبه أو يغرّب؟

وقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقد أجمع المسلمون على أن الرد إلى الله يعني: الرد إلى كتابه، وأن الرد إلى الرسول بعد وفاته يعني الرد إلى سنته.

فإذا كان الكتاب حمال أوجه ـ كما يقال ـ فكيف أمر الله تعالى برد المتنازعين إليه؟

وكيف يعقل أن يرد التنازع إلى حكَم لا يرفع التنازع، بل هو نفسه متنازع فيه؟!

قد يكون هذا صحيحا بالنظر إلى الآيات (المتشابهات) التي تحتمل أكثر من فهم، وأحسب أن هذه هي التي قصدها علي رضي الله بكلمته إلى ابن عباس إن صحت عنه.

فالمنحرفون ﴿الذين في قلوبهم زيغ﴾ دائما يعتمدون في استدلالاتهم على المتشابهات، ويعولون عليها. أما الآيات (المحكمات) ـ اللاتي هن أم الكتاب وأصله ومعظمه ـ فهي العمدة في الفهم والاستنباط. وإليها ترد المتشابهات، وإليها يرجع المتنازعون في التفسير والاجتهاد. وفي ذلك يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الآية: ٧].

وروت عائشة عن النبي ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم»(١).

---

(١) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان (١٧٠٥).

حكمة إنزال المتشابهات:

وقد يسأل سائل: لماذا لم ينزل الله كتابه كله (آيات محكمات) ويرح الناس من (المتشابهات) وما يترتب عليها من اختلافات وانحرافات؟

وأقول في الإجابة عن هذا السؤال المهم:

إن من عرف ـ أولا ـ طبيعة التكليف الإلهي للناس، وهو إلزام ما فيه كلفة ومشقة، ابتلاء من الله تعالى لعباده.

وعرف ـ ثانيا ـ طبيعة اللغة، وما تحتويه من حقيقة ومجاز، وصريح وكناية، وإفهام بالعبارة، وإفهام بالإشارة، وتنوع دلالات الألفاظ والجمل، ما بين عام وخاص، ومطلق ومقيد.. إلخ..

وعرف ـ ثالثا ـ طبيعة البشر، واختلافهم في درجات الفهم، وفي الميل إلى الظواهر، أو الغوص إلى المقاصد، وفي الأخذ بالمعنى القريب، أو استنباط المعنى البعيد. والقرآن قد نزل يخاطبهم جميعا.

وعرف ـ رابعا ـ طبيعة الإسلام ـ دين الله العام الخالد الخاتم ـ الذي يريد أن يعمل الناس عقولهم في طلب الحقيقة، ويجتهدوا في التفقه في الدين، فيؤجروا على اجتهادهم ـ أصابوا أم أخطئوا ـ كما يريد أن يسع المختلفين، ويضمهم في رحابه، ما وجد إلى ذلك سبيلا، ما دام اختلافهم ثمرة تحرٍّ واجتهاد.

من عرف ذلك كله: عرف حكمة الله تعالى في إنزال المتشابهات في كتابه، فتعالى الله أن يقول شيئا أو يفعل شيئا عبثا أو اعتباطا، وهو العليم الحكيم.

٥ـ كتـــاب الديـــن كلـــه

والقرآن كذلك كتاب الدين كله، فهو عمدة الملة، وروح الوجود الإسلامي. منه تستمد العقيدة، وتؤخذ العبادة، وتلتمس الأخلاق، وتُتوخى أصول التشريع والأحكام.

العقيـدة في القـرآن:

من أراد أن يعرف العقيدة الإسلامية نقية غير مشوبة، بينة غير غامضة، حية غير هامدة، مخاطبة للعقل وللقلب معا: فليعرفها من القرآن. ومن الخطإ الذي وقع فيه المتكلمون: اعتبارهم نصوص القرآن مجرد أخبار من الله تعالى، لا تحمل دلائل وبراهين عقلية، تقنع الطالبين للحق، وتفحم المجادلين بالباطل. مع أن القرآن حافل بهذه الدلائل.

وليس هذا بغريب من القرآن، فقد نزل يخاطب أصنافا شتى من البشر، منهم (الدهريون)، الذين ينكرون وجود الخالق، ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ومنهم الذين يجحدون الآخرة والحساب والجزاء: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ومنهم الذين يثبتون وجود الله وينكرون رسالات الرسل إلى خلقه: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. ومن قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ومنهم الذين يجحدون رسالة محمد خاصة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ [الرعد: ٤٣]. ﴿وَقَالُوا يَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وكان لابد للقرآن أن يخوض معركة مع جميع هؤلاء، ليفضح أباطيلهم بحقه، ويرد على شبهاتهم بحججه، وأن يقيم البراهين العقلية على كل قضية من قضاياه.

القرآن هو الذي أقام البراهين على وجود الله تعالى، من خلق الكون، ومن خلق الإنسان، وناقش الجاحدين بالمنطق المقنع والمفحم: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

وأقام القرآن البراهين على عقيدة التوحيد، وهو جوهر العقيدة الإسلامية: (توحيد الربوبية) و(توحيد الألوهية).

فأما توحيد الربوبية، فقد أقرَّ به المشركون أنفسهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ويقيم القرآن الأدلة على التوحيد بصور شتى:

منها قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقوله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢].

والقرآن يتخذ من توحيد الربوبية دليلا على التوحيد الآخر، وهو (توحيد الألوهية) الذي

بعث به رسله، وأنزل به كتبه. وهو أن الله وحده هو المستحق للعبادة لا شريك له. فما داموا يقرون بأن الله هو الرب الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر للأمر كله، فالواجب أن تتجه العبادة إليه وحده، ولا يشرك به أحد ولا شيء. فبعد تقريرهم بربوبية الله تعالى وخالقيته للكون والإنسان، يقول لهم: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [يونس: ٣]. ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ويعرض القرآن حقيقة التوحيد بعناصرها الثلاثة: ألا تبغي غير الله ربا، ولا تتخذ غير الله وليا، ولا تبتغي غير الله حكما. كما بينتها سورة التوحيد (سورة الأنعام).

كما يعرض لأسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته العلا، بمناسباتها المختلفة، فيربط القلب بالله تعالى ربطا محكما مؤثرا، بحيث يحبه ويأنس إليه، ويطمئن بذكره، ويتوكل عليه، ويرجوه ويخشاه، ويعبده كأنه يراه سبحانه، فإن لم يكن يراه، فإن الله يراه.

ويعرض القرآن لقضية النبوة والرسالة والرسل، الذين هم سفراء الله إلى خلقه، وإمكان الوحي الذي استبعده بعض الناس، وما هو ببعيد ولا عجيب: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس: ٢].

كما رد القرآن على الذين أنكروا أن يكون الرسول بشرا، مبينا أن الحكمة من ذلك أن يكون بشرا مثلهم، يفهمون عنه، ويأنسون إليه، ويأتسون به، كما قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٥].

كما بين القرآن الحكمة من إرسال الرسل، بين وظيفتهم في مثل قوله تعالى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقوله ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وكذلك بين القرآن - من خلال قصص المرسلين - أن الرسل جميعا كانوا دعاة إلى التوحيد، ومقاومة الشرك الذي جنى على عقول البشر وسلوكهم، وأفسد حياتهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

كما بين القرآن أن الأنبياء وقفوا ضد الفساد في مجتمعاتهم، سواء كان فسادا اقتصاديا أم سياسيا أم أخلاقيا، كما رأينا في قصص هود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام: هود وقف في وجه بطش الجبارين، الذين يبنون بكل ريع آية يعبثون، وصالح وقف في وجه المسرفين ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾ [الشعراء: ١٥٢]، ولوط وقف في مواجهة الشاذين، الذين استحلوا فاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين. وشعيب واجه التجار الجشعين، المطففين في الكيل والميزان، والذين يبخسون الناس أشياءهم ويعثون في الأرض مفسدين. وموسى واجه التأله الفرعوني، والتسلط الهاماني، والبغي القاروني، ودعا إلى تحرير قومه من نير هذا الثالوث.

وكذلك أقام القرآن البراهين المتنوعة على صدق نبوة محمد ﷺ، من مثل شهادة الله تعالى بصدقه، وذلك بنصره وتأييده بالآيات البينات، وشهادة علماء أهل الكتاب له مثل عبدالله بن سلام، وإنزال القرآن المعجز عليه، وغير ذلك من الدلائل.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣]. ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١]. ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وكذلك عرض القرآن قضية الجزاء والدار الآخرة عرضا رد عنها - بالحق - ما لحق بها من أباطيل ألصقتها بها الأديان الوضعية والمحرفة، فالموت ليس نهاية المطاف، بل هو بداية لحياة برزخية فيها نعيم وعذاب يبدأ من بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وفي موعد لا يعلمه إلا الله تقوم الساعة، ويموت الخلق جميعا، ثم يبعث الله الناس من الأجداث كأنهم جراد منتشر، خاشعة أبصارهم، وجلة قلوبهم: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

هناك تنصب الموازين، وتنشر الدواوين، ويقرأ كل امرئ كتابه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. هناك لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. هناك توفّى كل نفس ما كسبت، وتجزى بما عملت، حسبما يحكم ميزان الحسنات والسيئات للمرء أو عليه: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

الشريعة في القرآن:

وإذا كان القرآن هو المصدر الأول للعقيدة، فهو كذلك المصدر الأول للشريعة، فالإسلام إيمان يصدقه العمل. والعقيدة هي المعبرة عن الإيمان، والشريعة هي المعبرة عن العمل، سواء كان هذا العمل مما يتصل بعلاقة الإنسان بربه كالعبادات الشعائرية الكبرى مثل: الصلاة التي عني بها القرآن، وكرر الحديث عنها في الأمن والخوف، والسفر والحضر، وأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، كما أمر بالسعي للصلاة من يوم الجمعة، واهتم ببعض شروطها من الطهارة: الوضوء والغسل، وأخذ الزينة، كذلك: التوجه نحو القبلة (البيت الحرام). ومثل الزكاة التي كررها القرآن مع الصلاة في ثمانية وعشرين موضعا، ومثل الصيام الذي بين القرآن أهم أحكامه في سورة البقرة، والحج الذي بين جل أحكامه في سورتى البقرة والحج.

أم كان مما يتصل بعلاقة المرء بأسرته: زوجا وأبا وأما وأولادا وأرحاما. وقد بين القرآن ذلك في كثير من سوره المكية والمدنية.

أم كان مما يتصل بالعلاقات المدنية والمالية والسياسية بين الأمة بعضها وبعض. أم بالعلاقات الدولية بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم في السلم أو في الحرب، في القوة والضعف.

إلى غير ذلك مما جاءت به شريعة القرآن، وتضمنه ما عرف لدى دارسي العلوم الإسلامية بـ (آيات الأحكام).

وبعض الناس يقولون: إن كلمة (شريعة) لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة، وفي القرآن

المكي، أي قبل أن تنزل الأحكام والتشريعات التي تنظم المجتمع، وتضبط الحياة في القرآن المدني. يقصدون بهذه المقولة: أن القرآن لم يهتم بأمر الشريعة!

يريدون بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

وعدم ذكر القرآن لكلمة (شريعة) إلا مرة واحدة، لا يعني أن القرآن لا يهتم بالشريعة، وإلا قلنا: إن القرآن لا يهتم بالعقيدة، لأنه لم يذكر كلمة العقيدة في أي سورة من سوره، ولا آية من آياته، وقلنا: إنه لا يُعنَى بالأخلاق، لأنها لم تذكر إلا مرة واحدة في الثناء على الرسول الكريم، وفي معرض الدفاع عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

المهم هو مضمون هذه المصطلحات لا ألفاظها، ومضمونها مبثوث في أوامر القرآن ونواهيه وتوجيهاته في سوره المكية والمدنية.

صحيح أن عناية القرآن بأمر العقيدة أعظم وأوكد، وكذلك بأمر الأخلاق وأصول الفضائل، ولكنه كذلك لم يغفل أمر الشريعة، أمر المنهاج العملي لحياة الفرد المسلم، وحياة المجتمع المسلم، الذي ناداه الله في أكثر من تسعين آية بهذا النداء الرباني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهو نداء جديد قرع سمع الجزيرة العربية لأول مرة، بعد أن كان الناس يقولون: ياعرب، يا عجم، يا بني فلان: فإذا هم ينادَوْن بوصف الإيمان. وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأصغ لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه.

وقد قال بعضهم: إن الدنيا أهون من أن يأتي الدين لتنظيمها. وهذا كلام مدخول ومردود، فالدنيا هينة بالنسبة للآخرة، ولكنها قيمة جدا وثمينة جدا، لأنها مزرعة الآخرة ودار الإعداد لها، فالإنسان يعد ويعمل هنا للخلود هناك، وعمر الإنسان المحدود في الدنيا في غاية النفاسة، لأنه رأس مال الإنسان الذي يستغله لعمل الصالحات، والقيام بخلافة الله في الأرض.

ولا عجب أن أنزل الله أطول آية في كتابه الخالد، لتنظيم شأن من شئون الدنيا، وهو كتابة الدَّين، وهي الآية المعروفة بآية المداينة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ...﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقد اختلف العلماء في عدد الآيات التي عنيت بالشريعة ـ أو ما عرف باسم آيات الأحكام ـ فقيل: إنها نحو خمسمائة، وقيل أكثر.

ويلاحظ أن القرآن يسكت عن الأشياء التي تتغير كثيرا بتغير الزمان والمكان والحال مثل شكل الحكم، والإجراءات القضائية ونحوها، وينص في بعض الأحيان على الأشياء المهمة بطريقة كلية، ولا يدخل في التفاصيل، مثل: الشورى في الحياة الاجتماعية والسياسية، والعدل في الحكم، وإعداد المستطاع من القوة للأعداء، دون دخول في الكيفيات والتفصيلات.

على حين نجد القرآن يفصل الأحكام في بعض القضايا التي لا تتغير كثيرا بتغير المكان والزمان والعرف والحال، مثل قضايا الأسرة، من الزواج والطلاق والنفقة والميراث، ومثل بعض قضايا العقوبات على بعض الجرائم ذات الطبيعة الخاصة، وهي المعروفة باسم (الحدود).

وكل هذه الأحكام ملزمة للمسلمين في كل زمان ومكان، لأنها تشريع الله لهم، وهو أعلم بهم، وأدرى بما يصلحهم وما يرقى بهم في دنياهم، ويسعدهم في أخراهم: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

وكل من آمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا: يلزمه أن يذعن ـ بمقتضى إيمانه ـ إلى ما حكم به الله ورسوله، وإلا كان عليه أن يراجع إيمانه من جديد. يقول عز وجل: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

صحيح أن هذه الأحكام الشرعية العملية التي جاء بها القرآن ليست كثيرة جدا، ولكنها في غاية الأهمية، لأنها هي التي تميز أمة عن أمة، وحضارة عن حضارة.

ففرضية الصلاة والزكاة والصيام والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، وأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بما أنزل الله، وتحريم الربا والزنى، والشذوذ الجنسي، وتحريم التبرج، وتحريم السحر والكهانة، وقتل النفس بغير حق، والانتحار، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وأكل المال بالباطل،

وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، وعقوبة القاتل والسارق والقاذف ومن يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادا . . . كل ذلك مما يميز المجتمع المسلم، ويجعل له شخصيته المتميزة بمقوماتها وخصائصها.

ولهذا كان تحكيم هذه الشريعة وتطبيقها فريضة من الله، لا يجوز التفريط فيها من راع ولا رعية، سواء منها ما يتعلق بأحوال الأسرة، أم بشئون المجتمع، أم بأمور الدولة. فمن لم يحكم بحكم الله وقع في حكم الجاهلية لا محالة: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ومن مزايا هذه الشريعة القرآنية: أنها شريعة سهلة ميسرة. وقد وضعت فيها عن الأمة الآصار والأغلال التي كانت على من قبلها. ولهذا وصف الرسول في كتب أهل الكتاب بأنه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى في ختام آية الطهارة: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦]. وفي ختام آية الصوم: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وفي أعقاب الحديث عن المحرمات في الزواج: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]. وبعد الأمر بالقصاص وتشريع العفو والترغيب فيه: ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ومن يسرها: أنها تراعي أحكام الضرورات، وتقدر لها قدرها، ولهذا قال تعالى بعد الأطعمة المحرمة: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣].

كما راعت ظروف المكره الذي فقد الاختيار: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وشرعت الرخص والتخفيفات في الصيام: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ

مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وفي الصلاة: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ [النساء: ١٠١]. وفي الجهاد: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧].

وهي شريعة منطقية، لأن أحكامها معللة بعلل مفهومة، وليست تحكمية، وهي آيات ﴿ لقوم يعقلون ﴾ و ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ و ﴿ لقوم يعلمون ﴾ و ﴿ لأولي الألباب ﴾.

وهي قائمة على تحقيق (مصالح العباد في المعاش والمعاد) فإن شارعها غني عن العالمين، وإنما يشرع ما يشرع ليحقق الخير والمنفعة لعباده، علموا ذلك أو جهلوه، أحبوا ذلك أو كرهوه، فأوامر الله ونواهيه لا تخضع لعواطفهم، كما قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقد أثبتت الأيام والوقائع أن كل أحكام القرآن تحقق للناس الخير والمصلحة، وتدرأ عنهم الشر والمفسدة، كما ثبت في تشريع إباحة الطلاق، الذي شرعه الله عند تعذر الوفاق. وقد حرمته المسيحية، واضطر المسيحيون في الغرب، إلى الخروج عن دينهم وإباحته، ومثل تعدد الزوجات، الذي يحرمه الغرب قانونا، ويمارسونه عملا وتطبيقا، ولكنه تعدد الخليلات لا تعدد الحليلات، تعدد بلا التزام ولا مسئولية ولا أخلاق.

ومثل ذلك تحريم الربا الذي أثبت الاقتصاديون الغربيون أنفسهم أنه وراء الأزمات والمساوئ الاقتصادية في العالم.

وكذلك تحريم الزنا والشذوذ الجنسي، وكيف أدت الإباحية في الغرب إلى معضلات الأمراض مثل (الإيدز) وغيره، مما يهدد الحضارة المادية كلها بالانهيار.

ومثله: تحريم الخمر والميسر، فقد اعتبرهما القرآن رجسا من عمل الشيطان. وقد تجلت هذه الرجسية الشيطانية أوضح ما تكون في الحياة الغربية المعاصرة. وأدت إلى مفاسد ومساوئ وأضرار إنسانية وأخلاقية واجتماعية واقتصادية، لا يعلم مداها إلا الله سبحانه.

الأخلاق في القرآن:

وكما اشتمل القرآن على العقيدة، وعلى التشريع، اشتمل كذلك على الأخلاق. سواء كانت (أخلاقا ربانية) وهي التي تجسد الصلة بالله، وتعمق التقوى له: مثل الإخلاص له، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرجاء في رحمته، والخشية من عذابه، والحياء منه، والشكر على نعمائه، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه، والمحبة له، والأنس به، وإيثار الآخرة على الدنيا - وهو مايسمى الزهد - وهذه الأخلاق الربانية هي التي عُنى بها علم التصوف والسلوك.

أم كانت (أخلاقا إنسانية) لا يتم حسن المعايشة بين الناس إلا بها مثل: الصدق، والأمانة، والسخاء، والشجاعة، والتواضع، والوفاء، والحياء، والعفة، والحلم، والصبر، والعدل والإحسان، والرحمة، والغيرة على الحرمات، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الجار، والصاحب بالجنب، والتسامح مع المخالف، والإيثار، والتعاون على البر والتقوى، وتوقير الكبير، ورحمة الصغير، ورعاية اليتيم، والحض على طعام المسكين، وإعطاء كل ذي حق حقه.

وقد اعتبر القرآن هذه الأخلاق بنوعيها: الرباني والإنساني، من تمام الإيمان والتقوى، ولذا نراه يجسد الإيمان في أخلاق وسلوكيات رفيعة، سواء مع الله أو مع الناس:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٨].

وهنا نجد القرآن يمزج بين الأخلاق الربانية والأخلاق الإنسانية، ويضعها في نسق واحد، كما نجد ذلك واضحا أيضا في أوصاف المتقين في أول سورة البقرة، وفي أوصاف أولي الألباب في سورة الرعد، وفي أوصاف عباد الرحمن في أواخر سورة الفرقان، وفي أوصاف

المحسنين في سورة الذاريات، وفي أوصاف الأبرار في سورة الإنسان، وفي غيرها من سور القرآن.

وقال تعالى في بيان حقيقة (البرّ) بعد أن ذكر برّ العقيدة، وبرّ العبادة، وبرّ العمل، وتحدث عن بر الخُلق: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى في وصف من فقد الإيمان: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

ووصف الله عباده الذين يحبهم، ويؤيدهم بمعيَّته ونصره: بمكارم الأخلاق، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وأما من كان على عكس هذه الصفات، فهو محروم من محبة الله تعالى وهدايته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢]. ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

ولأهمية الأخلاق في نظر القرآن نجده يعتبرها ثمرة أساسية للعبادات المفروضة، مثل إقامة الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ومثل إيتاء الزكاة، كما في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. ومثل صيام رمضان، كما في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وفي قصص القرآن الكريم نجد عناية الرسل جميعا بغرس الفضائل، ومحاربة الرذائل في مجتمعاتهم، إلى جوار الدعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى.

فـ «هود» ينكر على قومه بطش الجبارين، وعيش المترفين.

وصالح ينهى قومه أن يطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

ولوط ينكر على قومه الشذوذ الجنسي، وابتكارهم الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين.

وشعيب يدعو إلى العدل الاقتصادي، وإصلاح المعاملات، وأن يوفوا الكيل، ويزنوا بالقسطاس المستقيم، وألا يبخسوا الناس أشياءهم ولا يعثوا في الأرض مفسدين.

وداود يؤمر أن يحكم بين الناس بالحق، ولا يتبع الهوى، فيضله عن سبيل الله.

ووصف الله أنبياءه بأوصاف وفضائل أخلاقية تجعلهم أسوة للناس، فقال عن نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وعن إبراهيم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧].

وعن إسماعيل: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤].

وعن يوسف: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وعن موسى - على لسان ابنة الشيخ الكبير -: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وعن داود: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

وعن سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وعن يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وعن المسيح: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

وعن إسماعيل وإدريس وذي الكفل قال: ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

وعن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وقال على لسان كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨].

ثم قال عن خاتم رسله محمد: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وقال له بعد ذكر ثمانية عشر رسولا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فلسفة الأخلاق:

ومن أهم ما عني به القرآن: ما يتعلق بـ(فلسفة الأخلاق) أي ببيان أساس الإلزام الخلقي وأهداف الأخلاق في الإسلام وخصائصها، وأنواع الجزاء على السلوك الأخلاقي.

وعلى أساس هذه الفلسفة ألف شيخنا العلامة د. محمد عبد الله دراز كتابه القيم (دستور الأخلاق في القرآن) الذي كتبه باللغة الفرنسية للحصول على الدكتوراة من (السوربون) في فرنسا. ثم ترجم إلى العربية.

وقد بين القرآن أن أساس الإلزام هو أمر الله تعالى ونهيه، وما شرعه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

ولكن القرآن لم يلغ دور العقل [١]، ولا الحاسة الخلقية، بل هي ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. كما أشار إلى أن للمنفعة اعتبارا، كما في قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

كما عني القرآن بباعث العمل أكثر من عنايته بصورة العمل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

واعتبر القلب هو محور النجاة والفلاح في الآخرة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وأما أهل الجنة فهم: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

---

(١) انظر: كتابنا: (العقل والعلم في القرآن الكريم) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

وجعل القرآن لكل عمل جزاء في الدنيا والآخرة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وفي الدنيا يقول تعالى في جزاء العمل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وفي جزاء عمل السوء: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وأخلاق القرآن تتميز بعمومها، فليس فيها تمييز بين شعب وشعب، أو بين فئة وأخرى. كما حكى القرآن عن اليهود أنهم قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]. وكما جاء في توراتهم تحريم التعامل بالربا بين الإسرائيليين بعضهم وبعض، وإباحته مع غيرهم. فالمعايير عندهم مزدوجة.

كما تتميز الأخلاق القرآنية بتوازنها [1]، فهي تعطي العقل حقه، والقلب حقه، والجسم حقه، كما تعطي الفرد حقه، والمجتمع حقه - ولا تطغي أحدهما على الآخر، شعارها: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨، ٩].

(١) انظر: خصائص الأخلاق الإسلامية في فصل «الأخلاق» من كتابنا «مدخل لمعرفة الإسلام» نشر مكتبة وهبة.

٦ـ كتـــاب الزمـــن كلـــه

ومن خصائص القرآن: أنه كتاب الزمن كله، وكتاب الإنسانية كلها، وكتاب الدين كله، وكتاب الحقيقة كلها.

ومعنى أن القرآن كتاب الزمن كله: أنه كتاب الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل أو أجيال، ثم ينتهي أمده. أعني أن أحكام القرآن وأوامره ونواهيه ليست مؤقتة بوقت ما، ثم يتوقف العمل بها.

كان هذا صحيحا بالنسبة للأديان الموقوتة بزمن معين، وكانت كتبها موقوتة أيضا بهذا الزمن، ثم ينسخها دين آخر، وكتاب آخر، لرسول آخر.

ولهذا لم يتكفل منزلها سبحانه وتعالى بحفظها، بل استحفظها أهلها.

أما والإسلام هو الرسالة الآخرة، ومحمد هو الرسول الخاتم، والقرآن هو آخر الكتب السماوية، والمتضمن كلمات الله الهادية والأخيرة للبشر، فهو غير قابل للتأقيت، بل هو الكتاب الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعلى المسلم أن يقرأ القرآن بهذه الروح، وهذه الفكرة: أنه كتاب الخلود، فلا ينبغي أن نفرض عليه ثقافة عصر معين، أو نحمله قسرا على أفكار جيل خاص، فإن الثقافات تتطور، والأفكار تتغير، والأجيال والعصور تذهب، ويبقى كتاب الله كما أنزله الله.

فما تضمن القرآن من تعاليم فهي تعاليم دائمة باقية، ما دامت الحياة، وبقي المكلفون.

ولا يجوز بحال أن يتطاول على القرآن متطاول، فيزعم أن بعض أحكامه كان خاصا بعصر نزوله ـ أي بعصر النبوة ـ أو عصر الصحابة، أو بالعصور الإسلامية الأولى. أما العصور الحديثة، ومنها عصرنا، وما بعد عصرنا، فلا تلزمها هذه الأحكام. كما زعم

(القاديانيون) أن الجهاد إنما كان خاصا بعصر الرسول، وأنه نسخ اليوم. مع أن الجهاد فريضة دائمة للدفاع عن رسالة الإسلام، وعن دار الإسلام.

ومن هنا يجب أن نقف بكل قوة ضد تلك المحاولات المجترئة على الله، التي تريد أن تسلب القرآن خصيصة الخلود، وأن تضفي على أحكامه طابع التأقيت، وهو ما يسمونه (تاريخية النصوص) حتى وجدنا من يرد قطعيات القرآن بأوهام من عنده.

كالذي زعم أن قول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]. وما في معناه من توزيع أنصبة المواريث. إنما كان ذلك يوم لم يكن للمرأة استقلال اقتصادي، وكانت تابعة للرجل، وكان الرجل قواما عليها، أما وقد تعلمت المرأة وعملت، وخاضت معركة الحياة مزاحمة للرجال بالمناكب، فلم يعد هذا الحكم ذا موضوع!

ومعنى هذا أنهم نسخوا هذا الحكم القرآني، ونسخوا معه حكما قرآنيا آخر، وهو حكم (قوَّاميَّة الرجل) أو مسئوليته عن الأسرة، الثابت يقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، وقد ينسخون مع هذين الحكمين حكما ثالثا، ورابعا، مما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

فالرجل له القوامة على الأسرة بأمرين:

أولهما فطري، وهو ما فضل الله به أحد الجنسين على الآخر، ولعل الرجل فضل هنا بأنه أكثر عقلانية من المرأة، وأقدر على النظر في العواقب، وعلى تحمل الأعباء والمصاعب، ولذا أسندت إليه القوامة، وإن كانت المرأة تفضله في العاطفة والحنان.

والأمر الآخر: كسبي، وهو ما يترتب عليه من إنفاق وبذل في سبيل الحياة الزوجية، بدءا بالصداق، وانتهاء بالنفقة الدائمة. فإذا فكر في هدم الأسرة فإنما تنهدم على أم رأسه.

وفي الصداق يقول الله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

وفي النفقة يقول عز وجل: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

ولابد لهؤلاء المتطاولين على الله وكتابه أن يبطلوا هذا كله، فلا معنى لمهر يبذله الرجل وإن كان منه نحلة وعطية للمرأة، لأنه يعطيه مبررا للقوامة عليها.

ولا معنى لأن يتحمل مسئولية النفقة عليها بالمعروف، لأن ذلك يجعل له مبررا آخر للقوَّاميَّة التي يرفضونها.

ومقتضى هذا كله: إبطال شريعة القرآن، وإيجاد شريعة جديدة بديلة لها، وبعبارة أخرى: إعطاء المخلوق حق الاستدراك على الخالق سبحانه، والتعقيب على حكمه، فيبقي من أحكامه ما يشاء، ويلغي ما يشاء!

ومثل ذلك من قالت في إحدى الحلقات الفضائية: إن تعدد الزوجات حكم قد بطل زمانه، ولم يعد قائما اليوم! وحينما قال لها المذيع: ماذا نفعل إذا زاد عدد النساء على الرجال، كما يحدث بعد الحروب، وكما هو واقع الآن في أمريكا، حيث هناك ثمانية ملايين (٨,٠٠٠,٠٠٠) امرأة زائدة على عدد الرجال؟ فلم تجد جوابا، إلا أن قالت: إن الأشعة تكشف لنا الآن عن نوع الجنين في بطن أمه، فإذا عرفنا أنه أنثى نتخلص منه!! فأباحت الإجهاض للإناث جهارا نهارا. وهي التي سماها صديقنا د. حسان حتحوت: موءودة القرن العشرين!

إن العالم كله يعدد، ولكن هناك من يتخذ المرأة الأخرى خليلة، ومن يتخذها حليلة: هناك تعدد لمجرد إفراغ الشهوة بلا مسئولية أخلاقية ولا قانونية ولا إنسانية، وهنا تعدد أخلاقي قانوني إنساني، وهو ما شرعه الإسلام، مقيدا بالعدل: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء: ٣].

ومثل ذلك من قال في قوله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ** ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. قال: إن ذلك التحريم كان لخنزير ذلك الزمان، الذي يألف القاذورات والنجاسات، ولا ينطبق على خنزير عصرنا الذي يُربى ويُغذى تحت إشراف صحي!

إن هؤلاء المحرفين يريدونه (قرآنا موقوتا) بزمن معين، وقد أراد منزِّله تبارك وتعالى أن يكون كتاب الزمن كله.

٧- كتاب الإنسانية كلها

وإلى جانب هذا هو كتاب الإنسانية كلها، وكتاب الحياة كلها. ولهذا جعله الله هدى (للناس) و (للعالمين) كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال سبحانه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٧]. ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان: ١]. فليس هو كتابا لجنس دون جنس، ولا للون دون لون، ولا لإقليم دون إقليم، ولا لصنف من الناس دون آخر. ليس للعقليين دون العاطفيين، ولا للعاطفيين دون العقليين. ليس للانبساطيين دون الانطوائيين، ولا العكس، وليس للروحيين دون الماديين ولا العكس. وليس للمثاليين دون الواقعيين ولا العكس، وليس للفرديين دون الجماعيين ولا العكس. وليس للحكام دون المحكومين، ولا العكس، وليس للأغنياء دون الفقراء، ولا للفقراء دون الأغنياء، وليس للرجال دون النساء، ولا للنساء دون الرجال؛ إنه كتاب الجميع، ودستور الجميع، من رب الجميع.

فالقرآن دستور شامل، وصفه منزله - وهو رب كل شيء - بأنه تبيان لكل شيء، فقد خاطب الرسول المنزل عليه بقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال تعالى في شأن القرآن: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وقد قال ترجمان القرآن عبدالله بن عباس: لوضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله !

فلم ينزله الله بيانا للعقيدة أو للعبادة فقط، فيكون كتابا في اللاهوت. ولا بيانا للفضائل والآداب فقط، فيضاف إلى كتب الأخلاق، ولا بيانا للشرائع والأنظمة فحسب، فيكون كتابا في القانون، ولكنه كتاب يضم ذلك كله وفوق ذلك كله، في نسق فريد ونظم بديع.

اقــرأ هـاتين الآيـتين: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣١، ٢٣٢].

ترى كيف نصنف هاتين الآيتين؟ إنهما تتضمنان تشريعا للأسرة، وتتضمنان كذلك تربية وتوجيهات أخلاقية، وإرشادات دينية، وتذكيرا بالله واليوم الآخر، وتقرران علم الله بكل شيء، على حين لا يعلم البشر. فهل تحسبان في التشريع أو في التربية أو في العقيدة أو في الآداب؟ الحقيقة أنهما في ذلك كله في وقت واحد.

* ومن شمول القرآن: أنه لا يخاطب العقل وحده ولا القلب وحده، بل يخاطب الكيان الإنساني كله، فيقنع العقل، ويحرك القلب، في وقت واحد كذلك. فإذا قرأ الإنسان أو سمع مثل هذه الآيات: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]. يجدها تخاطب الإنسان كله: عقله ووجدانه وروحه، فلا يكتفي بخطاب القلب والضمير وحده، كما هو المعهود في كتب الدين واللاهوت قبل القرآن، ولا يخاطب الفكر والعقل وحده، كما هو شأن الفلسفة قديما وحديثا. إنما هو يخاطب الذات الإنسانية بكل مقوماتها وخصائصها وأبعادها.

يقول الأستاذ عباس العقاد رحمه الله: «يخاطب الإسلام العقل، ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان. وفي حكمه أن نظر العقل هو طريق الضمير إلى الحقيقة، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التي يتحقق بها الإيمان: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: ٤٦]. ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

«وما كان الشمول في العقيدة ليذهب مذهبا أبعد وأوسع من خطاب الإنسان؛ روحا وجسدا وعقلا وضميرا، بغير بخس ولا إفراط في ملكة من هذه الملكات» (١).

وهو لا يخاطب صنفا واحدا من البشر له اتجاه عقلي أو نفسي معين، مغفلا من عداه من الأصناف ذوي الاتجاهات المتعددة. كلا، إنه يخاطب كل الأصناف، ويشبع كل الاتجاهات الإنسانية السوية، في توازن لا يقدر عليه إلا منزل القرآن، وخالق الإنسان:

أ - إن طالب (الحقيقة العقلية) يجد في القرآن ما يرضي منطقه، ويأخذ بلبه إذا سمعه يصيح بالعقل أن ينظر ويفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وأن يعتمد على البرهان وحده في العقليات: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١ والنمل: ٦٤].

وعلى المشاهدة والتجربة في الحسيات: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩].

وعلى الصدق وتوثيق الرواية في النقليات: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

ويهيب بالعقل أن يرفض الظن والخرص، واتباع الهوى والتقليد الأعمى، سواء كان تقليد الآباء أم تقليد السادة والكبراء (٢).

ويكفي أن مشتقات العقل، مثل: (يعقلون) و (تعقلون) ذكرت في القرآن ثمانيا وخمسين مرة، وذكرت مشتقات الفكر سبع عشرة مرة، وذكرت كلمة (الألباب) أي العقول ست عشرة مرة . . . وهذا غير الآيات التي اشتملت على كلمات ومشتقات أخر مثل: النظر والاعتبار والتدبر والحجة والبرهان والنُّهَى والحكمة والعلم ونحو ذلك، مما يبحث عنه طلاب الحقائق العقلية، فلا يجدونه في كتاب ديني غير القرآن.

ب - والباحث عن (الحقيقة الروحية)، يجد في القرآن ما يرضي ذوقه، ويغذي وجدانه،

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٢٤ طبعة أولى .

(٢) راجع كتابنا (العقل والعلم في القرآن الكريم) فقد أشبعنا ذلك بحثا .

ويشبع نهمه وتطلعاته في آفاق الروح، في مثل قصة موسى والعبد الصالح الذي قال الله فيه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥].

يجد الباحث عن (الإيمان) في الخطاب القرآني ما ينشئ الإيمان البصير بالله ورسالاته ولقائه وجزائه، ويطارد الجحود والشك والنفاق، ويقيم الأدلة الناصعة على وجود الله تعالى، وعلى وحدانيته، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته، وواسع رحمته، وعلى بعثه رسله: ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وعلى عدالة الجزاء في الآخرة: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]. ويجلِّي له القرآن مصير المؤمنين نجاة وحياة طيبة في الدنيا، وفلاحا في الآخرة، ومصير المكذبين: شقاء في الدنيا، وعذابا في العقبى.

الإيمان في القرآن يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، يسامح ولا يتعصب. فهو يوجب الإيمان بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل: ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

جـ - والحريص على (القيم الأخلاقية) يجد في القرآن ضالته وطلبته. وإذا كان موضوع الأخلاق هو (الخير) فالقرآن قد دل على (الخير) كما هدى إلى (الحق). وقد جعل فعل الخير إحدى شعب ثلاث لمهمة المجتمع المسلم: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧]. ولكنه لم يكتف من المسلم بفعل الخير، بل طلب أن يدعو إليه ويدل عليه ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والأخلاق في القرآن تحتل مساحة عريضة لا يتسع المقام للحديث عنها، ونوصي بالرجوع إلى الكتاب القيم (دستور الأخلاق في القرآن) لشيخنا العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله.

د - وعاشق (القيم الجمالية) يجد في القرآن ما ينمي حاسته الجمالية، ويغذي شعوره الفني؛ وذلك بما لفت إليه القرآن الأنظار من الاستمتاع بجمال الطبيعة في السماء ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦]. ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ [الملك: ٥]. وجمال الطبيعة في الأرض ابتداء من جمال النبات: ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥].

﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل: ٦٠]. وجمال الحيوانات: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٦]. وجمال الإنسان ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [التغابن: ٣]. وجمال المخلوقات كلها: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨].

ووراء ذلك كله ما احتواه أسلوب القرآن ذاته من جمال بياني معجز في نظمه ومعناه، وفي شكله ومضمونه. وصفه المشركون أنفسهم فقالوا: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه!

الفصل الثاني

مقاصد القرآن

١ ـ تصحيح العقائد والتصورات

٢ ـ تكريم الإنسان ورعاية حقوقه

٣ ـ الأمر بعبادة الله وتقواه

٤ ـ تزكية النفس البشرية

٥ ـ تكوين الأسرة وإنصاف المرأة

٦ ـ بناء الأمة الشهيدة على البشرية

٧ ـ الدعوة إلى عالم إنساني متعاون

مقاصـــد القــرآن الكريـــم

لقد دعا القرآن الكريم إلى كثير من المبادئ والمقاصد التي لا تصلح الإنسانية بغيرها. ونجتزئ هنا بسبعة منها مما أكده القرآن وكرره، وعني به أشد العناية، وهي:

١ ـ تصحيح العقائد والتصورات للألوهية والرسالة والجزاء.

٢ ـ تقرير كرامة الإنسان وحقوقه، وخصوصا الضعفاء من الناس.

٣ ـ توجيه البشر إلى حسن عبادة الله تعالى وتقواه.

٤ ـ الدعوة إلى تزكية النفس البشرية.

٥ ـ تكوين الأسرة الصالحة وإنصاف المرأة.

٦ ـ بناء الأمة الشهيدة على البشرية.

٧ ـ الدعوة إلى عالم إنساني متعاون.

١ ـ تصحيح العقائد والتصورات

فأما المقصد الأول فيتجلى في هذه العناصر:

أ ـ إرساء دعائم التوحيد.

ب ـ تصحيح العقيدة في النبوة والرسالة.

جـ ـ تثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة والجزاء.

وسنتحدث عن كل عنصر منها فيما يلي:

أ- إرساء دعائم التوحيد:

اعتبر القرآن الشرك أعظم جريمة يقترفها مخلوق: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]. وذلك لما فيه من ظلم للحقيقة، وتزوير على الواقع، وانحطاط بالإنسان من مرتبة السيادة على الكون - كما أراد الله له - إلى مرتبة العبودية والخضوع للمخلوقات، سواء كانت جمادا، أم نباتا، أم حيوانا، أم إنسانا، أم غير ذلك. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]. ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

ولأن الشرك وكر للأباطيل والخرافات دعا القرآن إلى عبادة الله وحده، وأعلن أن ذلك هو المبدأ الأول المشترك في رسالات النبيين جميعا، فكل نبي نادى قومه أن ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ وهود ٥٠، ٦١، ٨٤]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فتح القرآن الطريق بين الله وعباده، فلا مكان للسماسرة والوسطاء، الذين احتكروا العلاقة بين الله وخلقه، وأوهموا البشر أنه لا يمكن الوصول إلى الله إلا عن طريقهم، فباب الله مفتوح لكل من أراده، ويده مبسوطة بالخير لكل من دعاه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

إن دعوة التوحيد هي أساس الحرية الحقة، إذ لا حرية لمن يقدس بشرا أو يعبد حجرا.

وهي أساس الإخاء والمساواة، لأنها تقوم على اعتقاد أن الناس جميعا عباد الله، وأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة، فهم إخوة بعضهم لبعض، وليس بعضهم أربابا لبعض. ولهذا كان الرسول ﷺ يختم دعوته إلى الملوك والأمراء من أهل الكتاب بهذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن القرآن الكريم من أوله إلى آخره دعوة إلى التوحيد، وإنكار على الشرك، وبيان لحسن عاقبة الموحدين في الدنيا والآخرة، وسوء عاقبة المشركين في الدارين.

وقد أصلح القرآن هنا ما أفسدته الديانات الوثنية والكتابية المحرفة من عقيدة التوحيد. حتى اليهودية جعلت الرب أشبه بالمخلوقين، فهو يتعب ويندم، ويخاف ويحسد، ويصارع إسرائيل فيصرعه إسرائيل، فلا يتمكن من الإفلات منه إلا بوعد منه بمباركة نسله، فأطلق سراحه!! والنصرانية تأثرت بوثنية روما، وطغت عليها الوثنية حتى امتلأت الكنائس بالصور والتماثيل، وأخذت عقيدة التثليث والصلب والفداء من عقيدة الهنود في (كرشنة)، كل ما فعلوه أنهم حذفوا اسم كرشنة ووضعوا اسم (يسوع)!

ب ـ تصحيح العقيدة في النبوة والرسالة:

وذلك بعدة أساليب:

١ ـ بيان الحاجة إلى النبوة والرسالة: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]. ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

٢ ـ بيان وظائف الرسل في التبشير والإنذار: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]. فليس الرسل آلهة ولا أبناء آلهة، إنما هم بشر يوحى إليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]. يملكون أن يدعوا إلى توحيد الله، ولكن لا يملكون هداية القلوب ولا السيطرة عليها: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

٣ ـ تفنيد الشبهات التي أثارها الناس من قديم في وجه الرسل، كقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقولهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]. فقد رد عليهم القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ

اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم: ١١]. ومثل قوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٥].

٤ ـ بيان عاقبة الذين صدقوا المرسلين وعاقبة الذين كذبوا المرسلين. وفي القرآن الكريم ثروة طائلة من قصص الرسل مع أممهم تنتهي دائما بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٧ – ٣٩]. ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣].

جـ. تثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة والجزاء:

ومما عني به القرآن وكرره في سوره المكية والمدنية: الإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء وحساب، وجنة نار.

وقد اتخذ القرآن في تثبيت هذه العقيدة وتصحيحها أساليب شتى:

١ ـ فمنها: إقامة الأدلة على إمكان البعث ببيان قدرة الله على إعادة الخلق كما بدأهم أول مرة: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج: ٥].

٢ ـ ومنها: التنبيه على خلق الأجرام العظيمة التي يعتبر خلق الإنسان بجوارها شيئا هينا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

٣ - بيان حكمة الله تعالى في الجزاء حتى لا يستوى المحسن والمسيء، والبر والفاجر في النهاية، وبذلك تكون الحياة عبثا وباطلا يتنزه الله تعالى عنه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]. ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

٤ - بيان ما ينتظر المؤمنين الأبرار في الآخرة من المثوبة والرضوان، وما أعد للكفرة الفجرة من العقاب والخسران. ولهذا كثر حديث القرآن عن القيامة وأهوالها، والكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وعن الميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات، حتى لا يضيع على الإنسان مثقال حبة من خردل، وعن الحساب الدقيق الذي لا يظلم نفسا شيئا، ولا يحمل وازرة وزر أخرى. وعن الجنة وما فيها من ألوان النعيم المادي والروحي، وعن النار وما فيها من صنوف العذاب الأليم، الحسي والمعنوي؛ ذلك لأن إنسان الآخرة هو امتداد لإنسان الدنيا، وهو روح وجسم، فلا بد أن يشمل الثواب أو العقاب كليهما.

٥ - إبطال الأوهام التي أشاعها الشرك والمشركون من أن آلهتهم المزعومة تشفع لهم عند الله يوم القيامة، وكذلك ما زعمه أهل الكتاب من شفاعة القديسين وغيرهم. وهذا ما كذبه القرآن وأبطله أشد الإبطال، فلا شفاعة إلا بإذن الله، ولا شفاعة إلا لمؤمن موحد، ولا ينفع الإنسان إلا سعيه، ولا يحمل وزر غيره: ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩]. ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]. ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]. ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

٢ ـ تقرير كرامة الإنسان وحقوقه

وأما المقصد الذي يتعلق بتقرير كرامة الإنسان ورعاية حقوقه، فيتجلى في هذه العناصر :

أ ـ تقرير كرامة الإنسان .

ب ـ تقرير حقوق الإنسان .

جـ ـ تأكيد حقوق الضعفاء من الناس .

وسنخص كلا منها بحديث :

أ ـ تقرير كرامة الإنسان:

أكد القرآن أن الإنسان مخلوق كريم على الله ، فقد خلق آدم بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله في الأرض خليفة ، واستخلف أبناءه من بعده ، وهي منزلة تطلعت إليها أنظار الملائكة ، فلم تمنح لهم ، لأنهم لم يؤهلوا لها ، إنما أهل لها آدم وبنوه ، الذين سُخر لهم كل ما في الكون : أرضه وسمائه . وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠] . ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] . ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ . ﴾ [البقرة : ٣٠] .

ومن أجل ذلك أنكر القرآن على بعض المتطرفين من البشر تحريمهم الطيبات وزينة الحياة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأنكر على بعض البشر إهانتهم لأنفسهم باتخاذهم الطبيعة وقواها المسخرة للإنسان آلهة يعبدونها من دون الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وأنكر على بعض آخر من البشر أن يفقدوا شخصيتهم، ويصبحوا أذنابا لغيرهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. وأنكر على آخرين أن يغلوا في تقديس البشر فيتخذوهم أربابا يطيعونهم في كل ما يشرعون؛ وإن حرموا الحلال، وأحلوا الحرام: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

ولا عجب أن كانت دعوة الإسلام إلى أهل الكتاب: ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ورد القرآن على من نسب إلى بعض الأنبياء أنه دعا الناس إلى عبادة نفسه فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ب. تقرير حقوق الإنسان:

وتأكيدا لهذه الكرامة الإنسانية قرر القرآن (منذ أربعة عشر قرنا) ما تتغنى به الإنسانية اليوم، ويظنه بعض الجاهلين من ثمار العصر الحديث، وأعني به ما يطلق عليه (حقوق الإنسان):

حق الإنسان في حرية النظر والتفكير قرره القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦].

وحق الإنسان في حرية الاعتقاد قرره القرآن بقوله: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقرر حرية القول والأمر والنهي بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وحق الإنسان في المساواة بغيره من الأجناس والألوان والأنساب، قرره القرآن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وحق الإنسان في الاستمتاع بالطيبات من الرزق، ومن زينة الله التي أخرج لعباده: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وحق الإنسان في الزواج وتكوين الأسرة، رجلا كان أو امرأة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وحق الإنسان ـ بعد الزواج ـ في الإنجاب: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

وحق الذرية في الحياة، بنين كانوا أو بنات، ولهذا حمل القرآن على أهل الجاهلية، الذين وأدوا بناتهم وقتلوا أولادهم من إملاق واقع، أو خشية إملاق متوقع، واعتبر ذلك خطئا كبيرا وإثما عظيما. قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]. ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وحق كل إنسان في الحياة، ما لم يرتكب جرما موجبا إباحة دمه شرعا: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١٥١والإسراء ٣٣]. كما قرر القرآن مؤكدا ما جاء في الكتب السابقة: ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢].

وحق كل إنسان في العمل والمشي في مناكب الأرض، سعيا لكسب رزقه: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥]. حتى في يوم الجمعة، فقبل صلاة الجمعة يقول: ﴿ فاسْعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ [الجمعة: ٩]، وبعد صلاة الجمعة يقول: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة :١٠]. وحتى في الحج: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وحق كل إنسان في أن يتمتع بثمرة ما كسب من حلال، عن طريق التملك، رجلا كان أو امرأة: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء: ٣٢]. ولا يجوز لأحد العدوان على شيء مملوك للغير ملكية مشروعة: ﴿ لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء: ٢٩].

وحق الإنسان في احترام مسكنه الخاص وعدم دخوله إلا بإذنه قرره القرآن بقوله: ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ﴿ ...وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

وحق الإنسان في صيانة دمه وماله، وحماية ملكه الحلال، قرره بقوله: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

وحق الإنسان في صيانة عرضه وكرامته، قرره بقوله: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ [الحجرات: ١١].

وحق الإنسان في الدفاع عن نفسه، قرره بقوله: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وحق الإنسان في العدل والإنصاف ـ ولو كان كافرا أو عدوا ـ قرره بقوله: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]. وقوله: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]. وقوله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥ - ١٠٧]. قالوا: إن هذه الآيات نزلت في تبرئة يهودي اتهمه بعض المسلمين بغير حق.

وحق الإنسان في كفاية العيش إن كان عاجزا أو فقيرا، في أموال الواجدين من الأفراد، قرره بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]. وقوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وفي أموال الدولة من الغنائم والفيء، ففي كل منها حق لليتامى والمساكين وابن السبيل.

وحق الإنسان في مناقشة أولي الأمر ومخالفة رأيهم، والاحتكام إلى الله ورسوله، قرره بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩].

وحق الإنسان في إنكار المنكر، ورفض الفساد، ومقاومة الظلم البين، والكفر البواح، قرره القرآن بقوله: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]. وقوله: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. كيف لا وقد قيد الله الطاعة

للرسول نفسه بالمعروف وقال تعالى بيعة النساء: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ [الممتحنة:١٢] . وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] . وقال على لسان نبي الله صالح: ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢] .

بل إن الإسلام قد ارتقى بهذه الأمور من مرتبة الحقوق إلى مرتبة الفرائض والواجبات، لأن ما كان من الحقوق يمكن لصاحبه أن يتنازل عنه، أما الواجبات المفروضة فلا يجوز التنازل عنها.

جـ - تأكيد حقوق الضعفاء:

قرر القرآن حقوق الإنسان عامة، ولكنه عُني عناية فائقة بحقوق الضعفاء من بني الإنسان خاصة، خشية أن يجور عليهم الأقوياء، أو يهمل أمرهم الحكام والمسؤولون.

نجد مظاهر هذه العناية في سور القرآن مكية ومدنية، كقوله تعالى في سورة الضحى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩] . وفي سورة المدثر يتحدث عن المجرمين في سقر، وأسباب دخولهم فيها، فيقول على لسان أصحاب اليمين حيث يسألونهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤] . وهاتان السورتان - الضحى والمدثر - من أوائل ما نزل، وفي سورة الماعون: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون: ١ - ٣] . فلم يكتف بإيجاب إطعام المسكين بل أوجب الحض على ذلك، والدعوة إليه.

وفي سورة الحاقة، علل القرآن دخول صاحب الشمال الجحيم، بقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤] . فقرن الحض بالإيمان، أو قرن ترك الحض بالكفر بالله تعالى.

وفي سورة الفجر خاطب القرآن المجتمع الجاهلي المتظالم بقوله: ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨].

وأمر بالمحافظة على مال اليتيم - إن كان له مال - إذ جعل ذلك من وصاياه العشر في سورة الأنعام: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وكرر هذه الوصية في الإسراء (الآية ٣٤).

وفي سورة النساء وضع القواعد للمحافظة على مال اليتيم وحسن استغلاله، وتنميته بالمعروف في جملة من الآيات انتهت بوعيد شديد: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

وقد جعل القرآن للمساكين واليتامى إذا كانوا فقراء حظا في أموال الدولة من الزكاة والفيء وخمس الغنيمة. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠]. ﴿ واعلموا أنَّما غَنِمتم من شيء فأن لله خُمُسه وللرسول ولذى القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الأنفال: ٤١]. ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

وإنما جعلنا الزكاة من أموال الدولة لأن الله أمر ولي الأمر بأخذها فقال: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]. فإذا لم تتول الدولة أخذها، كان على أرباب الأموال أداؤها إلى الفقراء، يبحثون هم عن الفقراء، ولا يبحث الفقراء عنهم.

كما جعل لهم حقا في أموال أقاربهم وسائر الأمة بعد ذلك: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [الإسراء: ٢٦]. ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [النساء: ٣٦]. ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وأهم من ذلك كله: أن القرآن شرع القتال وسل السيوف للدفاع عن المستضعفين في الأرض، بل حرض أبلغ التحريض على القتال ذودا عن حرماتهم، ودرءا للظلم عنهم. يقول تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٤، ٧٥].

هذه بعض الحقوق التي قررها القرآن للإنسان، ولا نقول: أعلنها، إذ كان الأمر أكبر من إعلان؛ إنه بلاغ من رب الناس للناس، أسست عليه عقيدة، ونهضت على أساسه ثقافة وتربية، وبني عليه فقه وتشريع، وقامت عليه دولة وأمة، وامتدت به حضارة وتاريخ.

٣ـ عبادة الله وتقواه

لا يوجد كتاب من الكتب المقدسة، حفل بالثناء على الله جل شأنه، والتذكير بواسع علمه، وبالغ حكمته، وعظيم قدرته، وشمول مشيئته، وعظمة إبداعه، وسعة رحمته، وآثار ربوبيته، والترغيب في القيام بعبوديته، والوقوف على عتبته، والرجاء في فضله، والخوف من سطوة عدله، وإسلام الوجه له، وإخلاص الدين له، والاستغراق في حبه، والأنس به، والشوق إليه، والاطمئنان بذكره، والاجتهاد في شكره وحسن عبادته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه.

لا يوجد كتاب حفل بهذا كله ـ بأبلغ بيان، وأروع أسلوب ـ غير القرآن الكريم.

إنك أول ما تفتح المصحف تجد الثناء على الله تبارك وتعالى يواجهك في أول سطوره. في فاتحة الكتاب، التي افترض الإسلام تلاوتها في كل ركعة في الصلوات الخمس: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾.

وفي آخر صفحة من المصحف الشريف تجد المعوذات الثلاث، وهي: سورة الإخلاص، وسورة الفلق، وسورة الناس، التي بها ختم القرآن: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ .... ﴾.

وبين الفاتحة والختام لا تكاد صفحة من المصحف تخلو من ثناء على الله تعالى بما هو أهله، من وصفه بكل كمال يليق بذاته المقدسة، وتنزيهه عن كل نقص ينافي جلاله وجماله، والدلالة عليه سبحانه عن طريق هذا الكون الذي أبدعه وأتقن فيه كل شيء صنعه، وهذا الإنسان الذي خلقه فسواه فعدله، وعن طريق التاريخ الحافل برسالات النبيين، وبطولات المؤمنين، ومواقف المكذبين، ومصير الناجين والهالكين، وعن طريق الأوامر والنواهي والتوجيهات والإرشادات الإلهية، التي تصل الإنسان أبدا بالله، وتهديه إلى منهج الله.

ولقد ذكر القرآن لفظ الجلالة (الله) ٢٦٩٧ ألفين وستمائة وسبعا وتسعين مرة، أما (الضمائر) العائدة إلى (الله) فيصعب أن تحصر. وكذلك أسماء الله تبارك وتعالى، مثل: الرحمن الرحيم، والعليم الحكيم، والعلي القدير، والسميع البصير، واللطيف الخبير، ومثل الرب مضافا وموصوفا، فقد امتلأت بها صفحات القرآن. وكذلك أفعاله عز وجل في هذا الكون، من الخلق والرزق، والإعطاء والمنع، والإحياء والإماتة، والإيجاد والإمداد، والإعزاز والإذلال، والإضحاك والإبكاء، والإنجاء والإهلاك، والنصر والخذلان، إلى غير ذلك من أفعاله سبحانه، التي تكررت في القرآن بصيغ متنوعة، وأساليب شتى، يعز إحصاؤها.

ولا عجب في ذلك، فالمقصود الأول من القرآن: أن يتعرف الله تعالى إلى خلقه، وأن يصلهم بحبله، وأن يتحبب إليهم بنعمه وفضله، وأن يخوفهم من سطوته وعدله، حتى يعرفوه ويحبوه وينيبوا إليه، ويسيروا على منهجه، الذي أنزل به كتابه، وبعث به رسوله، ليهتدوا به إلى التي هي أقوم.

لقد بين القرآن أن المهمة الأولى للإنسان أن يقوم بعبادة الله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [**الذاريات**: ٥٦].

فالله تعالى هو خالق الإنسان ورازقه، ومدبر أمره، والمنعم عليه بنعم وفيرة لا يمكن للإنسان إحصاؤها ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [**إبراهيم**: ٣٤ **والنحل**: ١٨].

وحسبنا منها: نعمة الإيجاد، ونعمة الرزق، ونعمة العقل، ونعمة الإرادة، ونعمة القدرة، ونعمة البيان (النطقي والخطي)، ونعمة تسخير الكون للإنسان.

وفي هذا يقول القرآن: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [**العلق**: ١ - ٥]. ﴿ **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ [**الرحمن**: ١ - ٤]. ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ [**البلد**: ٨ - ١٠]. ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [**فاطر**: ٣]. ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [**لقمان**: ٢٠].

وعدد القرآن جملا من هذه النعم الوفيرة السابغة في عدد من سور القرآن، أظهرها في سورة النحل، التي تسمى: سورة النعم.

ومن حق الخالق الرازق المنعم بهذه النعم: أن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يطاع فلا يعصى. ولا يتأتى ذلك إلا بالعبادة الخالصة له. فالعبادة من حقه وحده جل وعلا. ولذا قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

ولا يوجد دين كالإسلام، أمر بعبادة الله سبحانه وحض عليها، وربط المسلم بربه ربطا وثيقا، بعبادات متنوعة، منها: اليومي كالصلوات الخمس، والأسبوعي كصلاة الجمعة والسنوي كصيام رمضان، والعُمْري (الذي يؤدى في العمر مرة) كالحج.

منها الفعلي كالصلاة، والتركي كالصيام. منها البدني كالصلاة والصيام، ومنها: المالي كالزكاة، والجامع بينهما كالحج والجهاد.

منها: المفروض فرضا عينيا، كالعبادات الشعائرية الأربع، ويلحق بها الفرائض الاجتماعية التي أمر بها القرآن مثل: الإحسان بالوالدين وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل.

ومنها: المفروض فرضا كفائيا، إذا قام به البعض سقط الإثم عن سائر الأمة، مثل صلاة الجنازة، والعيدين، ومثل إقامة التكافل بين أبناء المجتمع، ومثل إعداد القوة المادية والعسكرية اللازمة لحماية الأمة، ومثل إعداد المجتهدين في علوم الدين، والمتفوقين في العلوم والصناعات الدنيوية التي لا يقوم المجتمع إلا بها.

ومنها: ما هو نافلة، مثل ذكر الله تعالى ودعائه واستغفاره وتلاوة كتابه.

وهذه العبادات كلها تعد المسلم لتقوى الله، كما جاء في الآية التي ذكرناها: ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

والاتقاء أو التقوى معناه: الاجتناب (هو: افتعال من الوقاية). واتقاء الله تعالى، يعني: اجتناب غضبه، والابتعاد عما يسخطه سبحانه. وما يسخطه: هو فعل المحظور، وترك المأمور، ولذا عبروا عن التقوى بأنها: امتثال الأوامر واجتناب النواهي. وأساسها: خشية الله، وذلك من عمل القلب، ولذا أضافها القرآن إليه فقال: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وأشار الرسول ﷺ إلى صدره وقال: «التقوى ههنا . . . ثلاثا»[1].

والله تعالى يأمر المؤمنين بالتقوى قبل أوامره سبحانه، لتكون حافزا لهم على امتثال ما يأمر به، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

ويذكر القرآن التقوى أحيانا قبل النواهي، لتكون دافعا للانتهاء عنها. كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

كما يذكر القرآن التقوى عقب الأوامر والنواهي، لتكون باعثا على الالتزام بها. نجد ذلك في آيات كثيرة من سورة البقرة: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]. ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وبعد حديث عن إرضاع الأولاد: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وفي آخر آية المداينة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وفي سورة آل عمران يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

وفي سورة النساء: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

وفي سورة المائدة: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

ومثل هذا كثير في القرآن.

بل يقص علينا القرآن أن الرسل جميعا دعوا أقوامهم إلى تقوى الله، كما نجد في سورة الشعراء، نوحا وهودا وصالحا ولوطا وشعيبا يقول كل منهم لقومه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

ولهذا جعل القرآن وصية الله للأولين والآخرين هي التقوى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

ولم يكتف القرآن من المؤمنين بمجرد التقوى، بل قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ومعناه: بذل الجهد واستفراغ الوسع في تقواه عزوجل، في حدود الطاقة والاستطاعة، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]. وليست هذه الآية ناسخة للآية الأخرى، بل مبينة لها: أن تقوى الله حق تقواه إنما تطلب في إطار المقدور للمكلف، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وفي الصحيح: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»(١).

والتقوى لا تعني العصمة من الذنوب، والمتقون ليسوا ملائكة أطهارا، ولا أنبياء، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ومزيتهم هي رهافة حسهم، ويقظة ضمائرهم. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. فإذا زلت قدم أحدهم إلى المعصية فسرعان ما يثوب إلى رشده، ويتوب إلى ربه، ويقرع بابه مستغفرا، كما قال تعالى في وصف المتقين من عباده: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

---

(١) متفق عليه.

ومن تدبر القرآن وجده قد ربط خيرات الدنيا والآخرة كلها بالتقوى . فمن ثمار التقوى :

أ) الخروج من المآزق، واجتلاب الأرزاق: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] .

ب) تيسير الأمور العسيرة وتسهيلها: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق :٤] .

جـ) الحفظ من كيد الأعداء: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران :١٢٠] .

د) معية الله تعالى للمتقين، وهي معية تأييد ونصرة: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

هـ) محبة الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤] .

و) ولاية الله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٢، ٦٣] .

ز) الكرامة عند الله على قدر التقوى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات :١٣] .

ح) الاهتداء بالقرآن: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] .

ط) قبول الأعمال عند الله: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

ى) الفوز بالجنة: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

ك) النجاة من عذاب الآخرة: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر : ٦١] .

دعوة القرآن إلى التقوى تتخذ أساليب شتى؛ من الأمر بها، وبيان آثارها، والثناء على أهلها، والترغيب في محاسنهم وتجلية فضائلهم، والترهيب من تركها والإعراض عنها، والاتصاف بأضدادها، حتى يظهر الفرق بين المتقين والفجار، أو بين أهل البر والتقوى وأهل الإثم والعدوان.

٤ـ تزكية النفس البشرية

ومن مقاصد القرآن: الدعوة إلى تزكية النفس البشرية، فلا فلاح في الأولى والآخرة لها إلا بالتزكية، كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]. فالنفس بفطرتها مستعدة للفجور الذي يدنسها ويدسِّيها، استعدادَها للتقوى التي تطهرها وتزكيها. وعلى الإنسان بعقله وإرادته أن يختار أي الطريقين: طريق التزكية أو طريق التدسية.

ولا ريب أنه إذا اختار طريق التزكية فقد اختار طريق الفلاح.

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال سبحانه فيمن يأتي ربه يوم القيامة: ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٥، ٧٦].

ورسالات الأنبياء جميعا كانت دعوة إلى التزكية. ولهذا رأينا موسى عليه السلام يقول لفرعون حين أرسل إليه من ربه: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩].

وكان من الشعب الأساسية لرسالة محمد ﷺ: التزكية، كما جاء ذلك في آيات أربع من كتاب الله: منها ما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل للأمة المسلمة الموعودة: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ومنهـا قـوله عـز وجل: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقـال تعـالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

والتزكية مشتقة من: زكا يزكو زكاة. وهي كلمة تتضمن معنيين أو عنصرين: الطهارة والنماء.

ولذا كانت مهمة النبي ﷺ مع العرب الأميين ذات شقين:

الأول: تطهير العقول من خرافات الشرك وأباطيله، وتطهير القلوب من قسوة الجاهلية وغلظتها، وتطهير الإرادات من الشهوات البهيمية، والنزوات السَّبُعية، وتطهير السلوك من رذائل الجاهلية.

والثاني: هو تنمية العقول بالمعرفة، والقلوب بالإيمان، والإرادات بالتوجه إلى عمل الصالحات، والسلوك بالتزام العدل والإحسان ومكارم الأخلاق.

وهذا ما فعله النبي ﷺ، فقد علم العرب الكتاب والحكمة، وزكاهم أعظم تزكية، بما هدم فيهم من أفكار الوثنية وانحرافات الجاهلية، وما بنى فيهم من معارف التوحيد، وفضائل الإيمان، فكانوا بحق: ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولا تتم هذه التزكية إلا بفضل من الله وتوفيقه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٢١].

كما لابد من جهد الإنسان وجهاده، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٨].

وقد عاتب الله تعالى نبيه الكريم لعبوسه في وجه المسلم الأعمى، الذي جاءه يسعى، وهو

يخشى، ولكنه عنه تلهى. وإنما تلهى بدعوة كبراء القوم، رجاء أن يشرح الله صدورهم للإسلام.

بيد أن الله تعالى عاتب رسوله واشتد في عتبه، لإعراضه عن الأعمى الذي يرجى أن يكون مجيئه إليه طلبا للتزكية، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ١ - ٣].

وقد بين القرآن الكريم أثر العبادات في هذه التزكية، كقوله تعالى في أثر الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

كما بين أثر الآداب التي حث عليها القرآن في هذه الزكاة المنشودة للأنفس، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وقال في أدب الاستئذان: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

بل بين القرآن أثر الالتزام بالأحكام الشرعية التي فرضها الله تعالى في شئون الأسرة وغيرها في هذه التزكية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

إن الذي لا ريب فيه: أن صلاح الأمم والمجتمعات إنما هو بصلاح أفرادها، وصلاح الأفراد إنما هو بصلاح أنفسهم التي بين جنوبهم، وبعبارة أخرى: بتزكية هذه الأنفس، حتى تنتقل من (النفس الأمارة بالسوء)[1] إلى (النفس اللوامة)[2] ثم (النفس المطمئنة)[3].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ㉗ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

وهذا يحتاج إلى جهاد، ولكنه جهاد غير ضائع كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وأهم ما يجب أن تتحلى به النفس الزكية هو: أخلاق المؤمنين، التي جلاَّها القرآن، ولاسيما في أوائل سور الأنفال والمؤمنين، وأواسط الرعد والذاريات، وأواخر الفرقان والحجرات وغيرها، والتي تمثلت في الخلق النبوي، حتى كان خلقه - عليه الصلاة والسلام - القرآن، كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وأهم ما يجب أن تتطهر منه النفس الزكية هو: أخلاق النفاق، ورذائل المنافقين، التي جلاَّها القرآن أبلغ تجلية، وخصوصا في سور التوبة والبقرة والنساء والمنافقون وغيرها.

٥ـ تكوين الأسـرة وإنصـاف المـرأة

ومن المقاصد التي هدف إليها القرآن: تكوين الأسرة الصالحة، التي هي ركيزة المجتمع الصالح، ونواة الأمة الصالحة.

الـزواج في نظـر القـرآن:

ولا ريب أن أساس تكوين الأسرة هو الزواج، الذي يربط بين رجل وامرأة رباطا شرعيا وثيق العُرا، مكين البنيان، مؤسسا على تقوى من الله ورضوان، وقد اعتبر القرآن هذا الزواج آية من آيات الله، مثل خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان من تراب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. فأشار إلى الدعائم الثلاث التي تقوم عليها الحياة الزوجية، كما يرشد إليها القرآن، وهي: السكون والمودة والرحمة. ويعني بالسكون: سكون النفس من اضطرابها وتَوَرَانها توقا إلى الجنس الآخر، بالإشباع المشروع في ظل مرضاة الله.

فلا يعرف الإسلام الأسرة إلا بين رجل وامرأة، منذ الأسرة البشرية الأولى من آدم وزوجه: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. لا يعرف ما يدعو إليه المتحللون من الغربيين اليوم من الأسرة الوحيدة الجنس! بحيث يتزوج الرجل الرجل، والمرأة المرأة. وهذا أمر ضد الفطرة، وضد الأخلاق، وضد المصلحة، وضد الشرائع. وهو للأسف ما حاول مؤتمر السكان في القاهرة (١٩٩٤) ومؤتمر المرأة في بكين (١٩٩٥) أن يفرضاه على العالم!!

وبهذا يقاوم القرآن نزعتين منحرفتين:

أولاهما: نزعة (الرهبانية) المنافية للفطرة، التي تحرم الزواج، وتنظر إلى الغريزة الجنسية وكأنها رجس من عمل الشيطان، وتنفر من (ظل) المرأة، ولو كانت أختا أو أما لأنها أبدا أحبولة الشيطان!

وثانيتهما: نزعة (الإباحية) التي تطلق العنان للغريزة، بلا ضابط ولا رابط، وتنادي بحرية الاستمتاع الجنسي بين الرجل والمرأة، دون ارتباط بمسئولية شرعية، تتكون من خلالها حياة زوجية ذات هدف، تنشأ منها أسرة مترابطة، تقوم على أمومة حانية، وأبوة راعية، وبنوة بارة، وأخوة عاطفة، وتتربى في ظلها مشاعر المحبة، وعواطف الإيثار والتعاون.

الزواج ميثاق غليظ:

والقرآن يسمي الارتباط بين الزوجين ﴿ ميثاقا غليظا ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ⑳ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١]. ومعنى هذا: أنه عقد قوي متين.

وهو نفس التعبير الذي أطلقه القرآن على ما بين الله ورسله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧].

وعبر القرآن عن العلاقة بين الزوجين فقال: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وهو يعبر عن مدى القرب واللصوق والدفء والوقاية والستر والزينة بين الزوجين، فكل منهما بمنزلة اللباس لصاحبه.

ولا يجد القرآن غضاضة في الاستمتاع الحسي بين الزوجين، ولو في ليلة صيام: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

كما لا يضع أي قيد على الاستمتاع بين المرء وزوجه: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ما دام الاستمتاع في موضع الحرث، وفي غير موضع

الأذى وزمانه: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

الذرية الصالحة:

ومن أول أهداف الأسرة في القرآن: الذرية الصالحة التي تكون قرة عين للأبوين. لذا قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢]. وكان من دعاء عباد الرحمن: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

ولقد رأينا الرسل المصطَفَيْن في القرآن يسألون الله الذرية، التي تكون امتداد لوجودهم، كما قال الخليل إبراهيم: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١].

وكما قال زكريا: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٥، ٦]. فجاءه الجواب الإلهي: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٧].

التوافق الديني:

ولا بد للأسرة أن يكون بينها قدر من التوافق الديني، لهذا حرم القرآن نكاح المشركات، وإنكاح المشركين، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وختام الآية يبين لنا الحكمة في هذا التحريم. فما أعظم الفرق، وما أبعد المسافة بين الذين يدعون إلى النار - وهم المشركون - والذين يدعون إلى الجنة والمغفرة، وهم المسلمون!

والعرب يعبرون في شعرهم عن مثل هذا التباين، حين قال قائلهم:

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عَمْرك الله، كيف يلتقيان؟!
هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يماني!

وقد رخص القرآن في نكاح الكتابية، لأنها ذات دين سماوى الأصل، وهي تؤمن - في الجملة - بالله ورسالاته، وبالدار الآخرة، وإن كان إيمانا مشوبا. ولذا قال تعالى: ﴿ **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ** ﴾ [المائدة: ٥].

ونظرا لأن المسلم يعترف بأصل دين الكتابية، فلن تضام عنده، ولن تضيع حقوقها. بخلاف الكتابي الذي لا يعترف بأصل دين المسلمة، ولا بإلهيّة القرآن، ولا بنبوة محمد، فلهذا أجمعت الأمة بجميع مذاهبها، وفي جميع عصورها، على تحريم زواج المسلمة بغير المسلم، ولو كان كتابيّا. وهو إجماع نظري متصل بالعمل، استمر أربعة عشر قرنا. وقد عصم الله هذه الأمة أن تجتمع كلها على ضلالة.

إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية:

ومن أهم ما جاء به القرآن هنا: إنصاف المرأة، وتحريرها من ظلم الجاهلية وظلامها، ومن تحكم الرجل في مصيرها بغير حق، فكرم القرآن المرأة وأعطاها حقوقها بوصفها إنسانا، وكرمها بوصفها أنثى، وكرمها بوصفها بنتا، وكرمها بوصفها زوجة، وكرمها بوصفها أما، وكرمها بوصفها عضوا في المجتمع.

ولا يتسع المقام لبيان كيف كرمها بهذه الاعتبارات كلها، وقد كتبنا في ذلك رسالة عن (مركز المرأة في الحياة الإسلامية) وهي مأخوذة في الأساس من فصل من كتابي (ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده) منقحا ومضافا إليه.

وقد كتب صديقنا الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله كتابه القيم (تحرير المرأة في عصر الرسالة) في ستة أجزاء، وهو كاف ومشبع في موضوعه.

ومما يؤسف له أن بعض الذين ينتسبون إلى الدين، لا يزالون يحملون صورة شائهة للمرأة، وموقف الإسلام منها. فقد ظلمها الذين يتمسكون بنوعين من التقاليد المخالفة لحقائق الإسلام، وما ثبت في محكمات القرآن: التقاليد الموروثة عن عصور الجمود والتخلف الحضاري، والتقاليد الوافدة من الحضارة الغربية المعاصرة. وكلتاهما من نتاج الجاهلية البعيدة عن هُدى الله، وهَدْي النبوة، سواء الجاهلية القديمة الجامدة أم الجاهلية الحديثة الوافدة.

وأذكر أني منذ نحو ثمانية عشر عاما قدمت مشروعا عن (حقوق الإنسان في الإسلام) كلفت بكتابته من قبل اللجنة الثقافية لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وكان من مواده: المرأة إنسان مكتمل الإنسانية، وهي مساوية للرجل في أصل التكليف، وفي الكرامة الإنسانية، وفي الحقوق الفطرية، وفي الجزاء عند الله، وهي مكرمة إنسانا وزوجة وأما ... إلخ.

ولكن بعض المشايخ الذين حضروا لمناقشة المشروع اعترضوا على هذه المادة، بدعوى أن الإسلام لم يسو بين الرجل والمرأة، بدليل جعل شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وفي الميراث جعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وقال: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقلت لهم: إن المادة تسوي بين الرجل والمرأة في أصل التكليف، وفي الكرامة الإنسانية، ونجو ذلك مما نطق به القرآن، وأكدته السنّة، وقواه عمل الصحابة ومن تبعهم بإحسان. فالقرآن يقول: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]. ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة. هو مكمل لها، وهي مكملة له، ليس خصما لها، ، وليست خصما له.

والقرآن يوصي بالإحسان بالوالدين، ثم يخص الأم بالذكر لما عانته في الحمل والولادة والتربية: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤]. ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وهذا التنبيه من القرآن على معاناة الأم هو الذي جعل الرسول الكريم يكرر الوصية بالأم ثلاث مرات، في مقابل واحدة للأب: من أحق

الناس بحسن صحابتي ؟ قال : «أمك . . ثم أمك . . ثم أمك . . ثم أبوك» . والحديث متفق عليه . ومن هنا جعل الرسول الأم أحق بالحضانة لأطفالها من الأب .

أما الشهادة فللاستيثاق للحقوق ، حتى لا تضيع : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . وقد قبل شهادة النساء - بل شهادة امرأة واحدة - في أمور لا تقبل فيها شهادة الرجال . وأما الميراث ، فلتفاوت الأعباء المالية بين الرجل والمرأة ، كما هو معلوم . فالرجل يتزوج فيدفع مهرا ، ويكلف النفقة . والمرأة تتزوج فتأخذ مهرا ولا نفقة عليها .

وأما الدرجة التي للرجال على النساء ، فهي تزيد الأعباء عليهم ، مقابل مسئوليتهم عن الأسرة والنفقة عليها .

وهناك أحكام تبيح للنساء ما هو محرم على الرجال ، مثل التحلي بالذهب ولبس الحرير . فالمساواة هي القاعدة العامة : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة : ٧١] وكما في الحديث : «إن النساء شقائق الرجال» (١) .

وحسبي هنا أن أسجل في هذا المبحث عن إنصاف المرأة وتحريرها : ما ذكره العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله في كتابه (الوحي المحمدي) عن المرأة ، واعتبره أحد المقاصد الأساسية للقرآن الكريم .

قال رحمه الله :

«كان النساء قبل الإسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الأمم ، وفي جميع شرائعها وقوانينها ، حتى عند أهل الكتاب ، حتى جاء الإسلام ، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فأعطى الله النساء - بكتابه الذي أنزله عليه ، وبسنته التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل - جميع الحقوق التي أعطاها للرجال ، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الأحكام ، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها ، حتى كان النبي ﷺ يقول : «ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم» . رواه ابن عساكر من حديث علي رضي الله عنه .

«وإنني أشير هنا إلى أهم أصول الإصلاح النسوي التي بسطتها بكتاب وسيط في (حقوق النساء في الإسلام) بينت في مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الأرض إجمالا

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة ، وأبو داود وأبو عوانة والدارمي عن أنس ، وأحمد عن أم سليم ، كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٩٨٣) .

بقولي :

«كانت المرأة تُشترى وتُباع، كالبهيمة والمتاع، وكانت تُكره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تورَث ولا ترث، وكانت تُمتلك ولا تَملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل. وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بمالها من دونها. وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها إنسانا ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا ؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا ؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة أم لا ؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يكم فمها كالبعير، والكلب العقور، لمنعها من الضحك والكلام، لأنها أحبولة الشيطان ! وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق في قتل بنته، بل في وأدها - دفنها حية - أيضا [1]. وكان منهم من يرى أنه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية».

وكتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الإسلام ما مختصره: «قد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن، واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك. ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة. وإن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدة بإرادة زوجها في جميع التصرفات المالية، والعقود القضائية».

وإنني ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بإيجاز :

(١) كان بعض البشر من الإفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين لا من نوع الإنسان، وبعضهم يشك في ذلك، فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم قول الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١]. وما في معناهما.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

(٢) كان بعض البشر في أوروبة وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين - حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسميا - فجاء الإسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معا بلقب المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات.

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهي زوجه خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها). وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن، ثم بايع الرجال بما جاء فيها - ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعا رسميا وضع عند امرأة هي حفصة أم المؤمنين، وظل عندها من عهد الخليفة الأول أبي بكر الصّدّيق إلى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنهم) فأخذ من عندها، واعتمدوا عليه في نسخ المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الأمصار، لأجل النسخ عنها، والاعتماد عليها.

(٣) كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة - وهذا الزعم أصل لعدم تدينها - فنزل القرآن يقول: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤]. ويقول: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وفيها الوعد الصريح بدخول الفريقين جنات تجري من تحتها الأنهار.

(٤) كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلا للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية والمحافل الأدبية، ولا في غيرهما من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]. فراجع تفسيرهما في ص ٥٤١ من جزء التفسير العاشر (*).

(٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره من التملك، وبعضهم يضيق

(*) يقصد تفسير المنار.

عليهن حق التصرف فيما يملكن، فأبطل الإسلام هذا الظلم، وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع، قال الله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]، وقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الأمريكية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا، وأن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بإرادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائية، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن.

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضربا من استرقاق الرجال للنساء، فجعله الإسلام عقدا دينيا مدنيا لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين، وتوسيع دائرة المودة والألفة بين العشيرتين، واكتمال عاطفة الرحمة الإنسانية وانتشارها من الوالدين إلى الأولاد، على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

(٧) القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لأنه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والأولاد، لا تكلف الزوجة منه شيئا - ولو كانت أغنى منه - وزادها المهر، فالمسلم يدفع لامرأته مهرا عاجلا مفروضا عليه بمقتضى العقد، حتى إذا لم يذكر فيه لزمه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية، ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضي، على حين نرى بعض الأمم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل.

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره، أو يعضلونها بالمنع منه مطلقا - وإن كان زوجها وطلقها - فحرم الإسلام ذلك، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته، وتقدم بيانها في الجزء الثاني من التفسير.

(٨) كان الرجال من العرب وبني إسرائيل وغيرهم من الأمم يتخذون من الأزواج ما شاءوا غير مقيدين بعدد، ولا مشترط عليهم فيه العدل، فقيدهم الإسلام بألا يزيدوا عن أربع، وأن من خاف على نفسه ألا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة. وإنما أباح الزيادةُ لمحتاجها القادر على النفقة والإحصان، لأنها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع، ولا سيما حيث يقل الرجال ويكثر النساء.

وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعدد في سورة النساء، ثم زدنا عليه في كتاب (حقوق النساء في الإسلام) ما هو مقنع لكل عاقل منصف بأن ما شرعه الإسلام في التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر.

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضروريات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الإحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير، وغبن يشق احتماله. فجاء الإسلام فيه بالإصلاح الذي لم يسبقه إليه شرع، ولم يلحقه بمثله قانون. وكان الإفرنج يحرمونه ويعيبون الإسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فأسرفوا فيه إسرافا منذرا بفوضى الحياة الزوجية، وانحلال روابط الأسرة والعشيرة.

جعل الإسلام عقدة النكاح بيد الرجال، ويتبعه حق الطلاق، لأنهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدها وحلها، وكونهم أثبت من النساء جأشا، وأشد صبرا على ما يكرهون، وقد أوصاهم الله تعالى على هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس، وحبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ١٩]. على أن الشريعة تعطى المرأة حق اشتراط جعل عصمتها بيدها لتطلق نفسها إذا شاءت، وأعطتها حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي إذا وجد سببه من العيوب الخَلْقية أو المَرَضية كالرجل، وكذا إذا عجز الزوج عن النفقة. وجعلت للمطلقة عليه حق النفَقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها الزواج - وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه - للتنفير عنه - إلى غير ذلك من الأحكام.

(١٠) بالغ الإسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى، وأكد النبي ﷺ فيه حق الأم، فجعل برها مقدما على بر الأب، ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الأخوات، بأخص مما وصى به من صلة الأرحام، بل جعل لكل امرأة قيما شرعيا يتولى كفايتها والعناية بها، ومن ليس لها ولي من أقاربها، أوجب على أولي الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها.

وجملة القول: أنه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة. أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم لمحمد النبي الأمي المبعوث في الأميين؟ بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين المبرهنين، والحمد لله رب العالمين». أ. هـ.

٦ـ بناء الأمة الشهيدة على البشرية

ومن أهداف القرآن الأساسية: تكوين (أمة) متميزة تطبق رسالته، وتؤسس حياتها على عقيدته وشريعته ومثله، وتربي أجيالها على هداه، وتحمل رسالته إلى العالَم كله، فتحمل معها الرحمة والنور والخير للبشرية كلها، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولم يكن تكوين هذه الأمة بالأمر السهل في ظروف نشأة الإسلام المعروفة. فقد ولد الإسلام في جزيرة العرب، وهي قائمة على القبلية والعصبية لها. فالقبيلة هي أساس الولاء، ومصدر الاعتزاز والانتماء، فلا مكان لابن القبيلة إلا بها، بل لا وجود له إلا بها. فهي النسب والحسب، وهي السلطة والقوة، وهي الاقتصاد والسياسة، يرضى برضاها، ويغضب بغضبها، أو بغضب شيخها، ويتعصب لابن القبيلة محقا كان أو مبطلا. شعار كل واحد فيها: «انصر أخاك ـ أي ابن القبيلة ـ ظالما أو مظلوما» بالمعنى الظاهري للعبارة. ولقد وصف أحدهم زعيم قبيلة كبيرة بقوله: إنه رجل إذا غضب غضب له مائة ألف سيف، لا يسألونه: فيم غضب ؟!

وكل قبيلة تحاول أن تستعلي على القبيلة الأخرى، وتنقص من أطرافها، ولهذا كثرت الغارات من بعضهم على بعض، حتى قال قائلهم:

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا !

فلما جاء الإسلام نقلهم نقلة كبيرة في عالَم الفكر، وعالم الشعور، وعالم الواقع. نقلهم من سجن القبَلية الضيقة إلى باحة الأمة الواسعة. وحذّر أشد التحذير من الدعوة إلى العصبية بكل ألوانها، وخصوصا العصبية للقبيلة.

وفي الحديث: «ليس منا من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، أو مات على عصبية»[1].

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (١ـ١٥) عن جبير بن مطعم. والحديث فيه ضعف، ولكن يشهد له حديث مسلم الآتي بعده.

«من قاتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعَصَبَة، أو يدعو إلى عَصَبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتْلَةٌ جاهليّة» [1].

وسُئل ﷺ عن (العصبية) فقال: «أن تعين قومك على الظلم» [2]. ففسرها بأثرها في واقع المجتمع القبلي. فصاحب العصبية مع جماعته وإن جاروا وظلموا، وضد خصومهم وإن بروا وأقسطوا أو أوذوا وظُلموا، على خلاف ما جاء به الإسلام من القيام لله بالقسط: ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة: ٨].

وفي لحظة من لحظات الضعف البشري، أطلت النزعة القَبَلية عند بعض الصحابة، فتنادوا بأسماء قبائلهم: يا بني فلان، ويا بني علان. فغضب النبي ﷺ أشد الغضب، وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» ؟! [3] وقال عن دعوة العصبية كلمته المعبرة: «دعوها فإنها منتنة» [4].

لقد أراد الإسلام أن يبني (أمة) على أساس العقيدة والفكرة، وليس على أي أساس مادي أو أرضي مما يبني عليه البشر أممهم، من عنصر أو لون أو لغة أو أرض، مما ليس للإنسان فيه إرادة واختيار. بل هو قدر مفروض عليه، فلم يختر الإنسان جنسه ولا لونه ولا لغته ولا أرضه التي ولد فيها؛ إنما ورث هذا كله دون أن يكون له رأي فيه.

أما العقيدة، فالأصل فيها أنها من اختيار الإنسان، وإيمان المقلِّد مشكوك في قبوله، بل مرفوض عند المحققين من علماء المسلمين.

أراد الإسلام للمسلمين أن يكونوا أمة تنتسب إلى الحق لا إلى زيد أو عمرو من البشر، فهي لا تقوم على رابطة عرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية. بل هي أمة عقيدة ورسالة قبل كل شيء.

هي أمة الإسلام، أو أمة المسلمين كما قال تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي

---

(١) رواه مسلم في الإمارة عن أبي هريرة (١٨٤٨). وعُمِّيَّة: الأمر لا يستبين وجهه.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥١١٩) عن واثلة بن الأسقع، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٩).

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن اسحاق: ١ / ٣٨٩.

(٤) رواه البخاري.

هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]. وهي أمة الإيمان أو أمة المؤمنين. ولهذا تُنَادَى دائما بـ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

* * *

• أوصاف الأمة الأساسية في القرآن:

أبرز ما يميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة ذكرها القرآن:

• الربانيـــة:

الأول: الربَّانية: ربانية المصدر، وربانية الوجهة. فهي أمة أنشأها وحي الله تعالى، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه، حتى اكتمل لها دينها، وتمت به نعمة الله عليها، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة:٣].

فالله تعالى هو صانع هذه الأمة. ولهذا نجد القرآن الكريم يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فهذا التعبير﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يفيد أن الله هو جاعل هذه الأمة ومتخذها وصانعها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فتعبير ﴿أُخْرِجَتْ﴾ يدل على أن هناك مُخرجا أخرج هذه الأمة، فهي لم تظهر اعتباطا، ولم تكن نباتا بريا ينبت وحده دون أن يزرعه زارع، بل هو نبات مقصود متعَهَّد بالعناية والرعاية. والذي أخرج هذه الأمة وزرعها وهيأها لرسالتها هو الله جل شأنه.

فهي أمة مصدرها رباني، ووجهتها ربانية كذلك، لأنها تعيش لله، ولعبادة الله، ولتحقيق منهج الله في أرض الله. فهي من الله وإلى الله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

• الوسطية:

والثاني: الوسطية.. التي تؤهل الأمة للشهادة على الناس، وتبوئها مكان الأستاذية

للبشرية، وفيها جاءت الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهي وسطية شاملة جامعة: وسطية في الاعتقاد والتصور، ووسطية في الشعائر والتعبد، ووسطية في الأخلاق والسلوك، ووسطية في النظم والتشريع، ووسطية في الأفكار والمشاعر.

وسطية بين الروحية والمادية.. بين المثالية والواقعية.. بين العقلانية والوجدانية.. بين الفردية والجماعية.. بين الثبات والتطور.

إنها الأمة التي تمثل (الصراط المستقيم) بين السُّبل المتعرجة والملتوية، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض. صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين.

● الدعوة:

والوصف الثالث: الدعوة. فهي أمة دعوة ورسالة، ليست أمة منكفئة على نفسها، تحتكر رسالة الحق والخير والهداية لذاتها، ولا تعمل على نشرها في الناس، بل الدعوة فريضة عليها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها على كل الأمم. كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهي لم ترجح سائر الأمم في ميزان الله لسبب مادي أو عنصري. كيف وهي تتكون من عناصر شتّى، من كل من يدخل في دين الله من أجناس البشر عربا أو عجما؟

إنما رجحت في ميزان الحق، لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

وقبل ذلك بآيات، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ومعناها على أحد التفسيرين: اجعلوا من أنفسكم أمة الدعوة والأمر والنهي، فبهذا تستحقون أن يُقصر الفلاح عليكم. و«من» هنا تجريدية لا تبعيضية. كما تقول: ليكن لي منك الصديق الوفي، أي: كن أنت لي الصديق الوفي.

وعلى التفسير الآخر: هيئوا منكم طائفة متماسكة بحيث يصحّ أن تسمى (أمة) قادرة على الدعوة والأمر والنهي، لتسقط فرض الكفاية عنكم، وتكونوا أنتم عونا لها.

إن رسالة الإسلام رسالة عالمية، رسالة لكل الأجناس، ولكل الألوان، ولكل الأقاليم، ولكل الشعوب، ولكل اللغات، ولكل الطبقات. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعلى الأمة المسلمة أن تدعو الناس جميعا إلى الإسلام بألسنتهم حتى تبين الحق لهم، وتقيم الحجة عليهم، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، حتى لا تُلعن كما لُعن الذين من قبلها حين فرطوا في هذا الواجب: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

● الوحدة:

والوصف الرابع: الوحدة. فالأمة التي يريدها الإسلام أمة واحدة، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات، فقد صهرها الإسلام جميعا في بوتقته، وأذاب الفوارق بينها، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ويقول سبحانه: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وكيف لا تكون هذه الأمة واحدة، وقد وحد الله عقيدتها وشريعتها. وحَّد غايتها، ووحَّد منهاجها. كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أمة ربها واحد هو الله، ونبيها واحد هو محمد ﷺ، وكتابها واحد هو القرآن، وقبلتها واحدة هي الكعبة (البيت الحرام)، وشريعتها واحدة هي شريعة الإسلام، ووطنها واحد هو (دار الإسلام) على اتساعها، وقيادتها واحدة تتمثل في (خليفة المسلمين) وأمير المؤمنين، الذي يجسم الوحدة السياسية للأمة.

ولهذا رفض الإسلام أن يكون للمسلمين خليفتان في وقت واحد، حرصا على وحدة الأمة، ومنعا لتفرق كلمتها، وشتات أمرها.

ولهذا لا يجوز أن نقول في تعبيرنا: الأمم الإسلامية، بل الأمة الإسلامية. فهي أمة واحدة كما أمر الله، وليست أمما متفرقة، كما أراد الاستعمار.

يقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

هي أمة ذات شعوب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. فلا بأس أن نقول: الشعوب الإسلامية، بدل (الأمم الإسلامية).

ولقد نبَّه القرآن على دسائس بعض أهل الكتاب الذين يسعون جهدهم لتمزيق شمل المسلمين، وإثارة النعرات العصبية بينهم. قال تعالى محذرا: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وسبب نزول الآية الكريمة وما بعدها يدل على أن المقصود: يردوكم بعد وحدتكم متفرقين، وبعد أخوتكم متعادين.

إن وحدة الأمة توجب عليها أن تجعل أخوتها الإسلامية فوق كل العصبيات، فقد جعلها الله تعالى معبِّرة عن الإيمان ومجسدة له: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال رسوله الكريم ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» [1]، أي لا يخذله عند الشدة أو عند الاعتداء عليه، بل ينصره ويسانده، وهذا هو مقتضى الأخوة. وهو ما يؤكده

(١) متفق عليه عن ابن عمر كما في صحيح الجامع الصغير.

الحديث الآخر: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم» (١).

ويُحذر الإسلام أبلغ التحذير من تعادي أبناء الأمة الواحدة إلى حد أن يحارب بعضها بعضا، كما كانت قبائل الجاهلية تفعل. يقول ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» (٢)، «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» (٣).

* * *

● الإيمان بالأمة لا ينفي خصوصيات الأقوام:

ومن المفيد هنا أن ننبه على قضية ذات شأن، وهي: أن الإيمان بـ (الأمة) المؤسسة على عقيدة الإسلام، وأُخوَّة الإيمان، والتي تضم جميع المسلمين في رحابها ـ حيث كانوا ـ لا ينفي أن هناك خصوصيات معيَّنة لكل قوم، يعتزون بها، ويحافظون عليها، ولا يُفرِّطون فيها، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عرقية تقاوم أخوَّة الإسلام، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام.

ولقد ترك الرسول ﷺ وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها الخاصة، في ظل القيادة الإسلامية العامة، ليكون ذلك مصدرا إضافيا لحماستهم وإقدامهم، حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم.

إن حب الرجل لقومه وعشيرته ورغبته في جلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم: نزعة فطرية لا غبار عليها، ولا خطر فيها، كما لا خطر في حبه لأسرته، واهتمامه بها. ولا غرو أن أمر الرسول بتعلم الأنساب، لما وراءها من تواصل في الأرحام وإن تباعدت: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم» (٤).

وفي الحديث: «خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم» (٥).

إن الخطر إنما يتمثل فيما إذا وقف قومه موقفا معاديا للإسلام، وحادُّوا الله ورسوله. هنا

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢٨٥٢) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متفق عليه عن جرير بن عبد الله كما في اللؤلؤ والمرجان (٤٤)، وعن ابن عمر (٤٥).

(٣) متفق عليه عن ابن مسعود كما في اللؤلؤ والمرجان (٤٣).

(٤) رواه الترمذي في البر والصلة عن أبي هريرة، وقال: غريب من هذا الوجه (١٩٨٠)، وأحمد: ٢/ ٣٧٤، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي: ٤/ ١٦١.

(٥) رواه أبو داود من حديث سراقة بن مالك في الأدب (٥١٢٠)، وفيه أيوب بن سويد، ضعيف.

تحرم الموادة والموالاة، ولو كانت لأقرب الناس للإنسان، كأمه وأبيه، وبناته وبنيه، وزوجه وأخيه.

يقول تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

لا بأس أن يحب الرجل أسرته، ويحب قومه وعشيرته، ولكن إذا تعارض ذلك مع حب الله ورسوله، فإن حب الله ورسوله أغلى من كل شيء. هنا يتغنى المسلم بقول القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

هنا يقول المسلم ما قاله سلمان - رضي الله عنه - حين سُئل: ابن مَن أنت؟ فقال: أنا ابن الإسلام!

٧ـ الدعوة إلى عالم إنساني متعاون

لا يفهم من دعوة الإسلام إلى إقامة (أمة متميزة) بأهدافها وقيَمها ومناهجها، ذات رسالة متميزة، بمقوماتها ومثلها وخصائصها: أن الإسلام دين منغلق على نفسه، وأن أمته تعيش لنفسها، متقوقعة على ذاتها، لا تهتم بغيرها من الناس، صلحوا أو فسدوا، اهتدوا أو ضلوا، ارتقوا أو هبطوا.

كلا، فالإسلام منذ فجر دعوته كان رسالة عالمية، ودعوة للناس كافة، ورحمة لكل عباد الله، عربا كانوا أو عجما، ولكل بلاد الله، شرقا كانت أم غربا، وإلى جميع الألوان، بيضا كانوا أو سودا.

في القرآن المكي نقرأ آيات كريمة من كتاب الله تقرر بوضوح عالمية الدعوة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان: ١].

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٧، ٨٨].

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ: ٢٨].

وأمة الإسلام مكلفة ـ كما ذكرنا ـ بحمل هذه الرسالة العالمية إلى العالم، فلا يجوز لها أن تحتكر الخير والنور لنفسها، بل عليها بعد أن اهتدت بنور الله أن تهدي الآخرين إليه، وبعد أن صلحت بالإيمان والعمل الصالح أن تصلح الأمم، وتدعوها إلى الخير الذي أكرمها الله به.

ولهذا وصف الله أمة الإسلام وأثنى عليها في كتابه حين خاطبها بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُـرُونَ بِالْمَـعْـرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران :١١٠] .

وهي لم تخرج لنفسها، بل أخرجت للناس، لهداية الناس، ولنفع الناس، وإصلاح الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

فهي - في المقام الأول - أمة دعوة ورسالة، مبعوثة بما بعث به رسولها إلى الناس، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» (١).

لهذا قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وسواء كانت (من) في قوله تعالى ﴿منكم﴾ للتجريد، بمعنى: لتكونوا جميعا أمة يدعون إلى الخير، كما تقول: ليكن لي منك الصديق الوفي، ليكن منك الأسد الهصور .. أي لتكن أنت. أم كانت (من) للتبعيض، بمعنى: كوِّنوا منكم أمة - أي جماعة - قوية مترابطة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف .. إلخ .. فعلى كلا المعنيين: الأمة هي المسئولة عن الدعوة والأمر والنهي، ولو بتكوين هذه الجماعة وتقويتها وإمدادها وتهيئتها لوظيفتها، ومراقبتها في أدائها، ولهذا خوطبت بهذا التكليف.

وهذا ما فقهه الصحابي الكريم ربعي بن عامر - رضي الله عنه - حين سأله رستم قائد جيوش الفرس في معركة القادسية: من أنتم؟ فقال له في عزة مؤمنة، وفي إيمان عزيز:

نحن قوم ابتعثنا الله، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا، إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فلخص هذا الصحابي - الذي لم يتخرج في جامعة، ولم ينقب في الكتب، ولم يختلف إلى المعلمين - الأهداف الكلية الكبرى للإسلام في هذه الكلمات الموجزة. وإنما تعلمها في المدرسة المحمدية، التي خرجت هذه الصفوة من البشر، وهذه النماذج الربانية التي لم تر عين الدنيا مثلها.

كانت رسالة الإسلام العالمية (رحمة عامة) كما وصفها الله، ودعوة إلى خير الإنسانية. وهذه الرحمة أو هذا الخير يتجلى في جملة مبادئ أو قيم عليا دعا إليها الإسلام، أهمها وأبرزها ما يلي:

---

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي في كتاب الطهارة عن أبي هريرة.

١ ـ تحرير الإنسان من العبودية للإنسان:

أول هذه المبادئ: أن الإسلام ـ بدعوته إلى التوحيد الخالص، ومقاومته للشرك بكل ألوانه ومستوياته ـ حرر الإنسان من العبودية للإنسان، كما حرره من العبودية للأشياء، أو للأوهام، أو للذات.

أسقط الإسلام الآلهة المزيفين الذين قدسهم الناس، واتخذوهم أربابا من دون الله أو مع الله، سواء كانوا من رجال الدين أم من رجال الدنيا والسلطان، كما قال تعالى في شأن أهل الكتاب: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [**التوبة**: ٣١].

وكانت الآية التي ختم بها الرسول الكريم رسائله إلى قيصر والمقوقس والنجاشي، وغيرهم من أمراء النصارى قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [**آل عمران**: ٦٤].

وكانت هذه الكلمة ﴿ **لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** ﴾ إيذانا بميلاد جديد للبشرية، فلا يتأله بعضهم على بعض، ولا ينحني بعضهم لبعض. ولا يسجد بعضهم لبعض، ارتفعت الجباه، فلا تسجد إلا لخالقها، واستقامت الظهور فلا تركع إلا لبارئها، وعز الناس فلا يذلون إلا لله الواحد القهار.

الله وحده هو الذي تتجه إليه القلوب راجية خائفة: ﴿ **وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ [**الإسراء**: ٥٧]. وهو الذي تمتد إليه الأيدي والألسن سائلة ضارعة، وهو الذي يملك وحده العطاء والمنع، والخفض والرفع، والحياة والموت.

وهو وحده الذي يملك حق التشريع المطلق للبشر، بحكم خلقه إياهم، وإمدادهم بالنعم التي لا تحصى، فهو الذي يملك أن يحرم عليهم، وأن يحل لهم. فهو الذي (له الحكم)، و(له الخلق والأمر)، ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً** ﴾ [**الأنعام**: ١١٤].

٢ـ الأخوّة والمساواة الإنسانية:

ومن ثمار التوحيد الذي دعا إليه الإسلام: الأخوّة البشرية، ومن لوازمها: المساواة الإنسانية.

وهذه الأخوة مبنية على أمرين:

الأول: أن الناس جميعا ـ بمقتضى دعوة التوحيد ـ عبيد لرب واحد، هو الذي خلقهم فسواهم، فهم متساوون في مرتبة العبودية لله.

والثاني: أنهم جميعا أبناء لأب واحد، فهم ـ مهما اختلفت ألوانهم، وتباعدت أوطانهم، وتباينت ألسنتهم، وتفاوتت طبقاتهم ـ أبناء آدم. فهم متساوون في مرتبة البنوة لآدم.

وهذا ما بلّغه النبي ﷺ للأمة في حجة الوداع حين قال في جموع الناس: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب: لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[1].

وقال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة هذه الدعوات الثلاث:

- «اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك».
- «اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك».
- «اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة».

فهذا الدعاء النبوي الكريم يتضمن شهادات أساسية ثلاثا:

أولاها: شهادة لله بالوحدانية. وثانيتهما: شهادة لمحمد بالعبودية والرسالة. وثالثتها: شهادة للعباد كلهم بأنهم أخوة، فهي أخوّة إنسانية عامة، والأخوة تتكون من عناصر ثلاثة: المحبة، والمساواة، والتعاون.

---

(١) رواه أحمد في مسنده: ٥ / ٤١١، عن أبي نضرة عمن سمع خطبة النبي ﷺ في وسط أيام التشريق، وصحّحه الألباني في تخريج الحلال والحرام.

وقـد يقـول بعض الناس: إن الله تعـالى يقـول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ورسوله يقول: «المسلم أخو المسلم» فاعتبر الأخوّة بالدين والإيمان لا بغيرهما.

ونقول: إن الأخوة الدينية القائمة على الإيمان هي أخص أنواع الأخوة وأعمقها، ولكنها لا تنافي وجود الأنواع الأخرى من الأخوة، مثل الأخوة الوطنية والقومية، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود: ٦١]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٥، ١٠٦]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١]، فأثبت القرآن هذه الأخوة، بين هؤلاء الرسل، وأقوامهم، وهم مكذبون لهم، متمردون على رسالاتهم، لأنهم منهم، وليسوا غرباء عنهم، فهي أخوة قومية.

وهناك الأخوة البشرية بين أبناء آدم عامة، وهي التي شهد بها الرسول في حديثه السابق. وقد عبر عن ذلك شاعر مسلم فقال:

إذا كـان أصلي من تراب، فكلهـا بلادي، وكل العـالمين أقـاربي!

٣ـ العدل لجميع الناس:

ومما دعا إليه الإسلام لخير الإنسانية: إقامة العدل بين الناس كل الناس، فليس عدلا للعرب وحدهم، ولا للمسلمين وحدهم، إنما هو عدل للناس كلهم جميعا.

يقول تعالى في بيان أهداف الرسالات السماوية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وهكذا تبين الآية أن إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما كانا لتحقيق هدف أساسي، هو: أن يقوم (الناس) بالقسط، وهو العدل، الذي به يعطى كل ذي حق حقه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

هكذا بهذا التعميم، إذا حكمتم بين (الناس) لا بين المسلمين فحسب.

وقد أنزل الله تسع آيات في سورة النساء عتابا للرسول الكريم، حين همَّ أن يدافع عن قوم من المسلمين الضعفاء أو من المنافقين، اتهموا يهوديا ظلما بالسرقة، ولم يكن هو بالسارق، وإنما هم السراق. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٧].

وقد أمر الله المؤمنين أن يقوموا بالقسط شهداء لله، لا يمنعهم من ذلك عاطفة حب لقريب، أو بغض لبعيد، فالعدل يجب أن يكون فوق صلات القرابة والبعد، وفوق عواطف المحبة والكره، ويجب أن يكون لله سبحانه.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]. فهذا هو العدل مع من تحب، ولوكان أحد والديك، أو أقرب أقربائك إليك، بل لو كان نفسك ذاتها.

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨]. فهذا هو العدل مع من تكره من الناس ممن يحملون لك (الشنآن). والشنآن هو: شدة البغض والعداوة. ولكن هذا لا يجوز أن يحمل المؤمن على الظلم، فإن الله لا يحب الظالمين، ولا يهديهم، ولن يفلحوا إذن أبداً، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة.

وقد طبق المسلمون هذا العدل مع الشعوب كلها، في عصر النبوة، وفي القرون الأولى - خير القرون - بصفة عامة. ووجدنا عمر بن الخطاب يأمر لرجل قبطي مصري بالقصاص من ابن الوالي على مصر: عمرو بن العاص، ويقول لعمرو كلمته التاريخية: يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!

وهذه الكلمة التي قالها عمر على البديهة أصبحت تفتتح بها مواثيق حقوق الإنسان، ودساتير الأمم المتقدمة في العصر الحديث.

ومما يجب التنويه به هنا: أن الإسلام أشعر جماهير الناس أن العدل فريضة لا تهاون فيها، وأن كل مظلوم سيأخذ حقه ممن ظلمه، فلا غرو أن سافر الرجل من الفسطاط بمصر إلى المدينة

بالحجاز ـ وهو سفر شاق طويل في ذلك الزمن ـ ليطالب بحقه. وقد كان في عهد الرومان يُضرب ويُسلب، وتُنتهك حرماته، فلا يرفع بذلك رأسًا، لأنه لا يجد من يشكو إليه، ولو وجده فلن يستمع إليه!!

وفي عهد علي بن أبي طالب حكم قاضيه شريح لنصراني على أمير المؤمنين، لأنه لم يكن لديه بينة، وهنا لم يملك النصراني إلا أن يعلن إسلامه على الملأ، ويشهد أن عليًا هو صاحب الحق، ويقول: هذه أحكام أنبياء!

والأمثلة على ذلك كثيرة، والتاريخ حافل بالشواهد.

٤ ـ السلام العالمي:

ومما دعا إليه الإسلام كذلك: السلام بين البشر، بدل الحروب والنزاع.

وربما كان هذا مستغربًا لدى بعض الناس، فقد عرفوا أن الإسلام دين الجهاد في سبيل الله، وأن الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال عند الله، وأن الصائم الذي لا يفطر، والقائم الذي لا يفتر، لا يبلغان ثواب المجاهد في سبيل الله.

وهذا صحيح، ولكن الجهاد في الإسلام إنما فرض للدفاع عن الدعوة إذا اعتدي عليها، أو فتن أهلوها، ولقتال من يقاتل المسلمين، ولإنقاذ المستضعفين في الأرض، وتأديب الناكثين للعهود، المتعدين للحدود. ولم يشرع الجهاد للعدوان على مسالم بريء لم يؤذ المسلمين، ولم يقاتلهم أو يظاهر عدوهم عليهم.

وهذا واضح في القرآن: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٠].

﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٣].

والفتنة: تعني اضطهاد الناس وتعذيبهم من أجل عقيدتهم.

﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ٧٥].

﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ٩٠].

﴿ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ١٣].

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١].

وتاريخ الدعوة الإسلامية يثبت أن الإسلام أوصى أتباعه بالصبر على الأذى ثلاثة عشر عامًا في مكة. كانوا يأتون إلى الرسول، ما بين مضروب ومشجوج من المشركين، قائلين: ائذن لنا يا رسول الله في الدفاع عن أنفسنا! فيقول لهم ما ذكره القرآن: ﴿ كُفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة ﴾ [النساء: ٧٧]. كان النبي - كما علمه القرآن - يقول لهم: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]. ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ [يونس: ٤١]. وهم يقولون له: لنا ديننا وليس لك دينك، ولنا عملنا وليس لك عملك. وصبوا عليه وعلى أصحابه سياط العذاب، واشتدوا عليهم بالأذى في أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وكانت حكمة الإسلام بعد هذه المدة أن يأذن لأهله بالدفاع عن أنفسهم: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وكانت غزوات وسرايا اضطر المسلمون أن يدخلوها وهم كارهون، كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وفي غزوة بدر وصف الله حال المؤمنين بقوله: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ [الأنفال: ٥].

لم يكن المسلمون متعطشين للدماء كما يصورهم أعداء الإسلام، بل كانوا مدافعين عن دين استبيحت حرماته، وطرد أتباعه من وطنهم، وصودرت أموالهم، وغزوا في عقر دارهم، كما في أحد، والخندق. ومع هذا يعقب القرآن على غزوة الخندق فيقول: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فهذا التعليق القرآني: ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ يبين أن هذه نعمة عظيمة من الله تعالى للمؤمنين، أن رد أعداءهم عنهم، ولم يحققوا هدفهم من غزوتهم، وأن الله كفاهم القتال، وأراحهم من تبعاته وآثاره. ولا يتصور أن يصدر هذا التعليق الرائع ممن يتعطش للقتال، ويعشق رؤية الدم المسال!

وفي غزوة الحديبية يعقب القرآن على ما تم من صلح بين الرسول والمشركين، فينزل فيه (سورة الفتح) وفيها يقول الله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١]، فيقول الصحابة: أفتح هو يا رسول الله؟ فيقول: نعم.

ويمتن الله على المسلمين بقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ٢٤].

فانظر كيف امتن الله على المؤمنين بكف أيديهم عن المشركين، كما كف أيدي المشركين عنهم، دلالة على أن السلام في ذاته نعمة يذكرها لهم في معرض الامتنان.

ويقول رسول الله ﷺ: «أقبح الأسماء حرب ومرة» (١)، فدل على أنه يكره حتى كلمة (حرب)... وقد كان أهل الجاهلية يسمون بذلك أبناءهم، فنبه المسلمين على قبح هذا الاسم، ولا يمكن أن يصدر ذلك من رجل محب للحرب، متعطش للدم، كما يقول الذين لا يعلمون، أو الذين يتبعون أهواءهم.

٥- التسامح مع غير المسلمين:

ومن المبادئ والقيم التي دعا إليها الإسلام هنا: التسامح مع غير المسلمين، والتعامل معهم بروح إنسانية عالية، لا تتعصب ولا تحقد على من خالفها.

وهذا مع كل من خالف الإسلام من غير المسلمين. ولكن لأهل الكتاب - من اليهود والنصارى - معاملة خاصة، باعتبارهم أهل دين سماوي في الأصل، وينتسبون جميعا إلى أبي الأنبياء إبراهيم، ولهذا سماهم القرآن ﴿ أهل الكتاب ﴾ وأباح أكل ذبائحهم، وتزوج نسائهم، كما قال تعالى: ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ

---

(١) رواه أبو داود في «الأدب» عن أبي وهب الجشمي (٤٩٥٠)، ونسبه المنذري للنسائي أيضا، وعلل الإمام الخطابي قبح اسم (حرب) بما في الحرب من المكاره.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

والمصاهرة أحد رابطين أساسيين ربط الله بهما بين البشر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

كما أن الزواج في نظر القرآن يقوم على دعائم من السكون والمودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

ومعنى زواج المسلم من كتابية: أن تكون هي سكن نفسه، وموضع مودته وسره، وشريكة حياته، وربة بيته، وأم أولاده، وأن يكون أصهاره وأجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وأولاد أخوالهم وخالاتهم، من أهل الكتاب، وهؤلاء لهم حقوق صلة الرحم وذوي القربى التي يفرضها الإسلام.

ولا نجد في السماحة مع المخالف في الدين أرحب ولا أعلى من هذا الأفق الذي وجدناه في شريعة الإسلام.

وقد فرق القرآن تفريقا واضحا في المعاملة: بين صنفين من غير المسلمين: صنف (المحاربين) المقاتلين لهم في الدين، الذين شردوهم من ديارهم، وعاونوا على تشريدهم، وصنف آخر مسالم لهم لم يشارك في شيء من هذه الأعمال. وذلك في آيتين كريمتين تعتبران دستورا محكما في تحديد العلاقة بغير المسلمين. يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩،٨].

والبر هو: الخير، والقسط هو: العدل. وقد نزلت هاتان الآيتان في شأن المشركين والوثنيين، كما دلت على ذلك أسباب نزول السورة. فأهل الكتاب أولى بالبر والقسط من المشركين.

ثم إن المعاهدين صنفان:

(أ) من لهم عهد مؤقت، وهؤلاء يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم.

(ب) والثاني من لهم عهد دائم ومؤبد. وهم الذين يسميهم المسلمون (أهل الذمة) بمعنى أن لهم ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة جماعة المسلمين. وهم الذين قال فيهم الفقه الإسلامي: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، أي في الجملة إلا ما اقتضته طبيعة الاختلاف الديني.

وأهل الذمة يحملون (جنسية دار الإسلام) وبتعبير آخر: هم مواطنون في الدولة الإسلامية. ولهذا يسميهم الفقهاء: أهل دار الإسلام، إن لم يكونوا أهل ملة الإسلام. وأهلية الدار تعني: المواطنة بالتعبير المعاصر.

فليست عبارة «أهل الذمة» عبارة ذم أو تنقيص، كما قد يتوهم بعض الناس! بل هي عبارة توحي بوجوب الرعاية والوفاء، تدينا وامتثالا لشرع الله.

وإذا كان الإخوة المسيحيون يتأذون من هذا المصطلح، فليغيَّر أو يحذف، فإن الله لم يتعبدنا به، وقد حذف سيدنا عمر رضي الله عنه ما هو أهم منه، وهو لفظ (الجزية)، برغم أنه مذكور في القرآن، وذلك استجابة لعرب بني تغلب من النصارى، الذين أنفوا من هذا الاسم، وطلبوا أن يؤخذ منهم ما يؤخذ باسم الصدقة، وإن كان مضاعفا. فوافقهم عمر، ولم ير في ذلك بأسا، وقال: هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم[1]!

وهذا تنبيه من الفاروق على أصل مهم، وهو النظر إلى المقاصد والمعاني، لا إلى الألفاظ والمباني، والاعتبار بالمسميات والمضامين، لا بالأسماء والعناوين.

ومن هنا نقول: إنه لا ضرورة للتمسك بلفظ (الجزية) الذي يأنف منه إخواننا النصارى في مصر وأمثالهم في البلاد العربية والإسلامية، الذين امتزجوا بالمسلمين، فأصبحوا يكوِّنون نسيجا قوميا واحدا. فيكفي أن يدفعوا (ضريبة) مالية، كما يدفع المسلمون (الزكاة)، وأن يشتركوا بأنفسهم في الدفاع عن الأمة والوطن، كما يشترك إخوانهم من المسلمين.

وقد رأينا الإمام الأوزاعي يقف مع جماعة من أهل الذمة في لبنان ضد الأمير العباسي قريب الخليفة.

وقد رأينا الإمام ابن تيمية يخاطب تيمور لنك في فكاك الأسرى عنده، فيعرض عليه أن يفك أسرى المسلمين وحدهم، فيأبى إلا أن يفرج عن أهل الذمة معهم[2].

---

(١) انظر: كتابنا «فقه الزكاة»: ٢/ ٧٠٨.

(٢) انظر في تفصيل ذلك: كتابنا (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي) الطبعة الثالثة - مكتبة وهبة.

الباب الثاني

كيف نتعامل مع القرآن العظيم : حفظا وتلاوة واستماعا

١ ـ حفظ القرآن

٢ ـ تلاوة القرآن وسماعه

الفصل الأول

حفظ القرآن

١ - فضل حفظ القرآن

٢ - آداب حملة القرآن

٣ - الإخلاص في طلب القرآن وتعليمه

حفظ القرآن

من خصائص القرآن: أنه كتاب ميسر للحفظ والاستظهار، كما أنه ميسر للذكر والفهم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧] وغيرها.

وذلك أن في ألفاظ القرآن وجمله وآياته سلاسة وعذوبة وسهولة، تجعله ميسور الحفظ لمن أراد أن يحفظه، ويحمله في صدره، ويجعل قلبه وعاء له.

ومن هنا وجدنا الألوف وعشرات الألوف من المسلمين يحفظون القرآن، وأكثرهم من الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم، وهذا لا يعرف لكتاب من الكتب، مقدس أو غير مقدس، تحفظه مثل هذه الأعداد الهائلة.

ولو بحثت في أمر (الكتاب المقدس) عند النصارى، لم تجد أحدا يحفظه كله، ولا نصفه ولا ربعه، من المؤمنين به، حتى الأحبار والرهبان والقسس والأساقفة والكرادلة، لا يحفظون كتابهم.

بل وجدنا من يحفظ القرآن أجود الحفظ من غير العرب: من الإخوة الهنود والباكستانيين والبنغاليين والأفغان والأتراك والسنغاليين وغيرهم من أبناء آسيا وإفريقيا، وهم لا يعرفون العربية. ولقد امتحنت بعض هؤلاء في مسابقات حفظ القرآن في دولة قطر، ووجدت الواحد منهم كأنه شريط مسجل للقرآن، لا يخرم منه حرفا، ولا يسقط كلمة، ومع هذا حين أسأله: ما اسمك؟ لا يجيب! لأنه لا يعرف معاني الكلمات بالعربية.

وهذا كله تحقيق لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

فقد تكفل الله سبحانه بحفظ هذا الكتاب بهذه الصيغة المؤكدة [١]، وكان من وسائل حفظه: أن هيأ له من يستظهره ويحفظه، جيلا بعد جيل.

---

(١) يتجلى التأكيد في الجملة الاسمية وفي لفظ (إن) وفي اللام في الخبر ﴿لحافظون﴾.

ولقد حفظت القرآن وجودته وأنا دون العاشرة، وكان يمكن أن أحفظه في أقل من ذلك.

ولقد وجدت في بنجلاديش صبيا يحفظ القرآن وهو ابن التاسعة، واختبرت حفظه فوجدته غاية في الجودة والإتقان.

ولقد وجدنا في مصر من يحفظ القرآن في سن السابعة، كما شهدت بذلك المسابقات التي تعقد لحفاظ القرآن. وجاء أحدهم[1] إلى قطر وكرمه وزير التربية والتعليم فيها منذ سنوات. ورأيت طفلا في نفس السن يحفظ القرآن ويجوده من قرية قريبة من قريتنا في مصر، اسمها (سجين الكوم)[2].

ولقد رأينا بعض التربويين المعاصرين ينتقدون حفظ القرآن في الصغر، لأنه حفظ دون فهم، ولا ينبغي للإنسان أن يحفظ ما لا يفهم.

ولكن هذه القاعدة لا ينبغي أن تطبق على القرآن، فلا بأس أن يحفظ الصبي القرآن صغيرا، ثم يفهمه كبيرا. لأن الحفظ في الصغر، كالنقش على الحجر، كما قال الحكيم قديما. ولما قيل له: إن الكبير أوفر عقلا ! قال: ولكنه أكثر شغلا !

ولقد حفظنا القرآن واخترّناه صغارا، فنفعنا الله به كبارا.

على أن من مزايا القرآن: أنه كتاب مبين ميسر، كما بينا في خصائصه، ولهذا يفهمه - في الجملة - الصغير والكبير، والأمي والمتعلم، ويأخذ كل منه على قدره.

وأذكر أني - وأنا في الكتاب - كنت أقرأ قصص القرآن ومواعظه وأعرف العبرة العامة منها، وإن خفيت على معاني الغريب من الكلمات والأحكام ونحوها.

ومما أذكره أني كنت يوما (أسمِّع) على فقيه كتابنا الشيخ حامد - رحمه الله - سورة الصافات، وفيها ذكر عدد من قصص المرسلين، ومنهم لوط وقومه الذين دمر الله عليهم، وأهلكهم بعذابه. وفيها يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ

---

(١) هو التلميذ: بدري أبو زيد من محافظة أسيوط.

(٢) ولقد ظهر منذ عدة أشهر الطفل الإيراني - وهو في السابعة من عمره - الذي يُعدُّ آيةً من آيات الله في حفظ القرآن الكريم، وهو السيد محمد حسين الطباطبائي - وقد زار قطر في شهر المحرم سنة ١٤١٩ هـ. (مايو سنة ١٩٩٨ م). وأبدى من حفظ القرآن وفهمه ما بهر الجميع. وقد زارني هو ووالده وسفير إيران في الدوحة، وامتحنته في الحفظ والفهم، فكان أعجوبة حقا.

أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات : ١٣٣ - ١٣٨].

وقد قرأت الآيتين الأخيرتين هكذا : وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل . ووصلت «مصبحين وبالليل» ولم أقف على رأس الآية ، ثم قرأت «أفلا تعقلون» . فقال الفقيه : الله يفتح عليك ! فقد عرف الشيخ أنني فهمت المعنى : أنكم تمرون عليهم مصبحين وممسين ، بالنهار وبالليل .

وقد وجدنا من إخواننا النصارى من يحرص على حفظ القرآن أو أجزاء كثيرة منه ، وأن يحفظه أبناؤه في صغرهم ، كما حكى ذلك عن نفسه الدكتور نظمي لوقا الأديب القبطي المصري في مقدمة كتابه الشهير : (محمد : الرسالة والرسول) وكيف بعث به أبوه إلى أحد شيوخ المسلمين في مدينة السويس ، وكان شيخا ضريرا متقنا لقراءة القرآن ، وأوصاه أن يلقن ابنه القرآن ، ويحفظه إياه على أصوله . وقد فعل .

وكان الزعيم السياسي القبطي المعروف مكرم عبيد يحفظ الكثير من القرآن ، ويحسن الاقتباس منه في خطبه إذا خطب ، وفي مقالاته إذا كتب ، وفي مرافعاته إذا ترافع ، فكانت الكلمات القرآنية ، تكسب كلامه حلاوة ، وتضفي عليه طلاوة ، وتعطيه قوة لا توجد في غيره من الكلام .

ومما يفيده حفظ القرآن في الصغر على أصوله : تقويم اللسان ، وضبط الحروف ، وإخراجها من مخارجها الصحيحة ، وعدم الوقوع فيما يقع فيه العوام وكثير من المتعلمين للأسف ، من عدم تعطيش الجيم ، وعدم إخراج اللسان في الثاء والذال والظاء ، ونحوها ، وعدم تفخيم حروف الإظهار المعروفة من الخاء والصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف ، ومثل ذلك متى تفخم الراء ومتى ترقق ، ومثل ذلك اللام في لفظ الجلالة (الله) متى تفخم ومتى ترقق . ونحو ذلك من الأشياء التي تعودناها ، ولانت بها ألسنتنا من الصغر بسبب حفظ القرآن وتجويده ، وأصبحت لنا طبيعة ثانية .

فضل حفظ القرآن

استفاضت الأحاديث عن رسول الله ﷺ ترغب في حفظ القرآن، أي قراءته عن ظهر قلب، بحيث لا يخلو جوف المسلم من شيء من كتاب الله. كما في الحديث الذي رواه ابن عباس مرفوعا: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»[1].

وكان الرسول ﷺ يكرم أصحاب القرآن وحملته، ويعرف لهم منازلهم، ويقدمهم على غيرهم.

فعن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ بعثا، وهم ذوو عدد، فاستقرأهم: كل رجل منهم - يعني ما معه من القرآن - فأتى على رجل من أحدثهم سنا، فقال: «ما معك يا فلان»؟ قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة، فقال «أمعك سورة البقرة»؟ قال: نعم. قال: «اذهب فأنت أميرهم!». فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرءوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه، كمثل جراب محشو مسكا، يفوح ريحه في كل مكان. ومن تعلمه فيرقد - وهو في جوفه - فمثله كمثل جراب أُوكي على مسك»[2].

وإذا كان هذا في حال الحياة، فقد كان عليه الصلاة والسلام بعد الموت، يقدم في اللحد على غيره من كان أكثر أخذا للقرآن، كما صح في شهداء أحد.

وكان يبعث إلى القبائل (القراء) من أصحابه، ليعلّموهم فرائض الإسلام وآدابه، لأنهم - بما معهم من كتاب الله - أقدر على القيام بهذه المهمة. ومن هؤلاء الصحابة: السبعون الذين استشهدوا في واقعة (بئر معونة) المعروفة في السيرة. وقد غدر بهم المشركون.

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي وحسنه (٢٨٧٩) واللفظ له، وابن ماجه مختصرا (٢١٧) وابن خزيمة (١٥٠٩) وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢١٢٦) وفي سنده عطاء، مولى أبي أحمد لم يوثقه غير ابن حبان.

وعن أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قال: «يجيء صاحب القرآن يوم القيامة، فيقول القرآن: يا رب حَلِّه، فيُلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده، فيُلبس حُلة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه، فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وارْق، ويزداد بكل آية حسنة»[1].

وليست مثوبة الله في الآخرة مقصورة على صاحب القرآن وحده، بل إن نورها ليشمل أبويه، وينالهما قبس منه ببركة القرآن.

فعن بريدة قال: قال رسـول الله ﷺ: «من قرأ القرآن، وتعلمه وعمل به، أُلبس يوم القيامة تاجا من نور، ضوءه مثل ضوء الشمس، ويُكسى والداه حلَّتين، لا تقوم لَهماَ الدنيا، فيقولان: بم كُسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن»[2].

وإنما نال الوالدان هذا التكريم الإلهي، لأنهـما أسهـما في توجيه ولدهما إلى القرآن منذ صغره. وفي هذا تحريض للآباء والأمهات على توجيه أولادهم إلى حفظ القرآن في الصغر.

وقال ابن مسعود: «إن أصفر البيوت: بيت ليس فيه شيء من كتاب الله»[3]

ومعنى (أصفرها) ـ بالفاء ـ أي أخلاها من الخير والبركة، من الصِّفْر وهو الخلو. (ومنه أخذ الصِّفْر في الحساب، وهو يعني العدم إذا كان وحده).

وذكره المنذري في الترغيب والترهيب بلفظ «أصغر البيوت» بالغين لا بالفاء، ومعناه: أهون البيوت منزلة، وأدناها قيمة.

حفظة القرآن من الصحابة:

وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضل من يقرأ القرآن ويحفظه، وكان الحافظ يسمَّى القارئ، والحفظة يسمَّون: القراء. وأحيانا يعبرون عن الحفظ بـ «الجمع».

روى البخاري عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: معاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد (أحد عمومة أنس).

---

(١) رواه الترمذي وحسنه (٢٩١٦) وابن خزيمة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١ / ٥٥٣).

(٢) رواه الحاكم وصححه على شرط مسلم (١ / ٥٦٨) ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الحاكم عن ابن مسعود موقوفا، وقال: رفعه بعضهم، وكذا قال الذهبي (١ / ٥٦٦).

وفي رواية أخرى عن أنس قال: مات النبي ﷺ، ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد[1].

وفيه مخالفة للرواية الأخرى من وجهين: أحدهما: التصريح بصيغة الحصر في الأربعة. والآخر: ذكر أبي الدرداء بدل أبيّ بن كعب!

وقد استنكر جماعة من الأئمة الحصر في الأربعة. وأولوا قول أنس بأنه قال ذلك في حدود علمه. وإلا فالحفاظ أضعاف ذلك، كما هو ثابت بيقين. فقد روى البخاري عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله ابن مسعود، وسالم (مولى أبي حذيفة) ومعاذ، وأبيّ بن كعب». والأولان من هؤلاء من المهاجرين.

وهذا الحديث الذي يثبت الفضل لهؤلاء الأربعة من الأنصار لا ينفي وجود غيرهم في ذلك الوقت ممن شاركهم في حفظ القرآن. فقد كان جماعة من الصحابة يحفظون مثل الذين يحفظونه وأزيد. وفي الصحيح في غزوة بئر معونة: أن الذين قتلوا بها من الصحابة كان يقال لهم: القراء، وكانوا سبعين رجلا.

وقال القرطبي معلقا على قول أنس: قد قتل يوم اليمامة (في حرب الردة) سبعون من القراء، وقتل في عهد النبي ببئر معونة مثل هذا العدد. وإنما خص أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم، أو لكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم.

وبين الحافظ بن حجر أن المراد بقول أنس ذلك الخزرج دون الأوس، كما أخرج ابن جرير عنه قال: افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقال الأوس: منا من اهتز له العرش: سعد ابن معاذ، ومن عدلت شهادته رجلين: خزيمة بن ثابت، ومن غسلته الملائكة: حنظلة بن أبي عامر، ومن حمته الدّبر: عاصم بن أبي ثابت. فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن، لم يجمعه غيرهم . . . فذكرهم[2].

وذكر الحافظ السيوطي امرأة جمعت القرآن، لم يعدها أحد ممن تكلم في ذلك، وهي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث، وكان رسول الله يزورها، ويسميها الشهيدة، وكان النبي

---

(١) اختلفوا في اسمه، قال ابن حجر: ثم وجدت عند ابن أبي داود ما رفع الإشكال، فإنه روى بإسناد على شرط البخاري إلى ثمامة عن أنس: أن أبا زيد الذي جمع القرآن، اسمه: قيس بن السكن. قال: وكان رجلا منا، من بني عدي بن النجار، أحد عمومتي، ومات ولم يدع عقبا، ونحن ورثناه. أ. هـ. وكان من أهل العقبة، وأهل بدر. انظر: الإتقان (٢/ ٢٠٣).

(٢) انظر الإتقان للسيوطي ج١ / ١٩٩ ـ ٢٠١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

ﷺ قد أمرها أن تؤم أهل دارها، وكان لها مؤذن. وقد قتلها غلام وجارية لها في عهد عمر. فقال عمر: صدق رسول الله، كان يقول: «انطلقوا بنا نزور الشهيدة»!

قال ابن حجر: والذي يظهر من كثير من الأحاديث: أن أبا بكر كان يحفظ القرآن في حياة رسول الله ﷺ. ففي الصحيح أنه بنى مسجدا بفناء داره، فكان يقرأ فيه القرآن، وهو محمول على ما كان نزل منه إذ ذاك. قال: وهذا مما لا يرتاب فيه، مع شدة حرص أبي بكر على تلقي القرآن من النبي ﷺ، وفراغ باله له، وهما بمكة، وكثرة ملازمة كل منهما للآخر، حتى قالت عائشة: إنه ﷺ كان يأتيهم بكرة وعشيا. وقد صح حديث: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»(١). وقد قدمه ﷺ إماما للمهاجرين والأنصار، فدل على أنه كان أقرأهم. أ. هـ. قال السيوطي: وقد سبقه إلى ذلك ابن كثير(٢).

قال: وأخرج ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: (معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري). فأضاف هنا على ما ذكر أنس: عبادة وأبا أيوب.

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب (القراءات) القراء من أصحاب النبي ﷺ، فعد من المهاجرين: الخلفاء الأربعة وطلحة وسعدا وابن مسعود وحذيفة وسالما وأبا هريرة، وعبد الله ابن السائب، والعبادلة، وعائشة وحفصة وأم سلمة. ومن الأنصار: عبادة بن الصامت، ومعاذا الذي يكنى أبا حليمة، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلّد. وصرح بأن بعضهم إنما أكمله بعد النبي ﷺ.

قال السيوطي: وعد منهم ابن أبي داود: تميما الداري، وعقبة بن عامر. قال: وممن جمعه أيضا: أبو موسى الأشعرى، ذكره أبو عمرو الداني(٣).

ولا ريب أنه لم يكن في الصحابة عدد من حفظة القرآن مثل ما عندنا اليوم، فقد كانوا يتعلمون ـ مع القرآن ـ علمه والعمل به.

ولذا قال عمر: كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جدّ في أعيننا! أي أصبح ذا جد ومقام في نظرنا.

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي مسعود. صحيح الجامع الصغير (٨٠١١).
(٢) الإتقان (١/ ٢٠١).
(٣) المصدر السابق (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).

وعندما ختم عمر سورة البقرة نحر جزورا (أي ناقة) شكرا لله على هذه النعمة. وكنا ونحن صغار نحتفل إذا ختمنا سورة البقرة ونسميها: (الختمة الصغرى). أما (الختمة الكبرى) فهي باكتمال حفظ القرآن كله.

ولا عجب، فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وإن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»(١).

وعن أبي أمامة الباهلي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلَةُ»(٢). أي السحرة، لا يقدرون على تحصيلها.

وقال ابن مسعود: «هذا القرآن مأدبة الله، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل، فإن أصفر البيوت من الخير: الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، وإن البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، كخراب البيت الذي لا عامر له، وإن الشيطان يخرج من البيت الذي يسمع منه سورة البقرة»(٣).

وقال ابن مسعود أيضا: «إن لكل شيء سناما، وسنام القرآن: سورة البقرة»(٤).

---

(١) رواه بهذا اللفظ الترمذي في ثواب البقرة (٢٧٨٠) وقال: حسن وصحيح. ورواه مسلم بلفظ: «إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة». حديث (٧٨٠).

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل القرآن وسورة البقرة برقم (٨٠٤).

(٣) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد): رواه الطبراني بأسانيد، ورجال هذا الطريق رجال الصحيح (٧/ ١٦٤).

(٤) رواه الحاكم في فضائل القرآن وصحح إسناده (١/ ٥٦١) ووافقه الذهبي. وقد روي مرفوعا.

آداب حملة القرآن

ولحَمَلة القرآن وحفَظَته آداب ينبغي أن يراعوها، وعليهم واجبات يجب أن ينفذوها، حتى يكونوا من (أهل القرآن) حقًا، الذين قال فيهم النبي ﷺ: «إن لله أهلين من الناس». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته»(١).

تعاهد القرآن:

من هذه الآداب: تعاهد القرآن، حتى لا يتفلت من ذاكرته، وذلك بدوام تلاوته استظهاراً من الصدر، أو قراءة من المصحف، أو بالاستماع إليه من قارئ مجيد له، من طريق الإذاعة أو المصاحف المرتلة لكبار القراء. ومن فضل الله تعالى أن وجد في عدد من البلاد الإسلامية إذاعة للقرآن الكريم، تُعنى بتلاوة القرآن وتجويده وتفسيره.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت». رواه الشيخان، وزاد مسلم في روايته: «وإذا قام صاحب القرآن، فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم نسيه»(٢).

ومعنى (المعقَّلة): المربوطة بالعقال، وهو الحبل يمسكها مخافة أن تتفلت، وجمعه: عُقُل.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بئسما لأحدهم

---

(١) رواه أحمد والنسائي (في الكبرى) وابن ماجه (٢١٥) والحاكم (١ / ٥٥٦). وانظر: صحيح الجامع الصغير (٢١٦٥).

(٢) انظر: اللؤلؤ والمرجان (٤٥٢)، وأيضا: المنتقى من الترغيب والترهيب، والحديث (٧٩٤).

يقول: نسيت آية كَيْت وكَيْت، بل هو نُسِّي. استذكروا القرآن، فلهو أشد تفصيًّا منْ صدور الرجال من النَّعم بعُقُلها». رواه البخاري ومسلم(١).

ومعنى قوله (نُسِّي): أن الله هو الذي نساه، عقوبة له على شيء وقع منه.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها» رواه الشيخان، ورواية البخاري (أشد تفصيا) (٢).

فينبغي لصاحب القرآن أن يجعل المصحف جليسه في الوحدة وأنيسه في الوحشة، حتى لا يتفصّى من ذاكرته. قال القاسم بن عبد الرحمن: قلت لبعض النساك: ما هنا أحد تستأنس به؟ فمد يده إلى المصحف، ووضعه على حجره، وقال: هذا أنيسي!

وقد تكلم السيوطي في حكم نسيان القرآن، فقال: نسيانه كبيرة، صرح به النووي في (الروضة) وغيرها، لحديث أبي داود: «عرضت عليّ ذنوب أمتي، فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية، أوتيها رجل ثم نسيها» (٣). وروي أيضا حديث: «من قرأ القرآن ثم نسيه، لقي الله يوم القيامة أجذم»(٤). كذلك حديثا ابن مسعود وأبي موسى السابقان.

فأما حديث أبي داود الأول، فقد رواه الترمذي وقال: غريب (أي ضعيف).. وذاكرت به محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - فلم يعرفه واستغربه (٥). وأما الحديث الثاني فقد قال المنذري: في إسناده يزيد بن أبي زياد، ولا يحتج بحديثه، وهو منقطع أيضا (٦).

وإذا كانت الأحاديث التي استند عليها من قال بأن نسيان القرآن كبيرة قد ثبت ضعفها،

---

(١) انظر: اللؤلؤ والمرجان (٤٥٣)، وأيضا: المنتقى. الحديث (٧٩٥).
(٢) انظر: اللؤلؤ والمرجان (٤٥٤).
(٣) رواه أبو داود (٤٦١).
(٤) رواه أبو داود في الصلاة (١٧٤٤) بنحوه: باب التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه.
(٥) ونقل الترمذي عن البخاري: أن المطلب بن عبد الله بن حنطب - راوي الحديث - لم يسمع من أحد من الصحابة.. إلخ. انظر: الحديث رقم (٢٩١٧) عند الترمذي والحديث رقم (٤٦١) عند أبي داود. وذكره ابن الجوزي في (العلل المتناهية) برقم (١٥٨). ونقل عن الدارقطني: أن الحديث غير ثابت، لأن ابن جريج لم يسمع من المطلب شيئا (جـ١ / ١٠٩) وذكر المنذري أيضا أن في إسناده عبد المجيد بن عبدالعزيز بن أبي رواد، وثقه يحيى بن معين وتكلم فيه غير واحد. (مختصر السنن. حديث ٤٣٣ (١ / ٢٥٩).
(٦) مختصر السنن. حديث ١٤٢٢ (جـ٢ / ١٣٩).

فلم يبق إلا أن نسيانه في موضع الذم، لتركه تعاهد القرآن، ولكنه لا يفيد التحريم، ناهيك بأن يكون كبيرة.

بل الذي يتجه أنه أمر مكروه كراهية شديدة، ولا يليق بالمسلم الذي يملك هذا الكنز النفيس أن يفرط فيه، حتى يضيع منه.

وإن الذي جعلني أقول هذا: هو خشيتي أن يتقاعس الناس عن حفظ القرآن، إذا كان معرَّضا لأن ينساه، فيكتب عليه كبيرة من الكبائر، مع أنه لو لم يحفظه أصلا، لم يكن عليه أي شائبة من إثم.

التخلق بأخلاق القرآن:

وينبغي على صاحب القرآن أو حامله وحافظه: أن يتخلق بأخلاق القرآن، كما كان النبي ﷺ. فقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه، فقالت ـ وما أبلغ ما قالت ـ «إن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»(1).

فعلى صاحب القرآن: أن يكون مرآة يرى الناس فيها عقائد القرآن وقيمه وآدابه وأخلاقه، وأن يتلو القرآن فتصدِّقه آياته، ولا يتلو القرآن فتلعنه آياته.

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه. لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد، ولا يجهل مع من جهل، وفي جوفه كلام الله»(2).

ومعنى (يجد): من الوجد أو الوجدان: وهو يعني: شدة الغضب أو الحزن، على معنى أن تسيطر عليه العواطف، وتتحكم في سلوكه.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا لينا، ولا ينبغي له أن يكون جافيا، ولا مماريا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا (من الحدة والغضب).

---

(1) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦).

(2) رواه الحاكم وصحح إسناده ووافقه الذهبي (١/ ٥٥٢).

وكأن ابن مسعود رضي الله عنه يتحدث عن نفسه ، فقد كان هو من أئمة حملة القرآن ، وكان هو كما وصف حامل القرآن .

وقال ابن مسعود أيضا منكرا على قوم : أنزل القرآن عليهم ليعملوا به ، فاتخذوا دراسته عملا ! إن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا ، وقد أسقط العمل به !

وقال الزاهد العابد المعروف الفُضيل بن عياض : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ، ولا أن يسهو مع من يسهو ، ولا أن يلغو مع من يلغو ، تعظيما لحق القرآن .

وقال : ينبغي لحامل القرآن ألا يكون له إلى أحد حاجة ، ولا إلى الخلفاء ، فمن دونهم ، فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه .

وقال بعض السلف : إن العبد ليفتتح سورة ، فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها . وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه الملائكة حتى يفرغ منها . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : إذا أحل حلالها ، وحرم حرامها ، صلت عليه ، وإلا لعنته !

وقال بعض العلماء : إن المرء ليتلو القرآن فيلعن نفسه ، وهو لا يعلم . يقول : ألا لعنة الله على الظالمين ، وهو ظالم ! ألا لعنة الله على الكاذبين ، وهو منهم !

وهذا معنى قول أنس بن مالك رضي الله عنه : رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه !

وقال الحسن : إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل ، وجعلتم الليل جَملا ، فأنتم تركبونه ، فتقطعون به مراحله . وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم ، فكانوا يتدبرونها بالليل ، وينفذونها بالنهار !

وقال ميسرة : الغريب هو القرآن في جوف الفاجر !

وإنما كان غريبا ، لأنه في واد ، وأخلاق حامله وأعماله في واد آخر !

وقال أبو سليمان الداراني : الزبانية أسرع إلى حملة القرآن ـ الذين يعصون الله عز وجل ـ منهم إلى عبدة الأوثان ، حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن !

وقال بعض العلماء : إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط (أي أساء في عمله) ثم عاد فقرأ ، قيل له : مالك ولكلامي وأنت معرض عني ؟!

وقال ابن الرماح: ندمت على استظهاري القرآن، لأنه بلغني أن أصحاب القرآن يُسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة! [١].

ولا غرو أن كان قراء القرآن من الصحابة أول الناس في صفوف الصلاة في المسجد، وأول الناس في صفوف الجهاد في الميدان، وأول الناس فعلا للخير في المجتمع.

في بعض معارك الفتح الإسلامي كان المنادي ينادي: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم! كما في معركة اليمامة الشهيرة والحاسمة في حروب الردة.

وقال حذيفة في ذلك اليوم المشهود: يأهل القرآن: زينوا القرآن بالفعال.

وقال سالم مولى أبي حذيفة يوم اليمامة وقد قال له المهاجرون، وهو حامل لوائهم: أنخشى أن نؤتى من قبلك؟ قال: بئس حامل القرآن أنا إن أُتيتم من قبلي! [٢].

وفي معركة اليمامة - في حروب الردة - مع مسيلمة الكذاب، قتل عدد كبير من القراء، لأنهم كانوا في المقدمة أبدا، حتى قيل: إنهم نحو السبعمائة. وهذا ما دعا إلى جمع القرآن وتدوينه خشية ذهاب القراء في معارك الجهاد.

وكانت طريقة حفظهم للقرآن تعينهم على العمل به، فلم يكن همهم مجرد حفظ الألفاظ، بل فهم المعاني والالتزام بها أمرا ونهيا.

ذكر الإمام أبو عمرو الداني في كتابه (البيان) بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبيّ رضي الله عنهم: أن رسول الله ﷺ كان يُقرئهم العشر (أي من الآيات) فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى، حتى يتعلموا ما فيها من العمل.. قالوا: فيعلمنا القرآن والعمل جميعا.

وروى عبد الرازق في مصنفه عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها، حتى نعرف حلالها وحرامها، وأمرها ونهيها [٣].

وفي موطأ مالك: أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها.

---

(١) ذكر هذه الآثار الغزالي في الإحياء.

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ / ٣٢٤. ط. بيروت.

(٣) انظر: المصنف - الأثر (٦٠٢٧) وهو في مسند أحمد عن السلمي: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب رسول الله: أنهم كانوا يأخذون من رسول الله عشر آيات، فلا يأخذون في العشرة الأخرى، حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قال: فيعلمنا العلم والعمل، قال الهيثمي: فيه عطاء بن السائب وقد اختلط (١: ٦٥).

وما ذلك إلا لأنه يتعلمها ليعمل بما حوته من أحكام، فيأتمر بأوامرها، وينتهي عن نواهيها، ويقف عند حدود الله فيها.

ولهذا قال ابن مسعود: إنا يصعب علينا حفظ القرآن، ويسهل علينا العمل به. وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ ألفاظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به.

وعن ابن عمر قال: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة، لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن، منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به!

وقال معاذ بن جبل: اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله بعلمكم حتى تعملوا![1].

الإخلاص في طلب القرآن:

وينبغي لصاحب القرآن أن يخلص النية في طلبه، وأن يجرده لوجه الله، ويجعل له سبحانه تعلمه وتعليمه، لا لمراءاة الناس، ولا لابتغاء الدنيا. ذكر الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره (باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره) قال فيه:

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أولَ الناس يُقضَى يوم القيامة عليه رجل استُشهد، فأُتي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن. فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن

---

(١) ذكر هذه الآثار كلها القرطبي في مقدمة تفسيره (١/ ٣٤، ٣٥).

ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحبُّ أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي به في النار»[1]. وقال الترمذي في هذا الحديث: ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة». قال ابن عبد البر: وهذا الحديث فيمن لم يرد بعمله وعلمه وجه الله تعالى.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من طلب العلم لغير الله - أو أراد به غير الله - فليتبوأ مقعده من النار»[2].

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة». يعني ريحها. قال الترمذي: حديث حسن[3].

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من جُبِّ الحزن». قالوا: يا رسول الله: وما جب الحزن؟ قال: «واد في جهنم تتعوذ منه جهنم في كل يوم مائة مرة». قيل: يا رسول الله ومن يدخله؟ قال: «القراء المراءون بأعمالهم»[4]. قال: هذا حديث غريب.

فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقي الله في نفسه، ويخلص العمل لله، فإن كان تقدم له شيء مما يكره: فليبادر بالتوبة والإنابة، وليبتدئ الإخلاص في الطلب وعمله. فالذي يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره.

وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٥) والترمذي في الزهد (٢٣٨٢) وقال: حسن غريب.

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٥٨) والترمذي في العلم (٢٦٥٧) وقال: حسن غريب، كلاهما عن ابن عمر.

(٣) رواه أبو داود في العلم (٣٦٦٤) وابن ماجه في المقدمة (٢٥٢). ولم أقف عليه في الترمذي، وإن نسبه المنذري إليه في مختصر السنن أيضا.

(٤) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٨٤) وقال عنه: حسن غريب، وابن ماجه في المقدمة (٢٥٦).

ويهرم الكبير، وتتخذ سنة متبعة يجري عليها الناس، فإذا غير منها شيء قيل: قد غيرت السنَّة؟! قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثر قراؤكم، وقل فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم، وقل أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الدين [1].

وقال سفيان بين عيينة: بلغنا عن ابن عباس أنه قال: لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي: لأحبهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله، وهانوا على الناس.

وروي عن أبي جعفر بن علي في قول الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤]. قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره؟ ا. هـ.

(١) قال المنذري في الترغيب: رواه عبد الرزاق موقوفا.

الواجبات العقلية والإيمانية لصاحب القرآن

وقال القرطبي في (باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه):

فأول ذلك: أن يخلص في طلبه لله عز وجل كما ذكرنا، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن في ليله ونهاره، في الصلاة أو في غير الصلاة لئلا ينساه.

روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت[1]، وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه».

وينبغي له أن يكون لله حامدًا، ولنعمه شاكرًا، وله ذاكرًا، وعليه متوكلاً، وبه مستعينًا، وإليه راغبًا، وبه معتصمًا، وللموت ذاكرًا، وله مستعدا.

وينبغي له أن يكون خائفًا من ذنبه، راجيًا عفو ربه، ويكون الخوف في صحته أغلب عليه، إذ لا يعلم بم يختم له، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه، ويحسن الظن بالله، قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»[2]، أي أنه يرحمه ويغفر له.

وينبغي له أن يكون عالـمًا بأهل زمانه، متحفظًا من سلطانه، ساعيًا في خلاص نفسه، ونجاة مهجته، مقدمًا بين يديه ما يقدر عليه من عرض دنياه، مجاهدًا لنفسه في ذلك ما استطاع.

وينبغي له أن يكون أهم أموره عنده الورع في دينه، واستعمال تقوى الله، ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه.

---

(١) هذا الجزء من الحديث متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٤٥٢)، وباقيه رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٨٩).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٧).

وقال ابن مسعود: ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مستيقظون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخضوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون.

وقال عبد الله بن عمرو: لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن، لأن في جوفه كلام الله تعالى.

وينبغي له أن يأخذ بالتصاون عن طريق الشبهات، ويقل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار.

وينبغي له أن يتواضع للفقراء، ويتجنب التكبر والإعجاب، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب.

وينبغي له أن يكون ممن يؤمن شره، ويرجى خيره، ويُسلم من ضره، وألا يسمع ممن نمّ عنده، ويصاحب من يعاونه على الخير، ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق، ويزينه ولا يشينه.

وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا!

وينبغي له أن يعرف المكي من المدني، ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أول الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي، ولا يمكن أن ينسخ المكي المدني، لأن المنسوخ هو المتقدم في النزول قبل الناسخ له.

قال القرطبي: فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن، كان ماهرا بالقرآن، وعالما بالفرقان، وهو قريب على من قربه الله عليه. ولا ينتفع بشيء مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدم، فقد يبتدئ الطالب للعلم، يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فهم العلم، حتى يتبين أنه على خطإ في اعتقاده، فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى، فينتفع بذلك ويحسن حاله. قال الحسن: كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة. وقاله سفيان الثوري. وقال حبيب بن أبي ثابت: طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية، ثم جاءت النية بعد[1].

---

(١) مقدمة تفسير القرطبي جـ١ ص ١٤ـ١٩ طبعة دار الكتب المصرية.

تعليم القرآن:

روى البخاري في صحيحه عن عثمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه».

فالقرآن هو أفضل ما يتعلم، وأفضل ما يعلم.

قال الزركشي في (البرهان): قال أصحابنا: تعليم القرآن فرض كفاية، وكذلك حفظه واجب على الأمة. والمعنى فيه - كما قال الجويني - ألا ينقطع عدد التواتر فيه، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف. فإن قام بذلك قوم سقط عن الباقين. وإلا فالكل آثم. فإذا لم يكن في البلد أو في القرية من يتلو القرآن أثموا بأسرهم. وإذا كان هناك جماعة يصلحون للتعليم، وطُلب من بعضهم وامتنع، لم يأثم في الأصح، كما قال النووي في (التبيان) . . وصورة المسألة: فيما إذا كانت المصلحة لا تفوت بالتأخير، فإن كانت تفوت لم يجز الامتناع [1].

ولكن ما المراد بتعلم القرآن وتعليمه ؟

هل المراد بذلك: حفظ كلمات القرآن وحروفه عن ظهر قلب، وهي المهمة التي كانت الكتاتيب تقوم بها قديما، وما زال بعضها إلى اليوم، وتقوم بها مدارس التحفيظ حديثا ؟

قد يدخل ذلك في المراد بالتعلم والتعليم، وقد يرى بعض الناس أن هذا وحده هو المراد ولا شيء غيره، ولعل هذا هو سر الاهتمام البالغ بحفظ القرآن، وتكريم حفظته، ورصد الجوائز والمكافآت الضخمة من الأموال للحفّاظ، حتى إن بعض الحفاظ أخذ في مسابقة في دولة قطر ٥٠ خمسين ألف ريال، وسيارة بأكثر من ذلك. وفي السنة التالية حصل على قريب من ذلك !

وهذا ما جعلني أنتقد هذا التوجه في كتابي (في فقه الأولويات) حيث غدا عندنا الحفظ أهم من الفهم، والحافظ مقدما على الفقيه.

ولقد جعل القرآن من مهام النبي ﷺ: (تعليم الكتاب والحكمة)، وهذا في أربع آيات من القرآن [2]. ولا ريب أن هذا التعليم ليس هو (التحفيظ) بدليل أنه معطوف على تلاوة الآيات عليهم: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فالتعليم أخص من التلاوة.

---

(١) البرهان جـ١ / ٤٥٦ .

(٢) سورة البقرة: ١٢٩، ١٥١ . وآل عمران: ١٦٤ . والجمعة: ٢ .

إن هذا التعلم والتعليم هو الذي عبرت عنه بعض الأحاديث بـ (التدارس).

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

ومعنى تدارس القرآن: محاولة التعرف على ألفاظه ومبانيه، وعلى مفاهيمه ومعانيه، وما يرشد إليه من العبر، وما يدل عليه من الأحكام والآداب.

(التدارس): تفاعل من الدرس، ومعناه: أن أحد الطرفين أو الأطراف يقوم بالسؤال، والثاني يجيب، والثالث يستدرك، والآخر يصحح أو يستكمل. وهذا هو المراد من التدارس.

وهذا التدارس هو الذي كان النبي ﷺ يقوم به مع أمين الوحي جبريل عليه السلام في شهر رمضان من كل سنة. كما روى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، عندما ينزل عليه جبريل في رمضان، فيدارسه القرآن[2].

وأنعم بمدارسة طرفاها الأمينان العظيمان: أمين الله في السماء، وأمين الله في الأرض!

فلا يكفي في تعلم القرآن، أن يحفظ الإنسان سطوره، ويستظهر آياته، ثم لا يفهم لها معنى، وإن كان هو مثابا على مجرد الحفظ والاستظهار حسب نيته. وإنما عليه أن يفهم ـ ما استطاع ـ ماذا يريد الله منه، بقدرما يتسع له واديه من المعرفة: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

يدل على ذلك ما رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن في الصُّفَّة فقال:

«أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بُطحان ـ أو إلى العقيق ـ فيأتي منه بناقتين كَوْماوين، في غير إثم ولا قطيعة رحم»؟ فقلنا: يا رسول الله، كلنا نحب ذلك. قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم ـ أو فيقرأ ـ آيتين من كتاب الله عز وجل، خير له من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل؟!»[3].

---

(١) (١) رواه مسلم في الذكر (٢٦٩٩).
(٢) رواه البخاري عن ابن عباس.
(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٣).

بطحان: موضع بقرب المدينة. والعقيق: واد بالمدينة. والكَوْماء: هي الناقة العظيمة السنام.

وأحسب أن تعلم الآيتين أو الثلاث أو الأربع هنا: لا يعني حفظ حروفها فقط، وإنما يراد تعلم ما فيها من العلم والعمل جميعا، ولهذا قلل الحديث أعدادها، حتى يتمكن من العلم والعمل معا.

وهذه كانت طريقة الصحابة رضي الله عنهم في تعليم القرآن. كما بينا ذلك من قبل. وبهذا تكون الآية التي يتعلمها المسلم نورا وبرهانا له يوم القيامة. كما روى أبو أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من تعلم آية من كتاب الله، استقبلته يوم القيامة تضحك في وجهه»(١).

أخذ الأجر على تعليم القرآن:

اختلف العلماء في جواز أخذ الأجر على تعليم القرآن. فقال جماعة: يجوز أخذ الأجرة على التعليم، ففي صحيح البخاري: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله» (٢) وقيل: إن تعين عليه لم يجز، واختاره الحليمي.

وقال أبو الليث في كتاب (البستان) (٣):

التعليم على ثلاثة أوجه: أحدها: للحسبة ولا يأخذ به عوضا. والثاني: أن يعلّم بالأجرة. والثالث: أن يعلم بغير شرط، فإذا أهدي إليه قبل.

فالأول: مأجور عليه، وهو عمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والثاني: مختلف فيه. قال أصحابنا المتقدمون: لا يجوز، لقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»(٤). وقال جماعة من المتأخرين: يجوز. قالوا: والأفضل للمعلم ألاّ يشارط الأجرة للحفظ وتعليم الكتابة، فإن شارط لتعليم القرآن أرجو أنه لا بأس به، لأن المسلمين قد توارثوا ذلك واحتاجوا إليه.

---

(١) قال الهيثمي في الزوائد (٧/ ١٦١): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) في كتاب الطب من حديث ابن عباس.

(٣) هو بستان العارفين لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى عام ٣٧٥، في الأحاديث الواردة في الآداب الشرعية والخصال والأخلاق المرعية وبعض الأحكام الفرعية. (كشف الظنون ٢٤٣).

(٤) رواه أحمد والبخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو، كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٨٣٧).

وأما الثالث: فيجوز في قولهم جميعا، لأن النبي ﷺ كان معلما للخلق وكان يقبل الهدية. ولحديث اللديغ لما رَقَوْه بالفاتحة، وجعلوا له جُعلا، وقال النبي ﷺ: «واضربوا لي معكم فيها بسهم»(١). اهـ(٢).

وفي حديث آخر أجاز الرسول ﷺ أن يكون تعليم القرآن صداقا لإحدى النساء. وذلك حين طلب النبي من الرجل أن يلتمس ولو خاتما من حديد، فلم يجده، ثم سأله عما معه من القرآن فوجد عنده عدة سور يقرؤها عن ظهر قلب، فقال للرجل: «اذهب فقد ملّكتكها بما معك من القرآن»(٣)، أي على أن يعلمها تلك السور.

وهذا كله في تعليم القرآن. أما تلاوته فلا يجوز أخذ الأجر عليها، لأن الأصل في التلاوة أنها عبادة، والأصل في العابد أن يتعبد لنفسه، فكيف يأخذ على عبادته لربه أجرا من غيره، وهو إنما يؤديها مبتغيا بها وجهه عز وجل؟!

وقد روى عبد الرحمن بن شبل عن النبي ﷺ أنه قال: «اقرءوا القرآن، واعملوا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلوا فيه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به»(٤).

وروى عمران بن حصين عنه ﷺ قال: «اقرءوا القرآن، وسلوا الله به، قبل أن يأتي قوم يقرءون القرآن، فيسألون به الناس»(٥).

أما إذا أعطي قارئ القرآن شيئا على سبيل الصدقة، أو الهبة، فلا حرج في ذلك إن شاء الله.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الطب من حديث ابن عباس.

(٢) البرهان للزركشي جـ١ / ٤٥٧، ٤٥٨.

(٣) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٨٩٨).

(٤) رواه أحمد والطبراني وأبو يعلي والبيهقي في الشعب والطحاوي وغيرهم كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١١٦٨).

(٥) رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب، كما في المصدر السابق (١١٦٩).

الفصل الثاني

تلاوة القرآن وسماعه

١ ـ تلاوة القرآن وآدابها

٢ ـ الترتيل وحكم التلحين والترجيع في القراءة

٣ ـ التدبر ولوازمه وآثاره

٤ ـ التجاوب مع القرآن

٥ ـ الاستماع إلى القرآن

١ - تلاوة القرآن وآدابها

أنزل الله كتابه الخالد (القرآن) لتتلوه الألسنة، وتستمع إليه الآذان، وتتدبره العقول، وتطمئن به القلوب. حتى إن العلماء ليذكرون في تعريف القرآن: أنه المتعبد بتلاوته. وحتى تميز وحي القرآن عن وحي السنة بأن القرآن وحي متلو، والسنة وحي غير متلو.

وقد قالت الموسوعة البريطانية (تحت عنوان محمد): إن القرآن هو أوسع الكتب تلاوة على وجه الأرض.

فضل تلاوة القرآن:

ومن هنا جاءت آيات الكتاب العزيز، وأحاديث الرسول الكريم، تحثّ على التلاوة، وترغِّب فيها. وتعد عليها بالثواب الجزيل، والأجر العظيم.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ [**فاطر**: ٢٩، ٣٠].

وقد مدح القرآن طائفة من أهل الكتاب بأنهم: ﴿**يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**﴾ [**آل عمران**: ١١٣].

فإذا كانوا ممدوحين مأجورين بتلاوة آيات الكتب التي أنزلها الله قبل القرآن، فما بالكم بتلاوة أعظم كتب الله، وهو القرآن؟! هذا إذا لم يكن المراد بآيات الله القرآن ذاته، وهو دليل على أنهم آمنوا به.

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن، وهو ماهر به، مع السَّفَرة،

الكرام البررة. والذي يقرأ القرآن، يتتعتع فيه - وهو عليه شاق - له أجران». متفق عليه، واللفظ لمسلم[1].

وإنما كان له أجران، لأنه يؤجر على القراءة ذاتها، ويؤجر على ما يعانيه من الشدة والتتعتع والمشقة، وفي هذا دليل على مزيد حرصه على القراءة، وقوة رغبته فيها، رغم مشقتها عليه. وكم من مسلم كانت قراءة القرآن ثقيلة على لسانه، فما زال يكابد ويقرأ، حتى لان لسانه بالقرآن.

وعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه»[2].

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله، فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[3].

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «يقول الرب تبارك وتعالى: من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[4].

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام: أي رب: منعته الطعام والشهوة، فشفعني فيه. ويقول القرآن: منعته النوم في الليل فشفعني فيه قال: فيشفعان»[5].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له: فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان،

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٥٣٢) ومسلم (٧٩٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (٨٠٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٩١٢) وقال: حسن صحيح.

(٤) رواه الترمذي (٢٩٢٦) وقال: حسن غريب.

(٥) قال المنذري: رواه أحمد والطبراني في (الكبير)، ورجاله محتج بهم في الصحيح، والحاكم وصححه على شرط مسلم (المنتقى٥٠٩) ووافق الذهبي الحاكم (١/ ٥٥٤) ومجمع الزوائد (٣/ ١٨١) وقال: رجال الطبراني رجال الصحيح.

فعملت مثل ما يعمل ! ورجل آتاه الله مالا ، فهو يهلكه في الحق ، فقال رجل : ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان ، فعملت مثل ما يعمل !»[1].

والمراد بالحسد في الحديث : الغبطة ، وهو أن يتمنى أن يكون له مثل ما للشخص المحسود من الخير والنعمة ، وهذا محمود ، بخلاف الحسد ، بمعنى تمني زوال النعمة عن الغير ، فهذا من كبائر معاصي القلوب .

وقد بين الحديث الصحيح أن قراءة القرآن تؤثر حتى في المنافق والفاجر .

فعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ، مثل الأُتْرُجَّة : ريحها طيب ، وطعمها طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن ، كمثل التمرة : لا ريح لها ، وطعمها حلو . ومثل المنافق - وفي رواية : الفاجر - الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة : ريحها طيب ، وطعمها مر . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة : ليس لها ريح ، وطعمها مر»[2].

فبين أن القراءة لها نوع من التأثير ، أشبه بتأثير الرائحة الطيبة ، لا تأثير الطعم الحلو حتى إنها تؤثر فى المنافق أو الفاجر .

وقال أبو هريرة : إن البيت الذي يتلى فيه القرآن ، اتسع بأهله ، وكثر خيره ، وحضرته الملائكة ، وخرجت منه الشياطين . وإن البيت الذي لا يتلى فيه القرآن ، ضاق بأهله ، وقل خيره ، وخرجت منه الملائكة ، وحضرته الشياطين[3].

وروى عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال :

«يقال لصاحب القرآن (أي يوم القيامة) : اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»[4].

وللقرآن تأثير عجيب في قلب الإنسان ، شهد به كل من سمعه من مسلم وكافر ، وهو ما جعل المشركين من أهل مكة يحاولون التشويش عليه عند تلاوته ، خوفا على نسائهم

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم وغيره .

(٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ، وقال : رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه . (المنتقى ٧٧٧) .

(٣) ذكره الغزالي في الإحياء .

(٤) رواه أبو داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٥) وقال حسن صحيح ، وابن ماجه (٣٧٨٠) وأحمد (٦٧٩٩) وصححه شاكر ، وابن حبان (١٧٩٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٥٥٣) .

وصبيانهم وضعفائهم من سماعه، فقد يتأثرون به، ويؤمنون برسالة من بعثه الله به. يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقد كان بعض المشركين يستمعون للقرآن خلسة، بعضهم من وراء بعض، حتى يضبط أحدهم الآخر متلبسا بسماع القرآن.

وسمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. فقال له: أعد عليّ، فأعاد.. فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر![1].

وقد سمعه الجن فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢].

ولقد أجرى د. أحمد القاضي ومعه بعض الأطباء المسلمين ـ في مستشفاهم الخاص بولاية (فلوريدا) بأمريكا، مستشفى أكبر ـ تجارب على عدد من المرضى يسمعونهم القرآن ويسجلون بالأجهزة الحساسة مدى تأثير القرآن عليهم. وفيهم المسلم وغير المسلم، والعربي وغير العربي. والعجيب أنهم وجدوا تأثير القرآن عليهم ـ جميعا ـ تأثيرا إيجابيا بنسب متفاوتة. فالعربي المسلم غير العربي الذي ليس بمسلم، والمسلم الذي ليس بعربي ولكن الكل تأثروا حتى الذي ليس بمسلم وليس بعربي.

وهذا يدل على أن في هذا الكلام سرا خاصا، لا يوجد في أي كلام آخر من كلام البشر، نثرا أو شعرا.

ترتيل القرآن:

قراءة القرآن ليست كقراءة غيره من أنواع الكلام، فهو كلام الله تعالى، الذي ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. ولذا فإن قراءته وتلاوته لها آدابها

(١) قال الزبيدي في شرح الإحياء: رواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد جيد (٤/ ٤١٧).

الظاهرة والباطنة. ومن آدابها الظاهرة: الترتيل. ومعنى الترتيل في القراءة: التأني والتمهل فيها، وتبيين الحروف والحركات، تشبيها بالثغر المرتل، وهو المنضد المستوي الأسنان.

قال السيوطي:

يسن الترتيل في قراءة القرآن، قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٤].

هذا ما قاله الحافظ السيوطي رحمه الله، ولو قال قائل بوجوب الترتيل لكان أقرب إلى ظاهر ما يدل عليه الأمر القرآني، فإن الأصل في الأوامر القرآنية: أنها تفيد الوجوب. والخطاب في الآية للنبي ﷺ أصلا، وللأمة تبعا، ولذا قال الزركشي: على كل مسلم قرأ القرآن أن يرتله[١].

وهذه العبارة أوفق من عبارة السيوطي.

وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة، أنها نعتت قراءة النبي ﷺ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة، حرفا حرفا[٢].

وفي البخاري عن أنس، أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مدا. ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمد «الله» ويمد «الرحمن» ويمد «الرحيم»[٣].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود، أن رجلا قال له: إني أقرأ المفصّل في ركعة واحدة، فقال: «هذّا كَهذِّ الشعر، إن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب، فيرسخ فيه، نفع».

وأخرج الآجري في أخلاق حملة القرآن، عن ابن مسعود قال: «لا تنثروه نثر الدَّقَل[٤] ولا تهذُّوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة».

وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعا: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق في الدرجات،

---

(١) البرهان (١/ ٤٤٩).

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (١٤٦٦) والترمذي في ثواب القرآن (٢٩٢٤) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في الافتتاح (١٠٢٣).

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة.

(٤) الدَّقَل: رديء التَّمر. وانظر اللسان.

ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها».

قال في شرح المهذب: واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع.

قالوا: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل.

قالوا: واستحباب الترتيل للتدبر، ولأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير، وأشد تأثيرا في القلب، ولهذا يستحب للأعجمي الذي لا يفهم معناه. انتهى.

وفي النشر: اختُلف: هل الأفضل الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة مع كثرتها؟ وأحسن بعض أئمتنا، فقال: إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدرا، وثواب الكثرة أكثر عددا، لأن بكل حرف عشر حسنات(١).

وفي البرهان للزركشي(٢): كمال الترتيل تفخيم ألفاظه، والإبانة عن حروفه، وألاَّ يدغم حرف في حرف. وقيل: هذا أقله، وأكمله أن يقرأه على منازله، فإن قرأ تهديدًا لفظ به لفظ المتهدِّد، أو تعظيمًا لفظ به على التعظيم(٣).

قال الغزالي: واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن، يستحب له في القراءة أيضا الترتيل، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرا في القلب من الهذرمة والاستعجال.

التغني وتحسين الصوت بالقراءة:

ومن آداب التلاوة المتفق عليها: تحسين الصوت بالقراءة. فالقرآن ـ بلا ريب ـ حسن، بل هو في غاية الحسن في ذاته، ولكن الصوت الحسن يزيده حسنًا، فيأخذ بشغاف القلوب، ويهز المشاعر هزا.

ولكنّ هناك خلافا في المدى الذي يسوغ للقارئ الانتهاء إليه، فهناك من تشدد، وهناك من رخص، وهناك من توسط، وخير الأمور الوسط، ولا خير في الإفراط ولا في التفريط.

وقال السيوطي رحمه الله: يسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها لحديث ابن حبان

(١) انظر: النشر ١: ٢٠٨.
(٢) انظر: البرهان: ١: ٤٥٠.
(٣) الإتقان: (١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

وغيره: «زينوا القرآن بأصواتكم»[1]. وفي لفظ عند الدارمي: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا».

وأخرج البزار وغيره حديث: «حسن الصوت زينة القرآن»[2].

وفيه أحاديث صحيحة كثيرة، فإن لم يكن حسن الصوت حسّنه ما استطاع، بحيث لا يخرج إلى حدّ التمطيط.

وأما القراءة بالألحان فنصّ الشافعي في المختصر: أنه لا بأس بها. وعن رواية الربيع الجيزي: أنها مكروهة.

قال الرافعي: قال الجمهور: ليس على قولين، بل المكروه أن يفرط في المدّ، وفي إشباع الحركات، حتى يتولد من الفتحة ألف، ومن الضمة واو، ومن الكسرة ياء، أو يدغم في غير موضع الإدغام، فإن لم ينته إلى هذا الحد فلا كراهة.

قال في زوائد الروضة: والصحيح أن الإفراط على الوجه المذكور حرام يفسق به القارئ ويأثم المستمع، لأنه عدل به عن نهجه القويم. قال: وهذا مراد الشافعي بالكراهة.

قلت: (والقائل السيوطى): وفيه حديث: «اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق، فإنه سيجيء أقوام يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم»، أخرجه الطبراني والبيهقي[3].

قال النووي: ويستحب طلب القراءة من حسن الصوت والإصغاء إليها، للحديث الصحيح، ولا بأس باجتماع الجماعة في القراءة ولا بإدارتها، وهي أن يقرأ بعض الجماعة قطعة ثم البعض قطعة بعدها[4]. ا هـ.

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) أورده الهيثمي في الزوائد (٧/ ١٧١) وقال: رواه الطبراني وفيه سعيد بن أبي رزق، وهو ضعيف.

(٣) ذكره ابن الجوزي في (العلل) وقال: حديث لا يصح (١/ ١١١). وأورده الهيثمي في الزوائد (٧/ ١٦٩)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه راو لم يسمّ، وبقية أيضًا - بقية بن الوليد - وهو مدلس معروف.

(٤) الإتقان: (١/ ٣٠٢، ٣٠٣).

القرطبي يناقش مسألة التلحين والترجيع في القراءة

ذكر الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره:

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، وما يكره منها، وما يحرم، واختلاف الناس في ذلك. وأفاض في ذلك، فقال رحمه الله:

روى البخاري عن قتادة قال: سألت أنسا عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كان يمد مدا إذا قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم [1].

وروي الترمذي عن أم سلمة قالت: كان رسول الله يقطّع قراءته (آية، آية) يقول: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ثم يقف ﴿ الرحمن الرحيم﴾ ثم يقف، وكان يقرؤها ﴿مالك يوم الدين﴾. قال: حديث غريب. وأخرجه أبو داود بنحوه [2].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أحسن الناس صوتا: من إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى» [3].

وروي عن زياد النميري أنه جاء مع القراء إلى أنس بن مالك فقيل له: اقرأ. فرفع صوته وطرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه.

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب مد القراءة (٦ / ٢٤١).

(٢) رواه الترمذي في القراءات (٢٩٢٧) وأبو داود في الحروف والقراءات (٤٠٠١) والحاكم (٢ / ٢٣٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) ذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٧٠) عن ابن عمر وقال: رواه الطبراني في الأوسط (والبزار) وفيه: حمد ابن حماد بن حوار، وثقه ابن حبان وقال: : ربما أخطأ، وبقية رجال (البزار) رجال الصحيح. ويبدو أن كلمة (البزار) سقطت من ناسخ أو طابع. وذكره في صحيح الجامع الصغير (١٩٤) ونسبه إلى محمد بن نصر في الصلاة، والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ عن ابن عباس، والسجزي في الإنابة والخطيب عن ابن عمر، والديلمي في الفردوس عن عائشة.

وروي عن قيس بن عباد أنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الذكر.

وممن روي عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن: سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والقاسم بن محمد والحسن وابن سيرين والنخعي وغيرهم. وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل، كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه. ورُوي عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فطرَّب في قراءته، فأرسل إليه سعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمة لا تقرأ هكذا. فترك عمر التطريب بعد. ورُوي عن القاسم بن محمد أن رجلا قرأ في مسجد النبي ﷺ فطرّب، فأنكر ذلك القاسم وقال: يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

ورُوي عن مالك أنه سئل عن النبر (أي رفع الصوت) في قراءة القرآن في الصلاة، فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة، وأنكر رفع الصوت به. وروى ابن القاسم عنه: أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال: لا يعجبني، وقال: إنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم!

وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به، وذلك لأنه إذا حسن الصوت به، كان أوقع في النفوس، وأسمع في القلوب، واحتجوا بقوله عليه السلام «زينوا القرآن بأصواتكم». رواه البراء بن عازب. أخرجه أبو داود والنسائي (١).

وبقوله عليه السلام: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». أخرجه مسلم (٢).

وبقول أبي موسى للنبي ﷺ: لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيرا (٣).

وبما رواه عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسير له سورة (الفتح) على راحلته فرجّع في قراءته (٤).

وممن ذهب إلى هذا: أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وابن المبارك والنضر بن شميل، وهو اختيار أبي جعفر الطبري وأبي الحسن بن بطال والقاضي أبي بكر ابن العربي وغيرهم.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٤ / ٢٨٣، وأبو داود في الصلاة (١٤٦٨).

(٢) رواه مسلم في إقامة الصلاة (١٣٤٢) والدارمي في سننه ٢ / ٤٧٤. وعبد الرازق في مصنفه (٤١٧٦).

(٣) حبّر بمعنى حسّن، والمراد بالحديث تحسين الصوت. وقول أبي موسى رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٣).

(٤) رواه البخاري في فضائل القرآن ـ باب الترجيع، وفي التفسير، وفي غيرهما، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٤).

ورجح القرطبي قول مالك ومن وافقه، ورد على ما احتج به الآخرون، ولكنه تكلف في رده، ولم يكن مقنعا. وذكر التأويلات لحديث التغني بالقرآن، وحديث تزيين القرآن بالأصوات. وقال: إنه ليس على ظاهره، وإنما هو من باب المقلوب، أي زينوا أصواتكم بالقرآن. قال الخطابي: وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث: زينوا أصواتكم بالقرآن، وقالوا: هو من باب المقلوب، كما قالوا: عرضت الحوض على الناقة، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض. قال: ورواه معمر عن منصور عن طلحة، فقدم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح.

وأطال الإمام القرطبي في ذكر التأويلات لحديث التغني بالقرآن، ومنها ما هو مقبول، وما هو متكلف. فمن غير المقبول، ما ذهب إليه ابن عيينة ووكيع: أن معنى (يتغنى به): يستغني به، من الاستغناء، الذي هو ضد الافتقار.

ومن المقبول: تفسير التغني بالتحزن، كما ذهب إليه ابن حبان وجماعة.

واحتجوا بما رواه مطرّف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء [1]. الأزيز - بزايين - صوت الرعد وغليان القدر. قالوا: ففي هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزن. وعضدوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «اقرأ علي» فقرأت عليه سورة (النساء) حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء :٤١]، فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان [2]. فهذه أربعة تأويلات ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي في قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، قال: كانت العرب تولع بالغناء والنشيد في أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم [3] مكان الغناء، فقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة رقم ٩٠٤، والنسائي في السهو: باب البكاء في الصلاة، وأحمد في المسند ٤ / ٣٥، ٣٦ وابن حبان في صحيحه (الإحسان: ٦٦٥، ٧٥٣).

(٢) الحديث متفق عليه رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب: من أحب أن يسمع القرآن من غيره، وباب قول المقرئ للقارئ حسبك، وباب البكاء عند قراءة القرآن، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر (٨٠٠).

(٣) هِجِّيرَى الرجل: عادته ودأبه وشأنه.

ومن التأويل المقبول: ما تأوله من استدل به على الترجيع والتطريب، فذكر عمر بن شبَّة قال: ذكرت لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة في قوله: «يتغن» يستغْنِ، فقال: لم يصنع ابن عيينة شيئا. وسئل الشافعي عن تأويل ابن عيينة فقال: نحن أعلَم بهذا، لو أراد النبي ﷺ الاستغناء لقال: من لم يستغن، ولكن لما قال: «يتغن» علمنا أنه أراد التغني. قال الطبري: المعروف عندنا في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع. وقال الشاعر:

تغن بالشعر مهما كنت قائله ... إن الغناء لهذا الشعر مضمار

قال: وأما ادعاء الزاعم أن تغنيت بمعنى استغنيت، فليس في كلام العرب وأشعارهم، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله.

وقريب من ذلك: ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به». قال الطبري: ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى.

وقد احتج أبو الحسن ابن بطال لمذهب الشافعي فقال: وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابن أبي شيبة قال: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن وغنّوا به واكتبوه، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من المخاض من العُقُل»(1).

قال القرطبي: وهذا الحديث - وإن صح سنده - يرده ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن المشايخ كافة، جيلا فجيلا إلى العصر الكريم، إلى رسول الله ﷺ، وليس فيها تلحين ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين في مخارج الحروف، وفي المد والإدغام والإظهار، وغير ذلك من كيفية القراءات. ثم إن في الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز، ومد ما ليس بممدود، فترجع الألف الواحدة ألفات، والواو الواحدة واوات، فيؤدي ذلك إلى زيادة في القرآن وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز، صيروها نبرات

---

(1) ذكره السيوطي في الجامع الكبير برقم ١٢٦٥٨ ونسبه إلى ابن أبي شيبة وأحمد ومحمد بن نصر وابن حبان والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان عن عقبة بن عامر، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٦٩) بلفظ: تعلموا كتاب الله، وتعاهدوه وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتا من النعم في العقل. وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. ولفظ الكتاب من رواية الطبراني.

وهمزات، النبرة حيثما وقعت من الحروف، فإنما هي همزة واحدة لا غير، إما ممدودة وإما مقصورة.

قال القرطبي: هذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم [1] معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه، فذلك حرام باتفاق، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز، ضل سعيهم، وخاب عملهم، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله، ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله، بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه، جهلا بدينهم، ومروقا عن سنة نبيهم، ورفضًا لسير الصالحين فيه من سلفهم، ونزوعا إلى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهم في غيهم يترددون، وبكتاب الله يتلاعبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

قال علماؤنا: ويشبه أن يكون هذا الذي يفعله قراء زماننا بين يدي الوعاظ وفي المجالس من اللحون الأعجمية التي يقرءون بها، ما نهى عنه رسول الله ﷺ. والترجيع في القراءة: ترديد الحروف مثل قراءة النصارى. والترتيل في القراءة هو التأني فيها والتمهل، وتبيين الحروف والحركات - تشبيها بالثغر المرتل، وهو المشبه بنَوْر الأقحوان، وهو المطلوب في قراءة القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]. وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته، فقالت: ما لكم وصلاته! ثم نعتت قراءته، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا [2]. أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب [3]. أ. هـ.

ومثل ذلك: ما أنكره الإمام السخاوي (٦٤٣هـ) على قراء عصره: ما ابتدعوه في قراءة القرآن من أصوات الغناء. قال: وابتدعوا أيضا شيئا سموه «الترعيد»، وهو أن يرعد صوته كالذي يرعد من برد وألم، وقد يخلطه بشيء من ألحان الغناء. وآخر سموه «الترقيص»، وهو

---

(١) في العبارة خلل، فلعلها: ما دام يفهم معنى القرآن . . . إلخ. بدليل قوله: فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه.

(٢) رواه النسائي وأبو داود في الصلاة (١٤٦٦) وفي القراءات (٤٠٠١) والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٣) وقال عنه: حسن صحيح غريب، وأحمد في المسند (٦/ ٦٩٤) والحاكم (١/ ١٠) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: مقدمة تفسير القرطبي جـ١ ص ٨ - ١٤ طبعة دار الكتب المصرية.

أن يروم السكوت على الساكن، ثم ينفر مع الحركة كأنه في عدو وهرولة. وآخر يسمى «التطريب»، وهو أن يترنم بالقرآن ويتنغم به، فيمد في غير موضع المد، ويزيد في المد على ما ينبغي لأجل التطريب، فيأتي بما لا تجيزه العربية. ونوع آخر يسمى «التحزين»، فيأتي بالتلاوة كأنه حزين يبكي، ولا يأخذ الشيوخ بذلك لما فيه من الرياء. قال: وأما قراءتنا التي نأخذ بها، فهي القراءة السهلة المرتلة العذبة الألفاظ، التي لا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء[1].

وتشديد الإمام السخاوي والإمام القرطبي وعلماء المالكية ومن وافقهم في قضية الترجيع والتلحين: جدير أن ينبِّه القراء في عصرنا إلى ضرورة الاعتدال في القراءة، والبعد عن المبالغة في التلحين، واستخدام المؤثرات (الموسيقية) فليس القرآن كلاما عاديا، إنما هو كلام الله عز وجل، فلابد أن يراعى من توقيره وتعظيمه ما يليق به.

التلاوة بين الجهر والإسرار:

وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصوت بالقراءة، وأحاديث تقتضي الإسرار وخفض الصوت. فمن الأول حديث الصحيحين: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت، يتغنى بالقرآن يجهر به»[2].

ومن الثاني حديث أبي داود والترمذي والنسائي: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسرّ بالقرآن كالمسرّ بالصدقة»[3].

قال النووي: والجمع بينهما أن الإخفاء أفضل، حيث خاف الرياء، أو تأذى مصلون أو نيام بجهره، والجهر أفضل في غير ذلك، لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم ويزيد في النشاط. ويدل لهذا الجمع حديث أبي داود بسند صحيح، عن أبي سعيد أن

---

(١) انظر: جمال القرّاء للسخاوي جـ ٢ / ٦٤١، ٦٤٢.

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: حديث (٤٥٥).

(٣) ذكره في صحيح الجامع الصغير (٣١٠٥) ونسبه إلى أبي داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر، وإلى الحاكم عن معاذ.

رسول الله ﷺ كان في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقرآن، فكشف الستر، وقال: «ألا إن كلكم مناج لربه، فلا يؤذين بعضكم بعضا، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة»[١].

وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها، لأن المسرّ قد يمل فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار[٢]. أ. هـ.

وروى أبو داود عن أبي هريرة أنه قال: كانت قراءة النبي ﷺ بالليل يرفع طورا، ويخفض طورا[٣].

(١) رواه أبو داود في الصلاة عن أبي سعيد (١٣٣٢) ونسبه المنذري في المختصر إلى النسائي أيضا.

(٢) انظر الإتقان (١/ ٤٠٠).

(٣) رواه أبو داود في الصلاة (١٣٢٨).

٣ـ التدبـــــر

ومن أعظم آداب التلاوة الباطنة: التدبر لمعاني القرآن. ومعنى التدبر: النظر في أدبار الأمور، أي في عواقبها ومآلاتها، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر: تصرف القلب أو العقل بالنظر في الدليل، والتدبر: تصرفه بالنظر في العواقب.

وقد بين لنا منزّل القرآن سبحانه أنه لم ينزله إلا لتُدبّر آياته، وتُتَفهَّم معانيه. يقول عز وجل يخاطب رسوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ويقول في معرض الحض والتحريض: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وروى ابن عبد البر في (جامع العلم) عن علي رضي الله عنه: ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا في علم ليس فيه تفهم، ولا في قراءة ليس فيها تدبر!

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أقرأ (إذا زلزلت) و(القارعة) أتدبرهما، أحب إليّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا [١].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه: لأن أقرأ القرآن في شهر أحب إليّ من أن أقرأه في خمس عشرة، ولأن أقرأه في خمس عشرة أحب إلي من أن أقرأه في عشر، ولأن أقرأه في عشر أحب إلي من أن أقرأه في سبع: أقف وأدعو [٢].

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في القوت، ونقله عنه الغزالي. الإتحاف شرح الإحياء للزبيدي (٤/ ٤٧٨).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في (المصنف). وذكره الزبيدي في الإتحاف (٤/ ٤٧٨).

وذلك أن الأناة في القراءة تتيح الفرصة للتأمل والتدبر، وهو الغاية المنشودة من القراءة.

والقرآن - كما قال أديب العربية والإسلام مصطفي صادق الرافعي - كلام من النور، أو نور من الكلام. وهو كما وصفه منزّله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وهو - كما روي في الحديث - «لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.. من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»(١).

والمتأمل في القرآن يجده زاخرا بجوامع الكلم، وجواهر الحكم، وكنوز المعارف، وحقائق الوجود، وأسرار الحياة، وعوالم الغيب، وذخائر القيم، وروائع الأحكام، وعجائب التوجيه، وغرائب الأمثال، وبينات الآيات، وسواطع البراهين، وبالغ النذر. ولذا قالوا: إن في القرآن علم الأولين والآخرين. وقال ابن عباس: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله!

وإنما تدرك هذه الأمور بطول التأمل والتدبر، لا بالخطف والاستعجال.

وإذا لم يتمكن القارئ من التدبر في الآية إلا بترديدها، فليرددها. وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ وصحابته والصالحون من سلف الأمة: يرددون بعض الآيات تدبرا وتأثرا.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة، فقام بآية يرددها، وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢) [المائدة: ١١٨].

وقام تميم الداري رضي الله عنه بآية يكررها حتى أصبح أو كاد، وهي قوله تعالى(٣): ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

---

(١) رواه الترمذي عن علي برقم (٨، ٢٩)، وقال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مجهول.

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: رواه النسائي وابن ماجه بسند صحيح.

(٣) رواه أبو عبيد في الفضائل، وابن أبي داود في الشريعة، ومحمد بن نصر في قيام الليل، والطبراني في الدعاء. الإتحاف (٤ / ٥٠٦).

وقد جاء نحو ذلك من ترديد الآيات عن ابن مسعود وعن عائشة وأسماء ابنتى أبي بكر رضي الله عنهم.

رَوَى إبراهيم عن علقمة قال: صليت إلى جنب عبد الله (يعني: ابن مسعود) فافتتح سورة (طه) فلما بلغ: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] قال: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١).

وعن عروة بن الزبير قال: دخلت على أسماء بنت أبي بكر (يعنى أمّه) وهي تصلي، تقرأ هذه الآية: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]. فقمت: فلما طال علي ذهبت إلى السوق، ثم رجعت، وهي مكانها، وهي تكرر الصلاة (٢) (يعني الآية).

وروي نحو هذا عن عائشة (٣).

وروي أن عامر بن عبد قيس قرأ ليلة سورة (المؤمن) - وهي المعروفة بسورة (غافر) - فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ (٤)، لم يزل يرددها حتى أصبح (٥).

وقد ورد نحو ذلك عن عدد من التابعين، مثل: سعيد بن جبير والربيع بن خثيم وغيرهما.

وقال بعضهم: إني لأفتتح السورة، فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها، حتى يطلع الصبح.

وكان بعضهم يقول: كل آية لا أفهمها، ولا يكون قلبي فيها، لا أعد لها ثوابا.

وعن أبي سليمان الداراني قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال، وخمس ليال، ولولا أني أقطع الفكر فيها، ما جاوزتها إلى غيرها (٦).

---

(١) رواه ابن أبي داود بسند صحيح عن إبراهيم. انظر: الإتحاف (٤/ ٥٠٦).

(٢) رواه أحمد ورجاله ثقات من رواة الصحيحين. المصدر السابق

(٣) رواه ابن أبي داود عن القاسم بن محمد. المصدر نفسه ص ٥٠٧.

(٤) تتمتها: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ الآية ١٨.

(٥) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن عن امرأة من آل عامر. المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه: (٤/ ٥٠٦، ٥٠٧).

الخشوع والبكاء عند تلاوة القرآن:

ومن آداب التلاوة: الخشوع والبكاء والحزن عندها، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. فإن لم يجد له قلبا يخشع، ولا عينا تدمع، ولا نفسا تحزن، فليتكلف ذلك وليحاوله ما استطاع، وهذا مطلوب عند تلاوة القرآن، وعند الاستماع له.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ .. الآية.

قال ابن كثير: نهي الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حُمِّلوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد، بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنا قليلا، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد(١).

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ووصف الله ﴿الذين أوتوا العلم﴾ بالخشوع والبكاء عند استماع القرآن. قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦ - ١٠٩].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير جـ٤ / ٣١٠ طبعة الحلبي.

فهكذا كان تجاوبهم مع القرآن: خرور لله وسجود، وذكر لله ودعاء، وبكاء وزيادة خشوع.

ومدح آخرين من النصارى عند سماعهم للقرآن، فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ على النبي ﷺ سورة النساء، وفيه: فإذا عيناه تذرفان. متفق عليه [١].

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»، [٢] أي تكلفوا البكاء.

وعن ابن عباس: إذا قرأتم سجدة (سبحان) - يعني آخر سورة الإسراء - فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه!

وبكاء القلب: حزنه وخشيته.

قال الإمام الغزالي: وإنما طريق تكلف البكاء: أن يُحضر قلبه الحزن، فمن الحزن ينشأ البكاء. قال النبي ﷺ: «إن القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فتحازنوا» [٣]. ووجه إحضار الحزن، أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والزجر، والمواثيق والعهود، ثم يتأمل القارئ تقصيره في أوامره وزواجره، فيحزن لذلك ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاء - كما يحضر أصحاب القلوب الصافية - فليبك على فقد الحزن والبكاء، فإن ذلك أعظم المصائب!

أعمال قلبية قبل التدبر:

وللإمام أبي حامد الغزالي في (الإحياء) كلام قوي فيما ينبغي مراعاته قبل (التدبر) من الأعمال الباطنة، وهي:

---

(١) اللؤلؤ والمرجان (٤٦٣).

(٢) قال العراقي في تخريج (الإحياء): رواه ابن ماجه بإسناد جيد. وهو فيه برقم (٤١٩٦) وليس فيه: (اتلوا القرآن).

(٣) قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية بسند ضعيف. أهـ. وكذا رواه أبو يعلى عن سعد.

فهم أصل الكلام . ثم التعظيم . ثم حضور القلب . ثم التدبر .

فالأول : فهم عظمة الكلام وعلوّه ، وفضل الله سبحانه وتعالى ، ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه . فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات ، هي صفات البشر ، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه . ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عوش ولا ثرى ، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه ، وسبحات نوره . ولولا تثبيت الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أطاق لسماع كلامه ، كما لم يطق الجبل مبادي تجليه حيث صار دكّا .

الثاني : التعظيم للمتكلم : فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر ، فإنه تعالى قال : ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٩] . وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا ، فباطن معناه أيضا ـ بحكم عزه وجلاله ـ محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس ، ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير . وكما لا يصلح للمس جلد المصحف كل يد ، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ، ولا لنيل معانيه كل قلب .

ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذانشر المصحف غشي عليه ويقول : هو كلام ربي ، هو كلام ربي ! فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله . فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد ، وأن الكل في قبضة قدرته ، مترددون بين فضله ورحمته ، وبين نقمته وسطوته . إن أنعم فبفضله ، وإن عاقب فبعدله . وهذا غاية العظمة والتعالي : فبالتفكير في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام .

الثالث : حضور القلب وترك حديث النفس : قيل في تفسير ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم : ١٢] أي بجد واجتهاد ، وأخذه بالجد : أن يكون متجردا له عند قراءته ، منصرف الهمة إليه عن غيره . وقيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء ؟ فقال : أو شيء أحب إلي من القرآن حتى أحدث به نفسي ؟! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه

فيها أعادها ثانية . وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم ، فإن المعظم للكلام الذي يقوله يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه . ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلا له ، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره ، وهو في متنزه ومتفرج ؟ والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها (١) .

التخلي عن موانع الفهم:

وينبغي لمن يريد أن يتدبر القرآن ويتفهمه ـ بحق ـ أمرٌ آخر ، وهو ما سماه الغزالي : (التخلي عن موانع الفهم) ، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن .

وحُجُب الفهم أربعة : أولها : أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها . وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل ، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف ، يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه . فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف ، فأنى تنكشف له المعاني ؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعا لمثل هذا التلبيس .

ثانيها : أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد ، وجمد عليه ، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع ، من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفا على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد ، وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ؟ ! فيرى أن ذلك غرور من الشيطان ، فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ولمثل هذا قالت الصوفية : إن العلم حجاب ! وأرادوا بالعلم : العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد ، أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم . فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة ، فكيف يكون حجابا وهو منتهى المطلب (٢) .

---

(١) إحياء علوم الدين (١ / ٢٨٠ ـ ٢٨٢) .

(٢) نتمنى أن يكون ذلك هو مقصود الصوفية ، ولكن وجدنا للأسف منهم من يعتبر العلم هو ما حدثه به قلبه ، لا ما أوحى به ربه ! وقال : حدثني قلبي عن ربي ! وقال لرواة الأحاديث بالأسانيد : أنتم تأخذون علومكم ميتا عن ميت ، ونحن نأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت . ولكن العمدة هم الصوفية الملتزمون بالكتاب والسنة .

وهذا التقليد قد يكون باطلا، فيكون مانعا، كمن يعتقد في الاستواء على العرش التمكن والاستقرار (أي كتمكن البشر)، فإن خطر له مثلا في القدّوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه. ولو استقر في نفسه لانجر إلى كشف ثان وثالث . . . وتواصل. لكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل. وقد يكون حقّا، ويكون أيضا مانعا من الفهم والكشف، لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات، وله مبدأ ظاهر، وغور باطن، وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن.

ثالثها: أن يكون مصرّا على ذنب، أو متصفا بكبر، أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حجب الأكثرون. وكلما كانت الشهوات أشد تراكما، كانت معاني الكلام أشد احتجابا. وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا، قرب تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدإ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة. والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة. وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكّر، فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق :٨]. وقال عز وجل: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]. فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب، ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب.

أقول: ومما يدل لما ذكره الإمام الغزالي هنا: قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة: سأنزع عنهم فهم القرآن (١).

رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار. فهذا أيضا من الحجب العظيمة. وسنبين معنى التفسير بالرأي في الباب الرابع، وأن ذلك لا يناقض قول علي رضي الله عنه: إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن. وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلف الناس فيه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٢٧).

التخصيص:

ومن الآداب الباطنة للتلاوة: ما سماه الإمام الغزالي (التخصيص)، ومعناه: أن يقدر في نفسه أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فينتقل من التعميم إلى التخصيص، فإن قرأ أو سمع أمرا أو نهيا في القرآن، قدر أنه المأمور والمنهي أولا وبالذات. وكذلك إن قرأ أو سمع وعدا بثواب، أو وعيدا بعقاب، قدر أنه المبشَّر بالوعد، أو المنذَر بالوعيد. وإن قرأ أو سمع قصص الأولين والأنبياء وأقوامهم علم أن السمر أو تزجية الوقت بالأقاصيص غير مقصود، وإنما المقصود أن يعتبر بما قصه الله عليه، ويقتبس منه الدرس والعظة، ويأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه. كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]. وقال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه فيه من أحوال الأنبياء، وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين انتظار نصر الله تعالى. وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين، ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقال عز وجل: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠]. ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]. ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٣]. ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]. ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠]. ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد. فهذا القارئ الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس؟ فليقدر أنه المقصود. قال الله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله.

وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه، ليتأمله ويعمل بمقتضاه.

ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات.

وكان مالك بن دينار يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يأهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض.

وقال قتادة: لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان. قال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

التأثر

ومن الآداب الباطنة للتلاوة فيما ذكره الغزالي: التأثر، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال، ووجد يتصف به قلبه، من الحزن والخوف والرجاء وغيره. ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإن التضييق غالب على آيات القرآن، فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ [طه: ٨٢]. ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١-٣]، ذكر أربعة شروط. وحيث اقتصر، ذَكَر شرطا جامعا فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالإحسان يجمع الكل. وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره.

وقال وهيب بن الورد: نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئا أرق للقلوب، ولا أشد استجلابا للحزن، من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره.

فتأثر العبد بالتلاوة: أن يصير بصفة الآية المتلوة. فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت. وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح.

وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته. وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل - كذكرهم لله عز وجل ولدا وصاحبة - يغض صوته، وينكسر في باطنه، وترتعد فرائصه خوفا منها. ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود: «اقرأ عليّ» قال: فافتتحت سورة النساء فلما بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، رأيت عينيه تذرفان بالدمع. فقال لي: «حسبك الآن». وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية.

ولقد كان في الخائفين مَن خر مغشيا عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من مات في سماع الآيات. فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيا في كلامه. وإذا قال: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤]، ولم يكن حاله حال التوكل والإنابة كان حاكيا. وإذا قال: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة. فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات، كان حظه من التلاوة حركة اللسان، مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى: ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ١٨]. وفي قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣]. وفي قوله عز وجل: ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]. وفي قوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

إلى غير ذلك من الآيات. وكان داخلا في معنى قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة: ٧٨]، يعنى التلاوة المجردة، وقوله عز وجلّ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

[يوسف: ١٠٥]، لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضا عنها. ولذلك قيل: من لم يكن متصفا بأخلاق القرآن ناداه الله تعالى: ما لك وكلامي وأنت معرض عني؟ دع عنك كلامي إن لم تتب إلي.

ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره: مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات، وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها، ومقتصر على دراسة كتابه: فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت، ولذلك قال يوسف بن أسباط: إني لأهم بقراءة القرآن، فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت، فأعدل إلى التسبيح والاستغفار.

والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»(١). قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. فالقرآن يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به، وإلا فالمئونة في تحريك اللسان بحروفه خفيفة، ولذلك قال بعض القراء: قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقرأ ثانيا فانتهرني وقال: جعلت القراءة علي عملا! اذهب فاقرأ على الله عز وجل، فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك!

وبهذا كان شغل الصحابة رضي الله عنهم في الأحوال والأعمال(٢).

الترقي في تلاوة القرآن وتدبره:

وهنا درجة ذكرها الغزالي هي الترقي: وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفا بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

والثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه، ويخاطبه بألطافه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته، ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصور الهم على المتكلم،

---

(١) متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلي. (اللؤلؤ والمرجان: ٦، ١٧).
(٢) الإحياء ١/ ٢٨٥ ـ ٢٨٧.

موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره. وهذه درجة المقربين، وما قبله درجة أصحاب اليمين، وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين.

وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال: والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه، ولكنهم لا يبصرون.

وقال أيضا وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه، فلما سري عنه قيل له في ذلك، فقال: ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته!

ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة. ولذلك قال بعض الحكماء:

كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، كنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه. وقال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما: لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن. وإنما قالوا ذلك، لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام. ولذلك قال ثابت البناني: كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعمت به عشرين سنة.

قال الغزالي: وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه، يكون العبد ممتثلا لقوله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١]. فمن لم يره ـ سبحانه ـ في كل شيء فقد رأى غيره، وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى، تضمن التفاته شيئا من الشرك الخفي. بل التوحيد الخالص ألا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل[١]. أ. هـ.

---

(١) الإحياء (١ / ٢٨٧، ٢٨٨).

٤ـ التجـاوب مـع القـرآن

ومن لوازم التدبر: أن يتجاوب القارئ مع القرآن الذي يتلوه، ويتفاعل بعقله وقلبه مع التلاوة، بأن يكون في حالة حضور ويقظة واستجابة لا حالة غيبة وغفلة وإعراض. وصفة ذلك: أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك. فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو آية عذاب أشفق وتعوذ، أو آية تنزيه نزه وعظم، أو آية دعاء تضرع وطلب.

أخرج مسلم عن حذيفة، قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقرأها، ثم النساء، فقرأها، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ [١].

وروى أبو داود والنسائي وغيرهما، عن عوف بن مالك، قال: قمت مع النبي ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ [٢].

وأخرج أحمد أبو داود عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ قال: سبحان ربي الأعلى [٣].

وقال الإمام الزركشي في البرهان:

اعلم أنه ينبغي لمح النعم على من علّمه الله تعالى القرآن العظيم أو بعضه، بكونه أعظم المعجزات، لبقائه ببقاء دعوة الإسلام، ولكونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والحجة بالقرآن

---

(١) رواه مسلم مطولا في صلاة المسافرين برقم (٧٧٢).

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (٧٢٣).

(٣) رواه أحمد وأبوداود والحاكم كما في صحيح الجامع الصغير (٤٧٦٦).

العظيم قائمة على كل عصر وزمان، لأنه كلام رب العالمين، وأشرف كتبه جل وعلا، فلير مَن عنده القرآن أن الله أنعم عليه نعمة عظيمة، وليستحضر من أفعاله أن يكون القرآن حجة له لا عليه، لأن القرآن مشتمل على طلب أمور، والكف عن أمور، وذكر أخبار قوم قامت عليهم الحجة، فصاروا عبرة للمعتبرين، حين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، وأهلكوا لما عصوا. وليحذر من علم حالهم أن يعصي، فيصير مآله مآلهم. فإذا استحضر صاحب القرآن علو شأنه بكونه طريقا لكتاب الله تعالى، وصدره مصحفا له، انكفت نفسه عند التوفيق عن الرذائل، وأقبلت على العمل الصالح الهائل. وأكبر معين على ذلك حسن ترتيله وتلاوته، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٤]. وقال تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وينبغي أن يشتغل قلبه في التفكر في معنى ما يلفظ بلسانه، فيعرف من كل آية معناها، ولا يجاوزها إلى غيرها حتى يعرف معناها، فإذا مر به آية رحمة وقف عندها وفرح بما وعده الله تعالى منها، واستبشر إلى ذلك، وسأل الله برحمته الجنة. وإن قرأ آية عذاب وقف عندها، وتأمل معناها، فإن كانت في الكافرين اعترف بالإيمان، فقال: آمنا بالله وحده، وعرف موضع التخويف، ثم سأل الله تعالى أن يعيذه من النار.

وإن هو مرّ بآية فيها نداء للذين آمنوا فقال: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقف عندها ـ وقد كان بعضهم يقول: لبيك ربي وسعديك ـ ويتأمل ما بعدها مما أمر به ونهي عنه، فيعتقد قبول ذلك. فإن كان من الأمر الذي قد قصر عنه فيما مضى اعتذر عن فعله في ذلك الوقت، واستغفر ربه في تقصيره، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨]. إذا قرأ هذه الآية تذكر أفعاله في نفسه وذنوبه فيما بينه وبين غيره من الظلامات والغيبة وغيرها، ورد ظلامته، واستغفر من كل ذنب قصر في عمله، ونوى أن يقوم بذلك، ويستحل كل من بينه وبينه شيء من هذه الظلامات، من كان منهم حاضرا، وأن يكتب إلى من كان غائبا، وأن يرد ما كان أخذه على من أخذه منه، فيعتقد هذا في وقت قراءة القرآن، حتى يعلم الله تعالى منه أنه قد سمع وأطاع.

فإذا فعل الإنسان هذا كان قد قام بكمال ترتيل القرآن. فإذا وقف على آية لم يعرف معناها يحفظها حتى يسأل عنها من يعرف معناها، ليكون متعلما لذلك طالبا للعمل به. وإن كانت الآية قد اختلف فيها اعتقد من قولهم أقل ما يكون، وإن احتاط على نفسه بأن يعتقد أوكد ما في ذلك كان أفضل له، وأحوط لأمر دينه.

وإن كان ما يقرؤه من الآي فيما قص الله على الناس من خبر من مضى من الأمم فلينظر في ذلك، وإلى ما صرف الله عن هذه الأمة منه، فيجدد لله على ذلك شكرا.

وإن كان ما يقرؤه من الآي مما أمر الله به أو نهى عنه أضمر قبول الأمر والائتمار، والانتهاء عن المنهي والاجتناب له.

وإن كان ما يقرؤه من ذلك وعيدا وعد الله به المؤمنين فلينظر إلى قلبه، فإن جنح إلى الرجاء فزعه بالخوف، وإن جنح إلى الخوف فسح له في الرجاء، حتى يكون خوفه ورجاؤه معتدلين، فإن ذلك كمال الإيمان.

وإذا كان ما يقرؤه من الآي من المتشابه الذي تفرد الله بتأويله، فليعتقد الإيمان به كما أمر الله تعالى فقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧]، يعني عاقبة الأمر منه، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧]، وإن كان موعظة اتعظ بها، فإنه إذا فعل هذا فقد نال كمال الترتيل[1]. أ. هـ.

في كم نختتم تلاوة القرآن؟:

قال الحافظ السيوطي:

يستحب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته. قال تعالى مثنيا على من كان ذلك دأبه:

﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار...»[2].

وقد كان للسلف في قدر القراءة عادات. فأكثر ما ورد في كثرة القراءة: من كان يختم في اليوم والليلة ثماني ختمات: أربعا في الليل، وأربعا في النهار.

قلت معقبا على ما نقله السيوطي: وهل هذا معقول أو متصور؟ إذا كان القرآن، قسم إلى ثلاثين جزءا، والجزء إلى ثمانية أرباع، فأقل ما تستغرقه قراءة الربع بالسرعة والعجلة دقيقتان فيكون المجموع: ٣٠ × ٨ × ٢ = ٤٨٠ دقيقة للختمة الواحدة. فإذا ضربناها في ثمانية تكون

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٤٩-٤٥٢).

(٢) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان (٤٦٦).

النتيجة: ٤٨٠ × ٨ = ٣٨٤٠ دقيقة. فإذا حسبناها بالساعة تكون النتيجة: ٣٨٤٠ ÷ ٦٠ = ٦٤ ساعة أي ما يقارب ثلاثة أيام وثلاث ليال معا!!

وهذا لو افترضنا أنه لا يشتغل بشيء آخر، فكيف والإنسان بطبيعته يلزمه أكل وشرب ونوم وقضاء حاجة، إلى غير ذلك مما تفرضه الحياة البشرية؟

فلا أحسب هذا النقل صحيحا، ولو صح فهو غير مقبول، لأنها قراءة لا تتيح لقارئها فرصة تدبر ولا تأمل. ورضي الله عن عائشة فقد أنكرت ذلك كما سيأتي.

وبعد أن ذكر السيوطي ذلك قال: ويليه: من كان يختم في اليوم والليلة أربعا ويليه ثلاثا، ويليه، ختمتين، ويليه ختمة.

قال: وقد ذمت عائشة ذلك. فأخرج ابن أبي داود عن مسلم بن مخراق، قال: قلت لعائشة: إن رجالا يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثا، فقالت: قرءوا ولم يقرءوا! كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام، فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا ورغب، ولا آية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ.

ويلي ذلك من كان يختم في ليلتين ويليه من كان يختم في كل ثلاث، وهو حسن.

وكره جماعات الختم في أقل من ذلك، لما روى أبو داود والترمذي وصححه من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»[1].

وأخرج ابن أبي داود وسعيد بن منصور عن ابن مسعود موقوفا، قال: «لا تقرءوا القرآن في أقل من ثلاث».

وأخرج أبو عبيد عن معاذ بن جبل: أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، وأخرج أحمد وأبو عبيد عن سعيد بن المنذر ـ وليس له غيره ـ قال: قلت: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: نعم، إن استطعت.

ويليه من ختم في أربع، ثم في خمس، ثم في ست، ثم في سبع، وهذا أوسط الأمور وأحسنها، وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم.

أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في

(١) رواه أبو داود في الصلاة (١٣٩٤) والترمذي في القراءات (٢٩٥٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٧) والنسائي.

شهر» . قلت : إني أجد قوة . قال : «اقرأه في عشر» . قلت : إني أجد قوة . قال : «اقرأه في سبع ، ولا تزد على ذلك» (١) .

ويلي ذلك : من ختم في ثمان ، ثم في عشر ، ثم في شهر ، ثم في شهرين .

أخرج ابن أبي داود عن مكحول ، قال : كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ يقرءون القرآن في سبع ، وبعضهم في شهر ، وبعضهم في شهرين ، وبعضهم في أكثر من ذلك .

وقال أبو الليث في البستان : ينبغي للقارئ أن يختم في السَّنَة مرتين ، إن لم يقدر على الزيادة .

وقد روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة أنه قال : من قرأ القرآن في كل سنة مرتين ، فقد أدى حقه ، لأن النبي ﷺ عرض على جبريل في السَّنة التي قبض فيها مرتين .

وقال غيره : يكره تأخير ختمه أكثر من أربعين يوما بلا عذر . نص عليه أحمد ، لأن عبدالله بن عمرو سأل النبي ﷺ : في كم نختم القرآن ؟ قال : «في أربعين يوما»(٢) .

وقال النووي في الأذكار : المختار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف ، فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ ، وكذلك من كان مشغولا بنشر العلم ، أو فصل الحكومات ، أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة ، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له ، ولا فوات كماله . وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه ، من غير خروج إلى حد الملل أو الهذرمة في القراءة (٣) .

---

(١) متفق عليه كما في (اللؤلؤ والمرجان) رقم (٧١٦) .

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (١٣٩٥) والترمذي في القراءات (٢٩٤٨) وقال : حسن غريب ، والنسائي .

(٣) انظر : الإتقان (١ / ٢٩٢-٢٩٥) .

٥ ـ الاستماع للقرآن

إذا كان القرآن الكريم يتعبد بتلاوته، فإنه يتعبد أيضا بسماعه، وقد صح أن الرسول ﷺ قد استمع إلى القرآن من الصحابة.

استمع إلى أبي موسى الأشعري، وهو يقرأ القرآن بصوته الجميل: فقال: «لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود»! فبلغ ذلك أبا موسى، فقال: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا» (١).

واستمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود، ومعه أبو بكر وعمر، فوقفوا طويلا، ثم قال: «من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» (٢). يعني ابن مسعود.

بل نراه ﷺ يطلب من ابن مسعود أن يقرأ عليه شيئا من القرآن. قال: قلت: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري». قال: فقرأت (النساء). حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قال لي: «كف» أو «أمسك». فرأيت عينيه تذرفان (٣).

وروت عائشة قالت: أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء ـ تعني في المسجد ـ ثم جئت، فقال: «أين كنت»؟ قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع قبلُ قراءته وصوته من أحد! قالت: فقام وقمت معه، حتى استمع له، ثم التفت إليها فقال: «هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا» (٤).

---

(١) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان (٤٥٦).

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريج (الإحياء): أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمر، والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان (٤٦٣).

(٤) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٨) ونقل محققه عن الزوائد · إسناده صحيح ورجاله ثقات.

وفي عصرنا غدت فرص الاستماع إلى القرآن ميسرة وكثيرة من قراء مجيدين خاشعين، يلمسون بقراءتهم أوتار القلوب، وقد انتشرت قراءاتهم عن طريق الأشرطة المسجلة، والتي تباع بأثمان زهيدة. ثم هناك الإذاعات الخاصة بالقرآن في أكثر من بلد إسلامي، وهذا من فضل الله على الناس.

وقد يسأل الناس اليوم عن هذه الأشرطة التي سجل فيها القرآن: هل لها حكم المصحف من حيث مسها وحملها؟ والظاهر أن قياسها على المصحف ليس مسلّما، لوجود الفارق بينهما، فهذه صماء لا يعرف ماذا في جوفها حتى توصل بآلة معينة، وتوصل الآلة بالكهرباء، حتى يسمع ما فيها بخلاف المصحف المقروء، فهو بمجرد النظرة إليه يعرف أنه قرآن كريم. ومع هذا يحسن أن تحترم هذه الأشرطة إذا علم أن ما بداخلها كتاب الله.

آداب الاستماع إلى القرآن:

وكما أن لتلاوة القرآن آدابا تحدثنا عنها، فإن للاستماع إليه آدابا أيضا ينبغي مراعاتها:

الإنصات والإصغاء:

أول هذه الآداب هو: الإنصات والإصغاء عندما يتلى القرآن. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ومعنى الإنصات: السكوت مع الاستماع. ولهذا فسر بـ(إحسان الاستماع).

فالإنصات يساعد العقل على التدبر، والقلب على التأثر، وكلاهما يساعد الإرادة على التوجه.

وهذا ما فعله الجن حينما سمعوا القرآن من رسول الله ﷺ. يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩ – ٣١].

التدبر والتأثر والتجاوب:

وكل ما ذكرناه في آداب التلاوة ـ من وجوب التدبر وما قبل التدبر من تعظيم الكلام والمتكلم، وما بعد التدبر من التأثر والتجاوب مع كلام الله، وتطبيقه على النفس ـ كل هذا يقال في الاستماع أيضا.

ولهذا وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢].

ووصف تعالى عباد الرحمن بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣].

سماع المؤمنين المتأثرين بالقرآن:

وقد ذكر لنا القرآن من السماع المحمود الذي أثنى على أصحابه بالتجاوب السريع مع كتاب الله إذا تلي عليهم: خرورا وسجودا، وبكاء وخشوعا، وتسبيحا وثناء على الله تبارك وتعالى. وهذا ما وصف الله سبحانه به الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب من قبل، ونطقت بذلك آيات كتابه العزيز تصفهم أبلغ الوصف، وتصور حالهم أصدق التصوير.

ولقد مر بنا هذا الوصف والتصوير ونحن نتحدث عن آداب التلاوة، ولا بأس أن نعيده هنا ونحن نتحدث عن آداب الاستماع، فهؤلاء إنما سمعوا القرآن يتلى عليهم ولم يتلوه هم فالاستشهاد بهذه الآيات هنا أحق وأولى:

يقول تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦ – ١٠٩].

ومثل هذا ما جاء في وصف جماعة ممن آمنوا من النصارى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ

الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣ - ٨٥].

المعرضون عن القرآن:

وهناك من لا يريد الاستماع إلى القرآن أصلا، خشية أن يؤثر في عقله وقلبه، وكذلك لا يريد لغيره أن يسمع له، خوفا من أن تنفذ أشعة القرآن إليه، فيستجيب له، ويغير ما بنفسه.

وهذا ما حكاه القرآن عن المشركين، الذين كانوا يشوشون على النبي ﷺ إذا تلا القرآن، حتى لا يتأثر به شبابهم ونساؤهم، ومن بقي على الفطرة منهم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

الذين سمعوا ولم يسمعوا:

ومنهم من يستمع إلى القرآن، وقلبه مغلق، وأذنه صماء، فلا يفقه منه شيئا، فإن الجحود والمكابرة والعناد قد أقامت سدا سميكا بينه وبين كتاب الله، فلا يسمع ولا يعقل.

وهؤلاء هم الذين وصفهم الله في آيات كثيرة من كتابه، مشيرا إلى الأسباب التي جعلتهم يصمون الآذان، ويغلقون القلوب:

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٧].

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٥) ﴾ [الأنعام: ٢٥].

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [الجاثية : ٧ – ٩].

ومن ثم يعتبر القرآن هؤلاء المكابرين لم يسمعوا للقرآن، لأن أجهزة الاستقبال معطلة لديهم. فلا أذن تسمع، ولا فؤاد يفقه.

يقول تعالى: ﴿ حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت: ١ – ٥].

فالمعرض لا يسمع، وإن سمع لا يعي، لأنه يحضر بجسمه لا بعقله، بل هو يحاول أن يعطل عقله حتى لا يفكر. وإذا عطل الإنسان عقله الذي ميزه الله به، غدا أحط من البهيمة العجماء، وأصبح من شر الدواب، كما عبر القرآن: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦].

فهؤلاء حضروا بأبدانهم، وعقولهم غائبة، فهم يسمعون الأصوات فقط، دون أن يعوا مضمون القول. ولا عجب أن يقولوا لأهل العلم: ماذا قال آنفا؟ وأن يعقب القرآن عليهم بما عقب. وهذا هو سماع المنافقين.

هذا هو سماع الذين جعلوا بينهم وبين القرآن حجابا، صنعه الكبر أو الحسد، أو اتباع الهوى، أو الجمود والتقليد، فهم يسمعونه بآذانهم أصواتا، ولكن لا تسمعه قلوبهم معاني.

عطل الجحود واتباع الهوى أسماعهم، كما عطل أبصارهم وقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

[الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

هؤلاء الجاحدون سمعوا، ولم يسمعوا، سمعوا بالأذن، ولم يسمعوا بالعقل والقلب، وفيهم يقول القرآن: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۝ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ – ٢٣].

سماع المحرفين للكلم:

وذكر لنا القرآن نموذجا آخر مذموما، من الذين يسمعون كلام الله ثم يحرفونه عمدا، لهوى في أنفسهم، وفساد في قلوبهم.

وهو ما حكاه القرآن عن اليهود، إذ قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ۝ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٥ – ٧٧].

وكل هذه أنواع مذمومة من السماع. أما السماع المطلوب، فهو سماع المؤمنين الذين يسمعون بآذانهم وعقولهم وقلوبهم. وهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب.

الباب الثالث

كيف نتعامل مع القرآن العظيم: فهما وتفسيرا

١ - التفسير وأهميته والحاجة إليه وأنواعه

٢ - المنهج الأمثل في التفسير: معالم وضوابط

٣ - مزالق ومحاذير في الفهم والتفسير

٤ - التفسير العلمي للقرآن

الفصل الأول

التفسير وأهميته والحاجة إليه وأنواعه

١ ـ التفسير والحاجة إليه ومنزلته

٢ ـ بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي

١- التفسير والحاجة إليه ومنزلته

معنى التفسير:

التفسير في اللغة: التبيين والإيضاح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. أي بيانا وتفصيلا.

وهو مأخوذ من (الفَسْر) وهو: الإبانة والكشف. قال في القاموس: الفسر: الإبانة وكشف المغطّى، كالتفسير. وقال في البحر المحيط: ويطلق التفسير أيضا على (التعرية) للإطلاق. قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس: عريته، لينطلق من حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري.

ومن هنا يتبين لنا أن التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي، كما ذكر ثعلب، وفي الكشف المعنوي، بالإبانة عن المعاني المعقولة من وراء الكلام. واستعماله هنا أكثر وأشهر.

وأما التفسير في الاصطلاح، فأظهر ما ذكر فيه ما نقله الحافظ السيوطي عن الإمام الزركشي: أنه «علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج حِكَمه وأحكامه»(١).

وقريب منه قول بعضهم: إنه علم يبحث فيه عن أقوال القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية (٢).

ولا شك في أن هذا القيد (بقدر الطاقة البشرية) ينبغي أن يكون ملحوظا، وإن لم يكن ملفوظا، وخصوصا بالنسبة لكلام الله عز وجل.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤ / ١٦٩) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) نقله الدكتور الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون) (١ / ١٦) عن منهج القرآن (٥ / ٦).

التفسير والتأويل:

وقد يسأل سائل: هل هناك فرق بين التفسير والتأويل؟

والجواب: أن طائفة من العلماء قالوا: هما معنى واحد، وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

وقال بعضهم: التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا.

وقال غيرهم: التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ كذا. والتأويل ترجيح أحد المحتملات.

وقال آخرون: التفسير: الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها، والتأويل: هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها - غير مخالف للكتاب والسنّة - عن طريق الاستنباط.

وقال بعضهم: التفسير ما يتعلق بالرواية. والتأويل ما يتعلق بالدراية [1].

ولا سبيل إلى الجزم بواحد من هذه الأقوال، لأن كل مفسر يستخدم الكلمة وفق مفهوم محدد عنده. ولا مشاحّة في الاصطلاح.

وأما التأويل في علم الأصول وعلم الكلام فهو معلوم. وهو صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر لقرينة، وسنعود إليه في موضعه.

الحاجة إلى التفسير:

وقد يعن لسائل أن يسأل: ما الحاجة إلى التفسير، والقرآن ﴿كتاب مبين﴾ كما سماه الله تعالى؟ وهو ميسر للذكر وللفهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]؟

والجواب: أن الله تعالى قال عن هذا القرآن لرسوله الكريم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. وهذا يعني أن الله جل شأنه بين فيه أصول العقيدة،

---

(١) ذكر هذه الأقوال الشيخ الذهبي في (التفسير والمفسرون) جـ١ ص ٢٠-٢٣ وانظر البرهان: ٢: ١٤٩-١٥٣.

وقواعد الشريعة، وأسس السلوك، وأرشد إلى أقوم المناهج في الفكر والعمل، ولكنه لم يتضمن تفصيلات في هذه الأمور، وترك ذلك للسنة النبوية حينا، ولعقول المسلمين أحيانا، ولا غرو أن يحتاج كثير من ألفاظ القرآن وجمله إلى البيان والتفسير، ولا سيما مع استخدامه كثيرا لأسلوب الإيجاز، الذي يجمع المعاني الجمة في الألفاظ القليلة.

ثم إن القرآن قد نزل بلسان العرب، على ما فيه من تنوع الدلالات، من الصريح والكناية، والحقيقة والمجاز، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والمنطوق والمفهوم، وما يفهم بالإشارة وما يفهم بالعبارة. والناس يتفاوتون في الفهم والإدراك، فمنهم من لا يدرك إلا المعنى الظاهر القريب، ومنهم من يغوص على المعنى العميق البعيد، ومنهم من يفهم المعنى على غير وجهه. ثم إن هذا القرآن نزل لأسباب وملابسات معينة، من شأنها إذا عرفت أن تلقي الضوء على المعنى المراد، وتعين على فهمه فهما صحيحا.

لهذا كله ولأكثر منه، كان الناس في حاجة إلى تفسير القرآن، حتى يحسنوا فهمه ويحسنوا العمل به. والله تعالى طلب منهم تدبر القرآن. فقال تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]. ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]. ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن التدبر هو: النظر في أدبار الأمور، أي في عواقبها ومآلاتها، وهو عمل عقلي، يترتب عليه عمل قلبي، هو التأثر والتذكر والاعتبار. ولهذا قال: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وقال تباركت أسماؤه: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

فهذه الآيات وأمثالها تحرض على حسن فهم القرآن، والاعتبار بما فيه، حتى يأتمر المؤمن بأمره، وينتهي عن نهيه، ويقف عند حدوده، ويدعو الناس إليه، ويقيم الحياة من حوله على أساسه وعلى ضوئه.

يقول أبو جعفر الطبري: وفي حث الله عز وجل عباده على الاعتبار بما في آيات القرآن من المواعظ والبينات، بقوله جل ذكره: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ

أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩]، وقوله ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٧، ٢٨]، وما أشبه ذاك من آي القرآن، التي أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه : ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيه. لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان والكلام ! إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره. أما قبل ذلك فمستحيل أن يتدبره وهو بمعناه جاهل، كما محال أن يقال لبعض الأمم الذين لا يعرفون كلام العرب ولا يفهمونه، لو أنشد قصيدة شعر من أشعار العرب، ذات أمثال ومواعظ وحكم : اعتبر بما فيها من الأمثال، ادّكر بما فيها من المواعظ، إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلام العرب ومعرفته، ثم الاعتبار بما تنبه عليه ما فيها من الحكم (١).

وقد روى الطبري عن سعيد بن جبير قال : من قرأ القرآن، ثم لم يفسره، كان كالأعمى أو كالأعرابي (٢).

ومما يؤكد الحاجة إلى التفسير : وقوع الخطإ في فهم آي القرآن، منذ عصر النبوة، وفي سائر العصور، وإلى اليوم.

فقد فهم عدي بن حاتم الطائي من قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة : ١٨٧]، فهم الخيط الأبيض والخيط الأسود على حقيقتهما، حتى بين الرسول له أن المراد : بياض النهار وسواد الليل (٣).

وفهم بعض الصحابة من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢]، أن المراد بكلمة (بظلم) أيّ ظلم للنفس بالمعصية. (٤) ومن ذا الذي يسلم من ذلك ؟ فشق ذلك على الصحابة، وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟! فبين لهم الرسول الكريم أن المراد بالظلم هنا هو الشرك، مستدلا بقول لقمان لابنه : (٥) ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣]. والمتأمل في سياق الآية يجد أن هذا هو المعنى المتعين : أي لم يشوبوا توحيدهم بشرك، وهو المناسب للمقام.

(١) مقدمة تفسير الطبري (١ / ٨٢، ٨٣) طبعة دار المعارف.
(٢) رواه الطبري في المقدمة برقم (٨٧) جـ١ صـ٨١. (٣) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (٦٦٠).
(٤) كما يفيده تنكير كلمة (ظلم) في سياق النفي، فهو يفيد العموم، كما هو معلوم في العربية.
(٥) رواه البخاري وغيره.

ومثل هذا الوهم أو الخطإ في الفهم، وقع كثيرا في عهد النبوة، وردهم النبي ﷺ إلى الفهم الصحيح. وهذا من صميم مهمته: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وفي خلافة أبي بكر رضي الله عنه رأيناه يصعد المنبر ويخطب الناس قائلا: «أيها الناس! إنكم تقرءون هذه الآية، وتؤولونها على غير وجهها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[(١)].

ومعنى هذا: أنهم فهموا منها ترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ووجوب تغييره، وترك مقاومة الظلم إذا وقع.

وفي خلافة عمر رضي الله عنه رأينا بعض الصحابة يشرب الخمر، يحسبها مباحة، مستدلا بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣]. قال ذلك قدامة بن مظعون حين شرب الخمر ثم قال: أنا من الذين اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا. شهدت مع رسول الله بدرا وأحدا والخندق والمشاهد! فرد عليه عمر والصحابة بأن الآية نزلت عذرا لمن شرب الخمر (أي في حال إباحتها) ثم مات وهي في بطنه، ولا جناح عليهم، وهي حجة على الباقين[(٢)].

التفسير على أربعة أوجه:

وروى الطبري بسنده إلى ابن عباس قال:

التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى[(٣)].

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم (١) وصحح الشيخ شاكر إسناده، وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨) والترمذي في التفسير (٣٠٥٩) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥) ونسبه المنذري للنسائي أيضا.

(٢) انظر: التفسير والمفسرون (١/ ٦١).

(٣) ذكره الطبري في مقدمة التفسير برقم (٧١) جـ١ صـ٧٥.

فالوجه الأول يعني: أن القرآن نزل بلسان العرب، وهو جاء على معهود كلامهم، من الحقيقة والمجاز، والصريح والكناية . . . إلخ. فالعرب تعرف القرآن من خلال معرفتها بأسلوب كلامها وطرائقه.

والوجه الثاني: هو ما كان واضحا بحيث يتبادر إلى الأذهان معرفته، دون حاجة إلى كد الذهن، وإجهاد العقل. وقد يكون المراد به: ما كان من أساسيات الدين بحيث لا يعذر أحد بالجهل به.

والوجه الثالث: ما لا يعرفه إلا أهل العلم، مما يحتاج إلى استنباط وتدقيق ومعرفة بعلوم أخرى، حتى يحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، ويرجح ما فيه احتمال بمرجحات خاصة . . . إلخ.

والرابع: ما لا يعلمه إلا الله، مثل شئون الغيب، التي لا يعلم حقائقها إلا الله سبحانه. كأحوال البرزخ، وأمور الآخرة، وموعد قيام الساعة، والعالم المستور عنا مثل الملائكة والعرش ونحو ذلك.

وقد يدخل في ذلك المتشابه من الآيات الذي ذكره الله في سورة آل عمران، وقال فيه: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧]. [آل عمران: ٧]. على أحد الوجهين في تفسيرها.

علق الزركشي في (البرهان) على قول ابن عباس في تقسيم التفسير إلى أربعة أنواع، فقال: هذا تقسيم صحيح: فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم، وذلك اللغة والإعراب. فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسميات أسمائها، ولا يلزم ذلك القارئ. ثم إن كان ما تتضمنه ألفاظه يوجب العمل دون العلم، كفى فيه خبر الواحد والاثنين، والاستشهاد بالبيت والبيتين. وإن كان يوجب العلم لم يكف ذلك، بل لابد أن يستفيض ذلك اللفظ، وتكثر شواهده من الشعر.

وأما الإعراب فما كان اختلافه محيلا للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه، ليتوصل المفسر إلى معرفة الحكم، ويسلم القارئ من اللحن. وإن لم يكن محيلا للمعنى وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه، على أن جهله نقص في حق الجميع.

وأما ما لا يعذر أحد بجهله، فهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد. وكل لفظ أفاد معنى واحدا جليا يُعلم أنه مراد الله تعالى،

فهذا القسم لا يلتبس تأويله، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد، من قول الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]. وأنه لا شريك له في إلهيته، وإن لم يعلم أن (لا) موضوعة في اللغة للنفي (وإلا) للإثبات، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر. ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، ونحوها من الأوامر: طلب إدخال المأمور به في الوجود، وإن لم يعلم أن صيغة (افعل) مقتضاها الترجيح وجوبا أو ندبا، فما كان من هذا القسم لا يعذر أحد يدعي الجهل بمعاني ألفاظه، لأنها معلومة لكل أحد بالضرورة.

وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فهو ما يجري مجرى الغيوب، نحو الآي المتضمنة قيام الساعة، وتفسير الروح، والحروف المقطعة، وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق، فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره، ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن أو الحديث أو إجماع الأمة على تأويله، فإذا لم يرد فيه توقيف من هذه الجهات، علمنا أنه مما استأثر الله تعالى بعلمه.

وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم، فهو الذي يغلب عليه إطلاق (التأويل)، وذلك استنباط الأحكام وبيان المجمل، وتخصيص العموم، وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي.

فإن كان أحد المعنيين أظهر وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفي. وإن استويا ـ والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية ـ فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية، كما في ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ولو كان في أحدهما عرفية والآخر لغوية، فالحمل على العرفية أولى، لطريانها على اللغة. ولو دار بين الشرعية والعرفية، فالشرعية أولى، لأن الشرع ألزم، فإن تنافى اجتماعهما، ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد، كالقرء للحيض والطهر، اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه، وإن لم يظهر له شيء فهو يتخير في الحمل على أيهما شاء، أو يأخذ بالأغلظ حكما، أو بالأخف في أقوال. وإن لم

يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما [1] . أ. هـ .

منزلة علم التفسير:

قال في الإتقان :

وقد أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات وأجل العلوم الثلاثة الشرعية . (يعني : التفسير والحديث والفقه) .

قال الأصبهاني : أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن. بيان ذلك : أن شرف الصناعة إما بشرف موضوعها مثل الصياغة، فإنها أشرف من الدباغة، لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة . وإما بشرف غرضها، مثل صناعة الطب، فإنها أشرف من صناعة الكناسة، لأن غرض الطب إفادة الصحة، وغرض الكناسة تنظيف المستراح . وإما لشدة الحاجة إليها كالفقه، فإن الحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الطب، إذ ما من واقعة في الكون في أحد من الخلق إلا وهي مفتقرة إلى الفقه، لأن به انتظام صلاح أحوال الدنيا والدين، بخلاف الطب، فإنه يحتاج إليه بعض الناس في بعض الأوقات.

إذا عرف ذلك، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث . أما من جهة الموضوع، فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه» . وأما من جهة الغرض . فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى . وأما من جهة شدة الحاجة، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجل أو آجل، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى [2] .

---

(١) البرهان (٢ / ١٦٤ـ١٦٨)، ونقله السيوطي مختصرا في الإتقان (٤ / ١٨٩ ، ١٩٠)، وعنه نقلنا هذه الفقرة، إلا ما كان فيه سقط، وصححناه من البرهان .

(٢) الإتقان (٤ / ١٧٣) .

فضل تفسير القرآن وأهميته:

ذكر الإمام القرطبي رحمه الله في مقدمة تفسيره: ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك: أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جعلت فداءك! تصف جابرا بالعلم وأنت أنت؟! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [**القصص**: ٨٥].

وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى، أعلمهم بما أنزل.

وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيم أنزلت وما يعني بها.

وقال الشعبي: رحل مسروق إلى البصرة في تفسير آية، فقيل له: إن الذي يفسرها رحل إلى الشام، فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها.

وقال عكرمة في قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [**النساء**: ١٠٠]. طلبت اسم هذا الرجل الذي خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو ضمرة بن حبيب (وفيه أقوال أخرى).

وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعني إلا مهابته، فسألته فقال: هما حفصة وعائشة.

وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة، ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب [١].

---

(١) مقدمة تفسير القرطبي جـ ١ / ٢٢.

٢ـ بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي

التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي:

من قرأ كتب التفسير عرف أنها نوعان:

١ ـ نوع سمي: التفسير بالمأثور أو بالرواية.

٢ ـ نوع سمي: التفسير بالرأي أو بالدراية.

أولاً: التفسير بالمأثور:

ويراد بالتفسير بالرواية أو بالمأثور: التفسير المقتصر على النقل عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة رضي الله عنهم، أو عن تلامذتهم من التابعين، وربما عن الأتباع، أي تلاميذ التابعين.

وهناك تفاسير صنفت على هذا النمط، مثل تفسير ابن أبي حاتم، وابن مردويه من المتقدمين.

وهناك أبواب ـ أو كتب بتعبير القدامى ـ في كتب الحديث حول تفسير القرآن، كما في الصحيحين للبخاري ومسلم، وكما في كتب السنن لأبي داود والترمذي وابن ماجه، وكتاب (التفسير) للنسائي ـ ويعد جزءاً من السنن الكبرى له ـ وصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم. وقبل ذلك في مصنف عبد الرزاق وغيرها..

وهذا التفسير مبثوث في المسانيد ضمن مرويات الصحابة.

ومن المتأخرين من جمع هذه المرويات كلها في كتاب واحد، وذلك هو الحافظ السيوطي

الذي ضم هذه الروايات المنقولة في التفسير محذوفة الأسانيد، معزوة إلى مخرجيها، وذلك في كتابه المشهور (الدر المنثور في التفسير بالمأثور).

ومن الناس من يذكر هنا كتاب شيخ المفسرين أبي جعفر محمد بن جرير الطبري: المعروف باسم (جامع البيان في تأويل القرآن) على أنه كتاب في التفسير بالمأثور. وسنبين أنه في الواقع تفسير رواية ودراية معًا.

ومثله تفسير ابن كثير المسمى (تفسير القرآن العظيم).

وآفات التفسير بالمأثور عدة، منها:

١ـ وجود الضعيف والمنكر والموضوع من المنقول عن الرسول وأصحابه وتابعيهم.

٢ـ تضارب الروايات بعضها مع بعض، فنجد عن ابن عباس رواية في قوله تعالى في سورة النور: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣١]: أنها الكحل والخاتم، أو الوجه والكفان. ثم يروى عنه في آية الأحزاب: ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩]: ما يفيد تغطية الوجه! ويُروى عنه أن الذبيح إسماعيل، كما يروى أنه إسحاق.

وهذا يتطلب تمحيص الروايات، وتحقيق الأسانيد، وفق مناهج الجرح والتعديل، حتى يعرف الموثَّق من المضعف، والمقبول من المردود.

٣ـ أن بعض هذا المأثور هو رأي لصاحبه فلا عصمة له. ولهذا نرى الصحابة والتابعين يختلف أحيانًا بعضهم مع بعض. وفي أكثر الأحيان يكون اختلاف تنوع [1]، ولكن في بعض الأحيان يكون اختلاف تضادّ، وهذا دليل على أنهم فسروا برأيهم.

٤ـ أن التفسير بالمأثور ـ كما روي لنا ـ لم يكن تفسيراً منهجيا يتناول القرآن سورة سورة، ويتناول السورة آية آية، ويتناول الآية كلمة كلمة، كما هو شأن التفسير التحليلي الذي عرف باسم (التفسير بالرأي) بل هو أشبه بتعليقات على الآيات الكريمة.

ثانيًا التفسير بالرأي:

يراد بالرأي هنا: ما يقابل النقل، ولذا يسمى التفسير بالدراية، مقابل التفسير بالرواية.

---

(١) كتفسير «الصراط المستقيم» بـ«الإسلام» أو «القرآن» أو «السنة» أو «سنة الراشدين» فهذا من اختلاف التنوع لا التضاد.

ومعنى الرأي هو: الاجتهاد وإعمال العقل والنظر في فهم القرآن الكريم في ضوء المعرفة بلسان العرب، وفي إطار ما ينبغي أن يتوافر للمفسر من أدوات وشروط معرفية وأخلاقية.

وروى البيهقي في الشعب عن الإمام مالك، قال: لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب، يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً.

واشترط بعضهم للمفسر جملة علوم، منها علوم اللغة العربية من النحو والصرف والاشتقاق واللغة وعلوم البلاغة، والقراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والأحاديث المبينة للقرآن، والفقه، وأخيراً: علم الموهبة. وبعض هذه الشروط قد ينازع فيه.

كما اشترطوا سلامة القلب من الكبر والهوى والبدعة وحب الدنيا، والإصرار على الذنوب، فهذه كلها حجب تحول بين القلب ومعرفة الحق الذي أنزله الله. كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن (١).

والمفسرون للقرآن يتفاوتون فيما بينهم تفاوتا بعيدا، في مدى ما يفتح عليهم في فهمه. ولو نظرنا إلى الصحابة رضي الله عنهم لوجدناهم جد متفاوتين. ولذا سئل علي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي؟ (أي غير ما عند سائر المسلمين)، فقال: لا والذي فلق الحبة، وبرأ النَّسْمة، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن (٢).

وابن عباس دعا له النبي ﷺ بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»(٣).

وقال مسروق ـ من فقهاء التابعين ـ وجدت أصحاب محمد ﷺ مثل الإخاذ: الإخاذ يروي الواحد، والإخاذ يروى الاثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم. «أي: لرواهم»، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ. ذكره ابن الأنباري، وقال: الإخاذ الذي يحبس فيه الماء كالغدير (٤).

---

(١) انظر: الإتقان: جـ ٤ / ١٨٥ ـ ١٨٨.

(٢) رواه البخاري وغيره عن أبي جحيفة برقم ٣٠٤٧.

(٣) رواه أحمد جـ ١ ص ٣٢٨، ٣٣٥ وصحح الشيخ شاكر إسناده برقم ٣٠٣٣، ٣١٠٢ وابن حبان جـ ١٥ ص ٥٣١ رقم ٧٠٥٥.

(٤) ذكره القرطبي في مقدمة التفسير جـ ١ / ٣٠.

التفسير بالرأي ومتى يجوز؟ وإلى أي مدى؟:

وقد يسأل سائل هنا: وهل يجوز التفسير بالرأي، مع ما ورد من الأحاديث المحذرة من ذلك عن النبي ﷺ؟ ومع ما ورد عن بعض الصحابة وكبار علماء التابعين أنهم كانوا يتورعون عن تفسير القرآن ويهابونه، وهم من هم في العلم والتقى؟ فكيف نخوض فيما أحجموا عنه، ونقتحم حمًى تهيبوه، أو حذروا منه؟!

وقد عرض لبيان ذلك الإمام أبو جعفر الطبري في مقدمة تفسيره (جامع بيان القرآن) وعرض له الإمام أبو محمد ابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن).

وعرض له الإمام البيهقي في (المدخل).

وكذلك الإمام الغزالي في (الإحياء) في كتاب (آداب تلاوة القرآن).

الأحاديث والآثار المحذرة من التفسير بالرأي:

وحُجَّة الممتنعين والمانعين من التفسير بالرأي: حديث ابن عباس مرفوعا: «. . . ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»(١).

وحديث جندب مرفوعا: «مَن قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»(٢).

ومما يؤيد ذلك تحرج بعض الصحابة والتابعين من التفسير.

فقد روي عن أبي بكر قوله: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم؟!

وقال ابن أبي مليكة: إن ابن عباس سُئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها. فأبى أن يقول فيها.

وكذلك كان فقهاء التابعين يتقون التفسير ويهابونه: فقهاء المدينة، وفقهاء الكوفة وغيرهم.

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن (رقم ٤٠٢٣)، وأخرجه الطبري في تفسيره وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) رواه الترمذي عن طريق سهيل بن أبي حزم، وقال: غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل. ورواه أبو داود والنسائي أيضا. انظر مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود (٥/ ٢٤٩).

روى الإمام أبو جعفر الطبري في مقدمة التفسير بسنده عن عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليغلظون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع.

وروى بسنده أيضا عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سُئل عن تفسير آية من القرآن، قال: أنا لا أقول في القرآن شيئا.

وروى عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب: أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن.

وعن ابن سيرين، قال: سألت عَبِيدة السلماني عن آية، قال: عليك بالسداد، فقد ذهب الذين علموا فيم أنزل القرآن.

وعن الوليد بن مسلم، قال: جاء طَلْق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن، فقال له: أُحَرِّج عليك إن كنت مسلما لمّا قمت عني، أو قال: أن تجالسني.

وعن يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيَّب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع.

وعن عمرو بن مرة، قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن، فقال: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه، يعني عكرمة.

وعن عبد الله بن أبي السَّفَر، قال: قال الشعبيْ: والله ما من آية إلا قد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله [1].

وقال مسروق: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله!

الجواب عن الحديث النبوي:

والجواب عن الحديث - إن صح - أنه محمول على أحد وجهين:

الأول: أن يراد بالرأي: الهوى، فهو يجر القرآن جرا لتأييد ما يهواه ويميل إليه من فكر.

وبهذا يصبح القرآن تابعا لا متبوعا، ومحكوما لا حاكما، وفرعا لا أصلا.

---

(١) هذه الآثار قد ذكرها الطبري في مقدمة التفسير: الأرقام ٩٢-١٠٣، كما أن الأخبار السالفة جميعا نقلها ابن كثير عن الطبري في تفسيره ١: ١٣-١٤.

أي أن الآراء والمعتقدات والمذاهب هي التي تجعل من يفسر الآية أو يحتج بها، يلوي عنقها ليّا لتأييد ما يراه ويعتقده.

والثاني: أن يكون معنى الحديث أن يهجم على تفسير القرآن دون أن يتأهل له بما يلزم من أدوات التفسير، وشروط المفسِّر، من استحضار سائر القرآن، وما صح من الحديث، وما جاء عن الصحابة من أسباب النزول ونحوها، وما نبه عليه مفسرو السلف من حذف وإضمار وتقديم وتأخير، ونحو ذلك مما يخرج بالألفاظ عن ظاهرها.

فمن قال في القرآن بمجرد رأيه فهو مخطئ وإن أصاب، لأنه تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به. فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر، لكان قد أخطأ: لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر [1].

وقال الإمام أبو محمد ابن عطية في مقدمة تفسيره (المحرر الوجيز) تعليقا على الحديث المذكور:

«معنى هذا: أن يسأل الرجل عن المعنى في كتاب الله، فيتسور عليه برأيه، دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلوم، كالنحو والأصول. وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحاة نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه»[2].

أقول: ومما يقوي ذلك: ورود الحديث في بعض طرقه بلفظ: «مَن قال في القرآن بغير علم» أو «بما لا يعلم».

ولا ريب أن القول على الله بغير علم من أعظم ما حرم الله على عباده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وجعل القرآن ذلك في جملة ما يأمر به الشيطان، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

---

(١) أصول التفسير لابن تيمية ص ١٠٨ .

(٢) انظر: مقدمة المحرر الوجيز ص ٢٨ ، ٢٩ ـ طبع في الدوحة ـ قطر .

بل إن القرآن ينهى عن اتباع ما ليس للإنسان به علم في أي أمر من الأمور، فكيف بكلام الله ؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

الجواب عن آثار السلف الممتنعين عن التفسير:

وأما ما ورد عن بعض السلف من آثار تفيد الامتناع عن التفسير، فيبدو أنهم توقفوا عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم، وخالفهم غيرهم من جلة السلف، فروي عنهم الكثير من التفسير، ولا سيما من كبراء الصحابة مثل علي، وابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم.

وقال ابن تيمية: «هذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. فأما مَن تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه».

«ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير. ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه. وهذا هو الواجب على كل أحد.

فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه»(١)، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ولما جاء في الحديث المروي من طُرُق: «من سُئل عن علم فكتمه، أُلجِم يوم القيامة بلجام من نار» (٢).

وكذلك قرر الإمام الطبري في مقدمة تفسيره. فقد قال:

«وأما الأخبار التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه من التابعين، بإحجامه عن التأويل، فإن فعل من فعل ذلك منهم، كفعل من أحجم منهم عن الفُتيا في النوازل والحوادث، مع إقراره بأن الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه، إلا بعد إكمال الدين به لعباده، وعلمه بأن لله في كل نازلة وحادثة حُكْما موجودا بنص أو دلالة.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير - تحقيق د. عدنان زرزور ص ١١٤، ١١٥.

(٢) رواه الترمذي وحسنه، وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة بألفاظ مقاربة.

فلم يكن إحجامه عن القول في ذلك إحجامَ جاحد أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهر عباده، ولكن إحجام خائف ألا يبلغ في اجتهاده ما كلَّف الله العلماءَ من عباده فيه.

فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من العلماء والسلف، إنما كان إحجامه عنه حذرا ألا يبلغ أداء ما كلّف من إصابة صواب القول فيه، لا على أن تأويل ذلك محجوب من علماء الأمة، غير موجود بين أظهرهم»(1).

كلام المحققين في المسألة:

هذا هو الفهم السليم للحديث الشريف والآثار المروية عن الصحابة وتابعيهم بإحسان. بخلاف من قصروا التفسير على مجرد النقل والسماع، وهو ما رده العلماء المحققون.

ذكر الزركشي في (البرهان) أن الشيخ أبا حيان ـ صاحب (البحر المحيط) في التفسير ـ حكى عن بعض مَن عاصره: أن طالب علم التفسير لابد له في فهم معاني تركيبه من النقل عن مجاهد وطاووس وعكرمة وأضرابهم، وأن فهم الآيات تتوقف على ذلك. ثم بالغ الشيخ في رده، مستدلا بأثر علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ لم يخصهم بشيء . . . إلا فهما يؤتاه عبد في كتاب الله (2).

وقبل ذلك نقل عن الإمام أبي الحسن الماوردي في (نكته): أن بعض المتورعة حمل حديث: «مَن فسر القرآن برأيه . . . » على ظاهره، وامتنع أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، ولو صحبتها الشواهد، ولم يعارض شواهدها نص صريح. قال: وهذا عدول عما تعبدنا من معرفته من النظر في القرآن، واستنباط الأحكام منه، كما قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. ولو صح ما ذهب إليه لم يعلم شيء بالاستنباط، ولما فهم الأكثر من كتاب الله شيئا (3).

قال الإمام الزركشي: والحق أن علم التفسير، منه: ما يتوقف على النقل، كسبب النزول، والنسخ، وتعيين المبهم، وتبيين المجمل، ومنه: ما لا يتوقف، ويكفي في تحصيله التفقه على الوجه المعتبر.

---

(1) مقدمة تفسير الطبري ج ١ / ٨٩.

(2) انظر البرهان: ٢ / ١٧١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وانظر مقدمة تفسير البحر المحيط: ١ / ١ـ٥. والحديث الذي أشار إليه رواه البخاري وغيره.

(3) البرهان: ٢ / ١٦٢، ١٦٣.

ثم قال: «واعلم أن القرآن قسمان: أحدهما ورد بتفسيره النقل عمن يُعتبر تفسيره، وقسم لم يرد.

والأول ثلاثة أنواع: إما أن يرد التفسير عن النبي ﷺ، أو عن الصحابة، أو عن رءوس التابعين.

فالأول: يبحث فيه عن صحة السند.

والثاني: ينظر في تفسير الصحابي: فإن فسره من حيث اللغة، فهم أهل اللسان، فلا شك في اعتمادهم.

وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه.

وحينئذ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة، فإن أمكن الجمع فذاك، وإن تعذر قدم ابن عباس: لأن النبي ﷺ بشره بذلك، حيث قال: (اللهم علّمه التأويل). وقد رجح الشافعي قول زيد في (الفرائض) - أي المواريث - لقوله ﷺ: «أفرَضكم زيد» يعني: زيد بن ثابت الأنصاري.

فإن تعذر الجمع جاز للمقلد أن يأخذ بأيها شاء.

وأما الثالث - وهم رءوس التابعين - إذا لم يرفعوه إلى النبي ﷺ، ولا إلى أحد من الصحابة، رضي الله عنهم، فحيث جاز التقليد فكذا هنا، وإلا وجب الاجتهاد.

الثاني: ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين وهو قليل، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب، ومدلولاتها، واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به (الراغب) كثيرا في (المفردات) [1]، فيذكر قيدا زائدا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ، لأنه اقتنصه من السياق». أ هـ [2].

ويلاحظ أن الإمام الزركشي ذكر موقف (المقلد) من أقوال الصحابة أو التابعين إذا تعارضت ولم يمكن الجمع بينها، وهو أن يأخذ بأيها شاء. وليس هذا هو الموقف الأمثل، بل الواجب على العالم الذي استكمل أدوات التفسير أن يجتهد في الترجيح بين الأقوال، ولا سيما ما كان منها من قبيل الرأي والاستنباط، بل له أن يضيف إليها فهما جديدا، كما سنبين ذلك بعد.

---

(١) يعني: مفردات القرآن للإمام الراغب الأصبهاني، وهو من أعظم الكتب وأهمها لمن يريد تفسير القرآن. ويضاف إليه في عصرنا (معجم ألفاظ القرآن الكريم) الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو عمل جليل.

(٢) البرهان: ٢ / ١٧١، ١٧٢. وقد نقله السيوطي في (الإتقان): (٤ / ١٩٢، ١٩٣) ببعض تصرف.

الفصل الثانى

المنهج الأمثل في التفسير
معالم وضوابط

١ ـ الجمع بين الرواية والدراية

٢ ـ تفسير القرآن بالقرآن

٣ ـ تفسير القرآن بصحيح السنّة

٤ ـ الانتفاع بتفسير الصحابة والتابعين

٥ ـ الأخذ بمطلق اللغة

٦ ـ مراعاة السياق

٧ ـ ملاحظة أسباب النزول

٨ ـ اعتبار القرآن أصلا متبوعا

المنهج الأمثل في تفسير القرآن

لا ريب أن فهم كتاب الله تعالى الفهم السليم هو غاية كل مسلم، وهو الثمرة العلمية المرجوة من تدبره، كما أن الثمرة العملية هي الالتزام بأحكامه وتوجيهاته إيمانا وعملا ودعوة.

والذي يساعد على الفهم السوي للقرآن: هو حسن تفسيره بما يبين مقاصده، ويوضح معانيه، ويكشف اللثام عما فيه من كنوز وأسرار، ويفتح مغاليقه للعقول والقلوب.

وهنا يعرض سؤال كبير، عن أقوم المناهج، أو عن المنهج الأمثل الذي ينبغي توخيه واتباعه في تفسير القرآن الكريم.

وجوابنا عن هذا السؤال الكبير: أن المنهج الأمثل في تفسير القرآن، يقوم على أصول راسخة، وقواعد شامخة، تتمثل في خطوات معلومة، ومعالم مرسومة، وضوابط بيّنة، يجب مراعاتها والالتزام بها، حتى تتضح للمفسر الغاية، ويستقيم له الطريق:

١ - الجمع بين الرواية والدراية

أول المعالم في هذا المنهج هو: الجمع بين الرواية والدراية. فإذا كان في مناهج التفسير ما عني بالرواية والأثر، وفيها ما عني بالدراية والنظر، فإن أقوم المناهج ما مزج بين الرواية والدراية، وجمع بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وألف بين تراث السلف ومعارف الخلف.

وهذا ما سار عليه كثير من أئمة التفسير، وعلى رأسهم شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في موسوعته التفسيرية (جامع البيان في تفسير القرآن)، وإن نظمه من نظمه في سلك تفسير الرواية، أو التفسير المأثور، وهذا ظلم للرجل، وعدم تقويمه التقويم الصحيح، فإن الذي يقرأ تفسيره يجده يسرد الروايات والأقوال، ثم يناقشها، ويبين أولاها بالصواب، أو يرى هو رأيا آخر في فهم الآية الكريمة.

والحافظ ابن كثير يقاربه في المنهج. وإن لم يبلغ مبلغه في استيعاب الأقوال في كتابه

(تفسير القرآن العظيم)، وإن كان له مزية عليه في جوانب أخرى، مثل تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنّة . . إلخ.

كذلك الإمام القرطبي، يجمع بين الرأي والمأثور في كتابه: (الجامع لأحكام القرآن) وإن اعتبر أقرب إلى الرأي.

ومن المتأخرين: الإمام محمد بن على الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في كتابه: (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير).

وقد سجل في مقدمته ما يكشف عن منهجه الذي اختاره، وبين ملامحه، فقال رحمه الله: «إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين، وسلكوا طريقين:

الفريق الأول: اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية.

والفريق الآخر: جرّدوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية راسا، وإن جاءوا بها لم يصححوا لها أساسا.

وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب.

فإن ما كان من التفسير ثابتا عن رسول الله ﷺ ،وإن كان المصير إليه متعينا، وتقديمه متحتما، غير أن الذي صح عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن، ولا يختلف في مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان.

وأما ما كان منها ثابتا عن الصحابة رضي الله عنهم:

فإن كان من الألفاظ التي قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوي بوجه من الوجوه، فهو مقدَّم على غيره.

وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع، فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم. فإذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب، فبالأولى تفاسير مَن بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمة.

وأيضا كثيرا ما يقتصر الصحابي ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي.

ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية، ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التي تتبين بها دقائق العربية وأسرارها، كعلم المعاني والبيان، فإن التفسير

بذلك هو تفسير باللغة، لا تفسير بمحض الرأي المنهي عنه. وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه، وابن المنذر والبيهقي في كتاب الرؤية عن سفيان قال: ليس في تفسير القرآن اختلاف، إنما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا.

وأخرج ابن سعد في الطبقات، وأبو نعيم في الحلية عن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها.

وأخرج ابن سعد [1] أن عليا قال لابن عباس: اذهب إليهم - يعني الخوارج - ولا تخاصمهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة. فقال له: أنا أعلم بكتاب الله منهم. فقال: صدقت. ولكن القرآن حمّال ذو وجوه.

وأيضا لا يتيسر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف. بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن، ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم، وإن صح إسناده إليه.

وبهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين.

وهذا هو المقصد الذي وطّنت نفسي عليه، والمسلك الذي عزمت على سلوكه إن شاء الله، مع تعرّضي للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لي وجهه، وأخذي من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ماثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة أو التابعين أو تابعيهم، أو الأئمة المعتبرين»[2].

وهذا هو السبيل المستقيم، الذي ينبغي للمفسر المعاصر أن يسلكه، حتى يحسن فهم كتاب الله تبارك وتعالى، على الوجه المرْضي، اللائق بخير كتاب أنزل، على خير نبي أرسل.

ولكننا ابتلينا في عصرنا بأناس جرآء على كلام الله سبحانه [3]. يرفضون تفاسير السلف والخلف، وأفهام القدامى والمحدثين، ويلقون تراث الأمة كله في سلة المهملات، ليبدأوا من الصفر، ليطوعوا القرآن لأهوائهم وأفكارهم، مما تأباه العقول، وتخالفه النقول، وتناقضه الأصول. ولم نر هذا في علم من العلوم - دينية كانت أو دنيوية - فاللاحق يبني على ما أسسه السابق، حتى يتكامل البناء.

---

(١) بحثت كثيرا عن قول علي هذا في طبقات ابن سعد، فلم أوفق في العثور عليه.
(٢) فتح القدير في التفسير للشوكاني: ١/ ١٢، ١٣.
(٣) ومن هؤلاء مؤلف (الكتاب والقرآن) الذي ألغى التراث كله. ليفسر القرآن كما يحلو له، بلا ضوابط ولا قواعد، إلا التحكم واتباع الهوى، وسنذكر نماذج لذلك فيما بعد.

٢ـ تفسير القرآن بالقرآن

وثاني هذه المعالم هو: تفسير القرآن بالقرآن.

وذلك أن القرآن الكريم يصدق بعضه بعضا. ويفسر بعضه بعضا: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً ﴾ [النساء: ٨٢].

فما أُجمل في موضع فُصِّل في موضع آخر، وما أبهم في مكان بين في آخر، وما أطلق في سورة أو آية قُيِّد في أخرى، وما جاء عاما في سياق خصص في سياق آخر، ولابد من ضم الآيات والنصوص بعضها إلى بعض، حتى يتكامل الفهم، ويستبين المقصود من النص.

وأول من سن ذلك وعلمه لنا هو رسول الله ﷺ، فحينما قرأ الصحابة قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قلق الصحابة رضي الله عنهم، وخافوا على أنفسهم. فظاهر الآية أنه لا أمن ولا اهتداء لمن شاب إيمانه بأي ظلم، وهو يشمل كل معصية، ولو صغيرة. لهذا قالوا: يا رسول الله: وأينا لم يظلم نفسه ؟! فقال النبي ﷺ: ليس كما تظنون، ولكنه الشرك. أما قرأتم قول العبد الصالح: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] (١).

كما أن النبي ﷺ أنكر أشد الإنكار على بعض الصحابة الذين خرج عليهم وهم يختصمون في القدر، يأخذ هذا بآية، ويعارضه ذلك بآية، فزجرهم غاضبا، وقال: «أبهذا أمرتم ؟! أم لهذا خلقتم ؟! تضربون كتاب الله بعضه ببعض ! إن الله أنزل كتابه يصدق بعضه بعضا» (٢).

---

(١) رواه أحمد عن ابن مسعود والبخاري في صحيحه. انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ١٥٢، ١٥٣.
(٢) رواه البخاري في: (أفعال العباد) وأحمد في المسند، وابن ماجه في سننه، من حديث عبد الله بن عمرو.

وأكمل المفسرين من نهج النهج النبوي في تفسير القرآن بالقرآن، كما فعل الإمام ابن كثير، حيث يذكر في تفسير الآية: ما يشابهها، أو يؤكدها، أو يوضحها، أو يقيدها، أو يخصصها، وهذا ما ينبغي أن يكون منهج كل مفسر.

انظر إلى فاتحة الكتاب واقرأ فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يبين المراد بالربوبية هنا، ولكن بينها في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ - ٣]. فتجلت ربوبيته في الخلق فالتسوية، والتقدير فالهداية. وكذلك لم تبين الفاتحة المراد بالعالمين، وقد أشارت إلى ذلك سورة الشعراء في الحوار بين موسى وفرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ㉓ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]. فدل على أن العالمين تشمل السموات والأرض وما بينهما.

واقرأ فيها أيضا: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ثم اقرأ تفسيرها في سورة الانفطار في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑰ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑱ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩]. وكذلك قراءة ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ نجد تفسيرها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وفي فاتحة الكتاب أيضا: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يبين من هم المنعم عليهم، وبين ذلك في سورة النساء، حيث قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ومن أجود ما قيل في تفسير القرآن بالقرآن: ما ذكره الإمام المجتهد المحقق محمد بن إبراهيم اليمني - الشهير بابن الوزير - في كتابه القيم (إيثار الحق على الخلق). قال رحمه الله:

«تفسير القرآن بالقرآن: وذلك حيث يتكرر ذلك الشيء، ويكون بعض الآيات أكثر بيانا

وتفصيلا. وقد جمع من هذا القبيل تفسير مفرد ذكره الشيخ تقي الدين - يعني ابن دقيق العيد - في شرح العمدة . . . وقد يذكر المفسرون منه أشياء متفرقة.

فمنه قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]، بأنه العذاب المعجل في الدنيا: لقوله سبحانه في آخر هذه السورة ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧]. وقد تكرر هذا في كتاب الله تعالى.

ومنه تفسير: ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧]، بأهل الكتاب - كقول مجاهد - لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [النساء: ٤٤].

ويقويه أن عصاة المسلمين لا يريدون فجور صالحيهم، والآية وردت بضمير الغائب في المريدين، وضمير الخطاب في المائلين، فقوَّى ذلك.

ومنه تفسير: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣]، بقوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]. فقوله فيها: ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ مخصص لعموم: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ومقيد لإطلاقها كأنه قال: إلا أن يعفو، بدليل هذه الآية، مثل ما أنها مخصصة بآيات التوبة، فإنه مقدَّر فيها: إلا أن يتوبوا، بالإجماع، وبالنصوص في التائبين. وهذه الآية دالة على اشتراط عدم العفو، وعلى اعتبار مصائب الدنيا من عذاب المسلمين ووعيدهم، كما دلَّ على ذلك حديث علي عليه السلام في تفسيرها، وحديث أبي بكر رضي الله عنه في تفسير: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾، ولذلك طرق شتى، وفيه أحاديث كثيرة مجمع على معناها. وحديث: «الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد، والسيئة بمثلها أو أعفو»، وطرقه صحيحه كثيرة.

ومنه حمل المطلَق على المقيَّد، والعام على الخاص، كنفي الخُلَّة والشفاعة في آية مطلقا[1].

---

(١) يعني مثل: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقد استثنى الله المتقين من نفي الخلة في قوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله في آية: ﴿مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

ومنه الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف. كخلق بني آدم من تراب، كما في الكهف [١]، ومن طين [٢] في غير آية، وهو تراب مختلط بالماء، ففيه زيادة على التراب المطلق، وكذلك خلقه من صلصال [٣]، فإنه أخص من الجميع، لأنه طين مخصوص.

ومنه تقديم المنطوق على المفهوم، وأوجب منه تقديم تفصيل القول المنطوق على عموم المفهوم، لأن الخاص يقدم على العام المنطوق، فكيف لا يقدم على عموم المفهوم؟». أهـ[٤].

---

(١) يقصد قوله تعالى: ﴿أكفرْتَ بالَّذي خلَقَكَ من تُراب﴾ [الكهف: ٣٧].

(٢) مثل الآية (٢) من سورة الأنعام، والآية (١٢) من المؤمنون، والآية (٧) من السجدة وغيرها.

(٣) مثل الآيات (٢٦) و (٢٨) و (٣٣) من سورة الحجر، والآية (١٤) من سورة الرحمن.

(٤) انظر: إيثار الحق على الخلق ص ١٦١، ١٦٢.

٣ـ تفسير القرآن بصحيح السُّنَّة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير:

«إن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختُصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر.

فإن أعياك ذلك فعليك بالسنَّة، فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له. بل قال الإمام الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

ولهذا قال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[١]. يعني: السنَّة.

والسنة تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن(ولهذا تسمى الوحي غير المتلو).

وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة.

والغرض: أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنَّة. كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم»؟ قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد»؟ قال: بسنَّة رسول الله. قال: «فإن لم تجد»؟ قال: أجتهد برأيي. فضرب رسول الله ﷺ

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن المقدام بن معد يكرب كما في صحيح الجامع الصغير (٢٦٤٣).

في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وَفَّقَ رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسول الله». وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسناد جيد»[1]. (انتهى كلام ابن تيمية)[2].

وقد نقل الحافظ ابن كثير هذا الكلام عن شيخه ابن تيمية في مقدمة تفسيره، حتى ظنه الكثيرون من كلامه هو، وإنما هو لشيخه.

قال الإمام الزركشي في (البرهان): لكن يجب الحذر فيه من الضعيف والموضوع، فإنه كثير . . . قال الميموني: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ثلاثة لا أصل لها: المغازي والملاحم والتفسير.

قال المحققون من أصحابه: ومراده أن الغالب أنها ليس لها أسانيد صحاح متصلة، وإلا فقد صح من ذلك كثير[3].

قال السيوطي في (الإتقان): الذي صح من ذلك قليل جدا، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة، وسأسردها كلها آخر الكتاب إن شاء الله[4].

وقد سردها بالفعل كلها ـ بما فيها من مقبول ومردود، ومتصل ومنقطع ـ فبلغت ٤٤ صفحة (من ٢١٤ إلى ٢٥٧) (الطبعة المحققة).

وذكر الإمام ابن القيم في (الإعلام) ـ وهو بصدد ذكر أنواع البيان من النبي ﷺ ـ جملة من التفسير النبوي، المروي بسند مقبول.

كما بين ﷺ أن الظلم المذكور في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك.

وأن الحساب اليسير ـ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] هو العَرْض.

---

(١) وكذلك جوّده ابن كثير، وقوّاه ابن القيم ودافع عنه في (إعلام الموقعين) والذهبي في (مختصر العلل المتناهية).

(٢) انظر: أصول التفسير لابن تيمية ص ٩٣ ـ ٩٥، بتحقيق د. عدنان زرزور، وأيضا تفسير ابن كثير: ١ / ٣ ـ طبع الحلبي، وعمدة التفسير للعلامة أحمد شاكر: ١ / ٤١، ٤٤ ـ طبع دار المعارف.

(٣) البرهان: ٢ / ١٥٦.

(٤) الإتقان: ٤ / ١٨١ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبع المشهد الحسيني بالقاهرة.

وأن الخيط الأبيض والخيط الأسود هما بياض وسواد الليل.

وأن الذي ﴿ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] هو جبريل.

كما فسَّر قوله: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] بأنه طلوع الشمس من مغربها.

كما فسر قوله: ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة.

وكما فسر قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أن ذلك في القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟

وكما فسر اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله: بأن ذلك باستحلال ما أحلُّوه لهم من الحرام، وتحريم ما حرَّموه من الحلال.

وكما فسر قوله: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] بأنه ما يجزى به العبد في الدنيا من النصب والهم والخوف واللأواء.

وكما فسر الزيادة - في قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] - بأنها النظر إلى وجه الله الكريم.

وكما فسر الدعاء في قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] بأنه العبادة.

وكما فسر إدبار النجوم في قوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٩] بأنه الركعتان قبل الفجر.

وأدبار السجود في قوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [ق: ٤٠] بالركعتين بعد المغرب، ونظائر ذلك (١).

---

(١) إعلام الموقعين: ٢ / ٣٣٠، ٣٣١ - ط. مكتبة ابن تيمية.

وعرض الإمام ابن الوزير لهذا الموضوع في (إيثار الحق) أيضا فقال:

«النوع الثالث: التفسير النبوي، وهو مقبول بالنص والإجماع: قال الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]. وقال: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

وفي الحديث: «لا يأتي رجل مترف متكئ على أريكته يقول: لا أعرف إلا هذا القرآن، وما أحله أحللته، وما حرمه حرمته. ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا وإن الله حرم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير»[1].

ويدل على ذلك أن الإجماع قد انعقد على نسخ وجوب الوصية للوارثين بحديث: «لا وصية لوارث». وهو حديث حسن. وإذا وجب قبول ذلك في نسخ فريضة منصوصة فيه، فكيف بسائر البيان والتخصيص؟ وقبوله في نسخ وجوب الوصية إجماع العترة والأمة.

وقد اشتملت على ذلك الصحاح والسنن والمسانيد وجُمِعَ بحمد الله تعالى، وجَمعتُ منه الذي في جامع الأصول ومجمع الزوائد ومستدرك الحاكم أبي عبد الله.

ويلحق بذلك أسباب النزول، وقد أفرده الواحدي وغيره بالتأليف، وهو مفيد جدا؛ لأن العموم الوارد على سبب مختلف في تعديه عن سببه، وهو نص في سببه، ظني في غيره.. وقد يُقصَر عليه بالإجماع، كما ثبت في قوله تعالى في ذم ﴿ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا ﴾ [آل عمران: ١٨٨] عن ابن عباس: أنها نزلت في اليهود، وفرحهم بما أتوا من التكذيب بالحق، فلولا ذلك أشكلت، وتناولت مَن فرح بما عمله من الخير. وقد صح: أن المؤمن مَن سرَّته حسنته وساءته سيئته. والفرح بالخير والطاعة من ضروريات الطباع والعقول.

ومنه تفسير: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١] بسببها، وهو فتنةُ مَن أسلم حتى يعود إلى الشرك، ولولا ذلك وقع الغلط الفاحش في مواضع كثيرة.

ومنه: تخصيص العمومات مثل تحريم الصلاة على الحائض، وسائر ما في السنن من أحكام الصلاة والزكاة، والصيام والحج، وشروط قطع يد السارق، ونحو ذلك، واستيعابه في التفاسير غير معتاد.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما من حديث المقدام بن معديكرب، وصححه الشيخ شاكر، والشيخ الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٦٤٣).

ومنه: تقديم ذوي السهام على العصبات، ومنع الكافر من ميراث المسلم وعكسه، وإسقاط الأقرب للأبعد من العصبات، والأقوى للأضعف.

ومنه: الجمع بين آيتي الكلالة، فإن الأولى في الإخوة من الأم، والأخرى فيمن عداهم، وأمثال ذلك مما لا غنى ولابد منه ولا خلاف فيه.

ومنه: الزيادة في البيان كصلاة الخوف - والبغوي مكثر من هذا - وهو أمر مجمع عليه. ودليل على المبتدعة، حيث يمنعون من بيان السنَّة للقرآن»[1].

---

(١) إيثار الحق على الخلق ص ١٦٣، ١٦٤.

٤ـ الانتفاع بتفسير الصحابة والتابعين

الصحابة هم تلاميذ المدرسة المحمدية، فيها تخرجوا، ومنها اقتبسوا، وعنها تلقوا، وعلى مائدتها تغذت عقولهم وقلوبهم. فإذا صح عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تفسير معيَّن أصغينا له أسماعنا، لما امتازوا به من مشاهدة أسباب التنزيل وقرائن الأحوال، فرأوا وسمعوا ما لم ير غيرهم ولم يسمع، مع عراقة في اللغة بالسليقة والنشأة، وصفاء في الفهم، وسلامة في الفطرة، وقوة في اليقين، ولا سيما إذا أجمعوا على هذا التفسير، فإن إجماعهم قد يدل على أن لهذا الأمر أصلا من السنَّة، وإن لم يصرحوا به. ويكفي في الإجماع هنا: أن ينتشر الرأي بينهم، ويشتهر عن جماعة منهم، ولا يعرف له منهم مخالف.

فإذا اختلفوا، فقد أتاحوا لنا أن نتخير من بين آرائهم ما نراه أقرب إلى السداد، أو نضيف إلى أفهامهم فهما جديدا، لأن اختلافهم قد أعطانا دليلا على أنهم فسَّروا برأيهم واجتهادهم، وهو رأي بَشَر غير معصوم على كل حال.

ويرى بعض العلماء وجوب الأخذ بتفسير الصحابي ـ ولو واحدا ـ لأنه من باب الرواية لا الرأي [1]، واعتبروه من باب المرفوع حكما. وخالفهم آخرون. بل إن أبا عبد الله الحاكم اعتبر تفسير الصحابي مرفوعا في كتاب، وموقوفا في آخر!

وقال الإمام ابن تيمية: إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنَّة، رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما هم عليه من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة: الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، الذي قال: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله، إلا وأنا أعلم أين نزلت، وفيم نزلت.

---

(١) البرهان: ٢/ ١٧٥.

وقال: كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

ومنهم: الحبر البحر عبد الله بن عباس. ابن عم رسول الله، وترجمان القرآن، ببركة دعاء رسول الله ﷺ له: «اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل»[(1)].

وقال ابن مسعود: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس. وقد مات ابن مسعود سنَة ٣٣ هـ على الصحيح، وعُمِّر ابن عباس بعده ٣٦ سنَة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟[(2)]

وقد ذكرنا من قبل ما قال بعضهم: إن فهم الآيات ومعاني تركيبها، متوقف على الرجوع إلى أقوال التابعين.

وقد ناقشنا ذلك من قبل، ونقلنا عن بعض المحققين: أن علم التفسير، منه ما يتوقف على النقل كسبب النزول والنسخ، وتعيين المبهم، وتبيين المجمل. ومنه ما لا يتوقف، ويكفي في تحصيله التفقه على الوجه المعتبر[(3)].

وقال ابن تيمية: إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنَّة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر فإنه آية في التفسير، وقتادة، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء، والحسن البصري، ومسروق، وابن المسيب، وأبي العالية، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم.

وقال شعبة وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حُجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟! يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح. أما إذا اجتمعوا على الشيء، فلا يرتاب في كونه حجة. فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم. ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنَّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك[(4)].

وينبغي أن يلاحَظ أن كثيرا من أقوال الصحابة والتابعين في التفسير ليست تحديدا دقيقا للمعنى المراد من اللفظ، بل مجرد تمثيل، كما نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره[(5)].

---

(١) رواه أحمد عن ابن عباس بهذا اللفظ بسند صحيح، وأصله في الصحيحين بألفاظ مختلفة.

(٢) أصول التفسير لابن تيمية ص ٩٥-٩٧.

(٣) البرهان: ٢/ ١٧٥.

(٤) أصول التفسير لابن تيمية ص ١٠٤، ١٠٥.

(٥) من رسالة له في (التفسير)، لخص السيوطي قدرا كبيرا منها في (الإتقان): ٢/ ١٧٦ وما بعدها.

كقولهم: إن ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] هو الإسلام، أو القرآن، أو السنَّة، أو سنَّة الراشدين أو سنَّة الشيخين . . أو طريق العبودية، أو طاعة الله ورسوله، إذ لا تَنافي بين هذه الأقوال، فكلها تعبر عن الصراط المستقيم بوجه من الوجوه.

ومثل قولهم في قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ﴾ [المائدة: ٣] الأزلام: الشطرنج.

وقولهم في آية: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ [لقمان: ٦] لهو الحديث هو الغناء. فهذا تمثيل لا تفسير، أي أن المفسِّر يذكر أهم ما ينبغي أن يدخل في مضمون اللفظ من جزئياته وأفراده، في رأيه.

٥ ـ الأخذ بمطلق اللغة

إن القرآن قد نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، فيجب ـ مع الاهتداء بكل ما سبق ـ أن يفسَّر اللفظ بحسب ماتدل عليه اللغة العربية واستعمالاتها، وما يوافق قواعدها، ويناسب بلاغة القرآن المعجز.

هذا مع أن في الألفاظ ما جاء على سبيل المجاز، ومنها ما هو مشترك، يدل على أكثر من معنى . . . إلخ. واختيار أحد المعنيين أو المعاني يحتاج إلى دقة وتأمُّل بالنسبة لكلام الله العزيز.

رعاية مدلول الكلمة في عصر نزول القرآن:

وأود أن أنبه هنا على قضية مهمة جدا، وهي أن اللغة التي يرجع إليها، ويؤخذ بها هي: اللغة المعروفة في عصر نزول القرآن، والعبرة بما تدل عليه الألفاظ في ذلك العصر، لا بالدلالات الحادثة بعد ذلك، فكثيرا ما تتطور دلالات الألفاظ والجمل والتراكيب بتطور العصور، وتطور المعارف والعلوم، واتصال الشعوب والحضارات بعضها ببعض، ويتدخل العرف أو الاصطلاح أو غيرهما بإعطاء دلالات جديدة للألفاظ والجمل لم تكن لها في عصر النبوة، فلا يجوز أن نحكم هذه الدلالات الجديدة في فهم القرآن.

فكلمة «فقه» مثلا، صار لها معنى اصطلاحي حدده الفقهاء، ولكنه ليس الفقه بالمعنى القرآني. وكلمة «حكمة» كذلك، وكلمات أخرى ذكرها الإمام الغزالي فيما بدل من معاني الكلمات.

وفي عصرنا نجد كثيرا من الكلمات في القرآن أصبح لها مدلول معين غير مدلولها في العصر الأول، مثل كلمة (سياحة) وسائح وسائحة، كما في قوله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:١١٢].

وقوله تعالى في خطاب أزواج الرسول الكريم أمهات المؤمنين: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ... ﴾ [التحريم: ٥]

فليس المراد بالسائحين والسائحات هنا صورة مما نراه اليوم في عالم السياحة، وما نشاهده من الغربيين والغربيات، الذين لا يلتزمون بالقيم الدينية والأخلاقية.

إنما السياحة يراد بها إما معنى روحي، وهو: الصيام. كما جاء عن عدد من مفسري السلف، وإما معنى مادي، ويراد به: الهجرة في سبيل الله.

كتب بعض أساتذة التاريخ أن بعض العرب كانوا يُكرهون بناتهم في الجاهلية على الزنى والتكسب به، مستدلا بقوله تعالى: ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [النور: ٣٣].

فهم الأستاذ من كلمة «فتياتكم» أى بناتكم. ولو رجع إلى القرآن نفسه لعلم أن كلمة (الفتاة) يراد بها (الأَمَة) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [النساء: ٢٥].

رعاية المخصصات والمقيدات:

والاعتماد على اللغة وحدها - دون الاهتداء بما سبق - قد يوقع في زلل كثير، فكلمة: ﴿ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ في آية: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ [التوبة: ٦٠] تشمل - بأصل وضعها - كل طاعة، ولو أُخذت على عمومها لجاز أن يعطى من الزكاة كلُّ مصلٍّ وصائم وذاكر ومسبح وتال للقرآن، ومميط للأذى عن الطريق، وبار بالوالدين، وواصل للأرحام ... إلخ لمجرد قيامه بالطاعة. وهذا غير مراد قطعا، ولم يقل به أحد. فلا بد من مراعاة المخصصات والقيود التي أثرتَ عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين في ذلك؛ حتى يستقيم المعنى.

تنبيهات مهمة لابن الوزير:

وقال العلامة ابن الوزير في (إيثار الحق):

«النوع الخامس: ما يتعلق باللغة العربية على جهة الحقيقة. فأما المتعلقات اللغوية فهي جلية، وقد صُنِّف فيها مصنفات مختصرة على جهة التقريب، مثل كتاب العزيزي، وليس فيه تنقيح كثير. وأوضح منه وأخصر: كتاب أبي حيان في ذلك، لكنه ربما أهمل بعض ما يحتاج إليه. والمعتمد في ذلك كتب اللغة البسيطة [1] دون ما يؤخذ من كثير من المفسرين، كما ذكره أبو حيان في أول كتابه، ونبَّه عليه.

وأما العربية فقد جود أبو حيان في ذلك، وجُمع الذي في تفسيره، فجاء كتابا جيدا مستقلا، وهو المعروف بـ(المجيد في إعراب القرآن المجيد). وقد اشتمل على ما في (الكشاف) مع زيادة أضعافه.

وينبغي التنبيه في هذا النوع لتقديم المعروف المشهور على الشاذ، وتقديم الحقيقة الشرعية، ثم العُرفية، ثم اللُّغوية، ومعرفة المشترك لما فيه من الإجمال، وأخذ بيانه من غيره كتفسير: ﴿عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] بـ(أدبر).. لأن ﴿عَسْعَسَ﴾ مشترك بين إقبال الليل وإدباره. وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، وفي قراءة: (إذا دبر)، فدل على أن أفضل الليل السحر، كما دلت على هذا أشياء كثيرة، فيفسر بذلك: ﴿عَسْعَسَ﴾ وإن كان مشتركا [2].

ويُتفطن هنا لأمور:

أحدها: الحذر من تفسير المشترك بكلامعنييه كتفسير ﴿عَسْعَسَ﴾ بأول الليل وآخره، كما توُهِّم مثل ذلك في الألفاظ العامة: فإنه لم يتحقق ورود اللغة بذلك، ولذلك لم يقل أحد باعتبار ثلاث حيض، وثلاثة أطهار جميعا في العدَّة، لما كانت القروء مشتركة.

---

(١) يعني: المبسوطة الموسعة.

(٢) ربما عارض ذلك التفسير أن القرآن يقسم عادة بالليل إذا هجم ظلامه في مقابلة النهار إذا ظهر ضياؤه، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]. ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤]، ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢]، فلابد من مزيد تأمل ومقارنة، لترجيح أحد المعنيين.

وثانيها: معرفة مايظن أنه حقيقة وهو مجاز. ومن مظانه كتاب (أساس البلاغة) للزمخشري، فإنه جوّد القول فيه، بل لا أعلم أحدا بين ذلك كما بينه. ولذلك قيل: إنه من روائع مصنفاته، وبدائع مخترعاته. فإذا عرفت حقيقة الكلمة ومجازها لم يفسر بهما معا أيضا.

وثالثها: الفرق بين دلالة المطابقة، والتضمن، والالتزام.

فالمطابقة هي: اللُّغوية، دونهما، وهي دلالة اللفظ على معناه الموضوع له، كدلالة غسل أعضاء الوضوء عليها جملة.

وإن دل اللفظ على جزء المعنى فهو التضمن، كدلالة آية الوضوء على غسل العين، لأنها بعض الوجه، وما تحت الأظفار والخاتم: لأنه بعض اليد.

وإن دل اللفظ على لازم ما وضع له، فدلالة الالتزام، كدلالة آية الوضوء على وجوبه. وهما عقليتان، فيقدم عليهما ما عارضهما، مما هو أرجح منهما من الدلائل اللفظية على حسب القوة. ألا تراهم رجحوا دلائل رفع العسر والحرج على دلالة غسل العين من الوجه؟ وكذلك اختلفوا فيما تحت الأظفار والخاتم لذلك» [1].

«وينبغي أن يعلم أن الأصل حمل الكلام على الحقيقة، ولا يعدل عنها إلى المجاز، إلا بقرينة دلالة معتبرة من قرائن المجاز الثلاث الموجبات للعدول إليه، وإلا حرم القول به، والعدول إليه:

الأولى: العقلية التي يعرفها المخاطِب والمخاطَب كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]. أي أهلهما. ومنه: ﴿جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤]، ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]. وهو كثير، وليس هو من المتشابه، بل تعرفه أجلاف العرب.

الثانية: العرفية، مثل: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦]، أي مُر مَن يبني: لأن مثله في العرف لا يبني.

الثالثة: اللفظية نحو: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥]، فإنها دليل على أن الله غير النور، و﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، فإنها دليل على أن المراد نُور الهدى.

---

(١) إيثار الحق على الخلق ص ١٦٥، ١٦٦.

ويتيقظ هنا لما كان من جنس تأويل الباطنية، فيرد، وإن صدر من غيرهم، فقد كثر جدا. وأمارة الدعوة الباطلة تجردها عن إحدى هذه القرائن». أ هـ(١).

ضرورة تتبع موارد الكلمة في القرآن:

ومما يعين قارئ القرآن أو مفسره على حسن الفهم: أن يتتبع الكلمة القرآنية في مواردها المختلفة في القرآن، فذلك أحرى أن يتبين له حقيقة معناها، ولا يشرد عن الصواب في معرفة مدلولها.

خذ مثلا كلمة ﴿ اجتنبوه ﴾ التي وردت في معرض النهى عن الخمر في سورة المائدة، وفي آخر الآيات التي وردت في ذم الخمر، وهي قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

فقد رأينا بعض الناس في عصرنا يهونون من كلمة (اجتنبوه) وأنها لا تدل على التحريم الجازم، كما تدل على ذلك كلمة التحريم الصريحة في مثل قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ [المائدة: ٣].

ولو تتبعنا كلمة (الاجتناب) وما اشتق منها نجد أنها وردت في القرآن الكريم مقترنة بالشرك وما في معناه، وبكبائر المحرمات لا بصغائرها: كما في قوله تعالى:

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠].

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر: ١٧].

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١].

---

(١) إيثار الحق على الخلق - المرجع السابق - ص ١٦٦، ١٦٧.

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢].

ومن موارد استعمال القرآن للكلمة نتبين أنها لا تُفهم ما يتوهمه المتوهمون، وأنها أشد من كلمة التحريم في المنع؛ لأن التحريم يمنع من فعل الشيء، أما الاجتناب فيمنع من القرب منه، بأن يجعل بينه وبين الشيء الممنوع جانبا، وهو نظير قوله تعالى في النهي عن الزنا: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وكثيرا ما يؤدي القصور أو التقصير في المعرفة بالقرآن، واستيعاب ما ورد فيه حول موضوع معين، إلى الخطإ في الحكم والاستنتاج.

وغالبا ما يكون وراء ذلك هوى متبع، والهوى يعمي ويصم، ويحجب صاحبه عن رؤية الحقيقة، فلا يرى منها إلا ما يؤيد هواه، ويسير في اتجاهه.

٦ـ مراعـــاة السيـــاق

ومن الضوابط المهمة في حسن فهم القرآن، وصحة تفسيره: مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية. فيجب أن تُربط الآية بالسياق الذي وردت فيه، ولا تُقطع عما قبلها وما بعدها، ثم تُجَرّ جراً، لتفيد معنى، أو تؤيد حكما، يقصده قاصد.

قال الزركشي في ذكر الأمور التي تعين على فهم المعنى عند الإشكال:

الرابع: دلالة السياق: فإنها ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم الدلالة على مراد المتكلم: فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظراته. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير [١].

ولا عبرة بما يروى من أسباب النزول إذا كان ينبو عنها السباق والسياق.

كما لا عبرة بالآراء التي يقولها بعض المفسرين إذا كان السياق لا يؤيدها. ولذلك أمثلة كثيرة، لا بأس بأن نذكر بعضها هنا بيانا وتبصرة.

من ذلك قول بعض المفسرين في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] أن الضمير في (شروه) يعود إلى إخوة يوسف، مع أن السياق يدل بوضوح على أن الكلام عن إخوة يوسف قد انقطع، وانتقل الحديث إلى (السيارة) الذين التقطوه، وقد باعوه بثمن بخس،

---

(١) البرهان: (٢: ص ٢٠٠، ٢٠١).

لأنهم لم يدفعوا فيه كثيرا ولا قليلا، وإنما زهدوا فيه لأنهم يخافون أن يكون رقيقا ويظهر له سيد ينتزعه منهم، فأي ثمن باعوه به فهو مغنم بالنسبة لهم.

ومثل ذلك قول بعضهم في نفس السورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]: إن هذا من قول يوسف عليه السلام، مع أن السياق يدل على أن كلام يوسف قد انقطع، وبدأ كلام امرأة العزيز حينما قالت أمام الملك بصراحة وجلاء: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥١ - ٥٣]. فهذه الجمل متصلة بما قبلها من كلام امرأة العزيز اتصالا وثيقا، ولا معنى ولا موجب لقطع هذا الاتصال، ونسبة هذا الكلام إلى يوسف، في حين أنه لم يكن بحضرة الملك في ذلك الوقت، وإنما استدعاه بعد ذلك، كما حكى القرآن: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤].

فالواضح من السياق أن المرأة برأت يوسف مما ألصق به ظلما وزورا، كما بينت أنها إنما اعترفت على نفسها، ليعلم زوجها أنها لم تخنه بالغيب في نفس الأمر، ولم يقع المحذور الأكبر، إنما كانت منها المراودة، وكان من يوسف الإباء، وهي لا تبرئ نفسها، فقد تمنت المعصية، وسعت إليها بالفعل، والنفس أمارة بالسوء إلا من رحم الله تعالى.

وقد ذكر ابن كثير: أن الإمام أبا العباس ابن تيمية انتدب لنصر هذا القول، وأفرده بتصنيف على حدة.

على حين أن ابن جرير وابن أبي حاتم لم يحكيا إلا القول الأول [1]: أن هذا من كلام يوسف الصديق.

هذا، وكلام ابن كثير جيد في ترجيح أن هذه الفقرة: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من كلام امرأة العزيز، ولكن اعتبار الضمير في قوله: ﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾ للعزيز، لا يدل عليه السياق، إذ لم يكن موجودا، ولا ذكر له. والراجح ما رجحه الإمام ابن عطية وغيره: أن الضمير في ﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾ ليوسف، أي ليعلم يوسف

(١) انظر: تفسير ابن كثير جـ ٢ / ٤٨١.

أني لم أخنه في غيبته، بأن أكذب عليه، أو أرميه بذنب هو بريء منه. وقال في (فتح البيان): المعنى: ذلك القول الذي قلته في تنزيهه، والإقرار على نفسي بالمراودة، ليعلم يوسف أني لم أخنه فأنسب إليه ما لم يكن منه، وهو غائب عني، أو وأنا غائبة عنه (1).

أهمية السياق في تحديد معاني الكلمات:

إن الكلمة الواحدة قد ترد في القرآن لعدة معان مختلفة، وإنما يتحدد المعنى المراد منها في كل موقع بالسياق. ونعني بالسياق: ما قبل الكلمة وما بعدها.

كلمة الكتاب:

انظر إلى كلمة (الكِتاب) في القرآن، فقد وردت دالة على معانٍ عدة، لا يميزها إلا السياق.

فالأصل فيها أنها مصدر (كَتَبَ)، فمعنى (كتاب) أي كتابة. وأكثر ما تطلق بمعنى (المكتوب) من إطلاق المصدر على اسم المفعول، كاللفظ بمعنى الملفوظ، والخلق بمعنى المخلوق، وهو الذي يُجمع على (كُتُب).

وإذا طبقنا ذلك على ما ورد في القرآن، نجد لـ (الكتاب) المعاني التالية:

أ- فقد وردت دالة على (القرآن)، مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ب- ووردت دالة على (التوراة) كما في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر: ٥٣].

جـ- ووردت دالة على التوراة والإنجيل معا، كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ

(1) انظر: تفسير ابن عطية جـ٧/ ٥٣٧، وفتح البيان جـ٦/ ٣٥٣.

الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام: ١٥٦]. وكل ما جاء في القرآن: ﴿ يأهل الكتاب ﴾ أو ﴿ الذين أوتوا الكتاب ﴾ أو ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ فهو يشمل التوراة والإنجيل.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] وردت كلمة الكتاب مرتين:

الأولى: بمعنى القرآن: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾.

والثانية: بمعنى الكتب السابقة: في قوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾.

د - وووردت كلمة (الكتاب) بمعنى النص الإلهي المنزل على أي رسول من رسل الله، دون تعيين، كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقوله: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وقوله سبحانه: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة :١٧٧]. فليس المراد بـ (الكتاب) هنا كتابا معينا، بل كل ما أنزل الله من كتب، فإن الإيمان بكتب الله المنزلة أحد أركان الإيمان.

هـ- ووردت كلمة (الكتاب) بمعنى (اللوح المحفوظ) الذي كتب فيه أقدار الخلائق، كما في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [الأحزاب: ٦]. وهوالمذكور في قوله تعالى: ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام :٥٩]، وأمثالها في القرآن.

و- ووردت بمعنى (ما يُكْتَب) أي ما تكتبه الأيدي والأقلام و(أل) فيه للجنس لا للعهد، كما في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ٧٩].

ز ـ ووردت مصدرا معرّفا من كاتَبَ يكاتب : ومن المعروف في علم الصرف أن مصدر (فاعَل) قد يكون (الفعَال) أو (المفاعَلة) مثل : قاتل قتالا ومقاتلة . ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور :٣٣] .

فمعنى يبتغون الكتاب : أي يطلبون مكاتبتكم على مبلغ معين يدفعونه مقسطا ليتحرروا بعده .

ح ـ ووردت كذلك مصدرا من كتب يكتب ، بمعنى الكتابة بالقلم : كما في قوله تعالى في شأن المسيح عليه السلام : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران :٤٨] .

قال ابن كثير وغيره هنا : الظاهر أن الكتاب هنا بمعنى الكتابة ، لذكره التوراة والإنجيل بعده ، والعطف يقتضي المغايرة ، فهو شيء غيرهما .

ط ـ ووردت كلمة (الكتاب) بمعنى السجل الذي دونت فيه أعمال الإنسان ، وسيواجه به يوم القيامة : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] .

وهو الذي جاء في قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف :٤٩] .

وهناك معانٍ أخر للكلمة .

وإذا كانت الكلمة تحتمل كل هذه المعاني : فإن الذي يحدد معناها في كل موقع هو السياق ، كما رأينا .

وأحيانا لا يكون السياق قاطعا ، فلهذا تحتمل أكثر من معنى ، ويكون لها أكثر من تفسير .

ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] . فهل الكتاب هو القرآن الذي قال الله فيه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، كما في آية سورة النحل (٨٩) ؟ أو هو اللوح المحفوظ الذي قال الله فيه : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ [يس : ١٢] .

السياق يحتمل هذا وذاك، كما بين ذلك العلامة ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة).

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]، وما ورد في معناها في سورة البقرة، وسورة آل عمران.

فهل (الكتاب) فيها هو القرآن؟ أو الكتاب بمعنى الكتابة؟

إن المشهور أن الكتاب بمعنى القرآن، ولكن تعليم القرآن يمكن أن يدخل في قوله تعالى: ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾.

وقد يؤيد الفهم الآخر: أن القرآن نوَّه بالتعليم بالقلم في أول آيات أنزلت من سورة العلق: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: ٤].

ومن أوائل ما نزل أيضا: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١].

وقد يسأل سائل: كيف يعلمهم الكتابة وهو أمي؟

والجواب: أنه لو كان قارئا كاتبا لم يعلمهم أيضا بنفسه، بل بواسطة آخرين، فالمقصود أنه يحثهم ويدعوهم، ويهيئ الوسائل الكفيلة بإخراجهم من الأمية إلى التعلم والكتابة، كما فعل في أسرى بدر من المشركين، حيث جعل فداء بعضهم أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

كلمة (آية):

ومن ذلك: كلمة (آية) فهى في اللغة: العلامة، وهي ترد في القرآن على عدة معان:

الأول: الآية التنزيلية المتلوة.

والثاني: الآية التكوينية المشهودة.

والثالث: الآية الدالة على صدق الرسول ـ عند تحديه لقومه ـ وهي التي يعبر عنها بالمعجزة.

والسياق هو الذي يحدد المعنى المراد من كلمة (الآية) حينما ترد في كتاب الله.

فقد يراد بها الآية المتلوة باللسان، المسموعة بالآذان، وذلك كثير في القرآن، كما في قوله

تعالى: ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [يونس: ١]. ﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]. ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١]. ﴿ الَمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ [الرعد: ١]. ﴿ طسم ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [القصص: ١، ٢]. إلى غير ذلك من المواضع المشابهة.

فهذه آيات تنزيلية متلوة، سواء كانت متلوة من قبل الحق تبارك وتعالى، كما في قوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦] أم كانت التلاوة من قبل النبي - ﷺ - فقد جعل الله تعالى (تلاوة آياته) من أساسيات مهمة رسالته، بل أولاها، ويأتي بعدها التزكية وتعليم الكتاب والحكمة، كما جاء ذلك في أربع آيات من القرآن، منها قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

أم كانت التلاوة من قبل المؤمنين الذين يتعبدون لله بالتلاوة ويبلغون آيات الله إلى الآخرين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [الحج: ٧٢].

بل مدح القرآن المؤمنين من أهل الكتاب من قبلنا بفضيلة (تلاوة آيات الله) كما في قوله سبحانه: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وقد يراد بالآية: الآية التكوينية، وهي الآيات المشهودة بالأبصار والبصائر، المبثوثة في الآفاق والأنفس، الدالة على وجود الخالق الأعظم، والرب الأكرم، وعلى وحدانيته، وعظيم قدرته، وواسع رحمته، وبالغ حكمته.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠، ٢١] .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء، بعد قصص الرسل مع أقوامهم، وما أنزل الله بالمكذبين لهم من بأس وعـــذاب : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٧ ، ١٠٣، ١٢٠، ١٢٩] .

فالآية تؤخذ من التاريخ وعبره، كما تؤخذ من الكون ودلائله .

وقد يراد بالآية : ما يؤيد الله به رسله عليهم السلام، ليصدقهم في دعوتهم، ويشد أزرهم أمام المكذبين من أقوامهم، وأنهم لا يمثلون أنفسهم، إنما يمثلون القدرة الإلهية التي يتحدثون باسمها .

وكثيرا ما تكون هذه الآيات خوارق كونية حسية ملموسة، يعجز البشر عن الإتيان بمثلها وفق السنن الإلهية التي تحكمهم. وذلك مثل آيات موسى التسع : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً ﴾ [الإسراء : ١٠١] .

وهذه الآيات التسع هي : العصا، واليد، وإرسال العقوبات على فرعون وقومه من السنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم (آيات مفصلات) كما ذكر القرآن .

ومثل آيات المسيح عيسى بن مريم، وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وقبل ذلك : ناقة صالح، الذي دعا قومه - ثمود - إلى التوحيد وإلى تقوى الله تعالى، فقالوا : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٣، ١٥٤] . فآتاه الله الناقة، وقال لهم : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ [هود : ٦٤] .

وهذا النوع من الآيات هو الذي كان المشركون يقترحونه على الرسول - ﷺ - وسجله القرآن في مواضع شتى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧].

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧].

وقد ترد كلمة (آية) صالحة لأكثر من معنى، إذا لم يحدد السياق مدلولها بالقطع. وذلك مثل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠١، ١٠٢].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إلى قوله ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٦ - ١٠٨].

فالتفسير المنقول والمشهور: أن الآية المنسوخة أو المنسأة هي الآية المتلوة من كتاب الله، ونسخها رفع حكمها بدليل آخر متأخر عنها، على ما اشتهر عند الأصوليين.

ومما يؤيد ذلك أنها ذكرت تمهيدا لحكم نسخ القبلة من شَطْر بيت المقدس إلى شطر المسجد الحرام.

وذهب العلامة رشيد رضا إلى أن الآية هنا بمعنى المعجزة.

ومما يؤيد ذلك: أن الصلاة إلى بيت المقدس لم يثبت حكمها بآية قرآنية حتى تنسخ بآية أخرى خير منها أو مثلها! بل الواضح أنها ثبتت بالسنَّة العملية، إما بوحي من الله تعالى، وإما باجتهاد من الرسول أقره الله تعالى عليه. كما أن ختام الآية كأنما يشير إلى ذلك. وهو قوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٦]. فذكر القدرة هنا أدل على الآية الكونية الخارقة. ولو كان المراد التنزيلية المتلوة، لكان ذكر العلم والحكمة، وما شابه ذلك أليق وأولى.

ثم إن قوله بعد ذلك: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨]، يؤكد ذلك أيضا؛ لأنهم سألوا موسى مزيدا من الآيات الخارقة، حتى سألوه أن يريهم الله جهرة!

ورود الشيء الواحد بألفاظ عدة:

وكما أن اللفظ الواحد في القرآن قد يرد بعدة معان، يحددها السياق، فإن المعنى الواحد، قد يرد كذلك في القرآن معبرا عنه بعدة ألفاظ.

وليس هذا من قبيل (الترادف) الذي قد ينازع فيه بعض اللغويين، الذين يرون أن الألفاظ التي تظن أنها مترادفة، وأنها كلها تؤدي معنى واحدا، ليست كذلك عند التأمل، مثل قعد وجلس، وسُرَّ وفرح . . إلخ.

إنما هو تعبير عن الشيء الواحد، أو المعنى الواحد، بألفاظ مختلفة، لكل منها دلالته الخاصة. فالقرآن مثلا قد يعبر عنه بلفظ (القرآن)، وأصل الكلمة مصدر (قرأ) كما في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]. ثم أطلقت على (المقروء) المنزل من عند الله، وهو أمر شائع في اللغة: أراد بالمصدر اسم المفعول، كالخلق بمعنى المخلوق، واللفظ بمعنى الملفوظ، كما في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٣]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقد يعبر عنه بـ (الكتاب) كما في قوله سبحانه: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وإنما عبر عن القرآن بـ (الكتاب) لأنه يكتب كما يقرأ، ولهذا

حرص الرسول ـ ﷺ ـ على كتابته من أول يوم، وعين كتابا للوحي من أصحابه الثقات المتقنين.

وقد يعبر عنه بـ (الفرقان) كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وإنما سمي (فرقانا) لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين الرشد والغي، وهذه مهمة كل الكتب السماوية في الواقع، ولهذا أطلق على التوراة وصف الفرقان أيضا، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقد يعبر عن القرآن بكلمة (الذكر)، وذلك لأنه يذكر الناس بالله تعالى وأسمائه وصفاته، ولقائه وحسابه، ومنهجه وهدايته. وفي هذا يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس: ١١].

وقد ذكرت هذه الكلمات الثلاث في سياق واحد، تتحدث فيه عن القرآن، وذلك قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٤].
فالذكر هو الكتاب، وهو القرآن.

وكما سميت التوراة (فرقانا) سميت (ذكرا) أيضا، كما مر في آية سورة الأنبياء السابقة، وكما في آخر السورة نفسها: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

٧ـ ملاحظة أسباب النزول

ومن المعالم المهمة في فهم القرآن وتفسيره: ملاحظة أسباب النزول.

فمن المقرر لدى العلماء: أن القرآن نزل على قسمين: قسم نزل ابتداء، وهو معظم القرآن، كما يبدو، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال، وذلك خلال مدة نزول الوحي، وهي ثلاث وعشرون سنة.

وهذا القسم الأخير هو الذي يبحث عن سبب نزوله، لأن معرفة الأسباب والملابسات المحيطة بالنص، تساعد على حسن فقهه، وفهم المراد منه.

يقول الإمام ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب [(١)].

خذ مثلا قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ﴾ [الممتحنة: ١٠]. والآية التي تليها ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ [الممتحنة: ١١]. فلا يستطيع قارئ هذه الآيات أن يفهم المقصود منها ما لم يعرف سبب نزولها وتاريخه، وأنها نزلت بعد صلح الحديبية وما وقع فيه من شروط خاصة برد من جاء إلى الرسول من الرجال مسلما، إذ يجب رده إلى قريش، فهل ينطبق هذا على النساء أو لا؟ وقد نزلت هاتان الآيتان في ذلك، ودلّتا على استثناء المؤمنات من شروط الحديبية، بعد امتحانهن وثبوت إيمانهن. ومن هنا كان العلم بأسباب النزول مطلوبا.

---

(١) الإتقان ج ١ / ٣٨.

وهذا ما أكده الإمام الشاطبي في موافقاته [1]، حيث قال:

«معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن. والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن - فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب - إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطب أو المخاطَب، أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مَخاطبين، وبحسب غير ذلك. كالاستفهام، لفظه واحد، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك. وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيزً وأشباهها. ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال: وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه. ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بدّ، ومعنى معرفة السبب هو معرفة مقتضى الحال. وينشأ عن هذا الوجه:

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع.

ويوضّح هذا المعنى ما روى أبو عبيد عن إبراهيم التيمي، قال: «خلا عمر ذات يوم، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنَّا أُنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل. وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. قال: فزجره عمر وانتهره. فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه، فقال: أعد عليّ ما قلت. فأعاده عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه» . .

قال الشاطبي: وما قاله صحيح في الاعتبار، ويتبين بما هو أقرب، فقد روى ابن وهب عن بكير: «أنه سأل نافعا: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية [2]؟ قال: يراهم شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين!». فهذا معنى الرأي الذي نبه ابن عباس عليه، وهو الناشئ عن الجهل بالمعنى الذي نزل فيه القرآن.

وروي: أن مروان أرسل بوابه إلى ابن عباس، وقال قل له: لئن كان كل امرئ فرح بما

---

(١) ج ٣ ص ٣٤٧، ٣٤٨ ط المكتبة التجارية - بتعليق العلامة الشيخ عبد الله دراز.

(٢) الحرورية: يقصد بهم الخوارج الذين يكفّرون المسلمين ويستحلُّون دماءهم، وقد قاتلهم علي رضي الله عنه بمكان اجتمعوا فيه يقال له: حروراء، وإليه نسبوا.

أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبن أجمعون[1] . فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا له بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ - إلى قوله ﴿ وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ [آل عمران: ١٨٧، ١٨٨] فهذا السبب بين أن المقصود من الآية غير ما ظهر لمروان»[2] . أهـ

كيف نعرف أسباب النزول:

قال الواحدي: لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها. وقد قال محمد بن سيرين: سألت عَبيدة عن آية من القرآن، فقال: اتق الله وقل سدادا، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل الله القرآن[3]!

وقال غيره: معرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتفّ بالقضايا، وربما لم يجزم بعضهم، فقال: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، كما أخرج الأئمة الستة عن عبد الله ابن الزبير، قال: خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شراج الحرّة[4] ، فقال النبي ﷺ : اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك. فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابنَ عمتك! فتلوّن وجهه.. الحديث[5] . قال الزبير: فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥].

قال الحاكم في علوم الحديث: إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويُحبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنَّهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ آل عمران: ١٨٨ .

(٢) الموافقات: (٣: ٣٤٧-٣٤٨) بتعليق العلامة الشيخ عبد الله دراز.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ٤ .

(٤) الشِّراج، بشين معجمة مكسورة: جمع شَرْجة، بفتح السكون، وهي مسايل الماء بالحرة. والحرة أرض ذات حجارة سود.

(٥) بقية الخبر: «ثم قال للزبير: اسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر. فاستوفى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة للأنصاري وله، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوفى للزبير حقه في صريح الحكم». وانظر أسباب النزول ١٢٢، وتفسير القرطبي ٥: ٢٦٩ .

القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند. ومشى على هذا ابن الصلاح وغيره، ومثّلوه بما أخرجه مسلم عن جابر، قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال ابن تيمية: قولهم: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول: عنى بهذه الآية كذا.

وقال الزركشي: في البرهان: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها (١)، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع (٢).

خصوص الأسباب وعموم الألفاظ:

ومهما قلنا بضرورة رعاية أسباب النزول الخاصة، فلا يعني هذا أن نبالغ في ذلك كما يفعل بعض الناس في عصرنا (٣)، حتى كاد بعضهم يقصر الألفاظ القرآنية العامة على ما وردت فيه في عصر النبوة، وهذا لا يقبل بحال، ولا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، كما يقول ابن تيمية، لأنه يتنافى مع عموم القرآن مكانا وزمانا، فهو كتاب الزمن كله، كما بيناه في فصل (خصائص القرآن).

وقد قال المحققون من علماء الأصول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد نزلت آيات لها أسباب نزول، واتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها، كنزول آية الظّهار في سلمة بن صخر، وآية اللعان في شأن هلال بن أمية، وحدّ القذف في رماة عائشة، ثم تعدى إلى غيرهم. قال الزمخشري في سورة الهُمَزة: يجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون ذلك جاريا مجرى التعريض.

قال السيوطي: ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ: احتجاج الصحابة وغيرهم ـ في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة ـ شائعا ذائعا بينهم، قال ابن جرير: حدثني محمد بن أبي معشر، أخبرنا أبي أبو معشر نجيح، سمعت سعيدا المقبُري يذاكر محمد بن

(١) بعدها في البرهان: «وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المسند، كما في قول ابن عمر في قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾. وأما الإمام أحمد فلم يدخله في المسند، وكذلك مسلم وغيره، وجعلوا هذا مما يقال بالاستدلال وبالتأويل».

(٢) البرهان: ١: ٣٢٣١.

(٣) مثل سعيد العشماوي فيما يكتبه عن القرآن وأصول الشريعة!

كعب القُرَظي، فقال سعيد: إن في بعض كتب الله أن عبادا ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصَّبر، لبسوا لباس مسوك الضأن من اللين [١]، يجترُّون الدنيا بالدين.

فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]. فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت؟ فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد [٢].

فإن قلت: فهذا ابن عباس، لم يعتبر عموم ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ ...﴾ [آل عمران: ١٨٨]، بل قصرها على ما أنزلت فيه من قصة أهل الكتاب.

قلت: أجيب عن ذلك بأنه لا يخفى عليه أن اللفظ أعم من السبب، لكنه بين أن المراد باللفظ خاص. ونظيره تفسير النبي ﷺ الظلم في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] بالشرك من قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. مع فهم الصحابة العموم في كل ظلم. وقد ورد عن ابن عباس ما يدل على اعتبار العموم، فإنه قال به في آية السرقة، مع أنها نزلت في امرأة سرقت. روى ابن أبي حاتم عن نجدة الحنفي، قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] أخاص أم عام؟ قال: بل عام.

وقال ابن تيمية: قد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصا، كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله، وإن قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ [المائدة: ٤٩]، نزلت في بني قريظة والنضير، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق! والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على السبب: هل يختص بسببه؟ فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنَّة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا أو نهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرا بمدح أو ذم، فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته. انتهى [٣].

---

(١) المسوك: جمع مسك، وهو جلد الغنم وغيرها. (٢) تفسير الطبري ٤: ٣١.
(٣) انظر: الإتقان: ١/ ٨٤ ـ ٨٧.

الاستيثاق من وجود العموم:

وإذا قلنا باعتبار عموم اللفظ في الأصل، فلابد أن نكون مستوثقين من وجود اللفظ العام، فإن كثيرا من الناس يتساهلون في ذلك، ولا يدققون، كما استدل بعضهم بوجوب كلام الرجال للنساء من وراء حجاب بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فلما قيل لهم: إن هذه الآية نزلت في نساء النبي ﷺ، وهؤلاء لهن أحكام خاصة بهن، وقد غلّظ عليهن ما لم يغلّظ على غيرهن، وقال تعالى في نفس السورة: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. فرد هؤلاء بقولهم: إن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب! ومعلوم أنه لا يوجد هنا لفظ من ألفاظ العموم حتى يقال: العبرة به.

رد السيوطي على من نفى فائدة العلم بسبب النزول:

قال الحافظ السيوطي:

زعم زاعم أنه لا طائل تحت هذا الفن (علم أسباب النزول)، لجريانه مجرى التاريخ، وأخطأ في ذلك، بل له فوائد:

منها: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

ومنها: تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.

ومنها: أن اللفظ قد يكون عاما، ويقوم الدليل على تخصّصه، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته، فإن دخول صورة السبب قطعي، وإخراجها بالاجتهاد ممنوع.

ومنها: الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال. قال الواحدي: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

وحكي عن قدامة بن مظعون [1] وعمرو بن معدي كرب، أنهما كانا يقولان: الخمر مباحة، ويحتجان بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا

---

(١) في الأصل: عثمان بن مظعون، وهو خطأ، فقد مات عثمان في زمن النبوة بالمدينة.

طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا ...﴾ [المائدة: ٩٣]. ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك، وهو أن ناسا قالوا لما حرمت الخمر: كيف بمن قتلوا في سبيل الله، وماتوا، وكانوا يشربون الخمر، وهي رجس؟ فنزلت. أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. فإنا لو تركنا ومدلول اللفظ لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفرا ولا حضرا، وهو خلاف الإجماع، فلما عرف سبب نزولها علم أنها في نافلة السفر، أو فيمن صلى بالاجتهاد وبان له الخطأ، على اختلاف الروايات في ذلك.

ومنه: دفع توهم الحصر، قال الشافعي ما معناه في قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]: إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلا منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول: لا أكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة. فكأنه تعالى قال: لا حرام إلا ما أحللتموه، من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل. قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية[1]. اهـ.

الاستيثاق من صحة أسباب النزول:

لكن من المهم أن نؤكد هنا: أن ما صح من سبب النزول قليل، بل قليل جدا، فليحذر من الأسباب المروية بطرق واهية أو موضوعة، إذ لا قيمة لها في الميزان العلمي.

وهذا يحتم الرجوع إلى «الأسانيد» التي رويت بها أسباب النزول، وتحكيم منهج الجرح والتعديل فيها، أو الرجوع إلى أئمة الحديث المعتبرين وإلى أقوالهم الموثقة في ذلك، ولا ينبئك مثل خبير.

---

(١) الإتقان: ١ / ٨٢ - ٨٤.

٨- اعتبار القرآن أصلا يرجع إليه

القرآن متبوع لا تابع:

وينبغي لمن يريد فهم القرآن أو تفسيره: أن يتجرد من اعتقاداته وأفكاره السابقة. ولا يفرض نفسه على القرآن، يقسره قسرا على آرائه وأهوائه، ويوجهه لتأييد ما نشأ عليه من معتقد، أو ما تبناه من فكر، أو ما اتبعه من مذهب.

بل ينبغي أن يكون موقفه من القرآن موقف المتلقِّي الذي يهتدي بهداه، وينظر إليه على أنه الأصل الذي يرجع إليه، ويعوّل عليه، ويستمد منه، ويحكّم عند التنازع. فهو المتبوع لا التابع، والحاكم لا المحكوم، والأصل لا الفرع.

فلا يسوغ أن يحكّم في القرآن ما جاء في كتب دينية أخرى مقدسة عند أهلها، هي عندنا محرفة بيقين.

فلا يحمل قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١]. وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. على خلق حواء من ضلع آدم كما جاء ذلك في التوراة. فإن من قرأ القرآن متجردا من هذه الفكرة لم يخطر ذلك بباله. وما هاتان الآيتان إلا مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

وقوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢].

فالمفهوم من هذه الآية وتلك : أنه خلق لنا من جنسنا أزواجا ، لنسكن إليها ، ونطمئن بها ، ولا يفهم منها أحد بأن الله خلق كل امرأة من زوجها ، أي من ضلعه أو أي عضو من أعضائه ! !

ومثل ذلك ما جاء في سورة (ص) من قصة داود مع الخصمين وذلك قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص : ٢١ - ٢٥] .

فمن قرأ هذه القصة خالي الذهن مما في التوراة لم يفهم منها إلا ما تؤديه عباراتها بصراحة ووضوح ، وخطأ داود فيها تعجله بالحكم على أحد الخصمين بمجرد سماع دعوى صاحبه ، دون أن يتثبت بسماع الطرف الآخر في الخصومة . وقد قيل : إذا أتاك أحد الخصمين وقد قلعت إحدى عينيه ، فلا تحكم له حتى يأتي الخصم الآخر ، فلعل عينيه مقلوعتان !

لقد قال عالم كبير من علماء الحنفية في باكستان [1] لطلابه ومريديه كلمة جديرة بالتسجيل والتنويه ، وذلك حين كان يدرس لهم ـ وهم أحناف ـ علم الحديث ، قال لهم منصفا :

لا بأس أن تتمسكوا بمذهبكم الحنفي ، وأن تستدلوا له ، ولكن إياكم أن تجعلوا الحديث حنفيا !

وصدق الشيخ . فالحديث لا ينبغي أن يمذهب : لا أن يحنّف ، ولا أن يملّك ، ولا أن يشفّع ، ولا أن يحنبل ! فالحديث فوق المذاهب كلها ، وهي تتبعه ولا يتبعها .

وهذا الذي قيل في الحديث الشريف ، يجب ويلزم ـ من باب أولى ـ أن يقال في القرآن العظيم .

---

(١) هو العلاّمة الشيخ محمد شفيع مفتي باكستان في عصره ، وهو والد صديقنا الفقيه محمد تقي العثماني حفظه الله .

فلا يجوز ولا يليق ولا يقبل أن يكون القرآن تابعا لمذهب في الفقه، أو نحلة في الكلام، أو مقوله في الفلسفة، أو شطحة في التصوف.

لا يجوز أن يكون القرآن حنفيّا ولا شافعيّا، ولا مالكيّا ولا حنبليّا ولا ظاهريّا، ولا إباضيا، ولا زيديا ولا جعفريا.

لا يجوز أن يكون القرآن معتزليّا ولا أشعريّا، ولا خارجيّا ولا شيعيّا.

لا يجوز أن يكون القرآن أرسطيّا ولا إفلاطونيا ولا فارابيّا ولا سينويّا.

لا يجوز أن يكون القرآن إسماعيليّا ولا نصيريّا ولا قاديانيّا.

لا يجوز أن يكون القرآن جنيديّا ولا قشيريّا ولا قادريّا ولا نقشبنديّا.

بل يجب أن يكون القرآن فوق الجميع، ومرجع الجميع، وحاكم الجميع.

جر القرآن لتأييد مذهب الإنسان الفكري:

لا يجوز أن يجر القرآن جرا، ليؤيد ـ رغم أنفه ـ مدرسة من مدارس الاعتقاد أو الفكر أو الفقه أو السلوك، فإن هذا قلب للحقائق، وتزييف للأمور، وتأخير لما حقه أن يقدم، وتقديم لما حقه أن يؤخر، فقد أمسى الحاكم محكوما، والأصل فرعا، والمتبوع تابعا!

وهذا من أكبر أسباب الضلال، ومنازع الزيغ، ومصادر الانحراف عن سواء الصراط: أن يعمد أحدهم إلى تفسير القرآن، ورأسه مشحونة بأفكار وتصورات، وقلبه مؤمن بقضايا وتصديقات، نشأ عليها في بلده، أو تلقاها عن شيوخه، درج عليها طفلا، وشب عليها يافعا، واستقر عليها رجلا، واستمر عليها كهلا، فهو يقرأ القرآن قراءة موجّهة، فما وافق أفكاره ـ ولو بتكلف وتمحُّل ـ أبرزه وضخمه، وما لم يوافقه أسقطه وتناساه. وما كان مناقضا له في وضوح وصراحة تعسف في رده وتأويله.

قراءة الفلاسفة للقرآن:

هكذا رأينا قراءة الفلاسفة للقرآن، كما تمثل ذلك في فلسفة المدرسة (المشائية الإسلامية) حين اتخذوا معلمهم الأول أرسطوطاليس لا محمدا ﷺ وجعلوا كعبتهم أثينا لا مكة، ودستورهم فلسفة اليونان لا حكمة القرآن.

عندئذ جعلوا القرآن تابعا لما اعتقدوه من صحة كل ما جاء به أرسطو، فتكلفوا تأويل آياته المحكمات، في البعث والنشور، والجنة والنار، وفي النبوة والوحي، وفي خلق السموات والأرض، وفي علم الله تعالى بكل شيء، مما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهي القضايا الأساسية الثلاث، التي كفرهم بها الغزالي في كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) لمصادمتها لمحكمات القرآن، وقواطع الإسلام، وأشار إليها في كتابه (المنقذ من الضلال).

والآن، وبعد نحو عشرة قرون من عهد الفارابي وابن سينا، وغيرهما من المفتونين بالفلسفة - الأرسطية خاصة، واليونانية عامة - يكتشف العلم الحديث والمعاصر أن أفكار أرسطو عن الكون والحياة والإنسان كانت أفكارا بدائية، وأن كثيرا منها ثبت خطؤه بيقين، مثل موقع الأرض من الكون، وحصر العناصر في أربعة هي الماء والهواء والنار والتراب، وأن الأفلاك أجسام صلبة لا تقبل الخرق ولا الالتئام إلخ ما قالوا، حتى قال أحد رجال العلم المعاصرين: إن تلميذ المدارس الابتدائية يعرف عن الكون اليوم معلومات صحيحة أكثر مما كان يعلمه سقراط وأفلاطون وأرسطو!

قراءة المعتزلة للقرآن:

وما سقط فيه الفلاسفة وقع فيه المتكلمون بأقدار متفاوتة.

قرأ المعتزلة القرآن، وفسره من فسره منهم بعقلية المعتزلي، وروح المعتزلي، الذي يؤمن بأفكار فرقته الأساسية: أن الإنسان خالق أفعال نفسه، وأن الله لا يريد المعصية، وأن ليس لله صفات ثبوتية كالعلم والقدرة والإرادة والحياة إلخ.. وأن القرآن مخلوق.. وأن الله لا يرى في الآخرة، وأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، لا هو مؤمن ولا هو كافر، ولكنه مخلد في النار، وأن الأنبياء والملائكة والمؤمنين لا يشفعون لمذنب في الآخرة.. إلخ.

ومن قرأ تفسيرا مثل (الكشاف) للزمخشري، وجده - على علمه وفضله الذي اعترف به الجميع - يتكلف تكلفا لا يليق بعلاّمة مثله، لحمل الآيات على مذهبه كما تراه جليا في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ وقد كررت مرتين في سورة النساء (الآية ٤٨ والآية ١١٦). فقد فرق الله تعالى بين الشرك وما دونه من الذنوب، ولكنه - أي الزمخشري - سوى بينهما، في أنهما لا يغفران إلا بالتوبة!

ومثال ذلك موقفه من قوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقوله: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] . وغير ذلك من الآيات المثبتة للشفاعة بشروطها، وهي أن تكون بإذن الله تعالى، لأهل التوحيد، ولكن الزمخشري - مثل كل المعتزلة - يغلّبون العدل على الرحمة، والوعيد على الوعد، والعقل على النقل. ولو أنصفوا وتأملوا حق التأمل، لعلموا أن العقل المجرد عن الهوى يقضي بإثبات الشفاعة، لأنها الأليق بكمال الله تعالى، وسابغ فضله، وواسع رحمته، وعظيم إحسانه.

ونحو ذلك موقفه من قوله تعالى عن يوم القيامة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وهي صريحة في موضوعها، ولا سيما إذا أضيف إليها صحاح الأحاديث.

وموقفه من مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١]. وقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وتمحله رحمه الله في تفسير هذه وتلك وما كان في معناهما: لتوافق مذهبه في أن المعاصي واقعة بغير إرادة الله تعالى. حتى قال العلامة ابن المنير في (انتصافه): كم يتلجلج هذا الفاضل، والحق أبلج.

وقال معقبا على قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١]، أي مشيئة إكراه واضطرار. قال ابن المنيّر: «بل المراد: إلا أن يشاء منهم اختيار الإيمان، فإنه لو شاء منهم اختيارهم للإيمان لاختاروه وآمنوا حتمًا. ما شاء الله كان. والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في اعتقاده: أن الله تعالى شاء منهم الإيمان اختياراً، فلم يؤمنوا. بل يقول هو وطائفته: إن أكثر ما شاء الله لم يقع . . . فإذا صدمتهم مثل هذه الآية بالرد تحيلوا في المدافعة بحمل المشيئة المنفية على مشيئة القسر والاضطرار. وإنما يتم لهم ذلك لو كان القرآن يتبع الآراء، أما وهو القدوة والمتبوع، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه فإلى النار. وماذا بعد الحق إلا الضلال»(١).

(١) انظر: الانتصاف من الكشاف جـ٢ ص ٤٦، ٤٧ ط دار المعرفة بيروت وهو مطبوع مع الكشاف.

القاديانيون والقرآن:

وفي العصر الحديث نجد نموذجًا صارخًا لطائفة تحمل أفكارًا ومعتقدات آمنت بصحتها، وسجنت نفسها في داخلها، ودعت الناس إليها بحماسة بالغة، باعتبارها نحلة جديدة، أو نبوة جديدة، بعد نبوة محمد ﷺ، أو هي - كما وصفها محمد إقبال بحق - ثورة على النبوة المحمدية. تلك هي طائفة القاديانية.

نعم رأينا هذه الفئة بنحلتها هذه التي باينت بها جماعة المسلمين، تقرأ القرآن وتفسره، لتفرض جملة آرائها وتصوراتها ومعتقداتها على آيات القرآن، تحرفها عن مواضعها، وتؤولها على غير وجهها، وتنشر هذا التحريف وسوء التأويل، مترجمًا إلى عشرات اللغات في العالم، للمسلمين وغير المسلمين، على أنه ترجمة القرآن، أو ترجمة معاني القرآن.

أي أن القرآن الكريم لم يعد في أيديهم كتاب الله، بل كتاب (غلام أحمد)، ولم يعد كتاب الإسلام، بل كتاب القاديانية، لأنه بات في خدمة العقائد والأفكار القاديانية!

آمن القاديانيون بأن النبوة لم تختم بمحمد ﷺ. ولهذا فسروا مثل قوله تعالى: ﴿**ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ بأنه زينة النبيين، كالخاتم الذي يلبس في الإصبع ليزينها ويحليها. وليس الخاتم الذي يختم به الكتاب بعد انتهائه. ولا (الخاتِم) بكسر التاء، كما صحت بذلك قراءة أخرى. وكما بينت ذلك السنَّة المشرفة، التي صورت نبوة محمد ﷺ بأنها اللبنة الأخيرة في بنيان النبوة. وأنه لا نبي بعده. وعلى هذا أجمعت الأمة، وفرغت من هذا الأمر، وأصبح من المعلوم عندها من الدين بالضرورة.

وآمن القاديانيون بأن الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى، وتحدث عنهم القرآن وقص علينا قصصهم، لم تكن لهم معجزات حسية، ولا آيات كونية ظهرت على أيديهم، وذلك ليفروا من أن يطالبهم أحد بمعجزة تثبت نبوة غلامهم. فكرّوا يضربون بسيف التأويل المتعسف أعناق الآيات القرآنية الوفيرة التي ذكرت معجزات الأنبياء مثل عصا موسى، وقلبها حية تسعى، وإخراج يده من جيبه بيضاء من غير سوء، وفلق البحر فرْقين بضربة عصاه. فكان كل فرق كالطود العظيم، وضربه بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشِرة عينًا، بعدد الأسباط الذين معه، قد علم كل أناس مشربهم.

ومثل معجزات المسيح عيسى بن مريم، حيث يخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله.

ومثل تسخير الريح والجن، وتكليم الطير والنمل لسليمان، والإسراء لمحمد ﷺ . . إلخ ما ذكر القرآن من آيات لأنبياء الله تعالى ورسله، يقرؤها كل من يفهم العربية، فلا يشك مثقال ذرة في أنها خوارق كونية، وآيات حسية، أظهرها الله على أيديهم، وأيدهم بها، تصديقًا لهم في دعواهم، أو نعمة منه عليهم، أو تكريمًا لهم وتثبيتًا لأتباعهم.

لكن القاديانيين أخرجوها عن معانيها المفهومة من ألفاظها، ولا يدل سياقها على غيرها، ليتأولوها تأولا مغرقًا في البعد والإغراب.

وآمن القاديانيون بوجوب الطاعة للكفار الذين كانوا يستعمرون بلاد الإسلام عند ظهورهم، والذين مهدوا لهم السبيل، ووفروا لهم الحماية، ولا سيما الإنجليز، فوجهوا آيات القرآن توجيهًا يخدم فكرتهم، وينصر مذهبهم.

فإذا قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] صرفوا معنى (منكم) التي تدل بجلاء على أن أولي الأمر الذين لهم حق الطاعة يجب أن يكونوا من المسلمين، من﴿ الذين آمنوا ﴾ المخاطبين في الآية الكريمة. فكلمة (من) تفيد البعضية كما يقول النحاة. أي أنهم جزء من المؤمنين الذين خوطبوا بالآية. حرّف القاديانيون هذا المعنى الجلي إلى معنىً اخترعوه من عند أنفسهم، وقالوا: معنى (منكم) أي (فيكم) حتى يشمل أولي الأمر من الكفار المستعمرين. فطاعتهم واجبة مثل طاعة الله تبارك وتعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وزادوا الطين بلة، حين قالوا (بِنَسْخ الجهاد) الذي كان مفروضًا على الأمة في عهد الرسالة، وعهد الصحابة، وسلف الأمة، فهذا لم يعد له مكان اليوم، وقد جاءت النبوة الجديدة بنسخه، وبهذا تحطم قوة المقاومة في الأمة، وتستسلم لعدوها، مقلمة الأظافر، لا تقاتل عن دنيا، ولا تدافع عن دين. تدنَّس أرضها، وتداس كرامتها، وتنتهك حرماتها، ويضطهد دعاتها، وتنتقص أطرافها، وهي مشلولة الأيدي، تسالم من حاربها، وتهادن من اعتدى عليها، وتحني له الرأس إكبارًا، وتقدم الطاعة له اختيارًا.

من أين يأتي سوء التأويل؟:

وهنا يبرز سؤال مهم، وهو: من أين يأتي سوء التأويل للنص القرآني؟

إن من تتبع التأويلات الفاسدة ـ المعزوة إلى الفرق والمدارس القديمة المختلفة، أو إلى الفئات والمدارس الحديثة ـ يجد أن الآفة المشتركة بين الجميع ترجع إلى أحد أمرين:

١ ـ إما قصور في العلم والفكر.

٢ ـ وإما فساد في النية والقَصْد.

وقد يجتمع الأمران في طائفة أو شخص، فيكون من وراء ذلك فساد كبر، وشر كثير.

والقاصر في علمه ـ إذا لم يكن صاحب هوًى ـ يمكن أن يرجع عن رأيه الكاسد، وتأويله الفاسد، إذا تبين له الحق، وصُحح له الخطأ، وعرف النص على وجهه.

أما فاسد النية فهيهات أن يرجع عن رأيه، لأنه من ضمْن ﴿ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ﴾ [الجاثية: ٢٣]

وسيأتي مزيد بحث لهذا الموضوع في (المزالق والمحاذير) عند حديثنا عن (سوء التأويل).

الفصل الثالث

مزالق ومحاذير في الفهم والتفسير

١ - اتباع المتشابهات وترك المحكمات

٢ - سوء التأويل

٣ - وضع النص في غير موضعه

٤ - دعوى النسخ بلا برهان

٥ - الجهل بالسنن والآثار

٦ - الثقة بالإسرائيليات

٧ - الشرود عن إجماع الأمة

٨ - ضعف التكوين العلمي

١ـ اتباع المتشابهات وترك المحكمات

من أخطر المزالق، وأعظم المحاذير في مجال فهم القرآن خاصة والنصوص عامة: اتباع المتشابه من الآيات، وترك النصوص المحكمات، فما المقصود بالمتشابه والمحكم؟

المحكم والمتشابه في القرآن:

يوصف القرآن كله بأنه محكم، كما في قوله تعالى: ﴿آلـر كِتَـابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. والمراد بالإحكام هنا: إتقانه وعدم تطرق النقص والاختلال إليه.

ويوصف كذلك بأنه كله متشابه، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

ومعنى تشابهه: أنه يشبه بعضه بعضا في صدق أخباره، وعدالة أحكامه، وسمو بلاغته، وروعة نظمه، ونصوع حقائقه، وتصديق بعضه لبعض، فلا تناقض ولا تضارب.

ويوصف القرآن أيضا بأن بعضه محكم، وبعضه متشابه. وهو ما نطقت به الآية السابعة من سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فقسمت الآية الكريمة آيات الكتاب إلى قسمين: محكمات، هن أم الكتاب وأساسه ومعظمه . . . وأخر متشابهات.

معنى المحكم:

والمراد بالمحكم هنا: البيِّن بنفسه، الدال على معناه بوضوح، فلا يعرض له شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى، كما قال الراغب في (مفرداته).

معنى المتشابه ومظاهر تشابهه وأسبابه:

والمراد بالمتشابه هنا: ما أشكل تفسيره، لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ، وإما من حيث المعنى. فلذا قيل: المتشابه: ما لا ينبئ ظاهره عن مراده. أو ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره.

قال الراغب: وحقيقة ذلك أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب:

١ ـ محكم على الإطلاق. ٢ ـ ومتشابه على الإطلاق.

٣ ـ ومحكم من وجه، ومتشابه من وجه.

فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب:

١ ـ متشابه من جهة اللفظ فقط. ٢ ـ ومتشابه من جهة المعنى فقط.

٣ ـ ومتشابه من جهتيهما.

وبين الراغب: أن المتشابه من جهة اللفظ ضربان، منه ما يرجع إلى غرابة اللفظ أو اشتراكه. ومنه ما يرجع إلى جملة الكلام المركب . . . إلخ.

والمتشابه من جهة المعنى: ما يتعلق بأوصاف الله تعالى، وأوصاف يوم القيامة، فإن تلك الصفات لا تُتصور لنا: إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه، أو لم يكن من جنس ما نحسه.

ثم ذكر الإمام الراغب المتشابه من جهة اللفظ والمعنى جميعا بأضربه الخمسة، ومثّل لها: من جهة الكمية كالعموم والخصوص، أو من جهة الكيفية كالوجوب والندب، أو من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ، أو من جهة المكان كالأمور المتصلة بعادات الجاهلية وما كان عليه العرب، أو من جهة الشروط التي يصلح بها العمل أو يفسد . . . قال:

ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب:

١ ـ ضرب لا سبيل للوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج دابة الأرض، وكيفية الدابة، ونحو ذلك.

٢ ـ وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة، والأحكام الغَلقة.

٣ ـ وضرب متردد بين الأمرين، يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على مَن دونهم. وهو الضرب المشار إليه بقوله عليه السلام [(١)]: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

قال: وإذا عرفت هذه الجملة عُلم أن الوقف على قوله: ﴿ **وما يعلم تأويلَه إلا اللهُ** ﴾ ووصله بقوله: ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ جائز. وأن لكل واحد منهما وجها، حسبما دل عليه التفصيل المتقدم [(٢)].

وخلاصة هذا الكلام: أن في القرآن آيات محكمات واضحات الدلالة: بيِّنات المعنى، لا تحتاج إلى غيرها لبيان مفهومها ومضمونها، وهذه هي أم الكتاب وأصله، الذي يجب أن يُرَدّ إليه ما سواه ليُفهم في ضوئه.

وهناك آيات متشابهات ـ تشابها كليا حقيقيا ـ فلا يمكن أن يعلمها إلا الله، ولا يحاول أن يعرف حقيقتها إلا الذين في قلوبهم زيغ وانحراف ـ أو تشابها جزئيا إضافيا ـ وهذا هو أكثر المتشابه، وهو الذي يعلمه الراسخون برده إلى المحكمات، التي هي الأصل.

يقول العلّامة ابن الحصار فيما نقله عنه السيوطي في (الإتقان):

«قسَّم الله آيات القرآن إلى محكم ومتشابه، وأخبر عن المحكمات أنها أم الكتاب: لأن إليها تُرد المتشابهات، وهي التي تعتمد في فهم مراد الله، في كل ما تعبدهم به من معرفته، وتصديق رسله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وبهذا الاعتبار كانت (أمهات). ثم أخبر عن ﴿ **الذين في قلوبهم زيغ** ﴾ أنهم هم الذين ﴿ **يتبعون ما تشابه منه** ﴾. ومعنى ذلك: أن مَن لم يكن على يقين من المحكمات، وفي قلبه شك واسترابة، كانت راحته في تتبع المشكلات المتشابهات. ومراد الشارع منها التقدم إلى فهم المحكمات، وتقديم الأمهات، حتى إذا حصل اليقين، ورسخ العلم، لم تُبال بما أشكل عليك.

---

(١) أي لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: المفردات للراغب ـ مادة «شبه» ص ٢٥٤، ٢٥٥ ـ والآية من سورة آل عمران: ٧.

ومراد هذا الذي في قلبه زيغ: التقدم إلى المشكلات، وفهم المتشابه قبل فهم الأمهات، وهو عكس المعقول والمعتاد والمشروع»[1].

وهذا كما يوجد في كتاب الله، يوجد في حديث رسول الله ﷺ. لأنه من لوازم الكلام، ومقتضيات الخطاب، فإذا وجد في كلام الله المعجز، فلأن يوجد في كلام رسوله من باب أولى.

حكمة وجود المتشابه:

وقد يسأل سائل بعد ذلك: لماذا جعل الله في كتابه (المتشابه) ولماذا لم يجعله كله (محكما)؟

والحق كما ذكرنا من قبل: أن مَن عرف طبيعة اللغات ـ وبخاصة العربية ـ وما فيها من اختلاف الدلالات للألفاظ والجمل، وتنوع الخطاب حسب مقتضى الحال، ما بين الحذف والذكر، والتقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما بين الحقيقة والمجاز، والصريح والكناية، والعموم والخصوص . . . إلخ.

وعرف طبيعة الإنسان باعتباره مخلوقا مختارا عاقلا مبتلًى بالتكليف، وليس كالحيوانات العجماوات، أو الجمادات المسخَّرات، ولا كالملائكة المفطورين على الطاعات دون اختيار منهم . . . وأن من شأنه أن يُعمل قواه وملكاته العقلية.

وعرف طبيعة الدين، وطبيعة التكليف فيه، وهو إلزام ما فيه كلفة ومعاناة. لما فيه من صقل للإنسان في الدنيا وإعداده بهذا للخلود في الآخرة، وترتيب الجزاء والثواب على هذه المعاناة.

وعرف طبيعة الإسلام الذي يخاطب أولي الألباب، ويريد تحريك العقول لتبحث وتجتهد، وتدرس وتستنبط، ولا تركن إلى الدعة والكسل العقلي.

وعرف طبيعة البَشر، وتنوع أصنافهم، ففيهم الظاهري الذي يقف عند حرفية النص، وفيهم الذي يهتم بروح النص، ولا يكتفي بظاهره، فيهم من يُسلِّم، وفيهم من يؤوِّل، فيهم العقلاني، وفيهم الوجداني . . . وكان الخطاب القرآني للناس جميعا، فاقتضت حكمة الله

(١) انظر: الإتقان للسيوطي بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ٣/ ٩، ١٠ ـ ط، المشهد الحسيني.

أن يسعهم خطابه، وأن يودعه من البينات والدلائل ما يرشدهم إلى الصواب، ولكن بعد بحث وجهد، حتى يرتقوا في الدنيا، ويثابوا في الآخرة . . . والله أعلم.

تحذير القرآن والسنة وعلماء الأمة من اتباع المتشابهات:

ومن هنا كان من أهم المعالم والضوابط، التي تجب رعايتها لحسن الفهم عن الله ورسوله: ضرورة الرجوع إلى النصوص البيِّنات المحكمات، واعتبارها هي الأصول والأمهات، ورد المتشابهات إليها، حتى تنسجم معها، وتدور في فلكها.

وكان من الأسباب الأساسية للانحراف والزيغ عن الفهم الصحيح للقرآن والسنَّة: ترك الأصول الواضحة، والأدلة المحكمة، واتباع المتشابهات من النصوص المحتملات للتأويل. مع أن الواجب رد المحتملات إلى القواطع، أو المتشابهات إلى المحكمات.

ومن هنا ذكر الله تعالى في سورة آل عمران، موقف المستقيمين والمنحرفين من آيات كتابه العزيز، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

اشتملت هذه الآية على صنفين من الناس:

صنف مدحه الله وأثنى عليه، وهم الراسخون في العلم، أي ثابتو الأقدام في علم الشريعة، المتمكنون من معرفة أسرارها ومقاصدها. فمادة (الرسوخ) تعني الثبات والتمكن. قال الزمخشري: «﴿الراسخون في العلم﴾: هم الذين ثبتوا فيه وتمكنوا، وعضوا فيه بضرس قاطع»(١).

والصنف الثاني: ذمّه الله، وهم الذين في قلوبهم زيغ. وفي وضعهم في مقابلة الراسخين في العلم دليل على أن الرسوخ منفي عنهم. يعرفون من العلم قشوره لا لبابه، ويقفون عند سطحه، ولا ينفذون إلى أعماقه. ومن هذه الناحية أُتوا: أي من قصر الباع في

(١) انظر: الكشاف: ١/ ١٧٥.

العلم، كما أتوا من زيغ القلوب باتباع الهوى. فالآية الكريمة أثبتت لهؤلاء المنحرفين الزيغ أولا، وهو الميل عن الصراط المستقيم، ثم وصفتهم باتباع المتشابه من آيات الكتاب، وهو خلاف المحكم الواضح المعنى، الذي هو أم الكتاب ومعظمه، ومتشابهه - على هذا - قليل. فتركوا اتباع المعظم إلى اتباع الأقل المتشابه الذي لا يعطي مفهوما واضحا، ابتغاء تأويله، وطلبا لمعناه الذي لا يعلمه إلا الله، أو يعلمه هو والراسخون في العلم، وليس إلا برده إلى المحكم، ولم يفعل ذلك المبتدعة [1].

وقد علم العلماء أن كل دليل فيه اشتباه وإشكال، ليس بدليل على الحقيقة، حتى يتبيَّن معناه، ويظهر المراد منه، ويُشترط في ذلك ألا يعارضه قطعي. فإذا لم يظهر معناه؛ لإجمال، أو اشتراك، أو عارضه قطعي، فليس بدليل: لأن حقيقة الدليل أن يكون ظاهرا في نفسه، ودالا على غيره، وإلا احتيج إلى دليل، فإن دل الدليل على عدم صحته فأحرى ألا يكون دليلا [2].

ولما خصَّ أهل الزيغ باتباع المتشابه دلّ التخصيص على أن الراسخين لا يتبعونه. فأما المتشابه فإما أن يردوه إلى المحكم، إن أمكن حمله عليه بمقتضى القواعد، وذلك في المتشابه الإضافي النسبي لا الحقيقي، وهو الذي يحتمل أكثر من وجه، وليس في الآية نص على موقف الراسخين منه، فليرجع عندهم إلى المحكم الذي هو أم الكتاب.

وأما المتشابه الحقيقي - وهو الذي لا يعلم تأويله وحقيقته إلا الله - فموقفهم منه هو التسليم حيث: ﴿ يقولون آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧]، وهؤلاء هم أولو الألباب.

وبهذا يتبين أن الراسخين في العلم لا يتبعون المتشابهات المحتملات، ولا يجعلونها عمدتهم، وإنما عمدتهم المحكمات الواضحات، وهن أم الكتاب ومعظمه.

فكل دليل خاص أو عام شهد له معظم الشريعة فهو الدليل الصحيح، وما سواه فدليل فاسد، إذ ليس بين الصحيح والفاسد واسطة في الأدلة يُستند إليها. ولو كان ثم قسم ثالث لنصَّت عليه الآية [3].

هذا شأن الراسخين.. وأما أهل الزيغ والانحراف، فهم يدَعون المحكمات، ويجرون خلف المتشابهات، لأمرين:

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي: ١/ ٢٢٠ - ٢٢٣ - ط. شركة الإعلانات الشرقية. نشر المكتبة التجارية.
(٢) الاعتصام للشاطبي: ١/ ٢٣٩.
(٣) المصدر نفسه.

١ ـ ابتغاء الفتنة في الناس، والتلبيس عليهم وتشويش أفكارهم، وهي هنا فتنة فكرية.

٢ ـ وابتغاء تأويل النص أي طلب تأويله تأويلا يخدم أهواءهم، وينحرف به عما أراد الله تعالى به.

وقد حذر الرسول ﷺ أمته من هؤلاء الزائغين، الذين يتعلقون بأذيال المتشابهات، ويذرون البينات المحكمات، فقال ـ فيما ورد عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ...﴾ إلى قوله: ﴿... أُولُو الأَلْبَابِ﴾» [آل عمران: ٧]. قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»(١).

والزيغ كما قال الراغب: الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين، ومنه: زاغت الشمس عن كبد السماء، وزاغ البصر والقلب.

وقال بعضهم: الزيغ أخص من مطلق الميل، فإن الزيغ لا يقال إلا لما كان من حق إلى باطل.

ومما يؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فجعل طريق الحق واضحا مستقيما، ونهى عن البُنَيَّات (٢).

والواضح من الطرق في كل ذلك معلوم بالعوائد الجارية، فمَن ترك الواضح واتبع غيره، فهو متبع لهواه لا للشرع.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

فهذا دليل على أن النصوص جاءت بالبيان الشافي، وأقامت الحجج الظاهرة ولهذا سماها

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، ومسلم في كتاب العلم. كما في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» حديث (١٧٠٥).

(٢) البُنَيَّة: يقال بُنَيَّة الطريق: أي الطريق الصغير يتشعب من الجادة.

(البيِّنات). وأن التفرق والاختلاف إنما حصل من جهة المتفرقين لا من جهة الأدلة والنصوص، فهي (بيِّنات). فهو إذن من تلقاء أنفسهم، وهو اتباع الهوى بعينه.

قال الإمام الشاطبي: ومَن نظر إلى طريق أهل البدع في الاستدلالات عرف أنها لا تنضبط، لأنها سيَّالة لا تقف عند حد. وعلى كل وجه يصح لكل زائغ وكافر أن يستدل على زيغه وكفره، حتى ينسب النحلة التي التزمها إلى الشريعة.

فقد رأينا وسمعنا عن بعض الكفار أنه استدل على كفره بآيات من القرآن، كما استدل بعض النصارى على تشريك عيسى (أي مع الله) بقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

واستدل على أن الكفار من أهل الجنة، بإطلاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ... الآية [البقرة: ٦٢] (١).

واستدل بعض اليهود على تفضيلهم علينا بقوله سبحانه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

وبعض الحلولية استدل على قوله، بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

والتناسخي استدل بقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨].

وكذلك كل من اتبع المتشابهات، أو حرَّف المناطات، أو حمَّل الآيات ما لا تحتمله عند السلف الصالح، أو تمسك بالأحاديث الواهية، أو أخذ الأدلة ببادئ الرأي، له أن يستدل على كل فعل أو قول أو اعتقاد وافق غرضه بآية أو حديث، لا يفوز بذلك أصلا.

ثم قال: فمن طلب خلاص نفسه تثبَّت حتى يتضح له الطريق، ومن تساهل رمته أيدي الهوى في معاطب لا مخلص له منها، إلا ما شاء الله! (٢)

ونذكر هنا مثالا بارزا للاعتماد على المتشابه في تأييد الرأي الفاسد، والمعتقد الباطل. وهو ما استدل به محيي الدين بن عربي في (فصوص حكمه) على مذهبه في تصحيح كل

---

(١) تتمتها: ﴿وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.
(٢) الاعتصام: ١ / ٢٨٥.

المعتقدات، كتابية، أو وثنية، ومحو الفوارق بين الديانات والملل كلها، على ما عبر عنه في شعره المشهور، الذي سوّى فيه بين التوحيد والشرك، وبين الكعبة وبيت الأوثان!

استدل ابن عربى على مذهبه بقول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥].

يقول الشيخ: «فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص (أي بعقيدة خاصة) وتكفر بما سواه، فيفوتك خير كثير. فكن في نفسك هيولى لصور المعتقدات كلها، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد، فإنه يقول: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾، وما ذكر أينما من أين. وذكر أن ثم وجه الله، ووجه الشيء حقيقته».

ثم يقول: «فقد بان لك عن الله تعالى أنه في أينية كل وجهة، وما ثَمَّ إلا الاعتقادات! فالكل مصيب، وكل مصيب مأجور، وكل مأجور سعيد، وكل سعيد مرضي عنه!»[1].

وهو يعبر عن ذلك شعرا، فيقول:

عقد الخلائق في الإله عقائدا ... وأنا اعتقدتُ جميع ما عقدوه!!

فأين ذهبت عن الشيخ مئات الآيات المحكمات البينات التي تحدثت عن كفر اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والذين أشركوا، وتوعّدتهم بأشد العذاب؟! ولماذا كان إنزال الكتب، وبعث الرسل، الذين كانت مهمتهم الأولى مقاومة الشرك، والدعوة إلى التوحيد؟ ولماذا أنزل الله العذاب بهؤلاء المشركين من قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ما داموا كلهم مصيبين، وكلهم مأجورين، وكلهم سعداء؟!

وأين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقوله: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥]؟!

---

(١) فصوص الحكم مع شرحه: ٢/ ٦٠ وما بعدها، نقلا عن «مذاهب التفسير الإسلامي» للمستشرق جولدتسيهر ص ٢٠٦، ٢٠٧ ـ ط. دار اقرأ ـ بيروت. ترجمة د. عبد الحليم النجار.

المتشابه ملجأ الزائغين من دعاة التغريب:

إن اتباع المتشابه هو الملجأ الذي يلوذ به الزائغون والمنحرفون في كل عصر، فرارا من حصار النصوص المحكمات التي تُضيِّق الخناق عليهم، وتغلق في وجوههم منافذ الحيل والتعلات، لا ستباحة حِمَى المحرَّمات.

ومنذ قام الصراع بين القديم والجديد - كما سماه الرافعي رحمه الله - أو بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية - كما سماه العلامة أبو الحسن الندوي - أو بين الأصالة والتغريب - كما نسميه اليوم، نجد هناك أمورا حرَّمها الإسلام يريد دعاة التغريب أن يبيحوها وأمورا أخرى أحلها الإسلام يريدون أن يمنعوها، وأمورا غيرها فرضها الإسلام يريدون أن يعطلوها.

وقد كان الأقدمون منهم يريدون ذلك تبعا للغرب صراحة وعلانية، دون لف ولا دوران، ولا تغليف للمستورد بغلاف وطني، ولا تبرير له بمنطق ديني، بل دَعَوْا إلى اتباع فلسفته ومناهجه شبرا بشبر، وذراعا بذراع، والتعلق بأذيال حضارته بعُجَرها وبُجَرها، أو كما قال أحدهم: بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يُحب منها وما يُكره. وما يُحمد منها وما يُعاب!

ولكن لأن الحس العام - برغم الاستعمار الفكري والتربوي - كان يرفض هذه التبعية، أو العبودية الثقافية والتشريعية والسلوكية، فقد حاول من حاول - من المتغربين ثم من المهزومين نفسيا من المنتسبين إلى الدين - أن يوظفوا الدين نفسه لتبرير تلك الأفكار والقوانين والحلول المستوردة، وأن يتلاعبوا بالنصوص المقدسة، لتكون حُجة لهم على باطلهم.

وإنما يكون هذا باتباع ما تشابه منها، واحتمل التأويلات، وتعدَّدَ الأفهام والتفسيرات، والإعراض عن البيِّنات المحكمات.

المحللون للربا الحرام:

فعل ذلك الذين أرادوا أن يُحلوا ما حرَّم الله من (الربا) الذي توعد الله مقترفيه بالمحق في الدنيا، والنار في الآخرة، ولعن رسول الله ﷺ آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه.

فرأينا من يدع النصوص الصريحة المحكمة من القرآن والسنَّة، المؤيَّدة بإجماع الأمة، ليلهث وراء نص متشابه محتمل، يريد أن يجعل منه أصلا، ترد إليه النصوص الأخرى، وهي البينات المحكمات.

فـقـد نادى بعـضـهم بإباحة الربا القليل، اعـتـمـادا على الآية الكريمة من سـورة آل عـمـران: ﴿ يأيُّها الَّذِينَ آمنُوا لا تأْكُلُوا الرِّبَا أضْعَافًا مُّضَاعفَةً واتَّقُوا اللَّهَ لعلَّكُمْ تُفْلحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

زعموا أن الآية إنما نهت عن ربا الأضعاف المضاعفة. وما عداه فهو في باحة الحل.

ولا يزال مستحلو الربا إلى اليوم يجددون الاحتجاج بهذه الآية الكريمة، رغم أن الأفذاذ المحققين من العلماء المعاصرين ردوا عليهم، وبينوا المراد منها، وفندوا شبهات المرتابين والمشككين في تحريم الربا قليله وكثيره من المفتونين بالغرب الرأسمالي.

ولعل أبلغ رد على هؤلاء المحرِّفين للكلم عن مواضعه هو رد شيخنا العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في رسالته عن (الربا) التي ألقاها في مؤتمر باريس للفقه الإسلامي سنة ١٩٥١ مندوبا عن (الأزهر). قال رحمه الله:

«ولقد يكون من المفيد في صدر هذا البحث أن نذكّر أنفسنا بطبيعة المنهج التعليمي في القرآن حينما يكون بصدد محاربة بعض الرذائل التي تأصلت في العُرف العام، والتي توارثتها الأجيال خلَفا عن سلَف، في أحقاب متطاولة..

ذلك أن القرآن في معالجته لهذه الأمراض المزمنة لا يأخذها بالعنف والمفاجأة، بل يتلطف في السير بها إلى الصلاح على مراحل مترتبة، متصاعدة، حتى يصل بها إلى الغاية.

كلنا نعرف ما كان منه في شأن الخمر، وأنه لم يبطله بجرة قلم، بل لم يحرمه تحريما كليا إلا في المرحلة الرابعة من الوحي. أما المرحلة الأولى (التي نزلت في مكة)، فإنها رسمت الوجهة التي سيسير فيها التشريع. وأما المراحل الثلاث (التي نزلت بالمدينة)، فكانت أشبه بسلم: أولى درجاته بيان مجرد لآثار الخمر، وأن إثمه أكبر من نفعه، والدرجة الثانية تحريم جزئي له، والثالثة تحريمه التحريم الكلي القاطع.

هل يطيب لكم أن تدرسوا معي المنهج التدريجي الذي سلكه القرآن في مسألة الربا؟

إنه لمن جليل الفائدة أن نتابع هذا السير لنرى انطباقه التام على مسلكه في شأن الخمر، لا في عدد مراحله فحسب، بل حتى في أماكن نزول الوحي، وفي الطابع الذي تتسم به كل مرحلة منها..

نعم.. فقد تناول القرآن حديث الربا في أربعة مواضع أيضا، وكان أول موضع منها وحيا

مكيا، والثلاثة الباقية مدنية، وكان كل واحد من هذه التشريعات الأربعة متشابها تمام المشابهة لمقابله في حديث الخمر.

ففي الآية المكية يقول الله جلت حكمته: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩]. هذه كما ترون موعظة سلبية: إن الربا لا ثواب له عند الله، نعم، ولكنه لم يقل إن الله ادخر لآكله عقابا. وهذا بالضبط نظير صنعه في آية الخمر المكية (النحل: ٦٧) [١]، حيث أومأ برفق إلى أن ما يُتخذ سَكَرًا ليس من الرزق الحسن، دون أن يقول إنه رجس واجب الاجتناب، ومع ذلك فإن هذا التفريق في الأسلوب كان كافيا في إيقاظ النفوس الحية، وتنبيهها إلى الجهة التي سيقع عليها اختيار المشرِّع الحكيم.

أما الموضوع الثاني فكان درسا وعبرة قصها علينا القرآن من سيرة اليهود الذين حُرِّم عليهم الربا فأكلوه وعاقبهم الله بمعصيتهم[٢]. وواضح أن هذه العبرة لا تقع موقعها إلا إذا كان من ورائها ضرب من تحريم الربا على المسلمين، ولكنه حتى الآن تحريم بالتلويح والتعريض لا بالنص الصريح. ومهما يكن من أمر، فإن هذا الأسلوب كان من شأنه أن يدع المسلمين في موقف ترقب وانتظار لنهي يوجَّه إليهم قصدا في هذا الشأن، نظير ما وقع بعد المرحلة الثانية في الخمر (البقرة: ٢١٩)، [٣] حيث استشرفت النفوس إذ ذاك إلى ورود نهي صريح فيه، وقد جاء هذا النهي بالفعل في المرحلة التالية. ولكنه لم يكن إلا نهيا جزئيا: في أوقات الصلوات (النساء: ٤٣)[٤].

وكذلك لم يجئ النهي الصريح عن الربا إلا في المرتبة الثالثة، وكذلك لم يكن إلا نهيا جزئيا عن الربا الفاحش: الربا الذي يتزايد حتى يصير ﴿ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾ [٥]، [٦].

وأخيرا وردت الحلقة التي خُتم بها التشريع في الربا (بل خُتم بها التشريع القرآني كله على

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكَرا ورزقا حسنا﴾.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا (١٦٠) وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه ...﴾ الآية [النساء: ١٦٠، ١٦١].

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾.

(٥) هذا هو النص الذي اعتمد عليه أصحاب نظرية الرخصة في الربا اليسير، وسنرى تفسيره قريبا.

(٦) آل عمران: ١٣٠، ونصها: ﴿يأيها الذين امنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

ما صح عن ابن عباس) وفيها النهي الحاسم عن كل ما يزيد عن رأس مال الدَّيْن حيث يقول الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٨١].

هذه هي نصوص التشريع القرآني في الربا مرتَّبة على حساب تسلسلها التاريخي.

وإنكم لترون الآن أن الفئة التي تزعم أن الإسلام يفرِّق بين الربا الفاحش وغيره (وهي فئة من المتعلمين الذين ليس لهم رسوخ قدم في علوم القرآن)، لم تكتف بأنها خالفت إجماع المسلمين في كل العصور، ولا بأنها عكست الوضع المنطقي المعقول حيث جعلت التشريع الإسلامي بعد أن تقدم إلى نهاية الطريق في إتمام مكارم الأخلاق يرجع على أعقابه ويتدلى إلى وضع غير كريم، بل إنها قلبت الوضع التاريخي، إذ اعتبرت النص الثالث مرحلة نهائية، بينما هو لم يكن إلا خطوة انتقالية في التشريع: لم يختلف في ذلك محدِّث ولا مفسِّر ولا فقيه.

على أننا لو فرضنا المحال ووقفنا عند هذا النص الثالث، فهل نجد فيه ربحا لقضيتهم في التفرقة بين الربا الذي يقل عن رأس المال، والربا الذي يزيد عليه، أو يساويه؟

كلا، فإنه قبل كل شيء لا دليل في الآية على أن كلمة (الأضعاف) شرط لابد منه في التحريم، إذ من الجائز أن يكون ذلك عناية بذم نوع من الربا الفاحش الذي بلغ مبلغا فاضحا من الشذوذ عن المعاملات الإنسانية، من غير قصد إلى تسويغ الأحوال المسكوت عنها التي تقل عنه في الشذوذ. ومن جهة أخرى، فإن قواعد العربية تجعل كلمة (أضعافا) في الآية وصفا للربا لا لرأس المال، كما قد يفهم من تفسير هؤلاء الباحثين... ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن لا يحرم من الربا إلا ما بلغ ٦٠٠٪ [1] من رأس المال.. بينما لو طبقنا القاعدة العربية على وجهها لتغير المعنى تغييرا تاما، بحيث لو افترضنا ربحا قدره واحد في الألف أو المليون لصار بذلك عملا محظورا غير مشروع بمقتضى النص الذي يتمسكون به.

---

(١) ذلك لأن الربا الذي يكون أضعاف رأس المال (بصيغة الجمع) لابد أن يصل إلى ثلاثة أمثال رأس المال، فإذا ضوعفت هذه الأضعاف الثلاثة كان ستة أمثال، وذلك ما لم نره في معاملة أجشع المرابين، ولم نسمع به في تشريع سابق، ولا لاحق، فيكون القرآن على رأيهم متخلفا عن جميع القوانين في هذا الشأن.

أما القول بأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون إلا الربا الفاحش الذي يساوى رأس المال أو يزيد عليه، فإنه لا يصح إلا إذا أغمضنا أعيننا عما لا يحصى من الشواهد التي نقلها أقدم المفسرين وأجدرهم بالثقة. ولقد كان الشعب العبراني -الذي يعيش هو والشعب العربي في صلة دائمة منذ القدم- يفهم من كلمة الربا كل زيادة على رأس المال، قلّت أو كثرت، وهذا هو المعنى الحقيقي والاشتقاقي للكلمة، أما تخصيصها بالربا الفاحش فهو اصطلاح أوربي حادث، يعرف ذلك كل مطلع على تاريخ التشريع.

وبعد . . . فإننا لا نستطيع أن نطيل الوقوف عند هذا النص الانتقالي، لأن الذي يعني رجل القانون في تطبيق الشرائع إنما هو دورها الأخير. وقد بينا أن الدور الأخير في موضوعنا إنما تمثله الآيات التي تلوناها آنفا من سورة البقرة» (1). أ هـ.

المشككون في تحريم الخمر:

ومثل هؤلاء وأقبح منهم الذين أرادوا أن يشككوا في تحريم الخمر. لأن القرآن لم يمنعها بصيغة (التحريم) كما حرم الميتة والدم ولحم الخنزير، إنما حرمها بصيغة: (فاجتنبوه) وهي في نظرهم لا تدل على التحريم! فهؤلاء لم يتبعوا المتشابهات، بل حاولوا أن يقلبوا المحكمات إلى متشابهات!

وقد رددنا على هؤلاء الممارين بالباطل في الجزء الأول من كتابنا (فتاوى معاصرة) (2) ولا نريد تكرار ما قلناه.

وحسبنا أن نقول: إن معظم الكبائر والموبقات التي حرّمها الإسلام وشدّد في تحريمها، وزجر أبلغ الزجر عنها، لم يأت النهي عنها بصيغة (التحريم). فالقتل والسحر والزنا وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف الغافلات المحصنات، والتولي يوم الزحف -وغيرها من عظائم الذنوب- لم يجئ الزجر عنها بلفظ (التحريم).

خذ مثلا: الزنا، فقد جاء النهي عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وكلمة (لا تقربوا) في شأن الزنا شبيهة بكلمة (فاجتنبوه) في

---

(1) انظر: دراسات إسلامية - الربا في الإسلام والقانون الوضعي للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٥٦-١٥٩. وانظر كذلك: كتابنا (فوائد البنوك هي الربا الحرام) طبعة دار الصحوة ودار الوفاء - القاهرة.

(2) انظر ص ٦٤٤ - ٦٤٩ من فتاوى معاصرة جـ١ تحت عنوان (تحريم الخمر من قطعيات الدين).

شأن الخمر، لأن اجتناب الشيء يعني الابتعاد عنه، بحيث يكون بينك وبينه جانب، وهو أبلغ من النهي عن مجرد الفعل، إذ هو نهي عن الفعل وعن مقدماته معا، مثل (ولا تقربوا).

عبث بالنصوص في القديم والحديث:

ألا إن أعظم أسباب الانحراف في فهم القرآن والسنَّة، التي تحيد بالفرد أو بجماعة ما عن سواء السبيل: هو وضع النصوص في غير موضعها الصحيح، والاستدلال بها على غير ما سيقت له. بل على ضد ما جاء به الإسلام، ونزل به القرآن، وبعث به محمد عليه الصلاة والسلام، مما علمه من دينه الخاص والعام. ومنشأ ذلك هو اتباع النص المتشابه، وترك النص المحكم. وكثيرا ما يدفع إلى ذلك زيغ القلوب واتباع الأهواء.

ولهذا أمثلة لا تحصر في القديم والحديث.

وإذا كان النصارى حاولوا أن يستدلوا على صحة معتقدهم من القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فقد تجاهلوا بقية الآية: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]. إلخ.

وحتى دعاة وحدة الوجود، حاولوا أن يستدلوا على مذهبهم بمثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وما قضى الله فهو واقع ونافذ، متجاهلين أن القرآن من أوله إلى آخره، قائم على أساس أن هناك خالقا ومخلوقا، وربا ومربوبين، ومعبودا وعابدين، وأن تذويب الفوارق بين المخلوق والخالق، ما هو إلا خبل في العقل، وكفر في الدين.

والخوارج احتجوا لمذهبهم بقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠] ناسين

قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]، وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

والخرافيون الذين يطوفون بأضرحة الموتى، يسألونهم قضاء الحاجات، وكشف الكربات، وشفاء المرضى، استدلوا بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤]، والآية ـ أو الجملة ـ التي وردت في القرآن بهذا اللفظ، إنما وردت في نعيم الآخرة للمتقين، فلهم عند ربهم ـ أي في الجنة ـ ما يشاءون أي ما يطلبون وما تشتهي أنفسهم. فما أبعد معناها عما يدعون!

فلا عجب أن نرى العلمانيين في عصرنا يحتجون لنفي صفة الحكم عن الرسول ﷺ بمثل قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]. فمن الذي أسس دولة الإسلام في المدينة؟ وأقامها على أمتن الدعائم من العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع والجهاد؟

وبعضهم استشهد بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وبما ورد في الحديث: «إن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة». فإذا كانت هذه قيمتها، فكيف يأتي الدين ليشرع لها ويعني بأمرها؟!! كأن الله لم ينزل أطول آية في كتابه لتنظيم شأن من شئون هذه الدنيا! (١)

وحين ساقنا الطغاة إلى السجون والمعتقلات في عهد الملكية البائدة، ولا ذنب لنا إلا المناداة بالعودة إلى الإسلام الشامل، وتحكيم شريعة الله كما جاء بها القرآن والسنَّة، اتهمنا الذين يتبعون الغرب، ويحتكمون إلى فلسفته وقوانينه وتقاليده، بأننا نحارب الله ورسوله ونسعى في الأرض فسادا، ووجدوا من يستدل لهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وهكذا أصبح الدعاة إلى الله ورسوله هم المحاربين لله ورسوله! وغدا أعداء شرع الله

---

(١) يشير إلى آية المداينة (الآية ٢٨٢ من سورة البقرة).

ورسوله هم القضاة الذين يتهمونهم ويحاكمونهم، وينفذون حكمهم عليهم، فالسلطات كلها في أيديهم.

وما حدث في عهد الملكية حدث مرة أخرى، بل مرات في عهد الثورة، ولكن بصورة أشد وأفظع وأقسى، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ومن الطرائف أن (مناحيم بيجين) الإرهابى الإسرائيلى المعروف، ورئيس وزراء إسرائيل وممثلها في معاهدة (كامب ديفيد) استدل كذلك بالقرآن الكريم على أن لليهود حقا ثابتا في فلسطين، مستندا إلى قوله تعالى في سورة المائدة على لسان موسى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]. فهو يقول: الله كتبها لنا فكيف تخرجوننا منها؟!!

إن اتباع المتشابهات من النصوص هو شأن الزائغين المنحرفين، الذين يبتغون الفتنة والتشويش.

أما الذين ينشدون الحق، من أهل الرسوخ في العلم، والاستقامة في الدين، فهم الذين يردون المشكل إلى البيِّن، والخفي إلى الواضح، والمتشابه إلى المحكم.

إن الضلال يكمن في ترك المحكمات البينات، واتباع المتشابهات المشكلات.

وإن الهدى يكمن في رد الفروع إلى الأصول، وبعبارة أخرى: في رد المتشابهات إلى المحكمات. وهو منهج المؤمنين الراسخين: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

٢ـ ســــوء التأويـــــل

من المقـرر لدى أهل العلم: أن الأصل هو إبقـاء النصـوص على ظواهرها، دلالة على معانيها الأصلية، كما وضعت في اللغة.

ولكن تأويل النصوص، بصرفها عن معناها الحقيقي إلى معناها المجازي، أو الكنائي، لا يخالف فيه عالم له دراية بالقرآن والسنَّة.

وقد لا يسمي بعضهم ذلك مجازا، ويطلق عليه اسما آخر، كما يفعل شيخ الإسلام ابن تيمية ومن سبقه من علماء اللغة، ثم من تبعه من تلاميذه.

ونحن لا يهمنا الأسماء والعناوين إذا وضحت المسميات والمضامين، فهم متفقون على صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر غير المتبادر منه.

لا تأويل إلا بدليل:

المهم ألا يحدث ذلك إلا بدليل أو بقرينة توجب صرفه عن المعنى الأصلي، وإلا بطلت الثقة باللغة ومهمتها. فإذا وجدنا الدليل أو القرينة صرفنا اللفظ من الصريح إلى الكناية، ومن الحقيقة إلى المجاز.

في القرآن الكريم نجد ذلك التعبير بالكناية في مثل قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة: ٦]. فالغائط هو: المكان المطمئن من الأرض، كنِّي بالمجيء منه عن التغوط، وهو الحدث الأصغر.

وأما قوله: ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾، فقد كنِّي به عن الحدث الأكبر، كما قال ترجمان القرآن ابن عباس: هو الجماع، وقال الفقيه التابعي الجليل سعيد بن جبير: ذكروا اللمس فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع، وقال ناس من العرب: اللمس الجماع: قال: فأتيت ابن

عباس فقلت له: إن أناسا من الموالي والعرب اختلفوا في (اللمس) فقالت الموالي: ليس بالجماع، وقالت العرب: الجماع. قال ابن عباس: فمن أي الفريقين كنت؟ قال: كنت من الموالي، قال: غُلب فريق الموالي! إن اللمس والمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء [١].

ومن الصحابة والتابعين من أدخل مقدمات الجماع في معنى اللمس والمس، مثل القبلة والجس باليد ونحوهما [٢].

وقد رجح ابن تيمية ما ذهب إليه ابن عباس من أن اللمس كناية عن الجماع [٣]. ولكنه لم يسم ذلك مجازا، ولم يعتبره تأويلا. والنتيجة واحدة.

التأويل إذن مقبول إذا دل عليه دليل صحيح من اللغة أو من الشرع أو من العقل، وإلا كان مردودا مهما يكن قائله.

اهتمام العلماء بضوابط التأويل:

لهذا كان من أشد ما تتعرَّض له النصوص خطرا: سوء التأويل لها، بمعنى أن تفسَّر تفسيرا يخرجها عما أراد الله تعالى ورسوله بها، إلى معان أُخر، يريدها المؤولون لها. وقد تكون هذه المعاني صحيحة في نفسها، ولكن هذه النصوص لا تدل عليها. وقد تكون المعاني فاسدة في ذاتها، وأيضا لا تدل النصوص عليها، فيكون الفساد في الدليل والمدلول معا.

وقضية (التأويل) قضية كبيرة تعرَّض لها علماء الأصول، وأوسعوها بحثا ـ على اختلاف مشاربهم ومدارسهم ـ وشاركهم في هذا علماء الكلام والتفسير.

والمراد بالتأويل [٤] ـ هنا ـ معناه الاصطلاحي، وهو: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى مرجوح يحتمله، لدليل يُصيِّره راجحا [٥].

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨ / ٣٩٨، الأثر (٩٥٨١) وما بعده ـ ط. دار المعارف بتحقيق آل شاكر، وأورده ابن كثير في تفسيره أيضا: ١ / ٥٠٢ ـ ط الحلبي.

(٢) انظر: الآثار (٩٦٠٦) وما بعدها من تفسير الطبري السابق.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام.

(٤) لفظ (التأويل) قد يطلق ويراد به (التفسير) كما يستخدمه الطبري وغيره. وقد يراد به حقيقة الشيء التي يؤول إليها كقول يوسف: ﴿هذا تأويل رؤياى من قبل﴾ يوسف: ١٠٠ أي واقعها وحقيقتها التي انتهت إليها، وقوله تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ... ﴾ ... الآية الأعراف: ٥٣، وقد يراد به: المعنى الاصطلاحى المذكور، وهو الذي نتحدث عنه هنا.

(٥) انظر: إرشاد الفحول للشوكاني ص ١٧٦ ـ ط. مصطفي الحلبي.

وهذا هو التأويل الصحيح المقبول.

فلابد أن يكون الصرف إلى معنى يحتمله اللفظ، ولو كان احتمالا مرجوحا، وإلا لم يكن تأويلا، وإنما هو جهل وضلال، أو عبث وباطل.

ولابد أن يقوم دليل راجح على هذا الصرف، وإن كان اللفظ يحتمله، لأن ترك الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لا يجوز إلا بدليل. وإلا لقال كل من شاء ما شاء، وأبطل كل زائغ أدلة الشرع الواضحة بلا برهان، متذرعا بعنوان التأويل.

ولابد أن يكون الدليل الذي صرف عن الظاهر راجحا، فأما دليل مرجوح أو مساو فهو مردود.

ومعنى هذا: أن التأويل لا يجوز لكل من هب ودب، ولا يجوز بلا قيد ولا شرط، كما يتوهم الجاهلون والمتلاعبون.

قال ابن برهان: وهذا الباب أنفع كتب الأصول وأجلّها، ولم يزلّ الزالّ إلا بالتأويل الفاسد [1].

وقد تحدث الأصوليون عن معنى التأويل ومجاله وشروطه، وأنواعه، وأفاضوا.

ولا مجال في هذا المقام للخوض في هذا الميدان الرحب [2]، إنما نكتفي ببعض الإشارات والتنبيهات والأمثلة النافعة في بحثنا هذا.

وللظاهرية هنا موقف من موضوع التأويل، فهم يرفضون التأويل إذا لم يدل عليه نص من كتاب، أو سنَّة، أو إجماع، تأسيسا على مذهبهم في الأخذ بظواهر النصوص، فهي عندهم وافية بكل شيء. كما قال مؤسس المذهب داود بن علي (ت ٢٧٠ هـ) وأكده أبو محمد ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) الذي أحيا المذهب بعد موات.

وفي مقابل الظاهرية الذين يمثلون جانب التفريط - بل الجمود - في التأويل، نجد طوائف أخرى تمثل جانب الإفراط، بل التسيب في التأويل.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) يمكن الرجوع لمن أراد ذلك إلى الدراسة القيمة حول (تفسير النصوص في الفقه الإسلامي) للدكتور محمد أديب صالح: ١/ ٣٥٥ - ٤٥٩ - ط. المكتب الإسلامي - طبعة ثانية. بيروت. وانظر: المستصفى للغزالي: ١/ ٣٨٦ - ٤٠٢، ومسلم الثبوت مع شرحه فواتح الرحموت المطبوع مع المستصفى: ٢/ ٢٢ - ٣٢. والمحصول للرازي بتحقيق د. طه جابر العلواني. وإرشاد الفحول ص١٧٥-١٧٧.

ومما لا شك فيه أن الأصل هو حمل الكلام على معناه الظاهر، إذ هو ما تدل عليه اللغة بأصل وضعها، وما يُفهم من اللفظ لأول وهلة، فلا يجوز العدول عن هذا الظاهر إلى غيره إلا لدليل يصرف عن ذلك. وهذا ما أشير إليه في تعريف التأويل.

فالأصل في الكلام الحقيقة، ولا يُعدل عنها إلى المجاز إلا لقرينة ودليل.

والأصل بقاء العام على عمومه، حتى يظهر ما يخصصه. وبقاء المطلق على إطلاقه، حتى يرد ما يقيده.

والأصل بقاء الأخبار - فيما يتعلق بالعقائد والغيبيات - على ظاهر معناها حتى يأتي ما ينقلها عنه.

وكذلك الأوامر والنواهي في الأحكام والعمليات، هي على ظواهرها حتى يجيء ما يصرفها عنها.

مجال التأويل:

ومن ثم نجد التأويل يمكن أن يدخل في الفقه والفروع، ولا خلاف في ذلك. كما قال الشوكاني.

ويمكن أن يدخل في العقائد وأصول الدين وصفات الباري عز وجل. وفي ذلك اتجاهات أو مذاهب ثلاثة، ذكر الإمام الشوكاني في (إرشاد الفحول) خلاصة وافية لها، نشير إليها هنا:

الأول: ألا يدخل التأويل فيها، بل تجري على ظاهرها ولا يؤول شيء منها، وهذا قول المشبهة.

الثاني: أن لها تأويلا، ولكنَّا نمسك عنه، مع تنزيه اعتقادنا عن التشبيه والتعطيل، بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٧]. قال ابن بَرهان: وهذا قول السلف. قال الشوكاني: وكفى بالسلف الصالح قدوة لمن أراد الاقتداء، وأسوة لمن أحب التأسي.

الثالث: أنها مؤولة.

قال ابن بَرهان: والأول من هذه المذاهب باطل. والآخران منقولان عن الصحابة، ونقل المذهب الثالث عن علي وابن مسعود وابن عباس وأم سلمة.

ونقل الشوكاني عن إمام الحرمين والغزالي والرازي ما يفيد عودتهم إلى مذهب السلف ثم قال: «وهؤلاء الثلاثة هم الذين وسَّعوا دائرة التأويل وطوَّلوا ذيوله قد رجعوا آخرا إلى مذهب السلف كما عرفت، فلله الحمد كما هو أهل له».

وحكى الزركشي عن ابن دقيق العيد أنه قال: «ونقول في الألفاظ المشْكلة: إنها حق وصدق، وعلى الوجه الذي أراده الله. ومن أوَّل شيئا منها فإن كان تأويله قريبا على ما يقتضيه لسان العرب، وتفهمه في مخاطباتها، لم ننكر عليه ولم نبدِّعه. وإن كان تأويله بعيدا توقفنا عنه واستبعدناه، ورجعنا إلى القاعدة في الإيمان بمعناه مع التنزيه».

وقد تقدَّمه إلى مثل هذا ابن عبد السلام.

قال الشوكاني: والكلام في هذا يطول، لما فيه من كثرة النقول، عن الأئمة الفحول[1].

لجوء علماء المسلمين كافة إلى التأويل:

ولا توجد مدرسة من المدارس الإسلامية - في الكلام أو الفقه أو الأثر أو التصوف - إلا لجأت إلى التأويل، وإن تفاوتوا في ذلك تفاوتا كثيرا، منهم مَن وسَّع، ومنهم من ضيَّق. منهم من قرب في تأويله، ومنهم من بعد، حتى خرج عن العقل والشرع.

والمهم أن التأويل لابد منه، فقد يوجبه العقل، وقد يوجبه الشرع، وقد توجبه اللغة، ومَن رفض ذلك شرد عن الصواب، وسقط في هوة الخطإ، كما فعل الظاهرية.

وأكثر ما يلجأ العلماء للتأويل، لتنسجم النصوص بعضها مع بعض، ولا يضرب بعضها بعضا. ومن هنا أوَّلوا قوله عليه الصلاة والسلام: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[2]، وقوله: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[3]، بأن المراد بالكفر هنا: الكفر الأصغر، كفر النعمة أو كفر المعصية، لا الكفر الأكبر المخرج من الملة، وإنما سمي كفرا، لما فيه من التشبيه بكفار الجاهلية الذين كانوا يقاتل بعضهم بعضا، ويضرب بعضهم وجوه بعض.

وسبب هذا التأويل: أن القرآن أثبت الإيمان للمقتتلين من المسلمين، وأبقى عليهم وصف

---

(١) انظر: إرشاد الفحول ص ١٧٦، ١٧٧.

(٢) متفق عليه عن جرير، وعن ابن عمر: اللؤلؤ والمرجان (٤٤، ٤٥).

(٣) متفق عليه عن ابن مسعود: نفسه (٤٣).

الأخـوة الإيمانيـة، وأوجب الصلح بينهم، فقـال: ﴿ وَإِن طَائِفَتَـانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ . . . إلى أن قـال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

ومثل ذلك: تأويل «الإيمان» في بعض النصوص بـ (الإيمان الكامل)، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .... ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] فالمراد بالمؤمنين في الآية الكاملو الإيمان ولذا قال: ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾. وكذلك قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣].

وقـوله تعـالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

ونحو ذلك قـوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[١].

وقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢].

وقـوله: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن . . من لا يأمن جـاره بوائقـه»[٣]. فـقـد أولهـا العلماء بأن الإيمان المنفي هنا: هو الإيمان الكامل، لا أصل الإيمان. كما يقال: لا مال إلا ما نفع، ولا علم إلا ما أدَّى إلى العمل، والمراد نفي الكمال.

وإنما أوَّلَ العلماء ذلك، لأن ثمة نصوصا أخرى وافرة، دلت على إيمان أهل المعصية، وأن مرتكب المعصية - ولو كانت كبيرة - لم يخرج من دائرة الإيمان.

وذلك مثل النصوص التي بينت أن مَن مات على (لا إله إلا الله)[٤] دخل الجنة.

وقـوله ﷺ لمن لعن الذي شرب الخمر من الصحابة وضرب أكثر من مرة: «لا تلعنه، فإنه يحـب الـله ورسـوله»[٥]، أو «لا تكونـوا عـونا للشيطـان على أخيـكم»[٦].

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة: نفسه (٢٦). (٢) متفق عليه عن أنس: نفسه (٢٨).

(٣) رواه البخاري عن أبي شريح، كتاب الأدب ج ١٠ رقم ٦٠١٦.

(٤) متفق عليه عن أبي ذر، كما في اللؤلؤ والمرجان رقم ٦٠.

(٥) رواه البخاري عن عمر بن الخطاب، كتاب الحدود ج ١٢ رقم ٦٧٨٠.

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة، كتاب الحدود ج ١٢ رقم ٦٧٨١.

فـدل على أن أخوته باقية رغم معصيته، وأن حب الله ورسوله مستقر في قلبه، وإن زلت قدمه إلى الوقوع في أم الخبائث.

وكـذلك لو كـان بالزنا والشرب والسرقة يكفر ويخرج من الإيمان، لكانت عـقـوبته عقوبة الردة، وهي عقوبة واحدة، فلا معنى لأن يُعاقَب الزاني والشارب بالجلد، والسارق بالقطع.

حتى ابن حزم لجأ إلى التأويل:

والإمـام أبو محـمـد ابن حزم أشـد الناس تمسكا بالظواهر، وأبعدهم عـن التأويـل، تبعـا للمدرسة التي آمن بها، وعـاش حياته محاميا عنهـا، وهي المدرسة الظاهرية، ومع هذا وجدناه يلوذ بالتأويل في بعض الأحيان، حين لا يجد منه بُدًّا.

فقد ذكر في (المحلَّى) حديث: «سيحان وجيحان، والنيل والفرات، كل من أنهار الجنة»، وحديث: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»، وهما صحيحان ثابتان.

ثم قال ابن حزم: هذان الحديثان ليس على ما يظنه أهل الجهل من أن الروضة مقتطعة من الجنة! وأن هذه الأنهار مهبطة من الجنة! هذا باطل وكذب.

ثم ذكر ابن حزم أن معنى كـون الروضة من الجنة إنما هو لفضلها، وأن الصلاة فيها تؤدي إلى الجنة، وأن تلك الأنهار لبركتها أضيفت إلى الجنة، كما تقول في اليوم الطيب: هذا من أيام الجنة، وكما قيل في الضأن: «إنها من دواب الجنة». وكما قال عليه السلام: «الجنة تحت ظلال السيوف». ومثل ذلك حديث: «الحجر الأسود من الجنة».

ثم حمل ابن حزم بشدة على من حملوا هذه الأخبار على ظاهرها، قائلا: قد صح البرهان من القرآن، ومن ضرورة الحس على أنها ليست على ظاهرها (أ هـ) (١).

وهكذا وصل التأويل إلى المدرسة الظاهرية، التي تتمسك بظواهر النصوص إلى حد الجمود في بعض الأحيان. ولكنها أولت حين لم تجد من التأويل بدا.

المدرسة الحنبلية والتأويل:

والمدرسة الحنبلية من أشد المدارس - أو لعلها أشدها - حربا على التأويل، وخصوصا في جانب العقيدة، إلى حد جعل ابن تيمية وتلاميذه ينكرون وجود المجاز في القرآن والسنَّة

(١) انظر المحلَّى: ٧/ ٣٣٠، ٣٣١ مسألة (٩١٩)، وانظر: كتابنا (كيف نتعامل مع السنَّة) ص١٦٦، ١٦٧.

واللغة عموما. ويرون فتح ذلك الباب ذريعة إلى الضلال والفساد، ودخول الزنادقة والباطنية وكل عدو للإسلام من خلاله.

ومع هذا اضطروا أن يطرقوا باب التأويل في بعض النصوص.

وقد حكى الإمام الغزالي في (فيصل التفرقة): أن الإمام أحمد بن حنبل ـ وهو أبعد الناس عن التأويل ـ لجأ إليه في بعض الأحاديث، كما نقل إليه ذلك بعض الحنابلة المعاصرين له في بغداد.

وهذه الأحاديث هي:

«الحجر الأسود يمين الله في الأرض» (1).

«القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن»(2).

«إني لأجد نفس الرحمن من جهة اليمن» (3).

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه المقولة، فرمى هذه الرواية بالبطلان، وقال: إنها كذب على الإمام أحمد، ولا يعرف ذلك عنه، وناقل ذلك للغزالي مجهول، لا يعرف علمه بما قال، ولا صدقه فيما قال.

ومع هذا سُئل ابن تيمية عن الحديثين الأول والثالث، فقال:

«أما الحديث الأول: فقد روي عن النبي ﷺ بإسناد لا يثبت. والمشهور إنما هو عن ابن عباس. قال: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبله، فكأنما صافح الله وقبل يمينه».

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عمر من طريق عبد الله بن المؤمل، ضمن حديث بلفظ: «وهو يمين الله التي يصافح بها خلقه». وصححه الحاكم. وقال الذهبي: ابن المؤمل واه (1 / 457). ورواه الخطيب وابن عساكر عن جابر، كما في ضعيف الجامع الصغير باللفظ المذكور، بزيادة: «يصافح بها عباده» الحديث «2771».

(2) رواه مسلم في القدر عن ابن عمر، بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين ....». مختصر صحيح مسلم للمنذري (1851)، ورواه أحمد والترمذي والحاكم عن أنس، كما في صحيح الجامع الصغير«1685».

(3) رواه أحمد عن أبي هريرة في حديث قال فيه: «وأجد نفس ربكم من قبل اليمن»: (2 / 541)، وأورده الهيثمي في المجمع (10 / 55، 56)، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير شبيب وهو ثقة. وقال العراقي في تخريج الإحياء: رجاله ثقات (1 / 104).

ومن تدبر اللفظ المنقول تبين له أنه لا إشكال فيه إلا على من لم يتدبره. فإنه قال: «يمين الله في الأرض». فقيده بقوله: (في الأرض) ولم يطلق: (يمين الله). وحكم اللفظ المقيد يخالف حكم اللفظ المطلق.

ثم قال: «فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه». ومعلوم أن المشبه غير المشبه به. وهذا صريح في أن المصافح لم يصافح يمين الله أصلا. ولكن شبه بمن يصافح الله. فأول الحديث وآخره يبين أن الحجر ليس من صفات الله، كما هو معلوم عند كل عاقل. ولكن يبين أن الله تعالى كما جعل للناس بيتا يطوفون به، جعل لهم ما يستلمونه، ليكون ذلك بمنزلة تقبيل يد العظماء، فإن ذلك تقريب للمقبِّل، وتكريم له، كما جرت العادة.

وأما الحديث الثاني: «إني أجد نفس الرحمن من جهة اليمن» فقوله: (من اليمن) يبيِّن مقصود الحديث، فإنه ليس لليمن اختصاص بصفات الله تعالى، حتى يُظن ذلك، ولكن منها جاء الذين (يحبهم ويحبونه) الذين قال فيهم: ﴿**مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية سئل عن هؤلاء، فذكر أنهم قوم أبي موسى الأشعري. وجاءت الأحاديث الصحيحة: «أتاكم أهل اليمن، أرق قلوبا، وألين أفئدة. الإيمان يمان والحكمة يمانية»، وهؤلاء هم الذين قاتلوا أهل الردة، وفتحوا الأمصار، فبهم نفَّس الرحمن عن المؤمنين الكربات . . . »[(١)].

ومن تأمل كلام شيخ الإسلام، وكان منصفا، وجد في توجيهه للحديثين قدرا من التأويل، وضربا من التجوز. وما ذكره من لفظة (في الأرض) في الحديث الأول، أو لفظة (من اليمن) في الحديث الثاني هو ما يسميه علماء البلاغة (القرينة) في المجاز، التي تدل على أن اللفظ أريد به غير ما وضع له في الأصل.

ونحو ذلك حديثه عن معية الله تعالى لعباده، العامة والخاصة، وعن قرب الرب من عبده، فيه شيء مما ذكرنا من التأويل[(٢)]، وإن لم يسمه كذلك. ولكنه تأويل قريب وصحيح ومقبول بلا ريب، وهو ما يحتاج إليه كل عالم في بعض الأحيان. ولكن المحظور هو التوسع، الذي سقط فيه من سقط من الأفراد والفرق.

وقد نقل العلامة جمال الدين القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) عن ابن تيمية في

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٦/ ٣٩٧، ٣٩٨.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٥/ ١٠٣، ١٠٤ و ٢٤٢، ٢٤٣.

بعض فتاواه قوله: «نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل، ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منا أنّا لا نقول بالمجاز والتأويل. والله عند كل لسان. ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب إلى هدم السنّة والكتاب، واللحاق بمحرِّفة أهل الكتاب»[1].

وهذا هو اللائق بإمام مثل ابن تيمية الذي جمع بين النقل والعقل، ووسع علمه تراث السلف ومعارف الخلف، وتهيأ له من أدوات المعرفة ما لم يتهيأ لغيره إلا مَنْ منَّ الله عليه بفضله، وقليل ما هم.

على أن هناك من أعلام الحنابلة أنفسهم مَن خرج عن خط الحنابلة المتشددين، وخاض في لجج التأويل، وأنكر على من عزا إلى الإمام أحمد أنه يرفض التأويل بإطلاق.

ومن هؤلاء الأعلام: العلامة الموسوعي الإمام أبو الوفاء ابن عقيل، صاحب كتاب (الفنون) وغيره (ت ٥١٣ هـ). ذكروا أن كتابه (الفنون) يزيد على أربعمائة مجلد.

ومنهم: الإمام أبو الحسن بن الزاغوني (ت ٥٢٧ هـ) وصفوه بأنه كان متفننا في الأصول والفروع والحديث والوعظ.

ومنهم الإمام الموسوعي أبو الفرج ابن الجوزي صاحب التصانيف الممتعة المتنوعة (ت٥٩٧هـ)، ومنها كتاب (دفع شُبه التشبيه).

وكل هؤلاء قبل ابن تيمية وتلاميذه.

وأنا أرجِّح رأي السلف - وهو ترك الخوض في لجج التأويل، مع تأكيد التنزيه - فيما يتعلق بشئون الألوهية وعوالم الغيب والآخرة، فهو المنهج الأسلم، إلا ما أوجبته ضرورة الشرع أو العقل أو الحس، في إطار ما تحتمله الألفاظ.

وفيما عدا ذلك، فلا مانع من التأويل بشروطه وضوابطه، إذا كان موجب للتأويل.

ومع ترجيحي رأي السلف في ترك التأويل في أمور الألوهية والغيب، لا أضلل المؤولين من كبار علماء الأمة، لا أكفرهم ولا أفسقهم، لأنهم قصدوا بتأويلهم الدفاع عن أصول الدين في مواجهة أعدائه، ولأن تأويلهم في إطار ما تحتمله لغة العرب.

تأويل النصوص البيِّنات مذهب الباطنية:

أما تأويل النصوص البيِّنات المحكمات، بحملها على معان باطنة غير ما يُفهم من

(١) انظر: محاسن التأويل: ١٧ / ٦١٥٦.

ظاهرها، فهذا هو الإلحاد في آيات الله تعالى، الذي توعَّد الله عليه، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت: ٤٠].

والمراد بالإلحاد هنا: الميل بها عن المقصود منها.

وهذا مدخل واسع للهدَّامين الذين أرادوا الكيد للإسلام وأمته بدعوى أن لكل ظاهر باطنًا هو المقصود. والظاهر هو القشر، والباطن هو اللب. وهو ما زعمته (المدرسة الباطنية) بكل فئاتها، ومختلف أسمائها، من قرمطية وإسماعيلية ونصيرية ودرزية.

ولو صدق هؤلاء لأعلنوا أن لهم دينًا مغايرًا تمامًا لدين الإسلام، ولا صلة له بقرآن ولا حديث، بل مغايرًا للأديان السماوية كلها، بل الواقع أنهم لا دين لهم، فحاصل مذهبهم وزبدته - كما قال الإمام الغزالي - طيّ بساط التكليف، وحطّ أعباء الشرع عن المتعبدين، وتسليط الناس على اتباع اللذات، وطلب الشهوات، وقضاء الوطر من المباحات والمحرمات[1]! فهم امتداد للمزدكية المجوسية الفارسية الإباحية، إنما تمسحوا بالدين ليهدموه باسم الدين، وتعلقوا بالإسلام ليضربوه من داخله.

ولما كان القرآن محفوظًا من كل تغيير وتبديل في ألفاظه، فلا يمكنهم الزيادة فيه أو النقص منه، لم يجدوا حيلة أمامهم إلا هذا التأويل المفترَى، وهذا الادعاء ببواطن خفية، يقولون فيها ما يشاءون، دون ضابط من لغة أو عقل أو شرع.

من تأويلات الباطنية والزنادقة:

وقد عقد الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه (فضائح الباطنية) فصلاً في تأويلاتهم للظواهر، ذكر فيه نماذج عجيبة، تعد أغرب من الخيال. قال:

«والقول الوجيز فيه أنهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنَّة، صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها، واستفادوا - بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ - إبطال معاني الشرع. وبما زخرفوه من التأويلات: تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة، وأنهم لو صرَّحوا بالنفي المحض والتكذيب المجرَّد لم يحظوا بموالاة الموالين، وكانوا أول المقصودين المقتولين.

(١) انظر: فضائح الباطنية لأبي حامد الغزالي بتحقيق عبد الرحمن بدوي ص ١٤. نشر مؤسسة دار الكتب الثقافية بالكويت.

«ونحن نحكي من تأويلاتهم نبذة لنستدل بها على مخازيهم. فقد قالوا: كل ما ورد من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية، فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن. أما الشرعيات: فمعنى الجنابة عندهم: مبادرة المستجيب بإفشاء سرّ إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه، ومعنى الغُسل: تجديد العهد على مَن فعل ذلك.

والزنا: هو إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس مَن لم يسبق معه عقد العهد.

والاحتلام: هو أن يسبق لسانه إلى إفشاء السر في غير محله، فعليه الغُسل أي تجديد المعاهدة.

الطهور: هو التبري والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الإمام.

الصيام: هو الإمساك عن كشف السر.

الكعبة: هي النبي، والباب عليّ.

الصفا: هو النبي، والمروة: عليّ، والميقات: هو الأساس، والتلبية: إجابة الداعي.

وكذلك زعموا أن المحرَّمات: عبارة عن ذوي الشرّ من الرجال وقد تُعُبدنا باجتنابهم، كما أن العبادات: عبارة عن الأخيار الأبرار الذين أمِرْنا باتباعهم.

فأما المعاد، فزعم بعضهم أن النار والأغلال: عبارة عن الأوامر التي هي التكاليف، فإنها موظَّفة على الجُهال بعلم الباطن، فما داموا مستمرِّين عليها فهم معذَّبون: فإذا نالوا علم الباطن وُضِعت عنهم أغلال التكاليف، وسعدوا بالخلاص عنها.

أما المعجزات فقد أولوا جميعها، وقالوا: الطوفان معناه: طوفان العلم، أُغرق به المتمسكون بالسنَّة، والسفينة: حرْزُه الذي تحصن به مَن استجاب لدعوته، ونار إبراهيم: عبارة عن غضب نمرود، لا عن النار الحقيقية.

عصا موسى: حُجَّته التي تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبَه، لا الخشب.

انفلاق البحر: افتراق علم موسى فيهم على أقسام، والبحر هو العلم.

والغمام الذي أظلهم: معناه الإمام الذي نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم.

الجراد والقمل والضفادع: هي سؤالات موسى وإلزاماته التي سُلِّطت عليهم.

والمن والسلوى: علمٌ نزل من السماء لداع من الدعاة.

تسبيح الجبال: معناه تسبيح رجال شداد في الدين راسخين في اليقين.

الجن الذين ملكهم سليمان بن داود: باطنية ذلك الزمان، والشياطين هم الظاهرية الذين كُلِّفوا بالأعمال الشاقة.

إحياء الموتى من عيسى: معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن.

وإبراؤه الأعمى والأبرصَ: معناه عن عمى الضلال وبَرص الكفر ببصيرة الحق المبين.

إبليس وآدم: عبارة عن أبي بكر وعليّ! إذ أمر أبو بكر بالسجود لعليّ، والطاعة له، فأبى واستكبر.

الدّجال: زعموا أنه أبو بكر، وكان أعور، إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن.

ويأجوج ومأجوج: هم أهل الظاهر!!

هذا من هذيانهم في التأويلات، حكيناها ليُضحَك منها، ونعوذ بالله من صرعة الغافل وكبوة الجاهل»[1].

وقد سلك الإمام الغزالي مسالك ثلاثة في الرد عليهم: مسلك الإبطال لدعاويهم، ومسلك المعارضة بالمثل، ومسلك التحقيق.

ولستُ في حاجة إلى نقل ما ذكره هنا، لوضوح بطلان ما قاله هؤلاء الزنادقة، فإن اللغة أساس التفاهم بين الناس، فإذا لم تكن لألفاظها وتراكيبها دلالات مُعيَّنة، يفهم بها الناس بعضهم عن بعض في أمور دينهم ودنياهم، أصبح من حق كل امرئ أن يفسر ما شاء بما شاء. وهذا خارج عن حدود العقل.

والغريب أن هؤلاء يستدلون أحيانا لباطن مذاهبهم ـ أو باطل مذاهبهم ـ بظاهر بعض النصوص، مثل: «إن لكل لفظ ظهرا وبطنا» ولو صح هذا سندا ـ وما هو بصحيح ـ كيف أبقوا هذا النص وحده على ظاهره، وما يدرينا أن اللفظ والظهر والبطن لها معان أخر غير المعاني المفهومة منها عند الناس ؟!

إن بحسبنا أن نذكر أقوال هؤلاء، ليُعرَف بطلانها، بل ليُضحَك منها ـ كما قال الغزالي ـ فهي تحمل دليل فسادها فيها، إنما أردنا أن يُعرف من أقوالهم مصادر الباطنية اللاحقين والمُحْدثين.

---

(١) انظر: فضائح الباطنية للإمام الغزالي ص ٥٥ ـ ٥٨ بتحقيق عبد الرحمن بدوي.

تأويلات بعض فرق الشيعة:

ومن فرق الشيعة مَن غلا في دينه ومذهبه، ونحا نحو أولئك الباطنية المارقين في التحريف وسوء التأويل، حتى فسروا القرآن بأنواع لا يقضي منها العالم عجبه! كقول بعضهم في تفسير: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] هما أبو بكر وعمر.

وفي قوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] أي: أشركت بين أبي بكر وعمر، وعليّ، في الخلافة!

وفي قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة: ٦٧] (١): هي عائشة!

﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٢]: طلحة والزبير.

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩]: هما على وفاطمة (٢)!

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢]: الحسن والحسين (٣).

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]: في علي بن أبي طالب.

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [النبأ: ١، ٢]: علي بن أبي طالب (٤).

والمعتدلون من الشيعة يرفضون هذه التحريفات أو التخريفات!

تأويلات غلاة الصوفية:

وللصوفية تأويلات في القرآن الكريم والحديث الشريف، تنزع إلى تجاوز الظواهر، للوصول إلى معان باطنة، فمنهم من يعتبرها من باب (الإشارات) الرامزة لتلك المعاني بالمجاز أو التمثيل أو الإلحاق، ومنهم من يعتبرها هي المقصودة من النص.

---

(١) والخطاب من موسى لقومه!

(٢) نقل ذلك الطبرسي في مجمع البيان رواية عن بعض السلف، ووجهها بأن كلا منهما كان بحرا في العلم والإيمان.

(٣) وجهه بعضهم بأن الحسن مات مسموما والحسين مات مقتولا (والقتل يعني إراقة الدم الأحمر كالمرجان)! رضي الله عنهما.

(٤) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية. تحقيق: د. عدنان زرزور. ط. دار القرآن الكريم.

والنزعة الأخيرة ليست إلا ضربا من تفسير الباطنية الذين خرجوا عن الشريعة، بل هم لم يدخلوا فيها أصلا، حتى يخرجوا منها ! فمن نسج على منوالهم فهو منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١].

أما النزعة الأولى، فللعلماء فيها مواقف:

منهم مَن يقرها ويعتبرها رموزا وإشارات. وليست تفسيرا. بل ربما يراها بعضهم من كمال الإيمان، وتمام العرفان.

ومنهم من يرى أن الشريعة في غنًى عنها، وأن السلَف من الصحابة والتابعين لم يصح عنهم شيء من هذا، وكل خير في اتباَع مَن سلَف، وكل شر في ابتداع مَن خلَف.

قال الإمام تقي الدين بن الصلاح في (فتاويه):

«وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحديّ أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السُّلمِي (حقائق التفسير)(١)، فإن كان قد اعتقد ذلك تفسيرا فقد كفر».

قال ابن الصلاح: «وأنا أقول: الظن بمن يوثَق به منهم، إذا قال شيئا من ذلك أنه لم يذكره تفسيرا، ولا ذهب به مذهبَ الشرح للكلمة، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن: فإن النظير يُذكر بالنظير، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإيهام والإلباس !

وقال النسفيّ في عقائده: النصوص على ظاهرها، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد.

قال التفتازاني في شرحه: سُمِّيت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها، بل لها معان باطنية لا يعرفها إلا المعلِّم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية.

قال: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان، ومحض العرفان» (٢).

---

(١) رأي بعض إخواننا نسخة مخطوطة من هذا الكتاب، وقال: الأولى أن يسمى (أباطيل التفسير) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، وتعليق محققه: د. عدنان زرزور ص ٩٢.

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي: ٤/ ١٩٤، ١٩٥.

ولكن بعض الصوفية بالغوا، حتى قال بعضهم: لكل آية ستون ألف فهم!

واعتمدوا على بعض الأحاديث والآثار الواردة في ذلك، مثل ما ورد مرفوعا: «إن للقرآن ظهرا وبطنا، وحدًا ومطلعا»، ولم تثبت صحته.

وقال ابن عباس: إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تُبلغ غايته.

ولكن هذا ـ إن صح ـ لا يدل على ما ادَّعاه أولئك الغلاة. فقد قال ابن عباس في الأثر نفسه: «فظهره التلاوة، وبطنه التأويل».

وهذا يعني الغوص وتعميق النظر لاستخراج جواهر القرآن، فهو لا تنقضي عجائبه حقا. كما لمسنا ذلك في عصرنا، حيث يجد كل متخصص إذا تعمق فيه ما لا يجد غيره من الكنوز.

ولذا تحفَّظ الإمام أبو بكر ابن العربي في كتابه (العواصم من القواصم) على تلك التأويلات الصوفية التي سماها «قدحات الخواطر، ولمحات النواظر».

فقد تحدث في إحدى (القواصم) عن طائفة من هؤلاء الذين سماهم أصحاب الإشارات جاءوا بألفاظ الشريعة من بابها، وأقروها على نصابها، لكنهم زعموا أن وراءها معاني غامضة خفية، وقعت الإشارة إليها من هذه الألفاظ. وبيَّن خطأهم في إحدى (العواصم).

فقد ذكر تأويلهم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤]، وقولهم: «إن الله نبه بذلك على أنه لا أظلم ممن خرب أركان الإيمان بالشبهات. وهي قلوب المؤمنين، وعمرها بالأماني، وشحنها بمحبة الدنيا، وفرغها من محبة الله تعالى».

ورد ابن العربي ذلك بأن المراد بالمساجد في الآية: ذوات المساحات المتخذة للصلوات، وقلوب المؤمنين معروف حالها، مبيَّنة بأكثر من هذا البيان في مواضعها، ولا يُحتاج إلى ذلك فيها، ولا يدل اللفظ عليها.

وكذلك قولهم في الآية: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢] إشارة إلى خلع الدنيا والآخرة من قلبه.

وفي الآية: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠]. أي: لا يكون لك معتمد ومستند غيري.

قال ابن العربي: «وهذه إشارة بعيدة، أو قل معدومة، فإنها إلى غير مُشار. وما أُمر موسى

بطرح النعل إلا لأحد وجهين: إما لأنهما كانا من جلد غير مذكّى، أو لئلا يطأ الأرض المقدسة بنعلٍ تكرمة لها، كما لا يدخل الكعبة بها . . .

وأما إلقاء العصا، فقد بيّن الله تعالى الفائدة فيه. ومَن يعتمد على العصا من طول القيام، أيقال له: إنه على غير الله يعتمد؟ هذه خرافة! فدع عنك نهبا صيح في حجراته، وعوّل على كتاب الله ومعلوماته».

ومثل ذلك قولهم في حديث: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب» بأن فيه إشارة إلى تطهير القلوب من الحسد والحقد والغضب والبخل والخديعة والمكر وسائر الصفات الذميمة. فإن منزلتها في القلب منزلة الكلاب من البيت. قالوا: ونحن نقر الحديث على ظاهره، ولكنا نلحق به المعنى الآخر على سبيل الإشارة.

وبين ابن العربي أن هذا معنى فاسد من وجهين:

أحدهما: أنه يكاد يقطع بأن هذا لم يكن مقصودا للنبي ﷺ.

والثاني: أنَّا وجدنا التصريح بتطهير القلوب من هذه الصفات الذميمة كلها منصوصًا عليه. فما الذي يحوجنا إلى أن نأخذه على بُعد من لفظ آخر . . . هذا من الفن الذي لا يُحتاج إليه. وإنما هو احتكاك الأغراض الفلسفية، وهي عن منهج الشريعة قصية[1].

قال السيوطي:

والذي حرره هنا هذا الإمام: أن الصريح عام في الدين، به جاء البرهان، وعليه دار البيان، فلا يجوز أن يعدل بلفظ عن صريح معناه إلى سواه، فإن ذلك تعطيل للبيان، وقلب له إلى إشكال.

ونقل السيوطي عن ابن عطاء الله السكندري في كتابه (لطائف المنن) أنه قال: «اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له، ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه. وقد جاء في الحديث: «لكل آية ظهر وبطن» فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله

---

(١) انظر: كلام ابن العربي في العواصم ص ٢٦١ - ٢٨٠، تحقيق عمار الطالبي - طبعة الشركة الوطنية بالجزائر.

وكلام رسوله، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم» ا. هـ[1].

ورأيي أن يقبل من هذه الإشارات ما كان قريبا غير بعيد، مقبولا غير متكلف، وكان في دائرة الشريعة وأحكامها، ولم يكن في الظاهر ما يغني عنه مما هو أنصع بيانا، وأوضح برهانا.

ومنه ما يكون من باب التعليق على النص بإشارة دامغة، أو حكمة بالغة. مثل قول التُّسْتري تعليقا على آية: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]: عجل كل إنسان: ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل وولد[2].

أما تكلفات بعض المفسرين في أن يكون لجميع آيات القرآن إشارات باطنية ـ كما نرى ذلك في (روح المعاني) للآلوسي وغيره ـ فلا أراها مجدية ولا مقبولة.

إسراف المدارس العقلية في التأويل:

وإذا كانت (المدرسة الروحية) أو (الصوفية) قد سقطت أو سقط غلاتها في سوء التأويل للقرآن، فمثلها المدرسة أو (المدارس العقلية). ومن نظر إلى (المدارس العقلية) في تاريخ الفكر الإسلامي، يجد أن أصحابها ذهبوا بعيدا في تأويلاتهم الجائرة للنصوص أو ـ على الأقل ـ المتكلفة لها، فقد انتهي بهم هذا الشطح إلى أودية بعيدة، بل إلى مفاوز مهلكة، انطمس فيها السبيل، وعُدِم الدليل.

المدرسة الفلسفية:

أبرز المدارس العقلية: مدرسة الفلاسفة، وخصوصا المشَّائيِّين منهم (أتباع أرسطو). لقد كان أكبر همهم التوفيق بين الفلسفة التي أعجبوا بها، والدين الذي ورثوه ودانوا به، ولكنهم جعلوا الفلسفة هي الأصل، والدين هو الفرع، واعتبروا قول (أرسطو) هو الذي يُحتكم إليه، ويُعوَّل عليه، وقول الله تعالى، وقول رسوله الكريم، تابعين له: إن وافقاه، فبها ونعمت، وإلا وجب تأويلهما، قرب هذا التأويل أم بعد.

---

(١) الإتقان: ٤/ ١٩٧، ١٩٨.
(٢) انظر: الاتجاهات السنِّيَّة والمعتزلية في تأويل القرآن ـ للدكتور التهامي نقرة.

لقد أسرفوا في التأويل. فأدخلوه في كل مجالات العقيدة: الإلهيات والنبوات والسمعيات.

فالله عندهم ليس هو الإله المعروف عند المسلمين بأسمائه وصفاته المذكورة في القرآن، ليس هو الخالق لكل شيء، العليم بكل شيء، القدير على كل شيء، المدبر لكل أمر، الرازق لكل حي.

والنبي ليس هو الذي يكلمه الله تعالى وحيا، أو من وراء حجاب، أو يُرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء، كما هو ثابت معلوم عند جميع المسلمين.

والمعاد ليس كما يؤمن به المسلمون: بعثا للأجساد، وخروجا من الأجداث، في يوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين، فتنصب الموازين، وتنشر الدواوين، ويسأل الناس عما كانوا يعملون، ويُجزى قوم بدخول الجنة بما فيها من نعيم روحي ومادي، وآخرون بالنار، وما فيها من عذاب حسي ومعنوي.

الله عند الفلاسفة لم يخلق العالم، وهو لا يعلم بما يجري فيه من جزئيات وتفاصيل، فلا يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها.

والنبي ليس بشرا يُوحَى إليه من الله بوساطة مَلَك ينزل عليه.

والبعث ليس ماديا ولا جسميا. وليس هناك جنة ولا نار بالمعنى الذي عرفناه من القرآن والحديث.

هذه عقيدة القوم كوّنوها لأنفسهم من خارج الإسلام، ثم أرادوا أن يحملوا الإسلام عليها، وأن يجرُّوا القرآن جرّاً ليبرر لهم هذا الضلال المبين.

ولا ريب أن القرآن من أوله إلى آخره يُبطل ما قالوه في العقائد، ويُضاده مضادة صريحة، وهم يعلمون هذا ويقولون: «إن الشرائع واردة لخطاب الجمهور بما يفهمون، مقرِّبة ما لا يفهمون إلى أفهامهم بالتشبيه والتمثيل، ولو كان غير ذلك ما أغنت الشرائع البتة»! (١).

ومعنى هذا: أن الأنبياء يكذبون على الناس، ويقولون لهم غير الحق، ولكن لمصلحتهم، لأنهم - لغلظ طباعهم، وتعلق أوهامهم بالمحسوسات الصرفة - لا يقدرون على إدراك الحقيقة المجردة! والغاية - في نظر هؤلاء - تبرر الوسيلة!

وقد رد الإمام أبو حامد الغزالي على الفلاسفة، بعد أن درس فلسفتهم وهضمها وألف في ذلك كتابه (مقاصد الفلاسفة) الذي لخص فيه مقولات الفلسفة تلخيصا ربما لا يقدر عليه

---

(١) انظر: الرسالة الأضحوية في المعاد لابن سينا بتحقيق د. سليمان دنيا.

الفلاسفة أنفسهم. ثم كر عليها بالنقض والإبطال، في كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) [1]، وخطَّأهم في سبع عشرة مسألة، وكفَّرهم في ثلاث مسائل شهيرة: قولهم بقدم العالم وأن الله لم يخلقه من عدم، وقولهم بأن الله لا يعلم الجزئيات والحوادث الواقعة في هذا الكون، وقولهم بأن البعث روحاني، لا جسماني، فالأجسام بعد أن تفنى لا تحيا ولا تبعث مرة أخرى، لتنعم أو تعذب.

وقد حاول الفيلسوف ابن رشد (ت: ٥٩٠ هـ) أن يدافع عن الفلاسفة، ويرد على الغزالي في كتابه (تهافت التهافت) [2]. ولكن الحقيقة المرة أن الفلاسفة استقوا عقيدتهم هذه من خارج المصادر الإسلامية. ولهذا لم يسلم لابن رشد كثير من دفاعاته، رغم مهارته وخبرته بالشرعيات والعقليات.

تأويلات الفرق الكلامية:

وما سقط فيه الفلاسفة وقعت فيه الفرق الكلامية بأقدار متفاوتة.

تأويلات المرجئة:

من ذلك تأويلات الفرقة المعروفة باسم (المرجئة) - من الإرجاء، وهو التأخير - لأنهم يؤخرون العمل والسلوك عن الاعتقاد والإيمان، ويعتبرون مجرد الاعتقاد كافيا لنجاة الإنسان.

قالت المرجئة: من أقر بالشهادتين، وأتى بكل المعاصي فهو ناج، ولا يدخل النار أصلا! بناء على مذهبهم: أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع من الكفر طاعة. وخالفوا في ذلك الآيات التي توعدت أهل المعاصي بالنار: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠].

---

(١) انظر: تهافت الفلاسفة للغزالي، وأيضا: المنقذ من الضلال بتعليق د. عبد الحليم محمود ص ١٤٤ - ١٥٠. طبعة دار الكتب الحديثة. وانظر أيضا: دراسات في الفلسفة العربية الإسلامية لعبده الشمالي: ٥٢٦ - ٥٣٢ تحت عنوان: الغزالي والفلسفة المدرسية، طبعة دار صادر بيروت. وكذلك كتاب (ابن سينا بين الدين والفلسفة) للدكتور حمودة غرابة.

(٢) انظر: نموذجا من دفاعات ابن رشد في حاشية (المنقذ من الضلال) المذكور ص ١٥٠ - ١٥٥.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] .

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] .

وخالفوا أيضا الأحاديث الصحاح التي جاءت في وعيد العصاة ، وهي كثيرة غزيرة .

وكذلك الأحاديث التي وردت في إخراج الموحدين - ممن في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان - من النار ، وهي كثيرة .

قال العلامة أبو الوفاء ابن عقيل :

«وما أشبه أن يكون واضع الإرجاء زنديقا ! فإن صلاح العالم بإثبات الوعيد ، واعتقاد الجزاء . فالمرجئة لما لم يمكنهم جحد الصانع (سبحانه وتعالى) لما فيه من نفور الناس ، ومخالفة العقل ، أسقطوا فائدة الإثبات ، وهي الخشية والمراقبة ، وهدموا سياسة الشرع ، فهم شر طائفة على الإسلام» [1] .

والمراد بهؤلاء : غلاة المرجئة الذين اعتبروا الإنسان مؤمنا وإن لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام !!

فإن هناك نوعا من الإرجاء قال به بعض أكابر المسلمين . وليس هو المقصود هنا .

تأويلات الجبرية:

ومثل تأويلات ((المرجئة) تأويلات (الجبرية) الذين اعتبروا الإنسان مسيَّرا لا مخيَّرا ، وأنه لا إرادة له ولا اختيار ، وأنه كريشة في مهب الريح تحركها الأقدار كيف تشاء . ومنهم من انتهى إلى جبرية صريحة مكشوفة . ومن انتهى إلى جبرية مقنعة ، لم يغن قناعها عنها شيئا .

---

(١) نقل ذلك ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) ص ٨٤ .

اعتمد هؤلاء على آيات من كتاب الله متشابهات، مثل قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]. ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]. ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر: ٣١].

وتأولوا الآيات الصريحة التي تنسب إلى الإنسان عمله، وتحمله مسئوليته، وتجزيه عليه في الدنيا والآخرة، ثوابا وعقابا، وتحرضه على الإيمان والعمل.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢].

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٩].

والقرآن كله تحريض على الإيمان والعمل الصالح بأساليب شتى كلها تنبئ عن مسئولية الإنسان عن إيمانه وعمله، وعن اختياره لأحد النجدين.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠، ٢١].

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٩].

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ [الحديد: ٨].

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠].

والقرآن كله، مكيه ومدنيه، حافل بما ينقض مذهب الجبر ويقتلعه من جذوره.

والحق أن هذا المذهب يناقض نصوص القرآن المحكمات، ويناقض أساس الدين الذي قام على التكليف والمسئولية، وبه أنزل الله الكتب، وبعث الرسل، وقامت سوق الجنة والنار.

وقد رد عليه علماء المسلمين، ولكن شاعت أفكاره بين جماهير الأمة، فأقعدتها عن العمل، وأفقدتها حرارة الحماسة لعمارة الأرض، وإقامة الحق، ومقاومة الباطل، وأصبح المثل السائد: دع الخلق للخالق! أقام العباد، فيما أراد!

مدرسة المعتزلة والتأويل:

والمعتزلة ـ بمختلف اتجاهاتهم ـ أوّلوا في مجال (الإلهيات) في كل ما يتعلق بإثبات الصفات، وإثبات القدر، وعموم المشيئة الإلهية لكل شيء، وشمول القدرة الإلهية لكل شيء.

وأولوا في مجال (السمعيات) أكثر، فيما يتصل بالميزان، والصراط، والشفاعة، ورؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة، مما تستبعده بعض العقول، ويحيله البعض الآخر، وما هو بالمحال. وقد ذكرنا نماذج من تأويلاتهم فيما سبق [(١)].

وكل الفرق المختلفة حول العقائد: من الخوارج والشيعة والجهمية وغيرهم، جالوا في ميدان التأويل وصالوا، إذ اتخذت كل فرقة مذهبها أصلا تتمسك به، وترد كل النصوص إليه، وتؤول كل ما لا يوافقه، وإن كان التأويل بعيدا ومعتسفا.

المدرسة الأشعرية والتأويل:

والأشاعرة والماتريدية الذين كانوا يعبرون عن أهل السنّة طوال القرون الماضية، لم يسلموا من التأويل الذي أنكره عليهم غيرهم.

---

(١) انظر: ص ٢٥٨ فيما سبق تحت عنوان (قراءة المعتزلة للقرآن).

وأبرز أشعري خاض هذا الميدان هو الإمام أبو حامد الغزالي، الذي بسط القول في هذا المجال في كتابه (فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة)، ووضع للتأويل قانونا واسعا فضفاضا يسع معظم المؤوِّلين للنصوص، وإن أسرفوا وتكلفوا!

وعذر الإمام أبي حامد في هذا التوسع الزائد عن الحد الوسط: أنه كان يتحدث عن الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، أو بين الإسلام والزندقة، فهو يبحث فيما يخرج المسلم من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر. والحكم بكفر المسلم أو بردته أمر خطير، تترتب عليه أحكام جمة كبيرة، وحسبك منها: حلُّ دمه وماله عند جمهور الفقهاء، والتفرقة بينه وبين زوجه وولده، وبالجملة: الحكم عليه بالإعدام من المجتمع المسلم، أدبيا وماديا.

فإذا كان ثمة مندوحة عن الحكم بـ (التكفير) فلا مفر من التشبث بها، وإن كانت واهية. فقد قواها الاحتياط لحقن دم المسلم، وإبقائه على أصل الإسلام، تحسينا للظن به، وحملا لحاله على الصلاح.

فليس كل ما ذكره الغزالي من أقسام الوجود: الحسي والخيالي والشبهي والعقلي، التي يتحملها النص، وتدخل في التأويل، يعتبره الغزالي تأويلا صحيحا راجحا، بل يعتبره تأويلا يمسك من قال به على أصل الإيمان، ولا يخرج به إلى الكفر المخرج من الملة، وإن كان يراه بدعة وضلالا، كما هو رأيه في المعتزلة والخوارج والشيعة وغيرهم. فينبغي التنبه لهذه الدقيقة، فبعض الذين يكتبون عن الغزالي، ورأيه في التأويل، ومراتب الوجود التي تحدث عنها، يوهمون أنه يصحح كل هذه التأويلات، وإن كانت بعيدة، وليس الأمر كذلك، إنما يراها تعفي صاحبها فقط من الحكم بكفره وردته.

وقد أوَّل كثير من أئمة الأشاعرة فيما يتعلق بصفات الله تعالى مثل استوائه على عرشه، ونزوله إلى سماء الدنيا، وأن له تعالى وجها وعينا أو أعينا، ويدا أو يدين، ورجَّحوا ذلك على ترك التأويل الذي اشتهر عن السلف، وقال بعضهم: مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم. وانتهى كثير منهم إلى مذهب السلف وترجيحه في نهاية مطافهم، كما فعل إمام الحرمين في (العقيدة النظامية) والغزالي في (إلجام العوام) والرازي في (أقسام اللذات).

ستأويلات الطوائف المنحرفة والمارقة في عصرنا:

وفي عصرنا وجدنا الفئات المارقة والمنحرفة - على تفاوت بينها - تلوذ بمخبإ الإسراف في (التأويل) تحتمي به، وتستند إليه، وتعتمد عليه، عوضا عن رفضها صراحة للنصوص الثابتة المحكمة، فترفضها الأمة، وتفصلها عن جسمها الحي، فتموت حتما.

تأويلات القاديانية:

رأينا ذلك في طائفة (القاديانية) الذين جحدوا ما علم من دين الإسلام بالضرورة، وهو ختم النبوة بمحمد ﷺ، وهو ما نطق به القرآن، واستفاضت به السنة، وأجمعت عليه كل طوائف الأمة، فقالوا في قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]: أي زينة النبيين! كما أن (الخاتم) زينة الإصبع!

ولو كانوا طلابا للحقيقة لرجعوا إلى القراءة الأخرى الثابتة: ﴿وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ﴾ بكسر التاء، وكذلك إلى الأحاديث الصحيحة الغزيرة الصريحة: (لا نبي بعدي).

ومثل ذلك تأويلهم للآيات التي تناقض مذهبهم الذي يوجب طاعة أولي الأمر من الكفار المستعمرين (وقد كانوا هم الإنجليز الحاكمين للهند في عصرهم)، كما فعلوا في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فالآية صريحة في أن أولي الأمر الواجبة طاعتهم هنا - بعد طاعة الله ورسوله - يجب أن يكونوا من المؤمنين المخاطبين بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. أما الكفار فليسوا منهم، ولا سيما إذا كانوا غزاة مستعمرين. ولكن هؤلاء يؤولون كلمة (منكم) التي تفيد البعضية بدلالة (من) ليجعلوا معناها (فيكم)! وهذا هو التبديل لكلمات الله تعالى.

وكذلك أوّلوا ما استفاض في القرآن من آيات الأنبياء، من الخوارق والمعجزات التي أيد الله بها رسله مثل عصا موسى، وانقلابها حية تسعى، وضربه بها البحر حتى انفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، وضربه بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشر عينا، إلى آخر الآيات البيِّنَات التسع.

ومثل إحياء عيسى الموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص بإذن الله، ونفخه في الطين المصور فيكون طيرا بإذن الله، إلى غير ذلك من معجزات الأنبياء.

وكذلك إلغاؤهم لفريضة الجهاد، ليتم تعبيد الأمة للكفرة المستعمرين.

تأويلات البهائية:

وأسوأ من هؤلاء: طائفة (البهائية) الذين جاءوا بدين جديد، له نبوة جديدة، وكتاب جديد. وشريعة جديدة، غيَّروا فيه كل شيء، حتى السنة والشهور والأيام. وأبطلوا فيه

الفرائض، واستباحوا المحرمات. ومع هذا أبوا إلا أن يتمسحوا بالقرآن العزيز، ويستدلوا على باطلهم بحقه، يحرِّفونه عن مواضعه باسم (التأويل) ليفتروا على الله الكذب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

ذكروا في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ١ - ٥]: أن النبأ العظيم هو ظهور (البهاء) ودعوته التي سيختلف فيها الناس!! [1].

وهل كان مشركو قريش والعرب الذين نزل القرآن يخاطبهم مختلفين في أمر البهاء أم في أمر البعث والجزاء، كما دلت على ذلك الآيات التالية من السورة؟!

وذكروا في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١، ٤٢]: أن المراد بالخروج خروج البهاء! والخروج كما جاء في أوائل السورة يعني: خروج الموتى من قبورهم للبعث والحساب، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

ولذلك قال بعد الآية السابقة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٣، ٤٤]. فيوم الخروج هو يوم تشقق الأرض عنهم سراعا، ليخرجوا من الأجداث كأنهم جراد منتشر.

وهؤلاء ليسوا إلا امتدادا للباطنية القدامى، الذين لا يؤمنون بقرآن ولا سنَّة، ولا دين وإنما يتخذون النصوص معاول لهدم الإسلام، كل الإسلام.

من سوء التأويل حول الشريعة:

على أن أكثر ما نعاني من سوء التأويل في عصرنا، أصبح فيما يتعلق بأحكام الشريعة، أكثر منه في دائرة العقيدة. وخصوصا بعد أن نجح الاستعمار الغربي في تعطيل الشريعة نحو قرن من الزمان أو يزيد، وإحلال قوانينه الوضعية محلها، وإنشاء تقاليد جديدة مخالفة

---

(١) انظر: كتاب (الحراب في صدر البهاء والباب).

لأوامرها، وتكوين عقليات مؤمنة بفلسفتها، جاهلة بتراثها، غريبة عن أمتها، واهية الثقة والصلة بربها وشرعها.

سوء التأويل لآيات الحدود:

ومن نماذج هذا اللون من سوء التأويل ما ذكره المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون) [1] لكاتب ممن سماهم أصحاب الاتجاه الإلحادي في التفسير [2].

قال هذا الكاتب تحت عنوان (التشريع المصرى وصلته بالفقه الإسلامى): «قرأت في السياسة الأسبوعية الغراء مقالا بهذا العنوان [3]، حوى أفكارا أثارت في نفسي من الرأي ما كنت أريد أن أرجئه إلى حين، فإن النفوس لم تتهيأ بعد لفتح باب الاجتهاد، حتى إذا ظهر المجتهد في هذا العصر برأي جديد، كتلك الآراء التي كان يذهب إليها الأئمة المجتهدون في عصور الاجتهاد، قابلها الناس بمثل ما كانت تقابل به تلك الآراء من الهدوء والسكون، وإن بدا عليها ما بدا من الغرابة والشذوذ، لأن الناس في تلك العصور كانوا يألفون الاجتهاد، وكانوا يألفون شذوذه وخطأه، إلفهم لصوابه وتوفيقه، أما في هذا العصر، فإن الناس قد بَعُد بهم العهد بالاجتهاد، حتى صار كل جديد يظهر فيه شاذا في نظرهم، وإن كان في الواقع صوابا».

ثم أشاد بما كتبه صاحب المقال المشار إليه، ثم قال: «ولكن يبقى بعد هذا في تلك الحدود ذلك الأمر الذي سنثيره فيها، ليُبحث في هدوء وسكون، فقد نصل فيه إلى تذليل تلك العقبة التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي من ناحية تلك الحدود بوجه آخر جديد . . . وسيكون هذا بإعادة النظر في النصوص التي وردت فيها تلك الحدود، لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئة. وسأقتصر في ذلك - الآن - على ذكر ما ورد في تلك الحدود من النصوص القرآنية، وذلك قوله تعالى في حد السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨، ٣٩]، وقوله تعالى في حد الزنا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ

---

(١) التفسير والمفسرون: ٣/ ١٩٤، ١٩٦.

(٢) ليس المراد بالإلحاد هنا إنكار وجود الله تعالى، بل المراد الميل عن المنهج المستقيم في فهم الآيات وتحريفها عن موضعها، وحملها على المحامل الباطلة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾ (فصلت: ٤٠).

(٣) هذا المقال المشار إليه يوجد بالعدد الخامس من السنة السادسة (سنة ١٩٣٧).

إن كُنتُم تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

فهل لنا أن نجتهد في الأمر الوارد في حد السرقة وهو قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا﴾ والأمر الوارد في حد الزنا وهو قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب؟ ويكون الأمر فيهما مثل الأمر في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. فلا يكون قطع يد السارق حدًّا مفروضا لا يجوز العدول عنه في جميع حالات السرقة، بل يكون القطع في السرقة هو أقصى عقوبة فيها، ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعة، ويكون شأنه في ذلك شأن كل المباحات التي تخضع لتصرفات وليّ الأمر، وتقبل التأثر بظروف كل زمان ومكان.

وهل لنا أن نذلل بهذا عقبة من العقبات التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي؟ مع أننا في هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصا، ولا ألغينا حدا، وإنما وسعنا الأمر توسيعا يليق بما امتازت به الشريعة الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، وبما عُرِف عنها من إيثار التيسير على التعسير، والتخفيف على التشديد». أ. هـ[(١)].

وهذا الاجتهاد المزعوم - وفق هذا التأويل الرديء - مردود على صاحبه، لأنه اجتهاد فيما لا مجال للاجتهاد فيه، لأنه أمر قطعي ثابت بالكتاب والسنَّة وإجماع الأمة، ومعلوم من الدين بالضرورة.

والأمر في هذا المقام لا يمكن أن يفهم منه الإباحة بحال. إذ الأصل في الأمر الوجوب أو - على الأقل - الاستحباب، ولا يخرج عنهما إلا بقرينة، ولا قرينة هنا.

والأمر في الآية التي استدل منها على أنه للإباحة - وهي: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ليس كما توهَّم، فقد بيَّن الإمام الشاطبي في (موافقاته): أن الأكل والشرب وأخذ الزينة هنا واجب بالكل، مباح بالجزء، فإن بني آدم لا يجوز لهم أن يمتنعوا عن الطعام والشراب والتزين - وخصوصا الحد الأدنى منه وهو ستر العورة - بدعوى التنسك أو التزهد، أو مقاومة الجسد أو ترقية الروح أو نحو ذلك، وإن أبيح لهم ذلك في وقت معين، أو لسبب معين، وهذا معنى أنه مباح بالجزء. وينبغي مراجعة تحقيق الشاطبي هنا فهو في غاية النفاسة[(٢)].

---

(١) السياسة الأسبوعية ص ٦ من العدد السادس من السنة السادسة (٢٠ من فبراير سنة ١٩٣٧).

(٢) انظر: الموافقات: ١ / ١٣٠ وما بعدها.

ولو نظرنا إلى القرائن المحيطة بالنص، لوجدناها كلها تنادي بالوجوب، بل تؤكده.

وكيف يكون الأمر هنا للإباحة، وهو يقول: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]؟ وكيف رفض النبي ﷺ أي شفاعة في حدود الله من أحب الناس إليه، وهو أسامة بن زيد، وقال له منكرا: «أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة» ؟ وكيف قال قولته المعروفة: «وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ؟!!

وكيف يكون الأمر في جلد الزانية والزاني للإباحة، وهو يقول عقبه: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]؟ فلم كل هذا التحريض والإلهاب؟!

إن هذا التأويل - لو صح - لجاز أن يقول قائل في آيات أخر، أو أمر آخر، نفس القول، ويؤولها نفس التأويل، مثل قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١١٠، المزمل: ٢٠].

فالأمر - وفقا لهذا التأويل - في هذه الآيات كلها للإباحة لا للوجوب، فمن شاء فليصل، ومن شاء فليزك ولينفق، ومن لم يشأ فلا جناح عليه، فلم يترك إلا أمرا مباحا، من فعله أثيب عليه، ومن تركه فلا إثم عليه!!

وكذلك يقال في كل الأوامر القرآنية: إذ لا فرق بين أمر وأمر. وهذا هو العبث بعينه، أو هو تبديل لدين الإسلام بدين جديد.

من تكلفات بعض المفسرين المعاصرين:

ومما نأسف له: ما وقع من تكلف واعتساف في التأويل، لبعض المفسرين المعاصرين، مثل صاحب (تفسير المراغي). فقد ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ⟨٦⟩ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ⟨٧⟩ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن

كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠] كلاما متكلفا، بعيدا عن المتبادر، ولا دليل عليه من شرع ولا عقل، ولا عرف. يقول عفا الله عنا وعنه:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾: أي جعلنا الكواكب زينة في السماء القريبة منكم بما لها من البهجة والجمال، وتناسب الأشكال وحسن الأوضاع، ولا سيما لدى الدارسين لنظامها، المفكرين في حسابها، إذ يرون أن السيارات منها متناسبة المسافات، بحيث يكون كل سيار بعيدا من الشمس ضعفَ بُعْد الكوكب الذي قبله.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾: أي وحفظنا السماء أن يتطاول لدرك جمالها، وفهم محاسن نظامها، الجهّال والشياطين المتمردون من الجن والإنس، لأنهم غافلون عن آياتنا، معرضون عن التفكير في عظمتها، فالعيون مفتحة، ولكن لا تبصر الجمال، ولا تفكر فيه، حتى تعتبر بما فيه.

﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَىٰ﴾: أي إن كثيرا من أولئك الجهال والشياطين محبوسون في هذه الأرض، غائبة أبصارهم عن الملإ الأعلى، لا يفهمون رموز هذه الحياة وعجائبها، ولا ترقى نفوسهم إلى التطلع إلى تلك العوالم العليا، والتأمل في إدراك أسرارها، والبحث في سر عظمتها.

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُحُوراً﴾: أي وقد قذفتهم شهواتهم وطردتهم من كل جانب، فهم تائهون في سكراتهم، تتخطفهم الأهواء والمطامع والعداوات والإحن، فلا يبصرون ذلك الجمال الذي يشرق للحكماء، ويبهر أنظار العلماء، ويتجلى للنفوس الصافية ويسحرها بعظمته، وهم ما زالوا يدأبون على معرفة هذا السر حتى ذاقوا حلاوته، فخروا ركعا سجدا مذهولين من ذلك الجمال والجلال.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: أي وأولئك لهم عذاب دائم، لتقصيرهم عن البحث في سر عظمة هذا الكون، والوصول بذلك إلى عظمة خالقه، وبديع قدرته.

ثم بين من وفقهم الله وأنعم عليهم ممن ظفروا بالمعرفة فقال:

﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: أي إلا من لاحت له بارقة من ذلك الجمال، وعنت له سانحة منه، فتخطف بصيرته كالشهاب الثاقب، فحنّ إلى مثلها، وصبت

نفسه إلى أختها ، وهام بذلك الملكوت العظيم باحثا عن سر عظمته ، ومعرفته كنه جماله ، وهم من اصطفاهم الله من عباده ، وآتاهم الحكمة من لدنه ، وأيدهم بروح من عنده ، وهم أنبياؤه وأولياؤه الذين أنعم عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين .

والخلاصة - أن الدنيا بيت فرشه الأرض ، وسقفه السماء ، وسراجه الكواكب ، والبيوتُ الرفيعة العماد ، العظيمة البناء كما تزين بالأنوار تزين بالنقوش التي تكسبها لألاء وبهجة في عيون الناظرين ، ولكن لن يصل إلى إدراك تلك المحاسن إلا الملائكة الصافُّون ، والأنبياء والعلماء المخلصون . أما الجهال والشياطين المتمردون من الجن والإنس ، فأولئك عن معرفة محاسنها غافلون . فلقد يعيش المرء منهم ويموت وهو لاه عن درك هذا الجمال ، إذ لا ينال العلم إلا عاشقوه ، وقد تبدو لهم أحيانا بارقة من محاسنً هذا الجمال ، فتخطف بصائرهم كالشهاب الثاقب ، فيخطفون منها خطفة يتبعها قَبَس من ذلك النور يضيء ، وينير ألبابهم ، فيكونون ممن كتب الله لهم السعادة ، وقيض لهم التوفيق والهداية ، وممن اصطفاهم ربهم برضوانه ، والفوز بنعيمه . أ . هـ .

هذا ما قاله الشيخ أحمد مصطفى المراغى في تفسير هذه الآيات . ثم عقب في الحاشية فقال :

وقد نحونا بهذا نحوا يخالف ما في كثير من التفاسير ، إذ إنهم قالوا : إن خطف الخطفة كان من الشيطان حين أراد أن يسترق السمع ، ويأخذ أخبار السماء ، فأتبعه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولم يستطع أخذ شيء منها ، وعصم الله وحيه وكتابه . [1] أ . هـ .

ورحم الله الشيخ ، فقد أبعد النجعة ، وشطح شطحا بعيدا ، بعد به عن المنهج القويم . وقد قال تعالى على لسان الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن : ٨ ، ٩] والمعنى واضح كالشمس .

الجاهلون المتعالمون :

وأوغل من هؤلاء في الضلال : أولئك الجاهلون المتعالمون من المعاصرين ، الذين لم ترسخ أقدامهم في علوم الشرع ولا علوم اللغة ، فلم يركنوا من العلم إلى ركن ركين ، ولم يلوذوا في

(١) انظر : الجزء الثالث والعشرين ص ٤٣ ، ٤٤ .

المنطق إلى حصن حصين، ولم يعتصموا من الدين بحبل متين. فقد جعلوا كتاب الله عجينة لينة بأيديهم يشكلونه كيف يشاءون، كما رأينا ذلك عند صاحب (الكتاب والقرآن) الذي أول ما أول من آيات وجمل ومفردات بما تشتهي نفسه، دون تقيد بقيد. كما في قوله عن (ليلة القدر) في قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]: إن الشهر هنا ليس هو المدة الزمنية المعروفة، بل هو من الشهرة والإشهار. فليلة القدر خير من ألف إشهار! و(مطلع الفجر) ليس هو طلوع الفجر العادي الذي ينكشف فيه برقع الليل عن وجه الصباح، بل هو (الانفجار الكوني) العظيم، الذي به ينهدم نظام هذا العالم، وتقوم الساعة [١]. فهمي وفهمك وفهم الأمة كلها غلط وضلال. أما هو فهو المكتشف العظيم الوحيد لما جهله كل الناس.

ومثل ذلك: تأويله (للصدور) في قوله تعالى في سورة الناس: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ بأنها تعني: الناس الذين يشغلون مواقع الصدارة في المجتمع. كأن جماهير الناس لا يوسوس لهم الشيطان! وكذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. إنهم أيضا الذين يشغلون مراكز الصدارة بين العلماء. وما معنى التعبير بـ(في) إذن؟! [٢].

---

(١) انظر: الكتاب والقرآن: نموذج من التأويل ص ٢٠٥ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٣.

٣ـ وَضع النص في غير موضعه

ومن أهم المحاذير التي ينبغي الالتفات إليها، والتنبيه عليها، في فهم القرآن ومثله السنَّة، وما يحتويان من عقائد وشرائع وأحكام وآداب: وضع النص في غير موضعه الصحيح. وهو نوع من تحريف الكلم عن مواضعه، الذي سقط فيه أهل الكتاب من قبلنا.

فكثيرا ما يكون النص صحيحا لا مطعن فيه، ولا خلاف على ثبوته، فهو آية من كتاب الله أو سنة ـ قولية أو عملية أو تقريرية ـ ثابتة عن رسول الله ﷺ: ولكن العيب في الاحتجاج بهذا النص على أمر معين، وهو لا يدل عليه، لأنه سيق مساقا آخر.

من أين يأتي الخلل؟:

وقد يأتي ذلك من الخلل في الفكر وسوء الفهم للنص، نتيجة للعجلة والخطف الذي نراه ونلمسه لمسا عند السطحيين أو المغرورين من الناس، الذين يتخرصون على النصوص بغير بينة، ويتطاولون بغير سلطان أتاهم، ويقولون على الله ما لا يعلمون.

وقد يكون ذلك من الخلل في الضمير، وفساد النية، حيث نرى بعض الناس يريد أن يثني عنان النصوص قهرا، لتوافق هواه، وتنصر رأيه، الذي ربما كوَّنه من خارج الثقافة الإسلامية، كما نرى في عصرنا.

كلمة حق يراد بها باطل:

وهذا ما صنعه الخوارج حيث رفضوا مبدأ التحكيم في الخلاف بين علي ـ رضي الله عنه ـ ومَن معه، ومعاوية ومَن معه، وحجتهم التي أعلنوها وتمسكوا بها قول الله تعالى: ﴿ إنِ الْحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠].

فمبدأ (الحاكمية لله) مبدأ مسلَّم به، ثابت بالنصوص القرآنية الصريحة، وهو جزء أو عنصر من عناصر التوحيد، التي تحدثت عنها سورة الأنعام ـ وهي سورة التوحيد ـ وهي ألا تبغي غير الله ربا، [1] ولا تتخذ غير الله وليا [2]، ولا تبتغي غير الله حكما، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤]. ولهذا أجمع الأصوليون ـ وهم يبحثون عن (الحكم) في مقدمات (علم أصول الفقه) ـ على أن (الحاكم هو الله) لا خلاف في ذلك بين سُني ومعتزلي [3]. فما يقوله بعض المتسرعين المتطاولين من المعاصرين ـ من أن القول بمبدإ (الحاكمية) من اختراع أبي الأعلى المودودي وسيد قطب ـ قول صادر عن قلة العلم، وعدم استيعاب الموضوع من مصادره الأصلية.

وعقب أمير المؤمنين عليٌّ كرَّم الله وجهه على احتجاجهم هذا بكلمته الحكيمة البليغة التي ذهبت مثلا في التاريخ، إذ قال: «كلمة حق يراد بها باطل» !

فالكلمة في ذاتها حق، إذ لا حكم إلا لله، سواء فسرنا الحكم بالحكم الكوني، بمعنى أنه لا يدبر هذا الكون ولا يتصرف فيه إلا الله تعالى، أم فسرناه بالحكم الأمري التشريعي، بمعنى: أن الآمر الناهي المشرِّع الذي له حق الطاعة المطلقة هو الله وحده.

ولكن هذا المعنى شيء، والتحكيم في المنازعات شيء آخر، فهذا أمر قد شرعه الله تعالى وحكم به ودل عليه، فهذا من جملة حكمه سبحانه.

وهو ما رد به حَبْر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس على الخوارج، حين ذكرهم بما جاء في القرآن من التحكيم في القضايا الصغيرة المحدودة، فكيف لا يجيزه في القضايا الكبيرة البعيدة الأثر، العظيمة الخطر؟

ذكرهم بما أمر به القرآن من التحكيم في النزاع بين الزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيراً﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

(٢) وإليه تشير الآية: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

(٣) انظر: المستصفى للغزالي ج ١ ص ٨٣. وشرح مسلّم الثبوت مع المستصفى ص ٢٥، وانظر: كتابنا (من فقه الدولة في الإسلام) ص ٦٠ ـ ٦٢ طبعة دار الشروق.

وما شرعه الله تعالى في تحديد قيمة صيد الحرم: ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥].

إن العجلة واتباع الهوى هنا أديا إلى الانحراف في الفهم، أو تحريف الكلم عن مواضعه، وهو ما عاب الله تعالى به أهل الكتاب من قبلنا.

كان على هؤلاء أن يجمعوا الكتاب بعضه إلى بعض حتى يتبين لهم الحق، وألا يحكموا بموجب العام قبل أن ينظروا في مخصصاته، وهذا هو شأن أهل العلم الراسخين الذين يتثبتون قبل أن يقرروا حكما، أو يفتوا في قضية.

من تحريفات الكلم في عصرنا:

ولقد رأينا في عصرنا العجب كل العجب، من الذين يتبعون المتشابهات، ويعضون عليها بالنواجذ، ولا يرضون بها بدلا، ولا يبغون عنها حولا، محرفين للكلم عن مواضعه.

زعم أن القرآن يمنع تعدد الزوجات:

رأينا مَن يستدل على منع تعدد الزوجات الذي أباحه القرآن نفسه، بشرط العدل بآية من السورة نفسها تهدم - في نظرهم - آية الإباحة، وتبطل أثرها، وتنسخ حكمها، وهي آية: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩].

ومعنى هذا: أنهم يتهمون الرسول الكريم والصحابة وسلف الأمة، بل الأمة كلها خلال أربعة عشر قرنا: أنها لم تفهم كتاب ربها المنزل إليها بلسانها، أو فهمته وأعرضت عنه عمدا، واجتمعت على ذلك، حتى جاء هؤلاء في آخر الزمن يستدركون عليها.

ثم مقتضى كلام هؤلاء: أن القرآن يناقض بعضه بعضا، فهو يبيح الشيء في آية، ثم لا يلبث أن يحرمه في آية أخرى، وكذبوا، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. ولو أن هؤلاء أكملوا الآية التي زعموا أنها تبطل إباحة تعدد الزوجات، لوجدوها ترد عليهم، لأن تمامها: ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩]. ومفهوم الآية: أن بعض الميل مغتفر، وهو الميل

العاطفي الذي لا يتحكم فيه البشر. وهو الذي ورد أن النبي ﷺ كان يقول في شأنه، بعد أن يقسم فيعدل بين نسائه في الأمور الظاهرة من النفقة والكسوة والمبيت: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك» يعني: أمر القلب [(١)].

الرسول لم يؤمر بالحكم بما أنزل الله:

رأينا من يقول: إن الرسول لم يؤمر بالحكم بما أنزل الله بين المسلمين، إنما أُمر أن يحكم به بين أهل الكتاب فحسب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

كأن الله تعالى أنزل كتابه الخالد، ليُطبَّق على اليهود والنصارى، الأجانب عنه، ولا يُطبَّق على المسلمين الذين أنزل عليهم، وخوطبوا به وبتكاليفه !!

ليس المهم ـ إذن ـ هو الاستدلال بالنص القرآني أو النبوي ! بل المهم هو وضع النص في موضعه الصحيح.

فكثيرا ما استُدل بالآيات القرآنية ـ أو بالأحاديث النبوية ـ على أمور هي أبعد ما تكون عنها، عند تدبرها تدبرا جيدا.

وقد يُروَى هذا الاستدلال أو الاحتجاج عن بعض السلَف من الصحابة أو التابعين أو الأتباع.

ولكن ليس كل ما يُروَى عن هؤلاء صحيحا، بل منه ما هو صحيح أو حسن، ومنه ما هو ضعيف أو ضعيف جدا، ومنه ما هو مكذوب مفترى، وهذا لا يعرفه إلا صيارفة النقل، العارفون بالأسانيد والرجال.

وليس كل ما صحَّ عن هؤلاء سندا، يكون صحيح المعنى، مسلَّم المضمون، بل قد يكون فيه ضعف أو تهافت أو مناقضة لصحيح المنقول أو صريح المعقول، أو لهما معا.

فلا غرو أن يكون كل ما لم يصح عن المعصوم قابلا للنقاش، محتملا للأخذ والرد، وفق الأصول الشرعية، والقواعد المرعية.

---

(١) رواه عن عائشة أبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٤) وابن ماجه (١٩٧١) وابن حبان (الإحسان: ٤٢٠٥) والحاكم (٢/ ١٨٧) وصححه ووافقه الذهبي. ورجح الترمذي وغيره إرساله.

آيات تذكر في تحريم الغناء:

كنت أبحث عن حكم الغناء، والخلاف فيه بين المجيزين والمحرِّمين، والمعركة محتدمة بين الفريقين.

ووجدت القائلين بالتحريم يُجْلبون بخيلهم ورجلهم، لحشد كل ما يمكنهم مما يعتبرونه أدلة، لتأييد المنع والتحريم.

ومن هذه الأدلة: خمس آيات أو أكثر من القرآن الكريم، يروون عن بعض السلف أنه ذكرها في معرض تحريم الغناء.

وبتأمل هذه الآيات لم أجد فيها واحدة تدل على ما قالوه.

خذ أشهر هذه الآيات في الاحتجاج بها على تحريم الغناء، وهي قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦].

فقد رووا فيه حديثا مرفوعا أن ﴿ لهو الحديث ﴾ هو الغناء، ولم يثبت ذلك عن النبي ﷺ.

وصح عن ابن مسعود قوله: هو والله الغناء.

وروي عن ابن عباس مثله.

وجاءت روايات أخرى تقول: إن ﴿ لهو الحديث ﴾ هو قصص ملوك الفُرس وأخبارهم، كان يجلبها النضر بن الحارث ـ أحد المشركين العتاة ـ ليَشغل الناس بها عن استماع القرآن[1].

سلَّمنا أن ﴿ لهو الحديث ﴾ هو الغناء، فأين وجه الدلالة في الآية على تحريم الغناء؟ إن الآية لم تذم مطلق (لهو الحديث) ولكنها ذمت مَن يشتريه ـ أي يستحبه ويختاره ـ ليتخذه وسيلة إضلال وصد عن سبيل الله، وسبيل الله هي الإسلام، ويزيد على ذلك أنه يتخذ هذه السبيل هزوا، يسخر منها، ويستهزئ بها، وهذا لا يصدر من مسلم. والآية التالية في السياق تدل على ذلك بجلاء، ففيها يقول تعالى في تتمة أوصافه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧].

---

(١) راجع في هذه الروايات تفاسير ابن جرير وابن كثير والقرطبي والدر المنثور للآية رقم (٦) من سورة لقمان. وراجع منتقى الأخبار وشرحه نيل الأوطار للشوكاني: ٨/ ٩٩ وما بعدها ـ طبع العثمانية المصرية.

فهذه ليست صفة مَن رضي بالإسلام دينا، وبالقرآن إماما، وبمحمد رسولا.

وفي هذا ينقل الطبري عن ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ [لقمان: ٦]، قال: هؤلاء أهل الكفر، ألا ترى قوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ [لقمان: ٧]؟ فليس هكذا أهل الإسلام. قال: وناس يقولون: هي فيكم، وليس كذلك. قال: وهو الحديث الباطل الذي كانوا يلغون فيه.

قال الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: عَنَى به كل ما كان من الحديث ملهيا عن سبيل الله، مما نهى الله عن استماعه أو رسوله: لأن الله تعالى عَمَّ بقوله: ﴿ لهو الحديث ﴾ ولم يخصِّص بعضا دون بعض، فذلك على عمومه، حتى يأتي ما يدل على خصوصه. والغناء والشرك من ذلك. وقوله: ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ يقول: ليصد ذلك الذي يشترى لهو الحديث عن دين الله وطاعته، وما يقرِّب إليه من قراءة قرآن وذكر الله»[1].

ومن هنا يكون الاستدلال بالآية على تحريم الغناء لمجرد الترويح خارجا عن الموضوع: إنما تنطبق الآية حقا على من اتخذ الغناء واللهو بصفة عامة، ليصد الناس عن القرآن، ويلهيهم عن فرائض الإسلام، فهذا يُطلق عليه أنه يشتري لهو الحديث ليُضل عن سبيل الله! وهذا يمكن تطبيقه على بعض الذين يشرفون على الإعلام والمخططين له في بلادنا العربية والإسلامية، فقد جعلوا من أهدافهم تمييع النفسية المسلمة، وتذويب الشخصية المسلمة، بإضعاف مقاومتها، وخلخلة إرادتها، وزلزلة صلابتها، وشغلها عن الالتزام بالإسلام الحق، الذي يقاوم كل باطل، وكان الغناء - بمضمونه وألحانه وموسيقاه وطريقة أدائه - من أعظم أدواتهم. فهم يشترون لهو الحديث ليصدوا عن سبيل الله!

ولله در ابن حزم، فقد رد على مَن استدل بالآية على تحريم الغناء ردا قويا فقال: «لا حُجَّة في هذا كله لوجوه:

أحدها: أنه لا حُجَّة لأحد دون رسول ﷺ.

والثاني: أنه قد خالف غيرهم من الصحابة والتابعين.

والثالث: أن نص الآية يبطل احتجاجهم بها، لأن فيها: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ

(١) تفسير الطبري: ١٠ / ٤١ - ط دار المعرفة - بيروت.

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]. وهذه صفة من فعلها كان كافرا بلا خلاف، إذا اتخذ سبيل الله تعالى هزوا. ولو أن امرءا اشترى مصحفا ليضل به عن سبيل الله ويتخذها هزوا لكان كافرا، فهذا هو الذي ذم الله تعالى، وما ذم قط عز وجل من اشترى لهو الحديث ليلتهي به ويروح نفسه، لا لِيُضل عن سبيل الله تعالى، فبطل تعلقهم بقول كل مَن ذكرنا، وكذلك من اشتغل عامدا عن الصلاة بقراءة القرآن، أو بقراءة السنن، أو بحديث يتحدث به، أو بنظر في ماله، أو بغناء، أو بغير ذلك، فهو فاسق عاص لله تعالى، ومن لم يضيع شيئا من الفرائض اشتغالا بما ذكرنا فهو محسن» (١) . أ. هـ.

وفي عصرنا نجد كثيرين يستدلون بالنصوص القرآنية والحديثية، ولكنهم - للأسف الشديد - يضعونها في غير موضعها.

وبعض هذه الاستدلالات ينبئ عن غباء في فهم النص، أو عن جهل بعلوم الشريعة ووسائلها من العلوم الآلية مثل علوم اللغة.

وبعضها ينبئ عن عبث أو تلاعب بالنصوص المقدسة، وكلها لا يعتمد على علم ولا هدى ولا كتاب منير

كلمة (الأحزاب) في القرآن:

وجدنا من يستدل من القرآن على عدم التعددية الحزبية في الساحة السياسية، بأن القرآن لم يذكر إلا حزبين اثنين: حزب الله، وحزب الشيطان، كما يتضح ذلك من سورة المجادلة، فلا يوجد إلا حزب واحد مقبول، وما عدا ذلك فهو للشيطان!

ولا ريب أن ما جاء في القرآن العزيز من ذلك بمعزل عن موضع النزاع، فهو يتحدث عن فريقي الإيمان والكفر، أو الهدى والضلال، كما في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ولكن داخل كل فريق توجد فئات وجماعات وأحزاب شتى. ولا غرو أن توجد داخل فريق الجنة جماعات وأحزاب بعضها أقرب من بعض إلى السداد.

(١) المحلى لابن حزم: ١٠/ ٧٣ - ط. الإمام. بتحقيق هراس.

وأغرب من ذلك: استدلالهم بأن القرآن ذم الأحزاب في مثل قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].

وقوله: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ [ص: ١١].

وقوله: ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢].

وهذه النصوص كلها تتحدث عن أحزاب الكفر والضلال، فلا دلالة فيها على ما نحن بصدده، فحديثنا عن الجماعات المتعددة الرأي والرؤى داخل الحزب الأكبر: حزب أهل الإيمان، أو حزب الله.

الادعاء بأن القرآن يرفض رأي الأكثرية:

ومثل ذلك: من يستدلون على رفض العمل برأي الأكثرية في الانتخابات والمجالس النيابية والشورية وغيرها بأن القرآن ذم الأكثرية في آيات متعددة، مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧].

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

وقوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقوله عن المشركين: ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١].

وأمثال هذه الآيات، وهي كثيرة في القرآن مكية ومدنية! ولكن الأكثرية التي نتحدث عنها، ويؤخذ رأيها، ليست أكثرية المشركين أو الذين كفروا من أهل الكتاب أو من غيرهم، ولا أكثرية الناس عموما، إنما هي أكثرية خاصة بمجتمع المؤمنين الذين استجابوا لأمر الله تعالى، وهدي رسوله ﷺ، وجعلوا أمرهم شورى بينهم. ومجال هذه الشورى ليس هو الفرائض المكتوبة، ولا المحرَّمات المحظورة، ولا الأحكام القطعية، إنما يتشاورون في المباحات والمصالح وما تختلف فيه وجهات النظر، بين مؤيد ومعارض، فهنا لابد من مرجِّح، فكانت الأكثرية العددية في مثل هذه المجالات هي المرجح المعقول والمقبول. وقد لجأ إليها سيدنا عمر في قضية الستة أصحاب الشورى كما هو معلوم. كما يرجِّح كثير من الفقهاء رأي (الجمهور) عند تكافؤ الأدلة، وفي أكثر من حديث الحث على اتباع (السواد الأعظم) إلى غير ذلك من الاعتبارات التي شرحناها في غير هذا الموضع [١].

إنما المقصود هنا الإشارة إلى الاستدلالات التي تستخدم النصوص في غير ما سيقت له، ولا ترشد إليه.

آراء غير ناضجة في التفسير العلمي:

ومن هذا الباب: بعض ما يستدل به إخواننا المبالغون في ربط القرآن بالعلوم الكونية والرياضية، مما أنكره عليهم علماء الدين وعلماء الكون معا.

كالذي استدل على أن الأرض مفرطحة وغير كاملة التكوير، بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

والنص في الآيتين بعيد عن موضوع الكروية والفرطحة، إنما هو في إدالة الدول، وتقليب الأيام عليها، فكم من دولة نقص من أطراف أرضها لحساب دولة أخرى، كما حدث بين فارس والروم. وفي هذا بشارة للمسلمين أن الله سيفتح عليهم بلاد الكفر، وينقصها من

---

(١) انظر بحثنا عن (الإسلام والديمقراطية) في الجزء الثاني من كتابنا (فتاوى معاصرة) وكذلك كتابنا (من فقه الدولة في الإسلام) طبعة دار الشروق بمصر.

أطرافها لحساب الإسلام، ولهذا كان التعقيب في الآية الأولى: ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ وفي الآية الثانية: ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ؟

وأعجب من ذلك مَن فسَّر قوله تعالى: ﴿ يأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١] :أن المراد بالنفس الواحدة هو: الإلكترون - يعني الشحنة الكهربية الموجبة في الذرَّة - وأن زوجها هو البريتون، أي الشحنة السالبة في الذرَّة، وهو تكلف بارد لا معنى له، ولا دليل عليه، ولو أكمل الآية لوجدها ترد عليه، فتتمتها: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾.

والقرآن ليس في حاجة إلى ذلك التكلف والاعتساف.

٤ـ دعوى النسخ بلا برهان

ومن المزالق التي تذكر هنا في فهم القرآن وتفسيره: ادعاء النسخ لآية من آياته، بلا برهان يقيني يوجب هذا النسخ.

فإنما أنزل الله هذا الكتاب ليعمل به وتنفذ أوامره، وتجتنب نواهيه، وتحترم حدوده، كما قال تعالى بعد حديث عن الطلاق والخلع: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقال بعد حديث عن المواريث وأنصبتها ومستحقيها: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، أي ادخلوا في شرائع الإسلام وشُعبه كلها، دون تفريط في أي شعبة أو جزء منها.

وهذا هو الأصل في آيات القرآن: أنها محكمة باقية لازمة ملزمة لكل من آمن بالله ورسوله، . ولا يجوز الخروج عن هذا الأصل إلا بيقين لا شك فيه ولا احتمال معه. أما دعوى نسخ آية أو بعض آية، بلا دليل قاطع، فهي مرفوضة.

ومن المعروف أن هناك اتجاهات ثلاثة في هذه القضية من قديم:

* هناك من يتوسعون في دعوى النسخ في القرآن الكريم، ويزعمون أن آية كذا في سورة كذا منسوخة، على حين لا يوجد دليل قاطع على هذا النسخ.

* وفي مقابل هؤلاء: من أنكر النسخ في القرآن بالكلية، وهو يروى عن أبي مسلم

الأصفهاني، الذي يحرص الإمام الرازي على ذكر آرائه، ويوجهها، ويبدو في كثير من الأحيان وكأنه يرجحها!

ومثله في عصرنا: الشيخ الإمام محمد عبده، كما يبدو من آرائه في (تفسير المنار) وخصوصا في تفسير قوله تعالى:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. وفي الآيات التي قيل: إنها منسوخة مثل الآية ٢٤٠ من سورة البقرة، والآيات ١٥ و١٦ و٣٣ من سورة النساء.

وقريب منه رأي العلامة الشيخ محمد الخضري الذي ذكره في كتابه: تاريخ التشريع الإسلامي.

* وهناك الرأي الوسط الذي يقول بالنسخ إذا ثبت دليله الصحيح الصريح، الذي يقتنع به العقل، ويطمئن إليه القلب.

وهذا موقف أهل الاعتدال من علماء العصر. كما تجسد ذلك في الدراسة القيمة التي قام بها الأستاذ الدكتور مصطفى زيد رحمه الله عن (النسخ في القرآن) وحصل بها على درجة الدكتوراه.

وقد يكون من أسباب النسخ اقتضاء المنهج الإلهي الحكيم الذي أقام حياة الأمة على التدرج في التشريع. فانتقل بها من مرحلة إلى مرحلة، حتى استقر التشريع استقرارا نهائيا.

وعلى ضوء هذا أفهم قوله تعالى في آيات الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

فقد روى البخاري وغيره عن سلمة بن الأكوع وعن ابن عمر، كما روى غيره عن معاذ: أن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان في أول الأمر، فقد كان الصوم على التخيير، ثم ألزمت به الآية التي بعدها: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ولا يزال في عصرنا من يتوسعون في دعوى النسخ بدليل مرجوح أو بلا دليل.

وأذكر أني منذ ما يقرب من عشرين عاما كلفت من قبل اللجنة الثقافية لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة بوضع مسودة مشروع لـ (حقوق الإنسان في الإسلام) تعلنه المنظمة بمناسبة قرب قدوم القرن الخامس عشر الهجري. وكان ذلك بتوصية من وزراء خارجية دول المنظمة.

وبالفعل قمت بإعداد مسودة المشروع، ليعرض على لجنة من العلماء والخبراء في مقر المنظمة بجدة.

ولقد فوجئت بتوجه غريب لم أكن أتوقعه من بعض الإخوة المشايخ، الذين تحفظوا على كثير من مواد المشروع، التي تبدو فيها سماحة الإسلام ومرونته ويسره، ونظرته الواقعية والوسطية للإنسان وللمرأة ولغير المسلمين، وللعالم من حولنا.

وكان من مواد المشروع مادة تقول: الإسلام يحترم العقائد الدينية التي تخالفه، ولا يجبر أحدا على اعتناقه أو على تغيير دينه إلى دين لا يختاره بكامل حريته، إذ لا إكراه في الدين.

فقام بعض هؤلاء الإخوة - عفا الله عنا وعنهم - وقالوا بوجوب تغيير هذه المادة، فالإسلام - في نظرهم - لا يحترم عقائد الكفار، وهو يحكم عليهم بأنهم ضالون من أهل جهنم .. وهو يحكم بقتل المرتد .. إلخ. ولما واجهتهم بالآية الكريمة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وهو موافق لما جاء على لسان نوح: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]. هنا قال هؤلاء الإخوة الأفاضل: إن هذه الآيات منسوخة!

قلت لهم: كيف تنسخ هذه الآيات، وقد جاءت بهذه الصيغة الإنكارية: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾؟!

ومن المعلوم: أن القرآن لا يعترف بالإيمان إذا شابته شائبة تؤثر على كامل الاختيار. ولهذا رفض إيمان فرعون، حين أعلن إيمانه عندما أدركه الغرق، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وكان الرد الإلهي عليه: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]. فلم يقبل الله منه الإيمان في هذه الحالة، إذ لم يعد له اختيار. وقال عن قوم نزل بهم عذاب الله فآمنوا حينئذ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

- ثم إن قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]: حكم معلل بعلة لا تقبل النسخ. فقد علل منع الإكراه بقوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. فلا حاجة إذن إلى الإكراه، والأمر بيِّن، والطريق واضح لا شبهة فيه.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] لا يجوز أن ينسخ قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْتَدُوا﴾ لأنه معلل بعلة لا تقبل النسخ وهي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وهذا خبر عن الله جل شأنه لا يتغير.

أين ما يسمى آية السيف في القرآن؟:

وهناك آية ارتبك كثير من المفسرين في فهمها، تلك التي سموها (آية السيف)، ونسخوا بها كثيرا من الآيات الآمرة بالصبر والصفح والملاينة والمسامحة، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل: ١٠]. إلى غير ذلك من الآيات، حتى زعم بعضهم أنها نسخت أكثر من مائة وعشرين آية.

والعجيب أنهم احتاروا في تعيينها، فقال بعضهم: هي قوله تعالى في أوائل سورة التوبة: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥].

والآية تتحدث عن قوم من مشركي العرب بدأوا الرسول بالعدوان، وتألبوا عليه، ونكثوا عهودهم معه، ولم يرقبوا في مؤمن إلا ولا ذمة، ولذلك أوحى الله إلى رسوله بالبراءة من عهودهم المطلقة، وإعطائهم مهلة أربعة أشهر، يسيحون فيها في الأرض أحرارا آمنين من التعرض لهم، يختارون فيها ما يحلو لهم من الدخول في الإسلام، أو الاستعداد للحرب والصدام. وبعد هذا الإعذار والإمهال، وانقضاء الأربعة الأشهر التي حُرم فيها على المسلمين التعرض لهم بقتال، أمر الله المسلمين أن يبدءوا الحرب معهم قوية صارمة، وأن يقتلوهم - أي المقاتلين منهم - حيث وجدوا، وأن يتخذوا معهم كل وسائل الحرب من أسر وحصار ومراقبة للطرق والمنافذ.

فليس هؤلاء المشركون قوما مسالمين أمر المسلمون بالانقضاض عليهم - فلا يجوز هذا في الإسلام أبدا - ولكنهم قوم مشاكسون غادرون معتدون، ليس لهم عقيدة توحي إليهم باحترام العهود، ولا قانون يلزمهم برعايتها، ولا رئيس يلتزمون طاعته في شأنها، ولذا قال الله في شأنهم: ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ١٢، ١٣].

وقال بعضهم عن آية السيف: هي قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦]. وليس في الآية شيء إلا أنها تطلب من المسلمين أن يتجمعوا على قتال المشركين، كما يتجمع المشركون على قتالهم، فهو ضرب من المعاملة بالمثل. وهذا يشبه المعنى الذي جاء في سورة الأنفال: ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه ﴾، أي ولاء بعضكم لبعض، ﴿ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣]. وأي فتنة وأي فساد أكبر من أن يتناصر الكافرون أتباع الباطل، ويتخاذل المؤمنون أصحاب الحق ؟!

وقال بعضهم: إن آية السيف تطلق على كل منهما على حدة، وتطلق على كلتيهما معا. وقد رأينا أن الآيتين منفردتين أو مجتمعتين لا تدلان على ما توهمه بعض المفسرين. وأفهام بعض الناس في بعض الأزمنة ليست حجة على كتاب الله العام الخالد، ولكن كتاب الله هو الحجة على جميع الناس في جميع العصور والأجيال.

على أن هاتين الآيتين - لو فرضنا دلالتهما على ما زعم البعض - لا يصح أن يؤخذ منهما حكم عام على القرآن كله، فإن آيات الكتاب يفسر بعضها بعضا، وإن آية أو اثنتين أو ثلاثا - قد تكون لها مناسبة خاصة - لا يجوز أن تحكم على كتاب بأكمله ودين برمته. ولو صنعنا ذلك

لكان المسيح ـ الزاهد المسالم الوديع ـ أعظمَ الداعين إلى العنف والحرب والخصام لقوله في إنجيله: لا تظنوا أني جئت لألقي على الأرض سلاما، لم آت لألقي سلاما لكن سيفا. (متَّى ١٠ : ٣٤).

ومن قرأ كتب الناسخ والمنسوخ، أو قرأ كتب التفسير، وجد فيها الكثير من الآيات التي ادُّعي نسخها، بناء على أنها تتعارض مع آيات أخرى، فلا يجد بعضهم ملجأ يلجأ إليه إلا دعوى النسخ.

وعند تأمل المنسوخ والناسخ من الآيات، لا تجد أي تعارض يلجئ إلى القول بالنسخ في كتاب الله تعالى.

خذ قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

تجد هنا من يقول إن قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ منسوخ بقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

فهل ثمة تعارض بين الآيتين حتى تنسخ الآخرة منهما الأولى؟ وأين هو ذلك التعارض؟

الحق أن المتدبر للآيتين الكريمتين لا يجد بينهما أي تعارض.

فكل مؤمن مخاطب بهذه الآية يجب أن يتقي الله تعالى حق تقواه، في حدود استطاعته، كما أمر سبحانه المؤمنين أن يجاهدوا في الله حق جهاده أيضا: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

فحق التقوى لا يعني أن يطالَب الإنسان بما لا يطيقه، أو بما ليس في وسعه. كيف، وقد قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وفي نفس الآية التي ختم بها سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾. وفي الصحيح أن الله تعالى قال: «قد فعلت». أي أنه سبحانه أجاب دعاء المؤمنين الذي علمهم أن يدعوه سبحانه به.

ولقد ذكر المفسرون في بيان معنى (اتقاء الله حق تقاته) ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

ومثل هذا لا ينسخ، بل قال العلامة أبو جعفر النحاس: محال أن يقع في هذا ناسخ ولا منسوخ، إلا على حيلة. وذلك أن معنى نسخ الشيء: إزالته والمجيء بضده. فمحال أن يقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ منسوخ، ولا سيما مع قول رسول الله - ﷺ - مما فيه بيان الآية.. وذكر حديث معاذ: قال لي رسول الله ﷺ: «يامعاذ: أتدري ما حق الله عز وجل على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئا». أفلا ترى أنه محال أن يقع في هذا نسخ؟

وذكر أبو جعفر أن هذا هو قول ابن عباس في الآية. قال: لم تنسخ، ولكن حق تقاته أن تجاهدوا في الله حق جهاده، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وتقوموا بالقسط، ولو على آبائكم وأبنائكم![1] أ. هـ. أقول: بل ولو على أنفسكم، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]. ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. فهذا كله من تقوى الله حق تقاته.

كلمة (النسخ) بين السلف والخلف:

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام: أن السلف - رضي الله عنهم - من الصحابة والتابعين والأتباع وتلاميذهم، كانوا يطلقون كلمة (النسخ) على ما هو أعم مما قيدها به الاصطلاح بعدهم، ولكن بعض العلماء - بل الكثير منهم - لم ينتبهوا لذلك، فحملوا كلام المتقدمين على اصطلاح المتأخرين، فوقعوا في الخطإ. وهذا له أمثلة كثيرة تطالعنا في كتب التفسير، وعلوم القرآن، وفي كتب الفقه.

وقد نبه المحققون من العلماء على هذا الأمر، وحذروا من الوقوع فيه، نتيجة للخلط بين مفهوم الكلمات في العصور المختلفة، وعدم التفريق بينها، رغم اختلاف دلالاتها من عصر لآخر، والذي يلزمنا التمسك به، إنما هو مدلول الكلمات في عصر نزول القرآن، لا المدلولات الحادثة بعد ذلك.

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس - تحقيق د. محمد عبد السلام: ٢٨١ - ٢٨٤، وتفسير الطبري (٤: ٢٨، ٢٩).

يقول المحقق ابن القيم: ومراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ، رفع الحكم بجملته تارة - وهو اصطلاح المتأخرين - ورفع دلالة العام والمطلق وغيرها تارة، إما بتخصيص عام، أو تقييد مطلق وحمله على المقيد، وتفسيره وتبيينه، حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا، لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد. فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو: بيان المراد بغير ذلك اللفظ، بل بأمر خارج عنه. ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يحصى، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر (١).

وقال الإمام أبو إسحاق الشاطبي في (الموافقات): الذي يظهر من كلام المتقدمين: أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين، فقد كانوا يطلقون على تقييد المطلق نسخا، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخا، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل متأخر نسخا، لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد (٢).

---

(١) إعلام الموقعين جـ ١ ص ٢٨ ، ٢٩ ط . المنيرية .

(٢) الموافقات جـ ٣ ص ٧٥ .

٥ـ الجهل بالسنن والآثار

ومن مزالق المفسرين، ومحاذير التفسير: الجهل بالسنن والآثار أو الإعراض عنها عمدا. والسنَّة ـ كما ذكرنا ـ مبينة للقرآن، كما أعلن ذلك القرآن نفسه حين قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد رأينا من الناس من يزعمون أنهم مثقفون في عصرنا، ويفرضون أنفسهم على القرآن، اجتراء على تفسيره، دون إلمام بالحد الأدنى من السنَّة النبوية. ولهذا يسقطون في أخطاء ـ بل انحرافات ـ شنيعة، كان يمكنهم تفاديها لو اعتصموا بالسنَّة.

من ذلك ما زعمه أحدهم أن التشديد في حد السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] لأن السرقة في ذلك الوقت كانت تتعلق بأهم شيء يملكه العربي، وعليه مدار حياته ووجوده وبقائه، فمن سرقه فكأنما قتله. وذلك هو الجمل أو الناقة. وقد تغير الحال اليوم فيجب أن تتغير العقوبة!!

ولو رجع هذا المفتي أو المفسر الجريء إلى السنَّة الصحيحة لوجد ما يقوله وهما لا أساس له بالمرة. فلم تثبت حادثة واحدة فيها سرقة ناقة، وإنما سرقة مجنّ أو سرقة رداء صفوان، أو نحو ذلك. بل أثبتت الأحاديث الصحاح المتفق عليها: أن الإبل كانت تغدو وتروح، ولا يتعرض لها أحد. ولما سئل النبي ﷺ عن ضالة الغنم أمر بالتقاطها، خشية عليها، وقال للسائل: «خذها فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب».

ولما سئل عن ضالة الإبل، قال غاضبا: «ما لك ولها؟ تدعها، فإن معها حذاءها وسقاءها، ترد الماء، وتأكل الشجر، حتى يجدها ربها»(١)، أي مالكها.

---

(١) متفق عليه عن زيد بن خالد، كما في اللؤلؤ والمرجان (١١٢٣).

فهكذا كانت ضوال الإبل تترك في البادية والوديان، لا يتعرض لها أحد. وظل هذا قائما في عهد النبوة، وخلافة أبي بكر، وخلافة عمر، اتباعا للأمر النبوي بتركها، ما دامت تستطيع الدفاع عن نفسها، ولا يخاف عليها من الذئاب ونحوها، وتستطيع أن ترد الماء، تستقي منه وتختزن في كروشها ما تشاء، ومعها أحذيتها ـ أي أخفافها ـ التي تقوى بها على السير وقطع المسافات البعيدة حتى تجد الماء.

فلما جاء عثمان، وجد الحال قد تغيرت، لدخول أخلاط من الناس في الإسلام، فأمر بالتقاط الإبل وتعريفها، فإن جاء صاحبها أعطيت له، وإلا بيعت، وأُعْطي ثمنها حين يظهر صاحبها. كما روى ذلك مالك في موطئه (١).

قبول الأحاديث الواهية:

وإذا كان من مزالق التفسير: الجهل بالسنن الثابتة، أو الإعراض عنها عمدا، فإن من هذه المزالق: قبول الأحاديث الموضوعة والواهية التي تروى في كتب التفسير، وبخاصة التفسير بالمأثور. وقد انتقلت منها إلى كتب التفسير بالرأي.

وقد حذر الأئمة قديما من أحاديث التفسير بصفة عامة، دلالة على أن الصحيح منها قليل. فعلى المفسر، وقارئ التفسير، التنبه لذلك، فليس كل ما قيل فيه: قال رسول الله ﷺ، صحيحا. فإن الكتب تروي الصحيح والمعلول. والموفق من اعتمد على الصحيح والحسن، ورفض كل ما دون ذلك.

ونحن نعلم أن أئمة الحديث اختلفوا فيما بينهم في شأن رواية الحديث الضعيف في الرقائق والمواعظ والترهيب، في حين اتفقوا على منع ذلك في أحاديث الأحكام والحلال والحرام.

والذين أجازوا رواية الحديث الضعيف في الرقائق ونحوها، لم يجيزوه بصفة مطلقة، بل قيدوه بشروط معلومة: ألا يكون شديد الضعف، وأن يندرج تحت أصل ثابت بالقرآن وصحاح الأحاديث، وألا يعتقد ثبوته، بل هو مجرد احتياط، وألا يرويه بصيغة تفيد الجزم مثل: قال رسول الله . . بل بصيغة تشير إلى الضعف، مثل: روي عن رسول الله ونحوها.

وقد أضفنا إلى ذلك بعض الاعتبارات في مقدمتنا لكتابنا (المنتقى من الترغيب والترهيب للمنذري) وفي كتابنا (كيف نتعامل مع السنَّة النبوية)؟ منها: ألا يشتمل الحديث على

---

(١) الموطأ: ص ٧٥٩ حديث (٥١) من كتاب الأقضية.

مبالغات تخل بالنسب والمراتب التي وضعها الشرع للأعمال، أو على أمور يمجها العقل أو الشرع أو اللغة.

والغريب أن علماء الحديث لم يلتزموا هذه الشروط التي وضعوها هذه، فرووا الغث والسمين، وما يقبل وما لا يقبل بحال.

ومن ذلك: ما روي في بعض الأحاديث من تفسير لكلمات قرآنية لها مدلولات لغوية معروفة، فجيءلها بتفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان. مثل كلمة (طوبى) وكلمات (ويل) و(مَوْبِق) و(غَيّ) و(أثام) و(صَعود)!

ذكرت كتب التفسير عامة - رواية ودراية - هذه الأحاديث، مرفوعة وموقوفة، متصلة ومنقطعة، ومنهم من ضعفها، ومنهم من سكت عنها، ومنهم من قبلها.

وذكر الحافظ المنذري في كتابه (الترغيب والترهيب) عددا من هذه الأحاديث، منها: عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ويْل: واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره». رواه أحمد، والترمذي إلا أنه قال: «واد بين جبلين يهوي فيه الكافر سبعين خريفا قبل أن يبلغ قعره». ورواه ابن حبان في صحيحه بنحو رواية الترمذي، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

ورواه البيهقي من طريق الحاكم، إلا أنه قال: «يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يفرغ من حساب الناس».

قال الحافظ: رووه كلهم من طريق عمرو بن الحارث عن درّاج عن أبي الهيثم إلا الترمذي؛ فإنه رواه من طريق ابن لهيعة عن درّاج، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن درّاج (1).

وعن أبي سعيد أيضا عن النبي ﷺ قال في قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] قال: «جبل من نار يكلف أن يصعده، فإذا وضع يده عليه ذابت، فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله عليه ذابت، فإذا رفعها عادت، يصعد سبعين خريفا، ثم يهوي كذلك». رواه أحمد، والحاكم من طريق دراج أيضا، وقال صحيح الإسناد.

---

(1) الحديث رواه أحمد (٣/ ٧٥) والترمذي في التفسير (٣١٦٤) والطبري (١٣٨٧) وابن حبان (٧٤٦٧) والحاكم (٢/ ٥٠٧) و(٤/ ٥٩٦) والبيهقي في البعث (٤٦٥). والغريب أن الحاكم صححه والذهبي وافقه مع أنه قال في موضع آخر: دراج واه. وكذا ضعفه في الميزان - الترجمة (٢٦٦٧). وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢١): الحديث بهذا الإسناد مرفوعا منكر.

ورواه الترمذي من طريق ابن لهيعة عن درّاج مختصرا قال: «الصعود: جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفا، ويهوي به كذلك أبدا». وقال: غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث ابن لهيعة.

قال الحافظ المنذري: رواه الحاكم مرفوعا كما تقدم من حديث عمرو بن الحارث عن درّاج عن أبي الهيثم عنه.

ودراج قصاص معروف، وهو ضعيف عند المحققين من علماء الحديث، وخصوصا في روايته عن أبي الهيثم.

ورواه البيهقي عن شريك عن عمار الدُّهني عن عطية العوفي عنه مرفوعا أيضا، ومن حديث إسرائيل وسفيان كليهما عن عمار عن عطية عنه موقوفا بنحوه بزيادة.

ومن المعروف أن عطية العوفي ضعيف، فلا يُعوَّل على ما رواه، كما لا يُعوَّل على درّاج.

ومن ذلك: ما رواه الإمام الطبري في تفسيره عن أبي أمامة الباهلي مرفوعا: «لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم، ما بلغت قعرها خمسين خريفا، ثم تنتهي إلى(غيّ) و(أثام)». قال: قلت: ما غيّ وأثام؟ قال: «بئران في أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار»، وهما اللذان ذكرهما الله في كتابه: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. وقوله في الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا...﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

ذكر هذا الحديث الإمام ابن كثير في تفسيره، ثم قال: هذا حديث غريب، ورفعه منكر(١). هذا مع أن كلمة (غَيّ) هي مصدر (غَوَى) يَغْوِي. وهو مقابل الرشد. كما قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولهذا روي معناه عن ابن عباس فقال: خسرانا، وقال: قتادة: شرا. وعن ابن زيد: أنه الضلال. وروي عن ابن مسعود قال في تفسير ﴿غيا﴾: واد في جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم. ولكنه منقطع عنه.

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ / ١٢٨ طبعة الحلبي.

وعن عبد الله بن عمرو قال: : (أثام): واد في جهنم! ومعروف أن ابن عمرو أخذ كثيرا عن أهل الكتاب.

ونقل ابن كثير عن السدي قال: أثاما: جزاء. قال: وهذا أشبه بظاهر الآي، وبهذا فسره بما بعده مبدلا منه، وهو قوله تعالى: ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي يكرر عليه ويغلظ، ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ أي حقيرا ذليلا (١).

والأثام مشتق من الإثم، والمراد في الآية: جزاؤه. كما أن المراد بالغي: جزاؤه أيضا، وهو مجاز معروف، يطلق السبب ويراد المسبب عنه.

ومن هذا الباب نفسه نجد ما روي في تفسير كلمة (طوبى) المذكورة في القرآن في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ [الرعد: ٢٩].

فسرها ابن عباس بقولهم: طوبى لهم: فرح لهم وقرة عين. وقال قتادة: حُسنى لهم. وعكرمة: نُعمى لهم. وإبراهيم النخعي: خير لهم، أو: كرامة من الله لهم. والضحاك: غبطة لهم. قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة، بل قال ابن كثير: هذه الأقوال واحدة.

لأن (طوبى) فُعلى من الطيِّب، أي العيش الطيِّب لهم، وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطيب. وقال الزجاج: طوبى: فُعلى من الطيب، وهي الحالة المستطابة لهم، والأصل: طُيبى، فصارت الياء واو، لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا: موسر وموقن (٢).

ومع وضوح هذا رأيناهم يروون عن النبي ﷺ أن (طوبى) شجرة في الجنة، من أوصافها كذا وكذا. وأن النبي سئل عنها مرة فقال: «أصلها في داري، وفروعها في الجنة». ومرة قال: «أصلها في دار عليّ، وفروعها في الجنة . . .». ولما سئل عن اختلاف الإجابتين، قال: «داري ودار عليّ غداً في الجنة واحدة في مكان واحد»! (٣)

ولوائح الوضع على هذا ظاهرة.

وقد روى عبد الرزاق بسنده حديثا عن عتبة بن عبد (السُّلَمي)، ذكره القرطبي في تفسيره: أنها شجرة في الجنة (٤). وروى ابن حبان حديثا عن أبي سعيد الخدري: أن طوبى «شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» (٥). وحديث ابن حبان فيه دراج

---

(١) نفسه ص ٣٢٧.
(٢) تفسير القرطبي ج ٩ / ٣١٦.
(٣) نفسه ص ٣١٦.
(٤) نفسه ص ٣١٧.
(٥) الإحسان (٧٤١٣).

عن أبي الهيثم، وهو إسناد ضعيف معروف، ولم أبحث في إسناد عبد الرزاق، ولكني أرده لمتنه أو لمضمونه من ناحيتين:

الأولى: أن كلمة (طوبى) مثل كلمة (ويل) مستعملة في الجاهلية والإسلام، فمن أثنوا عليه قالوا: طوبى له، ومن ذموه قالوا: ويل له. ولم يخطر ببالهم شجرة في الجنة، ولا واد في جهنم!

الثانية: لو صح هذا عن الرسول الكريم، فكيف خفي على أئمة التفسير من سلف الأمة، أمثال ابن عباس وقتادة وعكرمة والنخعي والضحاك؟

الروايات الموضوعة والواهية:

وإذا كان على مفسر القرآن - أو قارئ كتب التفسير - أن يحذر من هذه الأحاديث المكذوبة والواهية، وما دسته من سموم، وما تركته من آثار، فإن عليه كذلك أن يحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة التي حُشي بها كثير من كتب التفسير، وربما كل كتب التفسير، كما يلحظ الدارس وخصوصًا ما كان موقوفًا على بعض الصحابة، مثل علي وابن عباس وابن مسعود وأنس وغيرهم، وما كان منسوبًا إلى بعض التابعين مثل مجاهد وقتادة وعكرمة والحسن وابن جبير وغيرهم، أو منسوبًا إلى من بعدهم من أهل العلم.

مثال ذلك ما ذكره المنذري عن ابن مسعود (رضي الله عنه) في تفسيره ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ [مريم: ٥٩]. قال: «واد في جهنم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات». رواه الطبراني، والبيهقي من رواية أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود ولم يسمع منه، ورواة بعض طرقه ثقات.

وفي رواية للبيهقي قال: «نهر في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم». قال وإسناد هذه جيد لولا الانقطاع.

وما قيمة رواية منقطعة عن ابن مسعود؟ ثم ما يدرينا - لو صح عنه - لعله أخذ كلامه من بعض أهل الكتاب؟

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) في قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا**﴾ [**الكهف**: ٥٢] قال: (واد من قيح ودم) رواه البيهقي، وغيره من طريق يزيد بن درهم، وهو مختلف فيه.

وعن شُفيّ بن ماتع قال: «إن في جهنم قصراً يقال له: «هَوَى» يُرمى الكافر من أعلاه أربعين خريفًا قبل أن يبلغ أصله». قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**﴾

[طـــه : ٨١] . وإن في جهنم واديًا يُدعى «أثامًا» فيه حيات وعقارب، فقار إحداهن مقدار سبعين قُلة سم، والعقرب منهن مثل البغلة الموكفة تلدغ الرجل، ولا يلَهيه ما يجد من حرّ جهنم عن حموة لدغتها، فهو لمن خلق له. وإن في جهنم واديا يُدعى (غيّا) يسيل قيحا ودما. وإن في جهنم سبعين داء كل داء مثل جزء من أجزاء جهنم». رواه ابن أبي الدنيا موقوفا عليه، وفي صحبته خلاف.

وآثار الافتعال والمبالغة واضحة في هذا الأثر الغريب. وليت الحافظ المنذري صان كتابه (الترغيب والترهيب) عن مثل هذه الأحاديث التي لا يصححها هو من وجهة النظر الحديثية، ولهذا حذفتها كلها من كتابي: (المنتقى من الترغيب والترهيب).

وكان مثل عبد الرزاق، وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن جرير الطبري يجمعون في تفسيرهم الصحيح والحسن، والضعيف والمنكر، بل الموضوع أحيانا، من الأحاديث المرفوعة، والروايات الموقوفة والمقطوعة.

وإذا أخذنا مفسرا كابن عباس مثالا لنا فيما نقوله، وجدنا الطرق إليه تختلف قوة وضعفا، وقبولا وردا.

فهناك طريق معاوية بن صالح عن على بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهذه هي أجود الطرق عنه. وعليها يعتمد الإمام البخاري فيما يعلقه في صحيحه عن ابن عباس. وقد انتقد بعضهم هذه الطريق بأن ابن أبي طلحة لم يسمع التفسير من ابن عباس مباشرة، بل عن طريق مجاهد أو سعيد بن جبير . . . ولكن إذا عرفت الواسطة - وهو ثقة - فلا ضير في ذلك (١) كما قال ابن حجر.

ونحوها طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، على ما في عطاء بن السائب من كلام، فمن المعلوم أنه قد اختلط، أي تغير حفظه واضطرب في أواخر عمره.

ودونها: طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو ابن جبير عن ابن عباس. وإسنادها حسن. فابن إسحاق مختلف فيه، ومتَّهم بالتدليس فتقبل روايته إذا صرح بالتحديث عن الثقات.

---

(١) الإتقان (٤/ ٢٠٧).

ودونها: طريق إسماعيل السدي الكبير عن أبي مالك أو عن أبي صالح عن ابن عباس. والسدي هذا مختلف فيه، ولكن روى له مسلم وأهل السنن الأربعة.

وهناك طريق ابن جريج عن ابن عباس، وهذه تحتاج إلى نظر ودقة في البحث، لأن فيها الصحيح والسقيم، لأن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع.

وهناك طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس، وهى منقطعة إليه، لأن الضحاك روى عنه ولم يلقه. وفي هذه الطريق من الضعفاء من روى عن الضحاك مثل بشر ابن عمارة عن أبي روق عنه.

وهناك طريق عطية العوفي عن ابن عباس، وعطية ضعيف.

وطريق مقاتل بن سليمان، وقد ضعفوه، وقد يروي عن مجاهد والضحاك ولم يسمع منهما. وقد كذبه غير واحد، ولم يوثقه أحد.

وهناك طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وهذه هي أوهى الطرق عنه. فإن انضم إلى طريق الكلبي رواية محمد بن مروان السدي الصغير، فهي سلسلة الكذب، كما قال ابن حجر والسيوطي وغيرهما.

ومع هذا فإن المفسرين المتقدمين دونوا هذه الروايات بعُجَرها وبُجَرها، حتى أوهى الطرق عن ابن عباس كثيرا ما يخرج منها الثعلبي والواحدي (١).

وقد كان عذر المتقدمين في سياق هذه الروايات: أنهم يذكرونها بأسانيدها، معتقدين أنهم بذلك قد برئوا من عهدتها بذكر سندها. كما قيل: من أسند لك فقد حملك. أي حملك البحث عن رواته ومبلغهم من العدالة والضبط.

وكان العلماء في عصرهم يقدرون على تتبع الأسانيد ونقدها، ومعرفة حال رجالها. ولهذا لم يكونوا - في أغلب الأحيان - يعقبون عليها بتصحيح أو تضعيف.

ثم جاء من بعدهم فنقل عنهم هذه الأقوال والروايات بعد حذف أسانيدها، فظنها من ظنها من المتأخرين ثابتة وهي غير ثابتة. وهذا ما أوقع كثيرا من المعاصرين في الخطأ حيث يكتفون بنقل الرواية عن الطبري والزمخشري والنسفي والرازي والخازن وغيرهم. وكأن مجرد هذه النسبة تغنيهم عن البحث في قيمة الروايات، ومقدار ثبوتها، ومدى قوة أسانيدها.

---

(١) انظر: «التفسير والمفسرون» للدكتور محمد حسين الذهبي ج ١ ص ٧٧ - ٨١، والإتقان ج٢ ص ١٨٩.

وحسبك أن تقرأ ما نقله كثير من هؤلاء المفسرين في قصة زينب بنت جحش، وطلاقها من زوجها الأول زيد بن حارثة، وزواجها من رسول الله ﷺ، وما جاء في شأنها في سورة الأحزاب، وعتاب الله لرسوله في هذا الشأن. وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا** ﴾ [**الأحزاب**: ٣٧].

فقد جعلت الروايات من سبب نزول هذه الآية قصة حب عاطفي تخيله متخيل، أو افتراه مفتر، زعم أن زينب ظهرت للنبي ﷺ يوما بعد زواجها من زيد، فرآها فتعلق قلبه بها، ورجع وهويردد: سبحان مقلب القلوب! ولكنه كتم هذا الحب . . . إلخ حتى نزلت الآية.

وهذا الهراء لا دليل في الآية عليه، ولم تصح به رواية، كما لا تسنده دراية. بل الآية تقول: ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** ﴾ والذي أبداه الله هو زواجه منها، وليس حبه لها، كما زعم الزاعمون! ومع هذا تعلق به المستشرقون والمبشرون، وجعلوا منه قصة درامية غرامية، يتخذون منها وسيلة للطعن في محمد ﷺ، وحجتهم أن ذلك منقول في أمهات كتب التفسير.

وأعجب من ذلك تعلق بعض المعاصرين من المسلمين، الذين يكتبون في التفسير أو السيرة، بهذه الروايات، بدعوى أنها في كتب التفسير (١).

ورحم الله الإمام الحافظ ابن كثير، فقد قال عند تفسير الآية المذكورة:

ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثارا عن بعض السلف - رضي الله عنهم - أحببنا أن نضرب عنها صفحا، لعدم صحتها، فلا نوردها. وقد روى الإمام أحمد ههنا أيضا حديثا من رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه فيه غرابة تركنا سياقه أيضا (٢).

وقد رد كثير من المعاصرين هذه الروايات، معتمدين على النقد الداخلي لها مثل الدكتور هيكل في (حياة محمد) (٣)، والشيخ محمد الغزالي في (فقه السيرة) (٤).

---

(١) مثل الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في كتابها (نساء النبي).
(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٤٩١ طبعة الحلبي.
(٣) ص ١٧٥ - ١٨٢ الطبعة الحادية عشرة. (٤) ص ١١٦ - ١١٨ ط. ثالثة.

ومثل ذلك ما يذكره المفسرون ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، من قصة (الغرانيق) وهي قصة مرفوضة لا تقوم على ساقين، ولا يؤيدها نقل صحيح ولا عقل صريح[(١)].

وقد قال ابن كثير: قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة، ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة. ولم أرها مسندة من وجه صحيح[(٢)].

ولكنه ـ رحمه الله ـ لم يصنع هنا ما صنع في قصة زينب، حيث ضرب هناك صفحا عن الروايات الضعيفة ولم يوردها أصلا. أما ههنا فحكم بضعفها ولكنه ذكرها. والعجب هنا: أن العلامة الحافظ ابن حجر ـ على فضله وسعة حفظه ـ قال هنا قولا يستغرب من مثله. فقد ذكر أنها وردت من طرق كثيرة، كلها إما ضعيف، وإما منقطع. قال: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا. وأيد ذلك بحديثين مرسلين قال: إنهما على شرط الصحيحين! وهما من كلام بعض التابعين!

قال ابن حجر: وقد تجرأ أبو بكر ابن العربي كعادته فقال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها. قال: وهو إطلاق مردود عليه، وكذا قول عياض: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده.

وحاول ابن حجر الدفاع عن الروايات الواردة، وهي لا تستحق هذا الدفاع[(٣)].

وأعتقد أن موقف ابن العربي وعياض أصوب من موقف ابن حجر. وعيب كثير من

---

(١) ومجملها: أن الرسول الكريم، وهو يقرأ سورة النجم، ألقى الشيطان على لسانه هذه الفقرة بعد قوله: ﴿أفرأيتم اللات والعزى* ومناة الثالثة الأخرى﴾ ـ وهي: «تلك الغرانيق العلا. وإن شفاعتهن لترتجى»!! فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا قبل اليوم بخير، فسجد وسجدوا. فنزلت هذه الآية، يعني: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ..﴾، الآيات من سورة الحج. وإقحام هذه الكلمات في هذا السياق مرفوض. وما بعده يرد عليه.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٢٩. وقد ألف المحدِّث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رسالة سماها: (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) بين فيها بالأدلة العلمية بطلان تلك الحكاية. فلتراجع. وانظر: البحث القيم المطول للعلامة الشيخ محمد الصادق عرجون في كتابه (محمد رسول الله) جـ٢: ٣٠ـ ١٥٥ تحت عنوان: الغرانيق قصة بلهاء متزندقة! نشر دار القلم بدمشق.

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٣٨ـ ٤٤٠) طبعة السلفية.

الحفاظ المتأخرين أن الحفظ أصبح أغلب عليهم من النظر، وأن الرواية طغت على الدراية، فلذا يصعب عليهم الحكم على حديث بالوضع كما يفعل الأئمة الذين جمعوا بين الفقه والنظر، وبين الرواية والأثر، مثل ابن تيمية مثلا، وقبله ابن الجوزي. وترى هذه التمحلات في تعقيب ابن حجر على شيخه الحافظ العراقي في رسالة: (القول المسدد في الذب عن المسند).

ومن تأمل سياق السورة يوقن بأنها لا تقبل بحال تلك الكلمات المقحمة. إذ كيف يمدح آلهة قريش، ويقول عقبها مباشرة: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم: ٢٣].

ومثل هذه الروايات الضعيفة المتهافتة يفتح لها المستشرقون صدورهم، ويأخذونها مسلّمين، لأنها توافق هواهم، وتخدم فكرتهم، في حين يردون ـ كثيرا ـ الروايات الصحيحة إذا عارضت اتجاههم.

٦ـ الثقة بالإسرائيليات

ومن محاذير التفسير، ومزالق المفسرين: الثقة بـ (الإسرائيليات) التي حشيت بها كتب التفسير ـ وخصوصا في قصص الأنبياء والمؤمنين في القرآن ـ والتي تسربت أو تسللت إلى هذا التراث التفسيري فشوهت وجهه، وكدرت صفاءه، بما تحمل من خرافات وأباطيل راجت بضاعتها بين اليهود والنصارى، ثم أرادوا ترويجها بين المسلمين. وكثير منها لا وجود له في كتب القوم المعتمدة، وإنما هو مما انتشر شفاها بين عوامهم، فنقله من نقله منهم ـ عن جهل وغفلة أو عن سوء نية ـ إلى أمة الإسلام.

وقد بدأ هذا التسرب ـ للأسف الشديد ـ منذ عهد مبكر. أي من عهد الصحابة والتابعين، على أيدي أمثال: كعب الأحبار، ووهب بن منبه وغيرهما ممن دخل في الإسلام من أهل الكتاب. وكذلك ما وصل إلى المسلمين من كتب اليهود والنصارى.

ولكن التسرب كان في أول الأمر قليلا ثم كثر، ضيقا ثم اتسع، عفويا ثم طفق يأخذ صفة الكيد والتدبير، والدس المتعمد.

وكأن اليهودية حين منيت أمام دعوة الإسلام بالهزيمة العسكرية، في المدينة وخيبر وغيرهما، أرادت أن تقاوم الإسلام بسلاح آخر يعوضها عن هزيمتها، وذلك هو سلاح الغزو الثقافي، فدست إسرائيلياتها المنكرة، في غفلة من الزمن، فلم تمض برهة حتى غصّت بها كتب المسلمين.

هذا مع أن القرآن الكريم، قد سجل على أهل الكتاب عامة واليهود خاصة، تحريفهم لكتبهم، وقولهم على الله بغير علم، وإن منهم لفريقا: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة: ٧٨]. وأنهم ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [البقرة: ٧٩]. وأنهم ﴿نَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]. وأنهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦ والمائدة: ١٣]. إلى آخر ما دمغهم الله تعالى به من صفات السوء.

كيف تسللت الإسرائيليات؟:

ورد في الحديث: أن الرسول - ﷺ - رأى صحيفة من التوراة في يد عمر بن الخطاب، فغضب وقال: «أو متهوكون فيها (أي أمتحيرون في ملتكم) يا بن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية. والذي نفسي بيده، لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني»[١].

فكيف مع هذا تساهل المسلمون في الأخذ عن أهل الكتاب، وعن بني إسرائيل على الخصوص؟ يبدو لي أن هناك سببين لهذا التساهل:

أولهما: ما فهموه من حديث البخاري عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار». وقد ذكره ابن كثير في مقدمة تفسيره، مستدلا به على جواز التحدث عنهم فيما لا نعلم كذبه من ديننا.

وسبب آخر جعلهم يروون هذه الإسرائيليات في التفسير، وهو أن كثيرا منها يتعلق بأمور مسكوت عنها، ليست مما علم المسلمون صحته مما بأيديهم مما يشهد له الحق، ولا مما علموا كذبه بما عندهم مما يخالفه. ولكنها أشياء لا من هذا القبيل ولا ذاك، فلا تُصدَّق، ولا تكذَّب، وتجوز - على هذا - حكايتها، وغالبها مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

قال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره، وهو منقول من رسالة شيخه ابن تيمية: «ولهذا يختلف أهل الكتاب في مثل هذا كثيرا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون مثل أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم! وعدتهم، وعصا موسى من أي شجر كانت! وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة،

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ١/ ١٧٣، ١٧٤): رواه - عن جابر - أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه مجالد ابن سعيد، ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما. وفي الباب عن عمر عند أبي يعلى، وعن عبد الله بن ثابت، عند أحمد والطبراني، وعن أبي الدرداء عند الطبراني، ولا يخلو طريق منها من ضعف. وبعضهم حسنه، ولعله بتعدد طرقه. انظر: الفتح الرباني للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا (١ : ١٧٥).

ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز. كما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴾ [الكهف: ٢٢] إلى آخر الآية».

وقد عقب على ذلك العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر - رحمه الله - في كتابه (عمدة التفسير)، فقال وأحسن فيما قال: «إن إباحة التحدث عنهم - فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه - شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن، وجعله قولا أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها، شيء آخر. لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه! وحاش لله ولكتابه من ذلك.

وإن رسول الله - ﷺ - إذ أذن بالتحدث عنهم، أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم. فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غَفْرا.

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسه في تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف، بعد أن ذكر أقوالاً في إبليس واسمه، ومن أي قبيل هو: (وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه، لمخالفته للحق الذي بأيدينا. وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والسادة و الأتقياء، والبررة والنجباء).»(١).

وقال في أول سورة ق: «وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ق، جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف!! وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، بما رأى من جواز الرواية عنهم، مما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبّسون به على الناس أمر دينهم. كما افْتُرِيَ في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم. فكيف بأمة إسرائيل، مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور،

---

(١) عمدة التفسير للشيخ أحمد شاكر ج١: ص ١٥.

وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته . . . ؟! وإنما أباح الشارع في الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوِّزه العقل. فأما فيما تحيله العقول، ويُحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل».

وقال عند تفسير الآيات ٤١ ـ ٤٤ من سورة النمل، وقد ذكر في قصة ملكة سبأ أثرا طويلا عن ابن عباس، وصفه بأنه (منكر غريب جدا) ثم قال: «والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حرف ونسخ، وقد أغناها الله ـ سبحانه ـ عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع، وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة»[(1)].

ولابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره تعقيبات كثيرة من هذا النوع على الإسرائيليات، تتضمن إنكاره عليها، ورفضه لها، وإن كان يذكرها تبعا لمن قبله. وفي بعض الأحيان يرفض ذكرها بالكلية، مبقيا القرآن على إجماله، دون الخوض في تفصيلات لم يأت بها حديث ثابت عن المعصوم.

وذلك كما في تفسير قوله تعالى في سورة (ص): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ...﴾ [ص: الآيات ٢١ - ٢٥]. فقد قال ابن كثير:

«قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده: لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عن الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله ـ عز وجل ـ فإن القرآن حق، وما تضمنه فهو حق أيضا»[(2)].

وكنت أود أن يقف ابن كثير هذا الموقف من قصة سليمان في قوله تعالى في سورة (ص) أيضا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]. ولكنه ـ رحمه الله ـ أطال وأطنب في سرد الروايات العجيبة الغريبة المروية عن ابن عباس وقتادة والسدي ومجاهد وكعب الأحبار وغيرهم من مفسري السلف، وكلها مما لا يقبله عقل، ولا يصدقه نقل. وقد ذكر حديثا منها رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ ثم قال: إسناده إلى ابن

(١) عمدة التفسير ج١: ص ١٧. (٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣١ ط عيسى الحلبي.

عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه . . . إلى أن قال:

«وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف ـ رضي الله عنهم ـ كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب» (١).

فلم إذن تسويد الصفحات، وإضاعة الأوقات فيما لا يسنده علم ولا هدى ولا كتاب منير؟!

وقد قال ابن كثير عند تفسير الآيات: ٥١ ـ ٥٦ من سورة الأنبياء: «والذي نسلكه في هذا التفسير: الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها فقط من الكذب المروج عليهم». أ. هـ. أقول: وليته أعرض عنها كلها لا عن كثير منها فقط، فإن القليل منها إثمه أكبر من نفعه.

ومن الكلمات البليغة المعبرة عن الإنكار والسخط على هذه الإسرائيليات، ووجوب تنزيه القرآن عنها: كلمة لابن عباس رواها البخاري في صحيحه، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير، عند تفسير الآية ٧٩ من سورة البقرة. فقد قال ابن عباس: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرأونه محضا لمْ يُشَبْ؟! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! ولا والله، ما رأينا منهم أحدا قد سألكم عن الذي أنزل إليكم».

وهذه الموعظة القوية الرائعة، رواها البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه (٢).

هذه الكلمة القوية من ترجمان القرآن ترد على ما زعمه المستشرق المعروف (جولدتسيهر)(٣) من أن ابن عباس توسع في الأخذ عن أهل الكتاب، وتبعه في ذلك الأستاذ أحمد أمين في (فجر الإسلام) (٤).

فكيف تُقبل هذه الدعوى أو هذه التهمة على ابن عباس، وهذا القول البليغ الثابت عنه في الصحيح، والذي رواه البخاري في مواضع ثلاثة من صحيحه: ينقض هذه الدعوة بجلاء؟!

---

(١) المصدر نفسه ٤ ص ٣٤ ـ ٣٧.   (٢) مقدمة عمدة التفسير ج ١ ص ٩١.
(٣) انظر: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٤) فجر الإسلام ص ٢٤٨. وانظر: التفسير والمفسرون ج١ / ٧٢ ـ ٧٣.

٧ـ الشرود عن إجماع الأمة

ومن المزالق الخطرة التي نلحظها عند بعض المعاصرين: إهمال كل ما جاء عن سلف الأمة، والإعراض المتعمد عن تراثها الغني، والبدء من الصفر، من لا شيء، كما يبدأ من لا جذور له، ولا أصل له يرجع إليه.

ومثل هذا جدير بأن يسقط في حفرة، وأن يخرج من حفرة ليقع في هاوية. فقد فرض على نفسه حالة طفولة عقلية، فالطفل هو الذي يحيا بلا ماضٍ، ولا تراث، ويكتسب معارفه أولا بأول، دون مخزون تراثي لديه.

لهذا نبهنا من قبل [١]: أن من الضوابط المهمة لسلامة الفهم للإسلام، ولنصوص قرآنه، وسنَّة نبيه: التمسك بما أجمعت عليه الأمة، واستقر عليه اعتقادها وتشريعها وفكرها، وتأسست عليه قيمها وأصول تقاليدها، وتفرَّعت عليه آدابها وأنواع سلوكها وعلاقاتها.

الإجماع الذي نعنيه هنا:

ومعنى هذا أني لا أريد بالإجماع هنا: الإجماع الأصولي فحسب، الذين قد ينازع فيه منازعون: في إمكانه، أو في وقوعه إذا أمكن، أو في العلم به إذا وقع، أو في حجيته إذا عُلِم.

إنما أريد ما هو أعمق من ذلك: أريد ما يمثل اتجاه الأمة العقلي والنفسي، الاعتقادي والسلوكي. الذي توارثته خلال القرون، وتلقاه الخَلَف عن السلَف، والأبناء عن الآباء، حتى أصبح جزءا من كيان الأمة الفكري والشعوري، لا يجوز أن تنفصل عنه أو ينفصل عنها.

---

(١) في كتابنا: (المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنَّة).

والقضايا التي أجمعت عليها الأمة بيقين، قد لا تكون كبيرة في الكم، كثيرة في العدد، ولكنها بلا ريب كبيرة في الكيف، ثقيلة في الوزن، خطيرة في الأثر.

إن هذه المواضع الإجماعية - كما ذكرت في بعض كتبي من قبل - هي التي تمثل (الثوابت) القطعية، التي لا يجوز تغييرها ولا الخروج عليها، ولا التفريط فيها، وهي التي تجسِّد كذلك الوحدة الاعتقادية والفكرية والشعورية والسلوكية للأمة، وتجعل من المسلمين (أمة) واحدة، كما أمر الله تعالى ورسوله، لا (أمما) شتى، كما أراد أعداؤها ويريدون.

وأساس ذلك: أن محمدا ﷺ هو خاتم النبيين، وأن رسالته هي خاتمة الرسالات السماوية، ولهذا كانت أمته هي آخر الأمم، كما أنها خير الأمم وأوسطها، والشهيدة عليها.

ومن أجل ذلك تكفل الله تعالى ببقاء هذا الدين، ببقاء مصادره محفوظة، وبقاء أمته قائمة عليه، إلى أن يأتي أمر الله.

ولهذا صح في الأحاديث: أن الله تعالى لن يهلك هذه الأمة بما أهلك به الأمم من قبلها، ولن يُسلط عليها عدوا من غيرها يستأصل شأفتها، وبهذا يستمر بقاؤها المادي.

ولكن البقاء الحق للأمة إنما يكون ببقائها المعنوي، أي باستمرارها في رسالتها، ولو في صورة طائفة منها، تظل داعية إلى الحق وإن كثر المبطلون، ثابتة عليه وإن انحرف المنحرفون، مجاهدة في سبيله وإن قعد القاعدون.

وهذا ما وعد الله تعالى به في قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [**الأعراف**: ١٨١].

وأكدت ذلك صحاح الأحاديث التي تكاثرت وتوافرت (١) بأنه: «لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

كما عبر عن هذا المعنى الأحاديث التي أخبرت بأن الله تعالى لا يجمع هذه الأمة على ضلالة، والتي حضت على لزوم جماعة المسلمين، وأن يد الله على الجماعة، وحذرت من مفارقة الجماعة، والشذوذ عنها (٢).

وبهذا ثبتت هذه الحقيقة العلمية التاريخية، وهي: (عصمة مجموع الأمة) من الضلالة.

---

(١) صحت من حديث عمر، والمغيرة، وثوبان، ومعاوية، وأبي هريرة، وقرة بن إياس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وعقبة بن عامر، وجابر بن سمرة، وأبي أمامة. انظر: الأحاديث من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦)، ومن (٧٧٠١) إلى (٧٧٠٤) من صحيح الجامع الصغير وزيادته.

(٢) انظر على سبيل المثال: الحديث (١٨٤٨)، والحديث (٨٠٦٥) من صحيح الجامع الصغير وزيادته.

قد يضل بعض أفرادها، ويزل بعض علمائها، وتنحرف بعض طوائفها، ولكن يستحيل - حسب وعد الله تعالى وإخبار رسوله - أن تضلّ كلها، وتخطئ طريق الصواب جميعا، وتستمر عليه، ولا تجد من يردها إلى الحق، ويصوب لها الخطأ، ويهديها سواء السبيل.

إن ذلك لن يكون إلا حينما يؤذن الله بزوال هذه الدنيا، حين يقبض الله العلم بقبض العلماء، فيتخذ الناس رؤوسا جهالا، فيُسألون، فيفتون بغير علم، فيَضلون ويُضلون، كما صح في الحديث المتفق عليه (١).

أما قبل ذلك، فلن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة، ومن الأئمة الذين يهدون بالحق وبه يعدلون، ومن الطائفة القائمة على أمر الله إلى أن تقوم الساعة.

وهذا هو الموافق للحكمة الإلهية، إذ لا يُتصور أن تضل الأمة كلها، وهي الأمة الأخيرة ورسالتها هي آخر الرسالات، وكتابها هو آخر كتب الله المنزلة، ونبيها هو خاتم النبيين، فلا أمل في نبي آخر يأتي ليبني أمة من جديد. ومن هنا حفظ الله القرآن، كتاب الأمة الخالد، وتكفل سبحانه بذلك: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وحفظ القرآن يتضمن حفظ السنة المبينة له، لأن حفظ المبيَّن يقتضي حفظ بيانه.

الاهتداء بهدي الصحابة وتابعيهم بإحسان:

ومن دلائل التمسك بهذا المعلم البارز، وهذا الضابط المهم (عصمة مجموع الأمة): الاهتداء بهَدْي الصحابة ومن تبعهم بإحسان، من سلف هذه الأمة وخير قرونها، الذين أثنى عليهم الله تعالى، ورسوله ﷺ (٢). وأنا أعني هنا الاهتداء بهم في منهجهم الكلي في فهم النصوص، وحسن فقههم لأهدافها، ووصل جزئياتها بكلياتها، وعدم الشذوذ عنهم، والخروج على إجماعهم الثابت والمتيقن، الذي يدل عليه اشتهار الاعتقاد به دينا، والفتوى به فقها، والعمل به تطبيقا.

(١) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو: اللؤلؤ والمرجان (١٧١٢).

(٢) أثنى الله عليهم في أواخر سورة الأنفال (٧٢ - ٧٥)، وفي سورة التوبة (١٠٠)، وفي سورة النحل (٤١، ٤٢) و (١١٠)، وفي سورة الحج (٤٠، ٤١، ٥٨، ٥٩)، وفي سورة الفتح (١٨ و ٢٩)، وفي سورة الحديد (١٠)، وفي سورة الحشر (٨ - ١٠). كما أثنى عليهم الرسول في عدد من الأحاديث الصحيحة المستفيضة، مثل: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ...». «لا تسبوا أصحابي ...». وغيرهما.

فلا يسوغ لأحد ـ كائنا ما كان مبلغه من العلم ـ في القرن الخامس عشر، أن يطلع علينا في فهم الدين بمنهج يشذ به عن منهج الأمة كلها، ويخطئها فيما أجمعت عليه خلال أربعة عشر قرنا، ويضلل الراسخين والربانيين من علمائها وفقهائها، ابتداء من الصحابة فمَن بعدهم، ويتهم خير أمة أُخرجت للناس بأنها ضلَّت عن الحق طوال تاريخها، حتى ظهر حضرته، فأتى بما لم يأت به الأوائل، واكتشف ما غاب عن الخلفاء الراشدين، وعن الأئمة المجتهدين، والعباقرة المحققين، وبحور الرواية والدراية، وكواكب المعرفة والهداية، وشوامخ النبوغ والأصالة، الذين حفل بهم تاريخ هذه الأمة.

لا يُفهم من كلامي هذا أننا نحجر على فضل الله تعالى أن يؤتي عبدا من عباده، فهما في كتابه أو سنة نبيه، يضيف به شيئا جديدا، يُضَم إلى ما لدينا من كنوز وخزائن، خلفها لنا أسلافنا الصالحون. فكم ترك الأول للآخر، وكم في الإمكان أبدع مما كان. وقد نادينا وأكدنا، ولا نزال نادي ونؤكد أن الاجتهاد فريضة وضرورة، ما دام صادرا من أهله وفي محله.

لا جُناح على العالم المسلم، أو المفكر المسلم، أن يخالف المذهب السائد في الكلام أو الفقه، أو يخالف المذاهب الأربعة أو الثمانية أو العشرة أو الجمهور، ما دام ذلك صادرا عن دليل لا عن هوًى، وعن اقتناع بصير لا عن تقليد أعمى، وبعد استفراغ الوسع في البحث والطلب، لا بعد قراءات خاطفة لا تنشئ علما، ولا تسدد فكرا.

ولكن الذي ننكره أن يخرج علينا خارج في آخر الزمان ـ قليل البضاعة من العلم الأصيل عادة ـ فيتهم الأمة كلها في سلامة فكرها ووجدانها، ويزعم أنها ـ بصحابتها وأئمتها وأساطينها ـ لم تفهم كتاب ربها، ولا سنة نبيها، وأنها أخطأت الصواب، وتاهت عن الحق، وسقطت في هوة الخطأ والضلال خلال تلك القرون، وتوارثت هذا الضلال خَلَفا عن سلَف، مجمعة على الباطل، مصرة عليه، حتى جاء هو، فهُدِي وحده إلى الحق المبين، وإلى الصراط المستقيم!!

هذا ما ننكره ونشتد في إنكاره: الشذوذُ عن (سبيل المؤمنين) المتمثل في (إجماع الأمة) واتهامها بأنها (اجتمعت على ضلالة)، وهدمُ هذا السور المنيع، ليخلو الميدان لمن يريد أن يشرِّع في الدين ما لم يأذن به الله، وأن يقوّض من بنيان الدين ما شيّده الله، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل من أحكام شرعه، فيحل ما حرّم الله، أو يُحرِّم ما أحل الله، أو يُسقط ما فرض الله، أو يُلزِم بما لم يُلزِم به الله.

الذي ننكره أن يقول قائل في عصرنا، لم ترسخ قدمه في علم كتاب ولا سنة، ولا فقه ولا أصول، ولم يتلق العلم من أهله، إنما جمع قشورا من قراءات هامشية، ومطالعات سطحية، وثقافة أجنبية، يقول هذا المتطاول المتعالم: إذا سألني سائل الآن: ألا يسعكَ ما وسع الصحابة في فهم الكتاب والقرآن؟ فجوابي بكل جرأة ويقين هو: كلا، لا يسعني ما وسعهم[1]!

وهي وسيلة سهلة لتبديل الدين باسم القراءة الجديدة له، فقد كان مَن قبلنا يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله. والقرآن محفوظ لا يمكن فيه مثل هذا التبديل، فلم يبق إلا التحريف تحت ستار الفهم المعاصر، والتجديد المتطور!!

أجل. الذي ننكره أن يزعم زاعم أنه يعيد قراءة القرآن، أو قراءة السنّة من جديد، قراءة معاصرة، غير مقيَّدة بأصول التفسير، ولا بأصول الحديث، ولا بأصول الفقه، ولا بمشهور اللغة، لتكون المحصِّلة: الإتيان بشرع جديد، غير شرع محمد ﷺ، الذي تلقته الأمة بالتواتر اليقيني، شرع من صنع فكره وهواه، لا من صنع الوحي المعصوم.

ولو جاز ذلك، لم يعد لنا دين واحد تجتمع عليه الأمة في كل الأقطار، وفي شتى الأعصار، وأصبح لكل عصر دينه، ولكل قوم دينهم، بل لكل مجموعة، بل لكل فرد دين، ما دامت المعايير المفقودة، والضوابط معدومة، ومن حق كل من شاء، أن يقول في دين الله ما شاء، متى شاء، وكيف شاء.

وقد رأينا ذلك الجاهل المتعالم المتنفخ، يجيء بأقوال وتفسيرات مناقضة لكل ما أجمعت عليه الأمة طوال أربعة عشر قرنا، لم يعرفها صحابي ولا تابعي ولا تابع، ولا إمام من أئمة التفسير أو الحديث أو الفقه أو الأصول أو الكلام أو اللغة. جهل هؤلاء جميعا ـ قديما وحديثا، من السابقين واللاحقين ـ كتاب ربهم، وقرأوه ولم يفهموه، واحتجوا به ولم يعقلوه، حتى جاء حضرته، فعلم ما جهلوا، واكتشف بعبقريته ما غاب عنهم، وجاء بالعجيب الغريب الذي لم يقم عليه دليل، من علم ولا هُدى ولا كتاب منير.

زعم أن القرآن شيء والكتاب شيء آخر، والذكر شيء آخر، والفرقان شيء غير هذه كلها، واخترع من عند نفسه مضامين لكل منها!

وكذلك فسر السبع المثاني، والمحكمات والمتشابهات، والنبوة والرسالة، والبشر والإنسان، وغيرها من المفاهيم: تفسيرات غريبة منافية لإجماع الأمة في جميع عصورها،

---

(١) قال ذلك مؤلف (الكتاب والقرآن)، وهو مهندس سوري لم تتسم أنفه رائحة علوم الإسلام.

وهي تفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من الشرع ولا العقل ولا اللغة برهان.

وعدته في ذلك: الادعاء العريض، والجهل المركب، والاستقراء الناقص، والاجتراء على القول بغير علم، والاستكبار أن يأخذ العلم من أهله الخبراء به، المتخصصين فيه. مع أن القرآن ـ الذي يزعم أنه نسيج وحده في فهمه ـ يأمر بالرجوع إلى الخبراء في كل علم وفن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]. ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وقد ركز هذا المدعي المغرور على أن القرآن لا يوجد فيه ترادف قط، بمعنى أن كل كلمة فيه لها معناها ومدلولها. وهذا صحيح بالنسبة للمفهوم، وليس بالنسبة لـ (الماصدق) حسب تعبير علمائنا القدامى، أي أن المفهوم لكل كلمة يختلف، ولكن قد يكون (الماصدق) واحدا. فكلمة (القرآن) غير كلمة (الكتاب) ولكنّ كليهما قد يطلق على شيء واحد، هو الذي أنزله الله على محمد ويجمعه المصحف بين دفتيه، وهو يشمل المعنيين: فهو (قرآن) لأنه يقرأ، وهو (كتاب) لأنه يكتب، وهو (فرقان) لأنه يفرق بين الحق والباطل. وهو (ذكر) لأنه يذكّر بالله وبالدين. إلخ.

وقد يجمع بين الكتاب والقرآن في سياق واحد، كما في قوله تعالى في مطلع سورة يوسف ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١،٢]. والضمير في الآية الثانية يعود على الكتاب كما تقرره قواعد اللغة. ومثله قوله في مطلع سورة الزخرف: ﴿حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ - ٣].

بل نجد هذا في الآية الواحدة، مثل قوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]. وقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]. وقوله: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١].

فالكتاب هو القرآن المبين، والقرآن هو الكتاب المبين. يختلفان مفهوما، ولكن ما يصدقان

عليه شيء واحد. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

فالذكر هو نفسه الكتاب العزيز، وهو نفسه القرآن، كما قال في نفس السياق: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ [فصلت: ٤٤].

إن هذا الجاهل الجريء يريد أن نهيل التراب على تراثنا كله - الذي يسميه تراثا ميتا - ليفسر كل منا القرآن بما يشاء. بلا أصول ولا ضوابط. وفي هذه الحالة لا يعود القرآن (مرجعا) نحتكم إليه عند الاختلاف، ونرد إليه عند التنازع، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]. بل غدا لكل واحد قرآنه وتفسيره الخاص، فلم يعد للأمة ما ترجع إليه، وما تجتمع عليه. ولعل هذا ما يريده هؤلاء المشبوهون !! أن يكون لكل عصر قرآنه وتفسيره، بل لكل جيل، وكذلك لكل بلد، بل لكل فرد من الناس قرآنه وتفسيره الخاص. فليس هناك عقل مشترك، ولا لغة مشتركة، ولا قواسم مشتركة !

ونتيجة لهذا خرج بأمور مناقضة لحقائق الإسلام التي لا يختلف فيها اثنان، منها مثلا في مجال العقيدة:

أن الله تعالى لا يعلم الأرزاق ولا الأعمار ولا الأعمال قبل وقوعها. وهو كفر بواح، مناقض لقواطع القرآن.

ومنها في مجال الأحكام: جواز أن تظهر المرأة عارية تماما أمام محارمها، ومنهم زوج أمها، وابن زوجها !! والأمثلة أكثر من أن تحصر.

لهذا جعل القرآن من أصول المحرمات القول على الله بغير علم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقد ترقت الآية في مراتب المحرمات، حتى انتهت إلى الإشراك بالله، وهو الجرم الأكبر، ثم ترقت إلى القول على الله بلا علم، وهو أعلى مراتب ما حرم الله، وهو مما يأمر به الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩].

اتباع غير سبيل المؤمنين:

ومن دلائل القول على الله بلا علم: الإتيان بما لا أصل في كتاب ولا سنة، مما يخالف إجماع الأمة وهديها، وخصوصا في أفضل قرونها، وخير أجيالها، الذين هم القدوة في الدين لمن بعدهم، في حسن الفهم، وحسن الاتباع.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]. قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: «أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول، فصار في شق والشرع في شق. وذلك عن عمد منه، بعد ما ظهر له الحق، وتبيَّن له، واتضح له». قال: «وقوله: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقا، فإنه قد ضُمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفا لهم، وتعظيما لنبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، وقد ذكرنا طرفا منها في كتاب (أحاديث الأصول)، ومن العلماء، من ادعى تواتر معناها. والذي عوَّل عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تَحُرم مخالفته: هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها» (١).

هناك - إذن - (سبيل للمؤمنين)، يُضاف إليهم، ومعروف بهم، ومتميِّز عن سبيل غيرهم. والآية تتوعد بأشد الوعيد من اتبع غير سبيلهم، وهو سبيل مَن أناب إلى الله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥]، وهو نفسه ما سماه القرآن: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. فهو متميِّز عن طريق اليهود، وطريق النصارى، ناهيك بطريق المشركين، وطريق الملحدين الجاحدين.

هناك سبيل للمؤمنين - إذن - كما أن هناك (سبيلا للمجرمين) نبَّه القرآن عليها في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وهو نفسه

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٥٥٤ - ٥٥٥ - ط. عيسى الحلبي.

سبيل المفسدين الذي حذر منه الكليم موسى أخاه هارون، حيث قال له: ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وأولى المؤمنين بأن يضاف إليهم ذلك السبيل - سبيل المؤمنين - هم الصحابة الذين أثنى عليهم الله تعالى في سور الأنفال والتوبة والفتح والحشر وغيرها، وأثنى عليهم رسول الله ﷺ في عدد من أحاديثه. وهم - مع تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم - خير قرون هذه الأمة، وأفضل أجيالها، فهما لدين الله تعالى، وعملا به، وغيرة عليه، وجهادا في سبيله. كما شهد بذلك التاريخ الصادق الحافل.

وقد ساق العلامة ابن القيم في (إعلامه) ستة وأربعين وجها للدلالة على فضل الصحابة، ووجوب التمسك بأقوالهم وآرائهم فيما اجتهدوا فيه [(١)]. ولكن الذي يتأمل في هذه الأدلة المتضافرة، يجدها تدل على وجوب اتباع (مجموع) الصحابة، لا كل واحد منهم، واحترام ما صح إجماعهم عليه من اعتقاد أو سلوك، وخصوصا (الخلفاء الراشدين) المهديين الذين أمرنا الرسول الكريم أن نستمسك بسنَّتهم، ونعضّ عليها بالنواجذ، وما ذاك إلا لأنها امتداد للسنَّة النبوية، وقبس منها، وسير على هداها.

وهذا ما ثبت في حديث العرباض بن سارية المعروف: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودِّع ! فأوصنا. قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، وإنه مَن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنَّتي، وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدَثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة» [(٢)].

قال الشاطبي: لأنهم رضي الله عنهم فيما سنُّوه، إما متبعون لسنة نبيهم عليه السلام نفسها. وإما متبعون لما فهموه من سنته ﷺ في الجملة والتفصيل، على وجه خفي على غيرهم مثله، لا زائدا على ذلك [(٣)].

---

(١) انظر إعلام الموقعين لابن القيم: ٤ / ١٢٣ - ١٥٣ - ط. السعادة بمصر، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهو من أحاديث الأربعين النووية الشهيرة.

(٣) انظر الاعتصام: ١ / ٨٨.

وسنَّة الخلفاء الراشدين لا تعني أقوالهم الجزئية التي غالبا ما تصدر عن اجتهاد خاص، يصيب ويخطئ، إنما تعني - فيما أرى - منهجهم العام في فهم الإسلام وفي العمل به، والعمل له، مما يميِّزهم عن غيرهم، وعمن جاء بعدهم، ممن خالفهم في الفكر أو في التطبيق.

والخلفاء الراشدون - بإجماع الأمة إلا مَن شذَّ - هم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ - رضي الله عنهم، وقد كان من مزيتهم أنهم لا يقررون أمرا ذا بال إلا بعد بحث ومشاورة.

وألحقوا بهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، فاعتبروه خامس الراشدين، وهو ما تنطق به سيرته رضي الله عنه.

فالواجب على مَن يريد أن يستقي الإسلام من ينابيعه الصافية: أن يرجع إليه عند خير القرون عامة، وعند الصحابة خاصة، وعند الراشدين على وجه أخص. أي قبل أن تشوب نقاءه الشوائب، وتشوِّه جمالَ فطرته البدع القولية والعملية، التي صنعتها الأهواء والأوهام والجهالات، والتأثر بشتى الملل والنحل، بالإضافة إلى كيد الكائدين الذين يبتغون هدم الإسلام من داخله.

وقد صحَّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال: أيها الناس! قد سُنَّت لكم السُّنن، وفُرضت لكم الفرائض، وتُركتم على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يمينا وشمالا . . . وصفق بإحدى يديه على الأخرَى (١).

وقوله: «تُركتم على الواضحة» يشير إلى ما أكده رسول الله ﷺ بمثل قوله: «لقد تركتكم على المَحجبة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك» (٢).

ومن كلام خامس الراشدين عمر بن عَبد العزيز، الذي رواه العلماء وحفظوه، وعُنُوا به، وكان يعجب مالكا جدا - كما ذكر الشاطبي (٣) - قوله:

«سن رسول الله ﷺ، وولاة الأمر من بعده سُننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، مَن عمل بها مهتد، ومَن انتصر بها منصور، ومَن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا» (٤).

---

(١) ذكره الشاطبي في الاعتصام أنه صح عن عمر: ١ / ٧٧.

(٢) هو جزء من حديث العرباض بن سارية المتقدم في رواية أحمد وابن ماجه والحاكم. ورواه ابن أبي عاصم في كتاب (السنَّة) بإسناد حسن كما قال المنذري في الترغيب.

(٣) ذكره في (الاعتصام): ١ / ٨٧، وكذلك ابن القيم في (الإعلام): ٤ / ١٥١.

(٤) رواه ابن أبي حاتم عن مالك، كما في (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) للسيوطي: ٢ / ٢٢٢.

هذه السنن المتبعة، والمناهج المتوارثة، في فهم هذا الدين، وفي العمل به، لها صفة الاستمرار «ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها».

وإنما كان يعجب مالكا كلام عمر بن عبد العزيز، لأنه كان ضد الابتداع في دين الله، الذي هو مصدر الضلال والانحراف، والذي إذا فُتِح بابه فقد فتح باب شر لا يُغلق أبدا.

كان مالك يقول: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

وإنما صلح أولها بالاتباع لا بالابتداع، وبلزوم الجماعة لا بالشذوذ عنها.

قال ابن الماجشون: سمعتُ مالكا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة، لأن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينا، فلا يكون اليوم دينا[1].

فالدين قد اكتمل، والشريعة قد تم بنيانها على أرسخ القواعد، وقد قامت الحجة، واتضحت المحَجة، فلا مجال لأحد يريد أن يستدرك على الشريعة، لأنه استدراك على الله، وتعالُم على رب السموات والأرض! ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾؟! [البقرة: ١٤٠].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يشدِّدون على اتباع سُنن الراشدين أيضا، ويرون الخروج عنها اتباعا لغير سبيل المؤمنين.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: دعاني معاوية، فقال: بايع لابن أخيك (يعني يزيد). فقلت: يا معاوية! ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. فأسكتُّه عني[2]. أراد أنه ابتدع سنَّة غير سنَّة الراشدين في تولية الخلافة، وجعلها في بنيه، ولهذا سماها بعض الصحابة (كسروية) أو (قيصرية) فليست (محمدية) ولا (راشدية).

إن الخير كله في التمسك بما اجتمعت عليه الأمة، وخصوصا في خير قرونها، والوقوف في وجه الجرآء على حرماتها، العابثين بمواريثها، الدخلاء على علوم شريعتها، الذين كذَّبوا بالحق، وصدَّقوا بالباطل، وحلَّلوا وحرَّموا، وأوجبوا وأسقطوا، بأهوائهم وآرائهم، افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

---

(١) الاعتصام: ١/ ٤٩.

(٢) الدر المنثور: ٢/ ٢٢٢.

٨ـ ضعــف التكويــن العلمــي

ومن مزالق الفهم والتفسير للقرآن في عصرنا، وفي كل عصر: الضعف والقصور في (التكوين العلمي) لمن يريد أن يفهم القرآن أو يفسره، فليس القرآن كلأ مباحا لكل من هب ودب من الناس.

وقد رأينا علماءنا من قديم يشترطون لمن يفسر القرآن شروطا علمية ـ إلى جانب الشروط الدينية والأخلاقية ـ أشرنا إليها من قبل.

ومن هذه الشروط: التمكن من اللغة العربية، بحيث يعرف دلالات الألفاظ والجمل، وتنوع هذه الدلالات بين الحقيقة والمجاز، والصريح والكناية، ويعرف علوم النحو والصرف، والاشتقاق، وعلوم البلاغة، حتى لا تزل قدمه في فهم القرآن.

الضعف في اللغة العربية:

ومن فقد هذا الشرط وقع في الخطإ لا محالة. كما ذكرت في كتابي (ثقافة الداعية) عمن كان يقول: إن المرأة خلقت أولا، يعني: حواء، وإن الرجل ـ يعني آدم ـ خلق منها بعد ذلك، وإن المرأة هي أصل البشرية! ومن أين جاء بهذا الكلام؟

هو قال: إنه جاء به من القرآن، من مطلع سورة النساء. وهنا أدركت سر الخطأ عند هذا المتحدث. وهو جهله باللغة، فقد قرأ قوله تعالى من فاتحة سورة النساء: ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ ... الآية. ففهم منها أن كلمة (زوجها) تعني الرجل، وهو آدم في نظره. ولو كان آدم هو المخلوق أولا والمرأة هي التي خلقت منه لقال: خلق منها زوجتها.. وهذا هو المستعمل عرفا. يقولون عن الرجل: زوج

وعن المرأة: زوجة. وغفل هذا الرجل عن أن القرآن يجب أن تفسر كلماته وفقا لمدلولها اللغوي لا العرفي، لأن العرف دائم التبدل. واللغة التي نزل بها القرآن تسمي المرأة (زوجا) كالرجل تماما. ولهذا قال تعالى في قصة آدم: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥، والأعراف: ١٩] ولم يقل: وزوجتك. وقال في شأن هاروت وماروت: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وإنما أتي الرجل من جهله بالقرآن ولغة العرب التي نزل بها.

ومثل ذلك: الضعف في النحو، فمن لم يعرف الإعراب وقواعده لم يحسن فهم القرآن كما ينبغي، وكان حتما أن يقع في الخطأ.

كنت أناقش واحدا من الشباب الذين قرءوا كثيرا، ولكنه لم يتكون التكوين العلمي الصحيح، وكان الكلام حول (آية السيف) وما هي؟ فقال: هي قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. فسألته عن إعراب كلمة (كافة) فقال: ربما كانت حالا، قلت: هي حال فعلا، ولكن من صاحبها؟ فسكت، لأنه لم يفهم معنى قولي! قلت: أعني: أهي حال من الفاعل في الآية، وهو (واو الجماعة) في قوله (وقاتلوا) أم من المفعول به، وهو قوله (المشركين)؟ وكان كلامي كأنه طلاسم بالنسبة إليه. والأمر واضح، فإنه إذا كانت كلمة (كافة) حالا من الفاعل، وهو (واو الجماعة) كان معناها: تجمعوا كافتكم على قتال المشركين، كما يتجمعون كافتهم على قتالكم. وهذا قتال مشروع عند جميع البشر، لأنه يدخل في القتال الدفاعي.

ومثل ذلك ما قلته لبعضهم عندما استدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ – ٧٩] على حرمة مس المصحف لغير المطهر، قلت له: إن القاعدة هنا أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، فلم يع المقصود من كلامي، حتى شرحته له، وأن الضمير في قوله (لا يمسه) يحتمل أن يعود إلى الكتاب المكنون، وإلى القرآن، ولكن أقرب مذكور للضمير هو الكتاب المكنون، وهو اللوح المحفوظ، فيكون عود الضمير إليه أرجح. ومعنى: أنه ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ أنه لا يصل إليه، ولا يقترب منه إلا الملائكة، أما الشياطين فهم عنه معزولون، ولا ينبغي لهم الوصول إليه ولا يستطيعون.

ومن جهل اللغة وعلومها: سقط في حفر الأخطاء المردية، كما نرى ذلك لدى بعض

المعاصرين المجترئين. من ذلك قوله: ونلاحظ كيف عطف الحق على الكتاب حيث قال تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ...﴾ [الرعد: ١].

هذا مع أن الحق ليس معطوفا على الكتاب، بل (الحق) هنا خبر لاسم الموصول، وأما (الكتاب) فهو مضاف إليه في الجملة السابقة!

ثم قال: وكيف أن الحق ليس كل الكتاب في سورة فاطر: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ...﴾ [فاطر: ٣١].

فليس كل الكتاب عنده حقا، بل منه حق ومنه باطل. وسبب ذلك: اعتقاده أن (من) في الآية للدلالة على التبعيض، مع وضوح أنها بيانية!

ثم قال: وعندما جاءت الآيات البينات للرسل قبل محمد ـ ﷺ قال عنها أعداؤها: إنها سحر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

مع أن الآية لا تدل على أن موسى ساحر، بل مسحور! وفرق بين اسم المفعول واسم الفاعل.

فانظر إلى هذه الأخطاء الفاحشة في عدة سطور [(١)].

وفي سياق آخر يتحدث عن الآية الكريمة:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فيقول: والقريتان هنا هما: الروم والفرس. والقرية هنا من المجتمع المستقر، من فعل (قرو) ومنها جاء الاستقرار [(٢)].

وأي دارس ـ ولو قليلا ـ للغة، يدرك أن الاستقرار لم يشتق من مادة (قرو) بل من مادة (قرر) كما هو معلوم!

ولو كان الأمر كما زعم لكانت الآية: «لولا نزل هذا القرآن على إحدى القريتين العظيمتين»! إن صح تسمية الروم قرية، والفرس قرية!

ولكن اعتراضهم ينصب على الرجل المنزل عليه القرآن: أنه لم يكن من أهل المال والجاه.

---

(١) انظر: الكتاب والقرآن ص ٨٣.

(٢) نفسه ص ١١٩.

ومثل ذلك: قوله عن آية ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]: إن لفظة (قسم) من التقسيم ! وواضح أنها من (القَسَم) بمعنى الحلف واليمين.

وكذلك قوله عن آية: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]: إنها من التقسيم(١).

الضعف في العلوم الشرعية:

ومثل ذلك: الضعف في علوم الشريعة، مثل علم أصول الفقه، وما فيه من مباحث تتعلق بمعرفة دلالات اللغة، وضوابط الفهم، للعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمنطوق والمفهوم، والمحكم والمتشابه، والظاهر والمؤول، إلخ.

وقد تحدثنا من قبل عن الجهل بالسنن والآثار، وخصصناها بحديث مستقل.

وقبل ذلك كله، العيش مع القرآن ذاته، واستحضار آياته في كل موضوع، وضم بعضها إلى بعض، فإن القرآن - كما ذكرنا من قبل - يفسر بعضه بعضا.

وقد رأينا بعض المعاصرين من العلمانيين الأقحاح، الذين أقحموا أنفسهم على الشريعة وعلومها، ونفخت فيهم أبواق الإعلام لتجعل منهم شيئا مذكورا، وهم في علوم الشريعة لا ناقة لهم ولا جمل، ولا دجاجة ولا بيضة ! رأينا بعض هؤلاء يقولون: إن الخمر لم يرد بتحريمها نص قرآني، لأن كلمة (فاجتنبوه) في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] لا تدل على التحريم. واستدل هذا المتطاول الجريء بقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فقصر المحرمات على هذه الأربع وليس منها الخمر !

وقد رددنا فيما سبق على من قال: إن كلمة (فاجتنبوه) في آية المائدة لا تفيد التحريم، فليرجع إليه(٢). فأما الآية التي استدل بها صاحبنا، فهي في بيان المحرمات من المطعومات،

---

(١) نفسه ص ١١٩.

(٢) انظر ص ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٧٨، ٢٧٩.

وليس من المشروبات. ثم إنه لو تأملها حق التأمل لوجدها ترد عليه، وتبين أن الخمر محرمة يقينا. فقد أثبتت الآية تحريم لحم الخنزير، وعللته بقولها (فإنه رجس) وهذا التعليل القرآني الصريح يدل على أن وجود (الرجسية) علة كاملة للتحريم. وقد بينت آية المائدة بوضوح: أن الخمر مثل ما قرن بها من الميسر والأنصاب والأزلام ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾، فالرجسية قائمة، بالإضافة إلى عنصر آخر، وهي أنها من عمل الشيطان.

تقليد الأقوال بلا بصيرة:

ومن دلائل القصور العلمي: أخذ الأقوال التي تنقل عن قدامى المفسرين، على أنها قضايا مسلمة، من باب التقليد لأصحابها، مع ضعفها وفسادها، دون نظر فيما تستند إليه، أو تعول عليه، من أدلة واعتبارات شرعية أو لغوية أو عقلية. وهي أقوال صحيحة النسبة إلى قائليها من جهة الرواية، ولكنها سقيمة أو مردودة من جهة الدراية. وليس هذا بمستغرب ما دامت صادرة عن غير معصوم. فكل بشر يصيب ويخطئ، وهو معذور في خطئه، بل مأجور أجرا واحدا إذا كان بعد تحرٍّ واجتهاد، واستفراغ للوسع في طلب الحقيقة، وكان من أهل العلم المؤهلين لذلك، وليس من الدخلاء على علوم الشرع، الذين يقولون ما لا يعلمون، فيَضلون ويُضلون.

وإذا كان ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو ترجمان القرآن، وحبر الأمة ـ قد ثبت عنه آراء في التفسير اعتبرها جمهور علماء الأمة ضعيفة أو شاذة، وخالفه فيها عامة الصحابة، مثل أقواله في المواريث ونحوها، فكيف بمن دون ابن عباس ومن دون تلاميذ تلاميذه؟!

ولقد رأينا شيخ المفسرين الإمام أبا جعفر ابن جرير الطبري ـ على جلالة قدره، ومنزلة كتابه في التفسير ـ يختار أحيانا تأويلات ضعيفة، بل هي في غاية في الضعف. كتفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ [النساء: ٣٤] بأن معناها: (قيدوهن) من هَجَرَ البعير إذا شده بالهجار، وهو القيد الذي يقيد به. والمراد: تقييد النساء لإكراههن على ما تمنَّعن عنه! ولا عجَب أن سمى الزمخشري هذا التفسير بتفسير الثقلاء!

وكذلك اختياره لآيات المائدة: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ... فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ... فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٤٤، ٤٥، ٤٧] أنها في أهل الكتاب. هذا مع أن الاعتبار بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وقد ذكرت هذه الآيات عند حذيفة بن اليمان، فقال رجل: إن هذا في بني إسرائيل! فقال: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كان لكم كل حلوة، ولهم كل مُرة! يعني كيف يوصف بنو إسرائيل بالكفر أو الظلم أو الفسق إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم، ولا توصفون أنتم بذلك إذا لم تحكموا بما أنزل الله عليكم؟!

والمقصود هنا هو اتقاء الضعيف من الأقوال والتأويلات، مهما تكن مكانة قائلها، وقد قال عليّ كرم الله وجهه: «لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله».

ومن ذلك قول بعض المفسرين في قوله تعالى في أول سورة الدخان: ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ - ٣]: إن الليلة المذكورة هنا هي: ليلة النصف من شعبان!

ولا أدري كيف يقول هذا مفسر؟! وهذه الليلة هي نفسها المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. ومن المقطوع به أن هذه الليلة من ليالي شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ..﴾ [البقرة: ١٨٥].

ولا عجب أن قال الإمام ابن كثير: ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان ـ كما روي عن عكرمة ـ فقد أبعد النجعة! فإن نص القرآن أنها في رمضان [١].

وأما قوله تعالى في وصف تلك الليلة: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، فقد قال ابن كثير: أي في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة: أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف [٢].

فقد مال فيها إلى أن الأمر الذي يفرق فيها هو الأمر التكويني المتعلق بالأرزاق والآجال ونحوها. ومعنى (حكيم) في الآية: أي مُحْكَم.

على أنه يمكن تفسير الآية بما يفصل ليلة القدر من الأحكام الشرعية الحكيمة المنزلة في القرآن الكريم، فالأمر هنا تشريعي لا تكويني. وقد يؤيد هذا قوله تعالى عقبها: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٥، ٦].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ / ١٣٧ طبعة الحلبي.

(٢) المصدر السابق.

الفصل الرابع

التفسير العلمي للقرآن

١ - بين المعارضين والمؤيدين من المعاصرين

٢ - بين الغزالي والشاطبي من القدماء

٣ - الموقف الذي نختاره بين الفريقين

٤ - مجالات لاستخدام العلم لا خلاف عليها

٥ - بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن

١ ـ بين المعارضين والمؤيدين من المعاصرين

اشتهر في عصرنا لون جديد من التفسير، أطلق عليه (التفسير العلمي للقرآن). ويقصد به: التفسير الذي تستخدم فيه (العلوم الكونية) الحديثة: حقائقها ونظرياتها لبيان مراميه، وتوضيح معانيه.

ويراد بالعلوم الكونية: علوم الطبيعة والفلك وعلوم الأرض (الجيولوجيا) والكيمياء، وعلوم الحياة (البيولوجيا) من النبات والحيوان، وعلوم الطب والتشريح ووظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلوم الرياضيات ونحوها.

وقد يدخل فيها بعض العلوم الإنسانية والاجتماعية، مثل علوم (النفس) و(الاجتماع) و(الاقتصاد) و(الجغرافيا) وغيرها.

والذين يعنون بهذا اللون من التفسير في الغالب ويتحمسون له، هم علماء الكون والطبيعة، وليسوا من علماء الدين والشريعة.

وعلماء الدين والشريعة يختلفون فيما بينهم حول جواز هذا اللون من التفسير، ومدى شرعيته.

وفي الخمسينيات من هذا القرن (العشرين) ثارت معركة جدلية على صفحات الصحف المصرية، بين فريقين من علماء الدين حول هذه القضية، وأحسب أن الخلاف فيها لم يزل إلى يومنا هذا، بين منتصر لهذا الرأي ومنتصر لمخالفه.

وقبل ذلك وجدنا من كبار العلماء الباحثين المحْدَثين: المؤيدين والمعارضين، وإن كان المعارضون أكثر، وأوفر.

معارضة الشيخ شلتوت:

وجدنا من المعارضين الإمام الأكبر محمود شلتوت رحمه الله، الذي أنكر في مقدمة تفسيره على طائفة من المثقفين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقنوا، أو تلقفوا شيئا من النظريات العلمية والفلسفية وغيرها، وأخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة، ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها. قال الشيخ عن هؤلاء:

«نظروا في القرآن، فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحا جديدا، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن، ويرفعون من شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية.

نظروا في القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صورة من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله!

هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف.

وهي خاطئة من غير شك، لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

وهي خاطئة، لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير. فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غدا من الخرافات.

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة، لعرضناه للتقلب معها، وتحمل تبعات الخطإ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفا حرجا في الدفاع عنه.

فلندع للقرآن عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة، إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر، ليزداد الناس إيمانا مع إيمانهم.

وحسبنا أن القرآن لم يصادم الفطرة، ولم يصادم - ولن يصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول.

قيل: يا رسول الله! ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حالة واحدة؟ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وإنك لتجد هذا في سؤالهم عن الروح حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. أليس في هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتابا يريد الله به شرح حقائق الكون، وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع؟»[(١)].

معارضة الشيخ أمين الخولي وآخرين:

ووجدنا من المعارضين الأستاذ الشيخ أمين الخولي في بحثه المركز (التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم)، وقد نقل فيه رأي الشاطبي، واعتراضه على الذين أرادوا أن يخرجوا بالقرآن عن نهجه في مخاطبة العرب بما يفهمون، وفي إطار ما يعهدون من علوم ومعارف، ورد على الذين زعموا أن في القرآن علوم الأولين والآخرين، دينية ودنيوية، شرعية وعقلية!

وهو رأي الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق، قاله في تقديمه لكتاب الدكتور عبد العزيز (باشا) إسماعيل (الإسلام والطب الحديث)[(٢)].

وهو رأي د. عبد الحليم محمود، والشيخ عبد الله المشد، والشيخ أبو بكر ذكري، أعلنوه في مقدمة تفسيرهم الموجز للقرآن، الذي كان ينشر في مجلة (نور الإسلام) لسان علماء الوعظ والإرشاد في الأزهر.

---

(١) مقدمة تفسير الشيخ شلتوت ص ١١ـ١٤، طبعة دار الشروق بمصر. وقد نُشر من قبل مقالات في مجلة «رسالة الإسلام».

(٢) ذكر ذلك الدكتور الذهبي في الجزء الثاني من كتابه (التفسير والمفسرون) ص ٤٩٥، ٤٩٦ طبعة المختار الإسلامي سنة ١٩٨٥ نشر مكتبة وهبة.

معارضة سيد قطب:

وينحو صاحب (الظلال) - سيد قطب رحمه الله - هذا المنحى في تفسيره لآية ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ (١)، إذ يقول بقلمه البليغ:

«وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها . . . كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها . . . لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكتشف هذه المعلومات وينتفع بها . . والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان. والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه - بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره - كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه. وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب، ويخطئ ويصيب، في مجال العلم والبحث والتجريب. وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح.

كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحيانا عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه . . لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن، بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بمانسميه (حقائق علمية) مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة، أما ما يصل إليه البحث الإنساني - أيًّا كانت الأدوات المتاحة له - فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها . . . فمن الخطإ المنهجي - بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته - أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية. وهي كل ما يصل إليه العلم البشري!

هذا بالقياس إلى (الحقائق العلمية) . . . والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى (علمية). ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية، وكل النظريات

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿ يسألونكَ عَنِ الأهلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... ﴾ [البقرة: ١٨٩].

الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره، وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه . . وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها . . فهذه كلها ليست (حقائق علمية) حتى بالقياس الإنساني. وإنما هي نظريات وفروض. كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية، إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدرا أكبر من الظواهر، أو يفسر تلك الظواهر تفسيرا أدق! ومن ثم فهي قابلة للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأسا على عقب، بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة!

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة - أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا - تحتوي أولا على خطإ منهجي أساسي. كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بالقرآن الكريم.

الأول: هو الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع. ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم. على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه، والعلم لا يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

والثاني: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته. وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق - بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية - مع طبيعة هذا الوجود وناموسها الإلهي، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته. نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة!

والثالث: هو التأويل المستمر - مع التمحّل والتكلف - لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر. وكل يوم يوجد فيها جديد. وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن، كما أنه يحتوي على خطإ منهجي، كما أسلفنا» [1].

(١) في ظلال القرآن ج١ م ١٨٠ - ١٨٢ طبعة دار الشروق.

٢ ـ بين الغزالي والشاطبي من القدماء

الإمام الغزالي والتفسير العلمي:

والموضوع قد أثير من قديم، ويبدو أن أول من أثاره هو الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله. فقد ذكر في (الإحياء) قول ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن. ونحو ذلك من الأقوال، ثم قال: «وبالجملة، فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته [١] وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها. وفي القرآن إشارة إلى مجامعها»[٢].

وفي كتابه (جواهر القرآن) وهو مؤلف بعد (الإحياء) عاد إلى الموضوع وتوسع فيه. وفيه ذكر أن جميع العلوم «مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له»[٣].

ثم ذكر من أفعال الله تعالى: الشفاء والمرض، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]. قال: وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه... إلى أن قال: «لا يعرف كمال معنى قوله: ﴿ يَأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا، وعددها وأنواعها، وحكمتها ومنافعها... إلخ»... فهذان مثالان لتخريج الغزالي العلوم المختلفة من القرآن.

---

(١) أعتقد أن القرآن لم يتعرض لشرح الذات إلا من باب نفي الشبيه والند والشريك ونحوها.
(٢) الإحياء ١ / ٢٨٩ ط دار المعرفة بيروت.
(٣) انظر: جواهر القرآن ص ٣٢ـ ٣٤.

ومن هنا نفهم معنى قول الغزالي: إن علوم الأولين والآخرين ليست خارجة عن القرآن. فكأنه يقول: إن العلوم كلها خادمة لحسن فهم القرآن، كما أن القرآن نفسه يشير إليها، ويدل عليها، بصورة من الصور الضمنية أو الكلية.

وقد قال في الإحياء: «بل كل ما أشكل فهمه على النظار (علماء المعقول) واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، ففي القرآن إليه رموز، ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها»[1].

ابن أبي الفضل المرسي والسيوطي:

وجاء بعد الغزالي ابن أبي الفضل المرسي، الذي سجل السيوطي رأيه في (الإتقان)[2]. وهو أشبه برأي الغزالي، فقد ذكر ـ فيما ذكر ـ أن أصول الصنائع مذكورة في القرآن كالخياطة في قوله: ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ [**الأعراف**: ٢٢]. والحدادة ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [**الكهف**: ٩٦]. والبناء في آيات[3] والنجارة: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [**هود**: ٣٧]. والغزل: ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ [**النحل**: ٩٢]. والملاحة: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [**الكهف**: ٧٩]. والفخارة: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [**القصص**:٣٨]. . . وهكذا.

فبهذه الإشارات القرآنية اعتبر أصول الصنائع موجودة في القرآن.

وقد أيد السيوطي في (الإتقان) وفي كتابه (إكليل التأويل في استنباط التنزيل) هذا التوجه. واستدل له بالقرآن والحديث، وبقول ابن مسعود والحسن والشافعي وغيرهم.

أبو إسحاق الشاطبي والتفسير العلمي:

ولقد رأينا الإمام أبا إسحاق الشاطبي رحمه الله، قد عارض هذا التوجه في كتابه

---

(١) الإحياء. المصدر السابق.

(٢) في النوع الخامس والستين: في العلوم المستنبطة من القرآن ج٤ / ٢٧ ـ ٣١.

(٣) أي في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

(الموافقات) معتمدا على أن الشريعة نزلت في الأساس لقوم أميين، فهي ـ على حد تعبيره ـ شريعة أمية، فلا ينبغي أن نخرجها إلى حد التكلف والتعقيد والتفلسف، وإن بالغ في ذلك، حتى تعقبه العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره (التحرير والتنوير) [١]. كما تعقب بعضه العلامة الشيخ عبد الله دراز في تعليقه على الموافقات [٢].

بين الشاطبي أن الشريعة الإسلامية شريعة أمية، لأن الله بعث بها رسولا أميا إلى قوم أميين كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» [٣]. فيلزم أن تكون الشريعة على معهودهم وفي مستواهم.

ثم بعد هذا البيان أوضح الشاطبي أن الشريعة ـ في تصحيح ما صححت، وإبطال ما أبطلت ـ قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم، ولم تخرج عما ألفوه، ثم يتوجه باللوم إلى قوم أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين! مفندا هذه الدعوى قائلا:

ما تقرر من أمية الشريعة، وأنها جارية على مذاهب أهلها ـ وهم العرب ـ ينبني عليه قواعد، منها: أن كثيرا من الناس تجاوزوا ـ في الدعوى على القرآن ـ الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين، من علوم الطبيعيات والتعاليم [كالهندسة وغيرها من الرياضيات] والمنطق وعلوم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح [٤].

ثم يدلل الشاطبي على رأيه هذا ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم في القرآن فيقول: «إن السلف الصالح ـ من الصحابة والتابعين ومن يليهم ـ كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدَّعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك. ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير شيء مما زعموا. نعم تضمن علوما من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب، ولا تبلغه إدراكات

(١) انظر: مقدمة (التحرير والتنوير).

(٢) انظر: الموافقات وتعليقات دراز ج ٢ / ٦٩ وما بعدها.

(٣) متفق عليه عن ابن عمر (اللؤلؤ والمرجان: ٦٥٥).

(٤) الموافقات ج٢ ص ٧٩.

العقول الراجحة، دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا»[1].

ثم شرع الشاطبي بعد هذا في ذكر الأدلة التي استند إليها أرباب هذا (التفسير العلمي) فقال: «وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] .. ونحو ذلك، وبفواتح السور - وهي لم تعهد عند العرب - وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكي من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء»[2].

بعد ذلك طفق الشاطبي ينقض هذه الأدلة، واحدا بعد الآخر بمنطقه القوي. فقال رحمه الله: «فأما الآيات: فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب في قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾: اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

وأما فواتح السور: فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهدا، كعدد الجُمَّل الذي تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، وغير ذلك. وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون، ولم يدّعه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها على ما ادعوا، وما ينقل عن علي أو غيره في هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقوَّل على الله ورسوله فيه، والله أعلم، وبه التوفيق»[3].

ومنطق الشاطبي هنا منطق قوي، وأدلته لا مطعن فيها، إلا ما كان من اعتماده على (أمية الشريعة) بناء على أمية الأمة. ذلك أن أمية الأمة ليست أمرا مطلوبا ولا مرغوبا فيه، بل بعث الله رسوله في الأميين رسولا ليخرجهم من الأمية إلى باحة العلوم والنور، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. فهذه مهمة الرسول مع الأميين: التلاوة والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة، ولا عجب أن كانت الآيات الأولى من

(١) الموافقات ج٢ ص ٧٩، ٨٠.
(٢) المصدر السابق (٢/ ٨٠).
(٣) نفسه (٢: ٨١: ٨٢).

الوحي تنبئ بذلك: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥].
وأقسم سبحانه بالقلم فقال: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١].

فالأمية ممدوحة في حقه ﷺ: لأنها أدل على الإعجاز، وليست ممدوحة في حق الأمة، وعلى الأمة أن تتحرر منها لتتعلم وتتفقه وتنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وقد قال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

ولقد كان الرسول الكريم هو أول من حارب الأمية، كما رأينا ذلك حين قبل في أسرى بدر أن يفتدي بعضهم نفسه إذا كان كاتبا، بأن يعلم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة. ومن أجل هذا لا نقبل فكرة أمية الشريعة إلا إذا حملت على معنى الفطرية والسهولة، والبعد عن التكلف والتعقيد. وبالله التوفيق.

٣ـ الموقف الذي نختاره

ولقد رأينا الموقف هنا، كما في معظم القضايا العلمية والفكرية المختلف فيها، تتجه ثلاثة اتجاهات: طرفين وواسطة.

ففي طرف نجد الذين يرفضون رفضا مطلقسا إدخال العلوم الكونية في مجال التفسير بعدا بالقرآن عن مظنة التغير بتغير نتائج هذه العلوم.

وفي طرف آخر رأينا الذين يغلون في استخدام هذه العلوم غلواً كبيرا، ويتكلفون في إظهار القرآن بمظهر المشتمل على كل هذه العلوم، والسابق بنظرياتها وحقائقها! وهم يجتهدون في إبراز ما سموه (الإعجاز العلمي) بكثير من التمحل.

وهناك موقف بين هؤلاء وأولئك، هو الموقف العدل الوسط، الذي لا يبالغ في النفي، ولا يغلو في الإثبات.

وخلاصة هذا الموقف تتضح في جملة أمور، أو مبادئ:

١ـ ضرورة المعرفة بأوليات هذه العلوم:

أول هذه المبادئ: أنه لابد لمن يريد تفسير القرآن في عصرنا: أن يكون ملمّا بمبادئ هذه العلوم الطبيعية والكونية، ليستخدمها فيما لابد منه من بيان معاني القرآن، وتوضيح مقاصده ودلالاته، وإلا كان التفسير قاصرا عن اللحاق بالعصر وأهله.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]. ولابد لمن يعيش في القرن الخامس عشر الهجري، أن يخاطب الناس بلسان هذا القرن، لا بلسان قرون مضت.

وكما أن الفتوى تختلف باختلاف الزمان والمكان، فإن تفسير القرآن، وشرح الحديث، وأسلوب الدعوة، كلها تختلف باختلاف الزمان والمكان كذلك.

ولقد رأينا بعض المشايخ الذين تعقبوا سيد قطب في (ظلاله) الشهيرة ينكرون عليه رحمه الله أشياء غريبة، مثل حديثه عن المجموعة الشمسية وعن المجرات الكونية، وغير ذلك مما يدل على الجهل المطبق للمتعقب بهذه العلوم. وقد قيل قديما: من جهل شيئا عاداه. ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس: ٣٩].

٢ - انتباه المتخصص في العلوم إلى ما لم ينتبه له غيره:

ثم إنه من المقرر والمعلوم: أن كل مفسر للقرآن يتأثر بثقافته التي أتقنها وتخصص فيها، كما رأينا ذلك في تفاسير علمائنا القدامى. فتفسير الفقيه غير تفسير المتكلم، وهما غير تفسير اللغوي، وتفاسير هؤلاء غير تفسير الصوفي.

بل إن كل قارئ للقرآن يفهم منه، ويأخذ عنه، بحسب ثقافته وتوجهه، وهذا ما يثبته العلم نفسه.

فقد قرر علم النفس: أن قوة الانتباه إلى الشيء لها علاقة بما اختمر في نفس الإنسان وبما يهتم به، فالصورة أو اللوحة الفنية قد يراها أكثر من واحد، فمنهم من لا يلتفت إليها أصلا، ومنهم من ينظر إليها نظرة خاطفة، ومنهم من يتأملها تأملا مفصلا عميقا. فانتباه الرسام إليها ليس كانتباه الشاعر، وانتباه الشاعر ليس كانتباه الرجل العادي.

هذا قانون عام من قوانين النفس أو الحياة، لا يمكن مقاومته ولا المراء فيه.

ومن الطبيعي بعد هذا: أن نجد المفسرين للقرآن ينتبه كل منهم إلى ما لا ينتبه إليه الآخر، وفق ثقافة كل منهم وذوقه ومحور اهتمامه.

فرجل البلاغة: يلمح النكات البيانية، والأسرار التعبيرية والبلاغية.

والفقيه: يستنبط الدقائق التشريعية.

والصوفي: ينجذب للأذواق الروحية والسلوكية.

والاجتماعي: يلتفت إلى السنن الاجتماعية.

والعالم الطبيعي: ينتبه للآيات والظواهر الكونية.

سئل بعض الصوفية: هل تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال: نعم. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]. فهذه اللفتة جديرة بذي التحليق الروحي أن ينتبه إليها.

واستنبط الإمام مالك أن الرق لا يجامع البنوة، فلا يكون ابن الإنسان عبدا له، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا - (أي الملائكة) - سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. فالعبودية تنافي البنوة. فهذه الدقيقة لا ينتبه لها إلا الفقيه.

إذا عرفنا ذلك، فلا ينبغي أن ننكر على العالم - من علماء الكون والطبيعة - أن ينتبه إذا قرأ الآية من القرآن، إلى ما فيها من معان تتصل بثقافته وتخصصه، لم ينتبه إليها غيره من علماء الدين والشرع، أو من فحول علماء البلاغة والكلام والفقه.

فالمتخصص في علم الأرض (الجيولوجيا) سينتبه إلى ما في قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧] من معان لم يلتفت غيره إليها.

والمتخصص في علم البحار سينتبه إلى معان في قوله سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] مما لم يلتفت إليه سواه.

والمتخصص في العلوم الرياضية سيجد في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] ما لا يجده غيره.

وكذلك المتخصص في علم الأجنة يجد في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] ما لا يجده عالم آخر، ناهيك بمن ليس من المتخصصين في هذه العلوم.

وهذا ما لا ينبغي أن يختلف فيه.

٣ـ شروط استخدام العلوم في التفسير:

ولابد أن ننبه هنا على الشروط التي يجب أن تراعى، حين نستخدم العلوم الكونية في التفسير وخدمة القرآن.

التعويل على الحقائق لا الفرضيات:

أـ أولها: أن نستخدم من نتائج العلوم ما استقر عند أهله، وغدا حقيقة علمية، يرجع إليها، ويعول عليها، ولا نعول على الفرضيات والنظريات التي لم تثبت دعائمها، حتى لا نعرض فهمنا للقرآن للتقلب مع هذه الفرضيات. فليكن اعتمادنا على الحقائق المقررة.

ولا يقال: إن العلم ليس فيه حقائق ثابتة إلى الأبد، فكم من قضايا علمية كانت يوما ما ـ بل ظلت قرونا وقرونا ـ حقائق مقدسة، ثم ذهبت قدسيتها العلمية، وأثبت التطور العلمي عكسها. وهذا صحيح ومعروف، ولكن حسبنا الثبات النسبي للحقائق. فهذا هو الذي في مقدورنا بوصفنا بشرا. وقد قيل في تعريف التفسير: هو بيان المراد من كلام الله بقدر الطاقة البشرية.

تجنب التكلف في فهم النص:

ب ـ وثاني هذه الشروط: ألا نتمحل ولا نتعسف ولا نتكلف في حمل النص على المعنى الذي نريد استنباطه، إنما نأخذ من المعاني ما ساعدت عليه اللغة، واحتملته العبارة دون قسر، وقبله سباق النص وسياقه.

ومن مراعاة اللغة هنا: ألا نَحمل ألفاظ القرآن على المعاني المستحدثة في عصرنا، والتي لم تكن مرادة من النص يقينا، مثل حمل كلمة (ذرَّة) على المعنى الاصطلاحي في علم الفيزياء وغيرها.

ومن هنا رفض المحققون من علماء الشريعة، ومن علماء الطبيعة، ما قاله بعضهم في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]: إن السلطان هنا هو سلطان العلم، وإن هذا يشير إلى غزو الفضاء والصعود إلى القمر . . . إلخ. لأن سياق الآية الكريمة يبين أن هذا التحدي في الآخرة، كما يدل على ذلك ما قبلها وما بعدها، وأنهم لا يستطيعون الخروج من ملك الله تعالى.

وأين يهربون من ملكه تعالى، وهو الذي له ملك السموات والأرض ؟ ولو افترضنا أن الصعود إلى القمر نفوذ من أقطار الأرض، فهل نفذ من أقطار السموات ؟ هذا مع أن الذين صعدوا إلى القمر أو داروا في الفضاء لا يزالون على صلة بالأرض، فهي التي تحركهم وتراقبهم، وتعطيهم التنبيهات، وترشدهم إلى إصلاح الخلل إن حدث، كما نقرأ ونعلم.

تجنب اتهام الأمة كلها بالجهل:

جـ - ألا يحمل هذا الرأي أو التفسير العلمي اتهاما للأمة كلها طوال تاريخها كله - وفيها خير القرون: من الصحابة والتابعين والأتباع والأئمة الكبار في كل فن - بأنها لم تفهم القرآن، إلى أن جاء هذا العالم في زماننا، فعلَّمها ما كانت تجهل من كتاب ربها. فمقتضى هذا الكلام: أن الله أنزل على الناس كتابا لم يفهموه، ولم يعرفوا مراد منزله منه. مع أنه تعالى وصفه بأنه ﴿ كتاب مبين ﴾، وأنه ﴿ نور ﴾ وأنه ﴿ هدى للناس ﴾.

ولهذا ينبغي أن نقبل من هذا اللون من التفسير: ما كان إضافة إلى القديم، وليس إلغاء كليّا له، فلا مانع من إضافة فهم جديد للآية، أو جزء الآية، فالقرآن لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد كنوزه وأسراره. والله تعالى يفتح على عباده في فهمه ما يشاء لمن يشاء.

تجاوزات مرفوضة عند علماء الشرع وعلماء الكون:

ولا ريب أن هناك من الباحثين في هذه القضايا - وخصوصا من علماء الكون - من لم يراعوا هذه الشروط، وتكلفوا وتمحلوا، فانتهوا إلى نتائج رفضها المعتدلون من علماء الكون، وعلماء الشرع جميعا.

من ذلك ما ذكره العالم المتمكن أ. د. عبد الحافظ حلمي محمد [1] في دراسة له عن (العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم) [2] من شرود بعض الباحثين عن المنهج السليم. فمن ذلك أنه عندما ركب الإنسان أول مركب في الفضاء، خفَّ من يقول لنا: إن هذه المركب هي الدابة التي تخرج من الأرض لتكلم الناس (إشارة إلى الآية ٨٢ من سورة

---

(١) أستاذ العلوم البيولوجية في مصر والكويت، وعميد كلية العلوم سابقا بمصر، وأحد كبار المتخصصين المعروفين.

(٢) نشرتها مجلة (عالم الفكر) في الكويت: العدد الرابع المجلد الثاني عشر، سنة ١٩٨٢ ص ٦١ - ١٥٢.

النمل). ثم تبعه من يقولون: بل إن هذا نفاذ من أقطار السموات والأرض بسلطان (إشارة إلى الآية ٣٣ من سورة الرحمن)، وأن هذا السلطان هو سلطان العلم! وغني عن البيان أن هذا وذاك مخالفان للعلم والتفسير والمنطق وسياق القرآن جميعا! فالمنزلق جاء هنا من عدم الإلمام بما جاء في كتب التفسير عن هذه الآية الكريمة، أو حتى من عدم الحس الفطري بالمعنى البلاغي لهذا التحدي الشديد للإنس والجن أن يخرجوا من ملك الله ويفروا من قضائه (وإلى أين ؟!)، هذا فضلا عن أن العلم لم يزعم على الإطلاق أن تلك (القفزات القصار) التي قفزها الإنسان خارج نطاق جاذبية الأرض، تعتبر خروجا من أي شيء إلا في ذلك النطاق شديد التواضع أمام ملك الله الذي لا يحدّ. وكأني بمن يقول بهذا يعني أن الإنس والجن قد قبلوا التحدي ونجحوا في الانتصار عليه! وقد بلغ من خلابة المعنى أن تقبله بعض علماء الشريعة، ولكنني أشهد أنه بالحوار المقنع قد عدل عن هذا القول كثيرون.

وشبيه بهذا قول القائلين بأن ذكر الذَّرَّة وما هو أصغر منها (إشارة إلى الآية ١٦ من سورة يونس، ومواضع أخرى) دليل من القرآن الكريم على أن الذرة - بمعناها الفيزيائي الكيميائي الاصطلاحي الحديث - ليست أصغر الجسيمات في تكوين المادة، وأن القرآن الكريم قد سبق العلم الحديث في هذا بكذا مئات من السنين (واعجبوا معي إلى هذا الحرص الشديد على وضع القرآن الكريم والعلوم الحديثة في سباق!). وهنا أيضا يتضح أن الفهم الخاطئ لمعاني الألفاظ (وأبرز معنى للفظ الذرة في اللغة هو الهباءة) وللمعنى البياني المقصود وهو التصغير والتهوين والتقليل، كالقطمير وحبة الخردل والورقة، في مواضع أخرى. هذا فضلا عن إدراك أن لفظ الذرة بالمعنى الاصطلاحي الحديث، لم يدخل اللغة العربية إلا في وقت متأخر، وعلى سبيل ترجمة غير حرفية ولا دقيقة (وإن شاعت وكانت مقبولة لطيفة) للمصطلح الأجنبي (Atom)، أي غير المنقسم أو غير القابل للانقسام.

وثمة مثال ثالث لا يقل غرابة ومجافاة للحقيقة عن سابقيه، وهو قول من رأوا بأن المقصود من إنقاص الله الأرض من أطرافها (الرعد: ٤١، الأنبياء: ٤٤) إشارة إلى النقصان البطيء المستمر للمحور الطولي للأرض نتيجة دورانها كما تدل عليه القياسات العلمية، وأن هذا أيضا (سبق) و (إعجاز علمي) للقرآن الكريم. والعجيب أن هذا الرأي يتقبله بعض المتحفظين، مع أنه مخالف تماما للسياق القرآني في الموضعين، إذ إنه إشارة إلى انتقاص أرض الكفار بما يفتحه الله للمؤمنين منها نشراً لدعوة الحق. وقراءة الآيات السابقة واللاحقة مباشرة للآيتين المشار إليهما كفيلة بالإقناع لمن يريد أن يقتنع!

هذا فضلا عن أن هذا الرأي مثال لتأويل حديث يحتم أن المعنى الصحيح للآيتين الكريمتين ظل خافيا على المسلمين هذه القرون الطوال منذ نزل القرآن. وليس من البلاغة في شيء الإشارة إلى أمر خاف تماما عن المخاطبين، بل إنه حتى في هذا الزمان لا تكشف عنه إلا القياسات العلمية، ولا شأن له واضحا في حياة البشر، وليس فيه عبرة لمن يعتبر.

وأعتقد أن في هذه الأمثلة الثلاثة الغناء عن ذكر كثير غيرها [1].

---

(١) البحث المذكور ص ٧٠، ٧١.

٤ ـ مجالات لاستخدام العلوم الكونية في التفسير لا ينبغي الخلاف عليها

وأريد أن أبين هنا أن هناك مجالات لاستخدام العلوم الكونية في تفسير القرآن لا ينبغي أن يكون فيها خلاف بين المثبتين والنافين في هذه القضية:

أ ـ تعميق مدلول النص:

من هذه المجالات التي لا يختلف عليها اثنان: تعميق مدلول النص القرآني، وتوسيع فهمه ومداه للإنسان المعاصر، وذلك بما تقدمه العلوم الكونية من بيانات ومعلومات تزيدنا معرفة بمفهوم الآية، وتوضحه بالشواهد والأمثلة، التي توافرت في ضوء العلم الحديث.

خذ مثلا قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

إن كل من يقرأ هاتين الآيتين يفهم معناهما بإجمال، ولا يخفى مغزاهما عليه. والمفسرون القدامى فسروهما بمقتضى ما علموه في زمانهم، وأحسنوا جزاهم الله خيرا.

ولكن المتخصص في علم الحيوان، أو علم الحشرات خاصة، أو علم النحل على وجه أخص، يرى في الآية ما لا يراه القارئ العادي، ويستنبط من ألفاظها من المعاني والأفكار والمقاصد ما لا يخطر لأمثالنا ببال. وكذلك المتخصص في علم الأغذية أو علم العسل أو الطب بالأعشاب أو الأدوية الطبيعية، يأخذ من قوله تعالى: ﴿فيه شفاء للناس﴾ ما لا نستطيع نحن أن نستخرجه من العبارة.

ولهذا وجدنا رسائل وأطروحات علمية تقدم للجامعات حول هذه الآية، أو هاتين الآيتين، ورأينا بحوثا ودراسات نشرت عنهما.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]، وقوله تعالى ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧] ونحوهما من الآيات، نفهم نحن معناها إذا قرأناها الفهم الإجمالي، وكذلك مر عليها المفسرون الأولون. ولكن العالم المتخصص في علوم الأرض اليوم، يرى فيها ما لا نراه نحن، ويقدم لنا من مهمة الجبال وفائدتها في إرساء الأرض، ومنعها من المَيَدان! ما يجلي معناها أعظم التجلية، ويشرحها أبلغ الشرح.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. ونحوها من الآيات. نقرؤها نحن فنفهمها فهما إجماليا فطريا، وكذلك فعل المفسرون قديما. ولكن العلم الكوني الحديث بين لنا من عجائب هذا التقدير في الكون ودقائقه، ما يبهر العقول، وينير القلوب، ويجلي أمام أبصارنا وبصائرنا: واسع علم الله تعالى، وبالغ حكمته، وعظيم قدرته، وروائع تدبيره، كما قرأنا ذلك في كتاب (كريسي موريسون) الذي ترجم بعنوان (العلم يدعو للإيمان). فحجم الكرة الأرضية وموقعها من الشمس، وسرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس، وموقع القمر منها، وكمية الماء، والغازات فيها ... إلخ، لو كانت على غير ما هي عليه، أو اختل ناموسها قليلا، لهلكت الحياة على ظهر الأرض، أو ما قامت أصلا.

ومثل ذلك: ما كشفه العلم من أسرار قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤]. ولماذا ذكر البنان خاصة دون غيره من الأعضاء؟ فلقد بين لنا العلم الحديث ما يتميز به جلد البنان من خواص بحيث لا يتشابه بنانان لشخصين وإن كانا شقيقين، أو توأمين. وعلى أساس هذا التمايز قام ما عرف باسم (البصمة) وأسست عليه إدارات (تحقيق الشخصية).

وهذا ما فهمه المعتدلون من علماء الكونيات، الذين عرفوا ما هو المطلوب منهم في خدمة تفسير القرآن، فالتزموه ولم يحيدوا عنه.

يقول أحدهم [1] شكر الله له:

---

(١) هو أ. د. عبد الحافظ حلمي محمد في دراسته التي أشرنا إليها قبل.

ما المطلوب منا إذن؟ المطلوب عندي هو أننا إذا قرأنا، مثلا، قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، استجبنا إلى هذه الدعوة الربانية بما لا ينافي الفطرة السليمة و يعارض تفسيرا تقليديا، وأظهرنا ما لا تزال تكشفه الدراسات الحديثة عن معجزات بيولوجية رائعة في ذلك المخلوق الفريد، الذي نستطيع أن نثبت أنه خُصَّ بالذكر، من بين ما لا يحصى من مخلوقات الله، نموذجا يتدبر في دراسته المتدبرون، وأنه ليس صحيحا ما يقوله البعض من أن الإبل ذكرت لمجرد مناسبتها لخطاب البدو والأعراب. فالمعجز حقا أن هذا صحيح، ولكنه ليس الحق كله، فالجمل - والجمل بالذات - هو الآن نموذج فريد تشير إليه كتب علم الأحياء الحديثة في أوربا وأمريكا!

ومطلوب أيضا أنه إذا ذُكر لحم الخنزير بين اللحوم المحرمة، وجب علينا - بعد الامتثال والطاعة لحكم التحريم - أن نلتفت إلى أن التحريم هنا هو تحريم معلل [1]، وإلى أن لحم الخنزير ينفرد من بين الأنواع الأخرى من اللحوم المذكورة بأنه حرام لذاته، أي لعلة مستقرة فيه أو غالبة اللصوق به، لا لعلة عارضة عليه كما هي الحال في أنواع اللحوم الأخرى المحرمة، أي أنه ينبغي علينا أن نبحث هذه العلة بحثا علميا دقيقا، لا أن نردد ما تتناقله بعض التفاسير مما يسهل دحضه وتفنيده.

وينبغي علينا، أيضا، أن نعمق فهمنا لقوله تعالى، في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فنبين البلاغة الكاملة في استعمال اللفظ [جعلنا من] ونضيف إلى ما هو معروف متناقل ما يزيده تأييدا. وكذلك عن [إحياء العظم] و [النّار من الشجر الأخضر] في ختام سورة يس، وخروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي. إلخ. وجدير بنا أن نشرح للناس عظمة القسم بمواقع النجوم، والإعجاز في تنوع الخلائق كما ورد في سورة فاطر، وإيلاج الليل في النهار، وسبح الأجرام السماوية في أفلاكها، وكيف يمسك الرحمن الطيور في جو السماء، وكيف تتفجر الأنهار من الحجارة، وكيف يكون شرب الهيم . . . إلخ.

ومطلوب منا أيضا أن نجتهد في تحديد المسميات الواردة في القرآن الكريم، كحوت يونس والسدر واليقطين والطلح والفوم والمن والسلوى، فضلا عن أن نزيد الناس معرفة بمناسبة ذكر الأعناب والتين والزيتون والرطب، وتوضيح معاني هذه المفردات، خدمة كبرى اجتهد فيها

(١) يشير إلى قوله تعالى في بيان المحرمات في سورة الأنعام ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

السابقون، وبذلتها الأمم الأخرى لكتبهم. وأذكر أن الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل قد دعا في جامعة الكويت منذ سنوات إلى تصنيف معجم عصري شامل يشمل مفردات من قبيل ما ذكرت، وكذلك مواقع البلدان وأسماء الأشخاص والأقوام السابقين، وما إلى ذلك مما ذكر في القرآن (أو كتب التفسير).

وجميع ما ذكرت ليس فيه تكلف أو افتعال أو تهجم بالكلام في تفسير كتاب الله العزيز بغير علم، وليس فيه معارضة لتفسير سلفي معتمد، برأي عصري مبتدع. وهذا شرط أساسي. أ. هـ.

ب- تصحيح معلومات بعض المفسرين القدامى:

ومن الحالات التي لا خلاف عليها هنا للعلوم الكونية: القيام بتصحيح بعض المعلومات الخاطئة التي اعتمد عليها بعض المفسرين القدامى، وأخرجوا منها بعض آيات القرآن الكريم عن ظاهرها البين، محاولين تأويلها، وإخراجها عن معناها المتبادر منها، لتوافق ما هو مألوف عندهم، ومتفق مع معارفهم.

من ذلك: قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩]. فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ﴾ يرجع إلى الأرض وحدها، وإنما ذكر ضمير التثنية [فيهما] لأن ما في أحد الشيئين يصدق أنه فيهما في الجملة! (١)

وهذا بلا شك خروج عن الظاهر المتبادر، بلا بينة. وما دفعهم إلى هذا إلا اعتقاد أن العوالم العلوية [السموات] لا توجد فيها كائنات حية تدب عليها، وخصوصا مع قوله تعالى عن الأرض: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فإنه يدل - كما قالوا - على اختصاص الدواب بالأرض. ولكن العلم الحديث اليوم يتصور وجود حياة في الكواكب الأخرى، ويجهد جهده في محاولة اكتشافها، وينبغي أن نقول لهم: إن هذا هو ظاهر ما يقرره القرآن.

---

(١) نقله الآلوسي في تفسيره (روح المعاني) ج ٢٥/ ٤١ ورد عليه.

ولا يجوز أن يقال: إن المراد بقوله [من دابة]: الملائكة التي تسكن السموات كما زعم بعض المفسرين، فإن هذه لا تدب، بل تطير، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١].

كما أن آية سورة النحل ترد على ذلك بوضوح، وهو قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]. فعطف الملائكة على ما يسجد من دابة، والعطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٢].

فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ من باب حذف المضاف، والتقدير: يخرج من أحدهما، أو يقال: إنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد، جاز أن يقال: يخرج منهما، وقد ينسب إلى الاثنين ما هو لأحدهما (١). لأن اللؤلؤ والمرجان، يخرجان من أحد البحرين، وهو البحر المالح، وليس البحر العذب، وحملوا هذه الآيات على الآية الأخرى في سورة الفرقان، حيث يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

ولا ضرورة لهذا الحمل، فلكل آية مجالها. فآية الفرقان فيما نصت عليه من البحر العذب الفرات والبحر الملح الأجاج. أما آيات الرحمن، فظاهرها يتحدث عن بحرين من نوع واحد، وهو الملح، فلا عجب أن يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، حسب سنن الله تعالى.

فإذا كانت آية الفرقان تدل على البرزخ أو الحاجز الإلهي الذي جعله الله بين الأنهار العذبة والبحر، بحيث بقي لكل منهما خواصه، كما بين النيل والبحر المتوسط عند دمياط ورشيد في مصر، فإن آيات الرحمن دلت على أن بين البحار الملحة نفسها، بعضها وبعض، حواجز من صنع الله، فلكل بحر منها كثافته ودرجة حرارته، وحيواناته المائية، وتياراته البحرية، حتى إن أسماك وحيوانات هذا البحر لا تنتقل إلى البحر الآخر رغم أن الطريق مفتوح لها.

ومثل ذلك يقال في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

---

(١) نقل ذلك الآلوسي ج ٢٧ / ١٠٦، ١٠٧.

[الذاريات: ٤٩]. فقد قال بعض المفسرين: هذه الكلية أغلبية، وليست عامة ولا مطلقة، كما هو ظاهر لفظ الآية الكريمة (من كل شيء). وقال بعضهم: (من كل شيء) أي كل جنس من الحيوان نوعين: ذكر وأنثى [١]. فخصوها بأجناس الحيوان.

وإنما قالوا ذلك، لأن الذي يعلمونه أن الازدواج ظاهر في الإنسان والحيوان وبعض أنواع النبات كالنخيل، ولكن لم يعرف في جميع أنواع النباتات، ولا في الجمادات.

حتى جاء العلم الحديث فكشف النقاب عن هذه الحقيقة، وأثبت لنا أن جميع النباتات، بل جميع المخلوقات قائمة على قاعدة (الزوجية)، حتى (الذَّرَّة) تحتوي عل شحنة كهربائية موجبة، وشحنة كهربائية سالبة. وحق قول الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

جـ. تقريب الحقائق الدينية لعقول البشر:

ومن المجالات التي لا خلاف على استخدام العلم فيها لخدمة القرآن خاصة، والدين عامة: تقريب الحقائق الدينية والغيبية التي جاء بها القرآن إلى عقول البشر، التي قد تستبعد هذه الأشياء، أو تكابر فيها.

ولقد عرضت لهذه القضية من قديم في كتابي (ثقافة الداعية) في فصل (الثقافة العلمية)[٢] للداعية وما يمكن أن يؤديه العلم من دور. وكان مما ذكرته من وظائف العلم في عصرنا: أن من الحقائق العلمية ما يمكن استخدامه في تأييد الدين وتوضيح مفاهيمه، ونصرة قضاياه، والذب عنه، بدفع شبهات خصومه ومفتريات أعدائه، وذلك يبدو في عدة صور، منها:

أ ـ تقريب بعض المعتقدات والحقائق الدينية من أفهام أهل العصر، وتأييدها بمنطق العلم التجريبي نفسه، حتى إن أولى قضايا الدين وكبراها، وهي: إثبات وجود الله تعالى، يستطيع هذا العلم أن يقوم فيها بدور بناء، في مواجهة الماديين والملاحدة، فيقيم الأدلة ويدحض الشبهات، بواسطة فروعه المتعددة من رياضيات وفلك وفيزياء وكيمياء، وجيولوجيا وأحياء وطب وغيرها. كما رأينا ذلك في مثل كتاب: أ. كريسي موريسون (الإنسان لا يقوم وحده) المترجم إلى العربية تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) وكتاب (الله يتجلى في عصر العلم) لثلاثين عالما أمريكيا معاصرا، وكتاب (مع الله في السماء) للدكتور أحمد زكي.

---

(١) انظر: الألوسي ج ٢٧ / ١٧، ١٨.

(٢) ص ١٣٣ ـ ١٣٦.

ورأينا مفكري المسلمين ينتفعون بذلك في نصرة العقائد الدينية كما في كتاب (قصة الإيمان بين الدين والعلم والفلسفة) للشيخ نديم الجسر، وكتاب (الإسلام يتحدى) للمفكر الهندي وحيد الدين خان، وقد جعل له مراجعه ومقدمه د. عبد الصبور شاهين عنوانا فرعيا هو (مدخل علمي للإيمان).

لقد كان المشتغلون بالفلسفة والكلام قديما يستبعدون - بل ينفون - أن يرى الإنسان عمله في الآخرة بعد أن فرغ منه في الدنيا، لأن الأعمال أعراض. والعرض لا يبقى زمانين! وعلى هذا يؤولون مثل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الزلزلة: ٦]. وقوله: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ ﴾ [آل عمران: ٣٠]. وما شابهها من آيات، بأن المراد بالأعمال جزاؤها، أي ليروا جزاء أعمالهم!

فجاء العلم الحديث يثبت أن أقوال الإنسان وأعماله كلها موجودة في الفضاء، وأنها يمكن أن تسجل وتصور وتبقى، ولو بعد حدوثها بزمن طويل، وإن لم يوفق الإنسان لاختراع آلة تقوم بهذه المهمة حتى الآن، ولكن العلم لا ينفي إمكانها. ومعنى هذا: أن كل إنسان يمكن أن يواجه بقوله وعمله طيلة حياته في صورة أشبه ما تكون بـ (فيلم) تسجيلي ناطق، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وبهذا يرى عمله حقيقة لا مجازا.

وما يثار اليوم عن قضية (الاستنساخ) وإمكان تخليق صورة (طبق الأصل) من إنسان معين، بواسطة خلية واحدة منه، يقرب لنا عقيدة البعث، وإحياء إنسان جديد هو نسخة من الإنسان القديم، بواسطة ما عرف في الشرع باسم (عَجْب الذَّنَب) الذي لا يبلى من الإنسان!

ب - ويستطيع العلم بمكتشفاته ومقرراته أن يؤيد كثيرا من الأحكام الشرعية ببيان ما اشتملت عليه من جلب المصالح للناس، ودرء المفاسد عنهم، وبذلك يزداد الذين آمنوا إيمانا، ويضعف جانب المرتابين والمشككين في كمال الشريعة الإسلامية، وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

يستطيع علم الطب وغيره أن يعطينا صورة واضحة لما تجنيه (أم الخبائث) الخمر على شاربيها ومدمنيها من أضرار جسيمة على الأفراد، وعلى الأسر، وعلى المجتمعات، ماديا ومعنويا، وبهذا تتبين حكمة الإسلام في تحريم الخمر، ولعن كل من شارك في صنعها أو الاتجار بها أو تقديمها من قريب أو بعيد.

ومثل ذلك المخدرات والتدخين، وكل ما يعتاد الناس تناوله من مأكول أو مشروب أو مشموم أو غيره، يضر متناوله عاجلا أو آجلا، فضلا عن الأضرار الأخلاقية والنفسية والاجتماعية الأخرى.

وكذلك ما يسببه انتشار الزنا من أمراض تناسلية وغيرها للرجال والنساء، وخصوصا ما عرف اليوم باسم (الإيدز) بالإضافة إلى آثاره السيئة على الأنساب والأخلاق والأسر والمجتمع كله. مما يؤكد معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وتستطيع علوم الأحياء، ووظائف الأعضاء، والطب وغيرها: أن تبين لنا حقيقة الفوارق الفطرية بين الذكر والأنثى - وبعبارة أخرى: بين الرجل والمرأة - وأن هذا التفاوت لم يكن عبثا، وأن تجاهله في التشريع والتربية والتعليم والتوجيه، لا يعقب إلا أسوأ النتائج، وأن من الخير لكلا الجنسين، وللجماعة كلها: أن يكون لكل منهما عمله اللائق به، وثقافته الملائمة لوظيفته في الحياة، وبهذا يتلاقى منطق العلم مع منطق الدين، الذي هو منطق الفطرة السليمة.

وحسبي هنا أن أنقل الكلمات التالية عن رجل يعد من أقطاب العلم التجريبي في عصرنا وهو الدكتور ألكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) يقول:

«إن ما بين الرجل والمرأة من فروق ليست ناشئة عن اختلاف الأعضاء الجنسية وعن وجود الرحم والحمل، أو عن اختلاف طريقة التربية. وإنما تنشأ عن سبب جد عميق، وهو تأثر العضوية بكاملها بالمواد الكيمياوية ومفرزات الغدد التناسلية. وإن جهل هذه الوقائع الأساسية هو الذي جعل رواد الحركة النسائية يأخذون بالرأي القائل بأن كلا الجنسين الذكور والإناث يمكن أن يتلقوا ثقافة واحدة، وأن يمارسوا أعمالا متماثلة. والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافا عميقا عن الرجل، فكل حجيرة في جسمها تحمل طابع جنسها، وكذلك الحال بالنسبة إلى أجهزتها العضوية - ولا سيما الجهاز العصبي - وإن القوانين العضوية (الفيسيولوجية) كقوانين العالم الفلكي لا سبيل إلى خرقها! ومن المستحيل أن نستبدل بها الرغبات الإنسانية، ونحن مضطرون لقبولها كما هي. فالنساء يجب أن ينمين استعدادهن في اتجاه طبيعتهن الخاصة دون أن يحاولن تقليد الذكور، فدورهن في تقدم المدنية أعلى من دور الرجال، فلا ينبغي لهن أن يتخلين عنه».

وقال أيضا :

«يغفل الناس عادة شأن وظيفة الولادة بالنسبة إلى المرأة مع أن هذه الوظيفة ضرورة لكمال نموها، ولذلك كان من الحمق والسخف صرف المرأة عن الأمومة، فلا ينبغي أن يتلقى الفتيات والفتيان ثقافة واحدة، ولا أن يكون لهم أسلوب واحد في الحياة، ولا مثل أعلى واحد، وعلى المربين أن يعتبروا الفروق الجسمية والعقلية بين الذكر والأنثى، وما بين دوريهما الطبيعيين، فبين الجنسين فروق لا يمكن أن تزول، ومن الواجب اعتبارها في بناء العالم المتمدن». أ. هـ.

كلمة منصفة للعقاد:

وأختم هذا المبحث بكلمة معتدلة للكاتب المعروف الأستاذ عباس العقاد، قالها بمناسبة الحديث عن (الإنسان) في كتابه (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) معقبا على التعريف الجديد الذي زيد في العصر الأخير عن حقيقة الإنسان، وهو تعريف العلماء النشوئيين القائلين بمذهب التطور - أو مذهب النشوء والارتقاء - ومعظمهم يعرفون الإنسان بأنه حيوان راق، فيضعون هذا التعريف مقابلا لقول القائلين: إن الإنسان روح منكوس أو ملك ساقط من السماء.

ما قول المسلم في هذا المذهب الجديد؟ أتراه يصدقه؟ أتراه يكذبه؟ وهل في نصوص دينه ما يفسر هذا المذهب تفسير الموافقة والقبول؟ وهل في نصوص دينه ما يفسر تفسيرا يوجب عليه رفضه والإعراض عنه؟

يقول الأستاذ العقاد في كتابه (حقائق الإسلام):

«نحن لا نحب أن نقحم الكتاب في تفسير المذاهب العلمية والنظريات الطبيعية كلما ظهر منها مذهب قابل للمناقشة والتعديل، أو ظهرت منها نظرية يقول بها أناس ويرفضها آخرون. ومهما يكن من ثبوت النظريات المنسوبة إلى العلم فهو ثبوت إلى حين، لا يلبث أن يتطرق إليه الشك، ويتحيفه التعديل والتصحيح، وقريبا رأينا من فضلائنا من يفسر السموات السبع بالسيارات السبع في المنظومة الشمسية، ثم تبين أن السيارات أكثر من عشر، وأن الصغار منها تعد بالمئات، ولا يحصرها الإحصاء! فليس من الصواب إذن أن نقحم العقيدة في تفسير أقوال وآراء ليست من الأصول في علومها، ولا يصح أن تتوقف عليها الأصول، وحسب

الدين من سلامة المعتقد وموافقته للعقل: أنه لا يحول بين صاحبه وبين البحث في العلم، وقبول الرأي الذي تأتي به فتوح الكشف والاستنباط. وعلى هذه السنة يرجع المسلم إلى آيات كتابه وأحاديث نبيه، فلا يرى فيها مانعا يمنعه أن يدرس التطور ويسترسل في مباحثه العلمية إلى حيث يلهمه الفكر وتقوده التجربة.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٦ - ٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

وإذا اعتقد المسلم أن خلق الإنسان الأول مبدوء من الأرض، وأنه مخلوق من سلالة أرضية، فلا عليه بعد ذلك أن يسفر مذهب التطور عن نتيجته المقررة كيف كانت على الوجه القاطع المتفق عليه، فما يكون في هذه النتيجة نقض لعقيدة المسلم في أصل الإنسان: أنه جسد من الأرض، وروح من عند الله، وليس في وسع العالم النشوئي أن يدحض هذه العقيدة برأي قاطع أحق منها بالتطبيق والإيمان». أ. هـ. [(١)].

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ١٠٠، ١٠١.

٥ـ بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن

وأود أن أشير هنا إلى قضية لها أهميتها ودلالتها، وهي قضية ما سمي (الإعجاز العلمي) للقرآن، وعلاقته بـ (التفسير العلمي)، فإن هناك خلطا بينهما، حتى كاد بعض الناس يجعل كل تفسير علمي إعجازا علميا. وهذا ليس بصحيح.

إن مجال التفسير العلمي ما ذكرناه في الصحائف السابقة، وهو مجال فسيح. أما مجال الإعجاز العلمي، فهو أخص وأضيق من ذلك بكثير.

وكثير من القضايا التي يذكرها إخواننا المفسرون في الحماسة للإعجاز العلمي، نراها قابله للجدل، ولا تقبل عند الخصم.

فإنك إذا قلت له: من علّم محمدا الأمي في أمة أمية: أن الحديد أنزل من السماء، كما يقول إخواننا الكونيون . . . ؟ فقد يقول لك قائلهم: وما يدريك أن القرآن قصد ذلك حين قال هذه الجملة: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]؟ فقد يكون المراد: إنا خلقناه بتدبير علوي سماوي، كما في نظائره في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]. وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

وهذا ما قلته من قديم، ولا أزال أقوله لإخواننا العلميين المعنيين بهذا اللون من الإعجاز، مثل صديقنا الشيخ عبد المجيد الزنداني، الذي عني أبلغ العناية بهذا الإعجاز، وله فيه بحوث معجبة، وجهود طيبة، والذي سعى ووفق لإنشاء (هيئة علمية عالمية لإعجاز القرآن) في رابطة العالم الإسلامي، وكذلك صديقنا أ. د. زغلول النجار، أستاذ علوم الأرض، الذي له باع رحب ومجهود رائع في هذا الميدان.

ولهذا يجب أن يكون عمدتنا في إثبات هذا الإعجاز، هو القضايا الواضحة المحْكمة، التي لا مجال للشك أو للتشكيك في سبق القرآن بها، مثل أطوار الجنين، المذكورة في سورة المؤمنين، وسورة الحج، ومثل قاعدة (الزوجية) في جميع المخلوقات: ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ** ﴾ [**الذاريات**: ٤٩]، ومثل تقرير أن الماء أصل الحياة: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ [**الأنبياء**: ٣٠].

ثم إن الإعجاز لابد يسبقه تحدٍّ واضح، ودعوة إلى المعارضة بمثل ما يُتحدى به، وأن تتوافر الدواعي إلى قبول التحدي، وتنتفي الموانع عن المعارضة، ثم يعجز المعارضون جميعا.

وفي الإعجاز العلمي لم يحدث هذا التحدي، إذ التحدي القديم كان بالبيان والبلاغة والنظم، كما هو معروف، وإن وجدت أشياء أخرى أضيفت إلى ذلك، مثل الإخبار بالغيوب، وما تضمنه القرآن من هداية وإصلاح وتشريع، ولكن الأساس هو التحدي البياني.

الإعجاز العلمي في حقيقته إعجاز بياني:

بل أقول: إن الذي يتبين لي في هذه القضية المهمة، هو: أن ما يسمى الآن (الإعجاز العلمي) هو عند التأمل والتحليل: لون من (الإعجاز البياني) للقرآن. فالإعجاز هنا يكمن في الصياغة القرآنية العجيبة للآيات، أو أجزاء الآيات، التي تتناول هذه الشؤون التي لها صلة بالعلم، أو بالآفاق والأنفس، كما أشار إلى ذلك القرآن حيث قال: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [**فصلت**: ٥٣].

ذلك أن العبارة القرآنية أو الجملة القرآنية، قد جعل الله فيها من المرونة والسعة بحيث يفهمها العقل العربي العادي في عصر نزول القرآن، ويجد فيها المسلم ما يشبع فكره ووجدانه معا، بالفهم الفطري السهل الميسر لكل قارئ للقرآن. ومع هذا أودع الله الجملة القرآنية من السعة والخصوبة ما يتسع لما يكشف عنه الزمن من حقائق، وما يبلغه العلم من تطور وتقدم، كما نشاهد في عصرنا.

ولو كان القرآن كتابا من تصنيف البشر وتأليف عقولهم، ما كان يمكن لعباراته أن تتسع لمختلف الأزمان، وتطورات الإنسان، بل كان مرور الزمن يكشف عن كثير من القضايا التي ذكرت في الكتاب على أنها حقائق مسلمة، فإذا هي أوهام مرفوضة.

تحفظ المعتدلين من العلميين:

وتحفظي على التوسع في الإعجاز العلمي يشاركني فيه بعض أساتذة العلوم الكبار، من المتخصصين في العلم، والملتزمين بالدين.

من ذلك ما قاله أ. د. عبد الحافظ حلمي في بحثه الذي أشرنا إليه من قبل:

«وثمة قضية أخرى خطيرة لا بد من إثارتها، فلقد شاع وذاع بين كثير ممن يجمعون بين تفسير القرآن الكريم وقضايا العلوم الحديثة: مسارعتهم في كل موضع إلى القول بأن القرآن الكريم قد سبق العلم في هذا أو ذاك من تلك القضايا. وهذا منزلق خطير له محاذيره، فإنه غالبا ما يكون قولا جزافا غير مستند على أساس علمي أو تاريخي. فالأمر الذي يكون موضع التأويل لا يعدو في الغالب أن يكون إشارة لطيفة في القرآن الكريم لظاهرة كونية طبيعية ـ هذا إذا صح تخريج المؤوِّل لمعناها ـ وليس من الصواب في شيء الزج بتلك الإشارة الكريمة إلى تحميلها فوق كل ما تحتمله، ووضعها موضع التسابق مع أي مبحث علمي مفصل. هذا فضلا عن أن المؤوِّل يستحضر بعض فصول التاريخ العلمي الحديثة، منذ ما سمي عصر النهضة وما بعده، غير ملتفت إلى أن المعارف البشرية كانت في عهد القرآن متضمنة ما اهتدت إليه الأمم الأولى في الحضارات السابقة. والكلام في السبق التاريخي يفتح بابا للجدل ليس من اليسير في كثير من الأحيان الانتهاء فيه برأي.

ولنتأمل ـ على سبيل القياس ـ المعارك الجدلية الكثيرة التي دارت حول تحديد ما حققه المسلمون في إبان نهضتهم الكبرى في عصر حضارتهم الذهبي، ومحاولة المكابرين رده كله أو جله إلى الإغريق.

فإذا جاز، مثلا، أن نشرح للناس ما وصل إليه العلم عن القوى التي تجذب الأجرام السماوية بعضها إلى بعض، ثم تحفظها متباعدة عن بعضها البعض دون أن تتداعى، وأن نقول: إن هذه القوى كأنها المعنية بالعَمَد التي لا نراها في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، فإنه لا يجوز أن نقول إن القرآن الكريم قد سبق إلى ذكر قانون الجذب العام في الرياضة الفلكية النيوتونية.

كذلك إذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ...﴾ [الأنعام: ٣٨]، جاز لنا أن نقول: «تنتظم الكائنات الحية في مجموعات

يختص كل منها بصفات تكوينية ووظيفية وطبائع معينة. وفي الآية الكريمة تنبيه إلى تباين صور المخلوقات وطرائق معيشتها. فكما أن الإنسان نوع له خصائصه فكذلك سائر أنواع الأحياء. هذا ما يكشفه علم التصنيف كلما تعمق دراسة نوع منها». (المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ١٩٧٨ : ص ١٧٨). ولكن لا يجوز أن نعلق قائلين بأن هذا يدل على أن القرآن الكريم قد سبق كارلوس لينيوس في وضع علم التصنيف. فالآية أولا ليس فيها تصنيف، لا وفقا لنظام لينيوس ولا غيره من المصنفين، ثم إن محاولات التصنيف ضاربة في التاريخ قبل لينيوس، وإنْ كان هو واضع أسس المنهاج الذي يتبعه البيولوجيون حتى وقتنا الحاضر.

ومن قبيل هذا الذي قيل عن سبق القرآن الكريم إلى قوانين الجاذبية وعلم التصنيف: ما قيل أيضا عن انشطار الذرة، وارتياد الفضاء، وقصر المحور القطبي للأرض، في الأمثلة الثلاثة التي سبق ذكرها، وفي كثير غيرها مما يضيق المجال عن حصره وذكره. ولكن لعل أعجب ما قرأت هو رأي كاتب فاضل من علماء الدين يقول: إن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ من سورة التكوير [٤] تنبّؤ باختراع وسائل الانتقال الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات واستخدامها بدلا من الإبل (والعشار من النوق ونحوها ما مضى على حملها عشرة أشهر) مع أن السياق كله في تعداد أحداث من أحداث يوم القيامة، ومع بعد المعنى المذكور لأكثر من سبب!

إن القرآن الكريم كتاب منزل من خالق الكون العليم بأسراره ونواميسه، بل إنه سبحانه وتعالى هو مبدع هذه الأسرار، وفاطر تلك النواميس. فمن العبث أن نعقد سباقا لا محل ولا معنى له بين كتاب الله العزيز - تنزهت كلماته - وبين علوم البشر، فهي - حتى وإن بلغت في هذا الزمان شأوا عظيما - ليست إلا لمحات من علم الله الشامل الكامل.

إن الأقوال الواهية عن (السبق العلمي) للقرآن الكريم لن تقنع غير المؤمن بأن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله، وليس من قول محمد النبي الأمي، صلوات الله وسلامه عليه، فإننا إذا أردنا أن نقنع غير المؤمنين بهذا وجب علينا أن نلجأ إلى أسلوب أكثر إحكاما.

إن موريس بوكاي، الطبيب والباحث الفرنسي، يقول في كتابه عن (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة): « . . . لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوي الخاصة بموضوعات شديدة التنوع، ومطابقته تماما للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا». (موريس بوكاي، ١٩٧٨ : ١٤٤) . . .

ثم إن بوكاي، عندما يقارن نصوص القرآن الكريم، بمقابلاتها في الكتب المقدسة الأخرى يقول: «إن تصريحات القرآن - على العكس - مطبوعة بالإيجاز في القول والاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم.» (ص: ١٧٤). وقد تعرض بوكاي لبعض التعليقات العلمية على مواضع متعددة في القرآن الكريم، قد نوافقه على بعضها، وقد نختلف معه - من حيث المنهاج والموضوع - في بعضها الآخر، ولكنه لا يفتأ يؤكد هذا الذي ذكره في الاقتباس الأخير، وهو دليل سلبي ولكنه قوي، من أنه لم يجد في القرآن الكريم ما ينافي العلوم الحديثة في شيء.

هذا الصدق المطلق الذي يجده العلماء في القرآن الكريم هو مصداق لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. ويتضح مما يقوله الإمام البيضاوي: أن الاختلاف المشار إليه في الآية الكريمة ليس مقصورا على «تناقض المعنى وتفاوت النظم» - أي بين آيات القرآن نفسها - وإنما يشمل أيضا «مطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض».

وهذا المعنى هو الذي استشعره سير جيمس جينس (الفلكي العظيم، الذي اشتهر بيننا بكتابه الذي ترجم إلى العربية بعنوان: الكون الغامض) عندما قرأ عليه العالم الهندي عناية الله مشرقي معنى الآيتين ٢٧ و ٢٨ من سورة فاطر، [(١)] فصرخ قائلا: «ما قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء؟! مدهش! وغريب، وعجيب جدا!! إنه الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة (أي بحوث سير جيمس نفسه). من أنبأ محمدا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله. لقد كان محمد أميّا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن (الله) هو الذي أخبره بهذا السر . . . مدهش . . . ! وغريب، وعجيب جدا!!» - (وحيد خان، ١٩٧٣: ١٣٢ - ١٣٤، عن مجلة (نقوش) الباكستانية).

وتفاصيل هذه الرواية ممتعة وذات مغزى، ويمكن الرجوع إليها في مصدرها.

وكتاب الله العزيز كله معجز، ويستطيع العلماء أن يتلمسوا دلائل إعجازه في شتى المجالات. فإذا كنا بصدد (إعجازه العلمي) تحتم علينا أن نتوخى الدقة التامة، فلا نفتعل مناسبة أن نتشبث بلفظ أو نحمله فوق كل ما يحتمل، أو نجهل أو نتجاهل حقائق التاريخ.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وينبغي أن يكون لنا في الأئمة السابقين أسوة حسنة حين نرى دقة مناهجهم العلمية عندما تناولوا القرآن الكريم من نواحيه اللغوية والبلاغية والتشريعية [١].

تكوين العقلية العلمية في القرآن:

وأحب أن أشير هنا إلى قضية أراها في غاية الأهمية، وهي لم تأخذ حقها من اهتمام الباحثين في الدراسات القرآنية، وفي رأيي أنها أهم من إشارات الإعجاز العلمي، وهي: ما جاء به القرآن من (تكوين العقلية العلمية) التي ترفض الظن والخَرْص، واتباع الأهواء والعواطف والتقليد الأعمى للأجداد والآباء، والطاعة العمياء للسادة والكبراء، وتنظر في ملكوت السماء والأرض وما خلق الله من شيء، وتتعبد لله تعالى بالتفكر في الآفاق والأنفس، مثنى وفرادى، وتعتمد البرهان في العقليات، والتوثيق في النقليات، والمشاهدة في الحسيات . . . إلى آخر ما ذكرناه في فصل كامل في كتابنا (العقل والعلم في القرآن)[٢].

وهذه العقلية التي ينشئها القرآن بوصاياه، وتوجيهاته وأحكامه، هي التي تحقق الازدهار العلمي، وتهيىء المناخ لظهور علماء يبحثون ويبتكرون في كل مجال، وهو ما حدث في الحضارة الإسلامية، التي جمعت بين العلم والإيمان، بل التي اعتبرت العلم دينا والدين علما، وكان علماؤها أساتذة العالم، وكتبها مراجعهم، وجامعاتها موئلهم، لعدة قرون، وذلك كله بفضل الإسلام الذي جعل منهم خير أمة أخرجت للناس.

---

(١) انظر: (العلوم البيولوجية في خدمة التفسير) ص ٧٠- ٧٣.

(٢) نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة.

١ ـ اتباع القرآن والعمل به

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

ما رأيت غائبا أشبه بحاضر، ومنسيّا أشبه بمحتفى به، من القرآن الكريم في حياة المسلمين.

إن عشرات الألوف بل مئات الألوف، يحفظونه عن ظهر قلب، ومئات الملايين يتلونه أو يستمعون إليه صباحا ومساء، آناء الليل وأطراف النهار، وملايين آخرين يزينون بآياته الجدران، أو يتبركون بحمل المصحف في جيوبهم أو في سياراتهم، أو بحمل آية من آياته في حلية تزدان بها صدورهم، أو تميمة يستشفي بها عوامهم، بل رأينا بعضهم يفتحون عيادات للاستشفاء بالقرآن، والعلاج بالقرآن!

نرى المسلمين تفتتح إذاعاتهم وتلفازاتهم بالقرآن، وتختم بالقرآن، بل هناك إذاعات كاملة مخصصة كلها للقرآن، ترتله وتجوّده وتفسره.

ومع هذا كله، نرى المسلمين مقصرين في حق القرآن أبلغ تقصير. فالقرآن لم يصبح هو الموجه الأول لعقول المسلمين، ولا المؤثر الأول في قلوب المسلمين، ولا المحرك الأول لسلوك المسلمين، ولا المغير الأول لما بأنفس المسلمين.

مظاهر العناية بالقرآن التي أشرنا إلى جملتها، بعضها يتصل بالشكل لا بالجوهر، بالصورة لا بالحقيقة، بالظاهر لا بالباطن، وبالفضول لا بالأصول. وبعضها يدخل في باب (المحدثات) التي اخترعها الناس بأهوائهم: ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من شرع الله برهان. وقد حذرنا رسولنا الكريم من هذه المحدثات، فقال فيما رواه عنه العرباض بن سارية: «إياكم ومحدثات الأمور، فكل بدعة ضلالة»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي وقال: حسن صحيح (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣، ٤٤) وأحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧) والدارمي (١/ ٤٤).

فاتخاذ القرآن (تمائم) في الصدور أو الأعناق، لم يكن من عمل الصحابة وتلاميذهم رضي الله عنهم ـ وإن أجاز ذلك بعض العلماء ـ ولكن النهي عن (التمائم) جاء عامًّا، والأولى أن يبقى على عمومه، وسدا للذريعة أيضا، ولئلا يدخل به المسلم أماكن النجاسة، أو يحمله وهو جنب، أو تحمله المرأة وهي حائض.

والتداوي بالقرآن أو الاستشفاء به من الأمراض المادية العضوية لم يعرف عن عصر النبوة وعصر الصحابة. وكل ما عرف عن الصحابة: ما اقتبسوه من هدي نبيهم من الرقية بالقرآن وبالأدعية المأثورة، مثل ما صح في الحديث: «اللهم رب الناس. أذهب الباس. اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما»، والرقية بالمعوّذات ونحوها. وهذا بجوار الأخذ بالأسباب، ومراعاة سنن الله في دفع الداء وإزالته بما يلائمه من الدواء. فالمسلم الحق يصف الأدوية الروحية إلى جانب الأدوية المادية ولا يلغيها.

لم يعرف عن الصحابة وتلاميذهم أنهم اشتغلوا بمداواة الناس بالقرآن وترك أدوية الأطباء. لم يفتح عمر، ولا عليّ، ولا ابن مسعود، ولا أبيّ، ولا زيد، ولا ابن عباس، ولا ابن عمر، ولا مجاهد، ولا سعيد بن جبير، ولا الحسن، ولا عكرمة، ولا قتادة، ولا غيرهم من أهل القرآن، وعلماء الأمة: عيادات لمداواة المرضى وعلاجهم بالآيات القرآنية، كما يفعل بعضهم اليوم.

بل قال النبي ﷺ: «إنما الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، أو شرطة محجم، أو كية نار»[1].

ويلاحظ أن الحديث جاء بصيغة (إنما) المفيدة للحصر، وهي تشير إلى أنواع المداواة، وهي: إما بالفم، أو الجراحة، أو الكي، ومثله العلاج بالكيمياويات ونحوها.

وقد تداوى النبي ﷺ بالأدوية المعروفة المختلفة، وأمر أصحابه بالتداوي بها. ولما سألته الأعراب عن التداوي، قال: «تداووا ياعباد الله، فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء»[2]. ولما سئل عن الأدوية: هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «هي من قدر الله»[3].

---

(١) رواه البخاري وابن ماجه عن ابن عباس، صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٧٣٤).

(٢) رواه أبو داود (٣٨٥٥) والترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٤٣٦)، كلهم عن أسامة بن شريك.

(٣) رواه الترمذي (٢٠٦٥) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه(٣٤٣٧) وأحمد (٣/ ٤٢١) عن ابن أبي خزامة.

وهي كلمة نبوية تعد غاية في الحكمة وبيان الحقيقة. فكما أن الأمراض من قدر الله، فالأدوية من قدر الله، فالله هو الذي قدر الأسباب، وقدر المسببات. والمؤمن الحق هو الذي يدفع قدر الله بقدر الله.

وقد أرشد النبي ﷺ بعض أصحابه للذهاب إلى (الحارث بن كلدة) الطبيب العربي المعروف، يطلب العلاج عنده.

أما قول الله تعالى عن القرآن: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾ [**فصلت**: ٤٤]. فالمراد هنا الشفاء المعنوي لا المادي والعضوي، شفاء العقول من الضلالة، والقلوب من العمى، ولذا قال في الآية الآخرى: ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [**يونس**: ٥٧]. فبينت الآية أن الشفاء، إنما هو (لما في الصدور) أي أنه شفاء معنوي، يحمل الهداية للضالين، والنور للمتخبطين.

ولو أن المسلمين الأوائل ساروا على طريق هؤلاء الأواخر، الذين فتحوا (عيادات) يزعمون أنهم يعالجون الناس فيها بالقرآن، ما قامت للطب قائمة في الحضارة الإسلامية، ولا ظهر في الأمة عباقرة الأطباء، الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وكانت كتبهم مراجع علمية عالمية لعدة قرون، ومنهم من جمع بين علم الطب وعلوم الدين، ونبغ في كل من المجالين، مثل (ابن رشد) صاحب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) في الفقه المقارن، وصاحب (الكليات في الطب)، الذي ترجم إلى اللاتينية، وانتفع به الأوربيون لعدة قرون. ومثل (الفخر الرازي) الذي كانت شهرته في الطب لا تقل عن شهرته في التفسير والأصول وعلوم الدين. ومثل (ابن النفيس) مكتشف الدورة الدموية الصغرى، الذي ترجم له ابن السبكي في طبقات الشافعية.

لقد عرف المسلمون منذ عصر الصحابة أن بركة القرآن ليست في حمله ولا تعليقه ولا تزيين البيوت به، ولا في الاستشفاء بآيات يتلوها شيخ أو مطوع، أو يكتبها في صحن ثم يمحوها ويشرب ماءها ... إلخ هذه الغرائب ... إنما بركة القرآن حقا في اتباعه والعمل به، وهو ما ذكره القرآن نفسه حين قال: ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ١٥٥]. فالبركة - كما تشير الآية الكريمة - في اتباعه واتقاء الله به، وبهذا ترجى رحمة الله أيضا ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾.

لا بديل إذن عن اتباع القرآن. كما قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

ومعنى اتباع القرآن: أن نجعله لنا إماما، يقودنا ونحن نمضي وراءه، لا أن نجعله خلفنا، ونتخذه وراءنا ظهريا. فمن جعل القرآن أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعل القرآن وراءه زخه في قفاه حتى يرديه في النار، وبئس القرار.

بل إن القرآن ليطالبنا أن نتبع (أحسن ما أنزل إلينا) من ربنا. ولا يكتفي بمجرد اتباع ما أنزل إلينا، يقول تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٥].

وأثنى الله على قوم فقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وبهذا لا يقف الإنسان المؤمن عند (الحسن) فحسب، بل يرنو ببصره، ويتوق قلبه إلى (الأحسن).

وقد بين لنا القرآن أن الله تعالى خلق هذا الكون بسماواته وأرضه، وخلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها، لهدف وحكمة، أن يبلونا ويختبرنا: أينا أحسن عملا.

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود: ٧]. ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف: ٧]. ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ١، ٢].

تشير هذه الآيات أن الاختبار الإلهي هنا، ليس المراد به أن يتبين المحسن من المسيء، بل المنشود: أن يعرف من الأحسن عملا؟ فالسباق ليس بين الحسن والسيئ بل بين الحسن والأحسن منه.

ولا عجب أن رأينا القرآن يأمر باستثمار مال اليتيم ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢ والإسراء: ٣٤] ودفع السيئة ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون: ٩٦وفصلت: ٣٤] والجدال

﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] . وذلك ليكون (الأحسن) في كل شيء، هو ما ينشده الإنسان المسلم القرآني .

إننا نريد أن يكون للقرآن تأثيره العملي في حياتنا ، كما أثر في حياة الصحابة والمسلمين الأوائل ، وصنع منهم رجالا ، والرجال قليل .

إن القرآن لم يعد كما كان عند سلف الأمة : مفجر الطاقات ، ومجند القدرات ، وحافز الإرادات ، بل أصبحت قراءته أو استماعه للتسلية أو التلذذ بالألحان ، وما عاد يحرك فينا ساكنا ، حتى إننا لنسمعه من إذاعات أجنبية لا تؤمن بالقرآن ، بل هي معادية للمسلمين ، لأنها مطمئنة إلى أنه لم يعد ينبه من الأمة غافلا ، أو يحيي فيها مواتا .

الخلق القرآني:

ومن القيم الغائبة في حياة المسلمين - إلا من رحم ربك - الخلق القرآني . وهو الذي وصفت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ ، حين سألها سائل : أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : إن خلق نبي الله كان القرآن [١] .

ولله در عائشة : ما كان أبلغها وأصدقها وأروعها في هذه الكلمة الموجزة ، التي لخصت بها السيرة المحمدية ، والفضائل النبوية كلها .

فمن أراد أن يعرف أخلاق محمد ﷺ في حياته الخاصة والعامة ، في تعامله في نهاره ، وتعامله في ليله ، تعامله مع ربه ، وتعامله مع أهله ، تعامله مع أصحابه ، وتعامله مع أعدائه ، تعامله في سلمه ، وتعامله في حربه . فليفتح المصحف ويقرأ فيه أوصاف المؤمنين والمتقين والمحسنين وأولي الألباب وعباد الرحمن ، وليقرأ أوامر الله تعالى ونواهيه ، ليعرف من هذا كله كيف كان محمد ﷺ .

وليقرأ سير الأنبياء السابقين وما خصهم الله به من فضائل ومكارم ، ليعلم أن محمدا قد جمع الله له هذه المكارم كلها . فقد قال سبحانه له بعد أن سرد عليه عددا من الرسل المقربين عند الله بلغ ثمانية عشر رسولا : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٢١] .

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين . حديث (٧٤٦) كما رواه أصحاب السنن أيضا .

ولهذا أعلن ﷺ عن نفسه، وعن هدف رسالته فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١).

ومن هنا جعله الله أسوة وإماما للمؤمنين ليقتدوا به فيهتدوا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكل مراقب لحياة المسلمين يلاحظ أن عواطفهم نحو رسول الله ﷺ عواطف جياشة بالحب، لا يذكر اسمه في مجلس إلا ضج بالصلاة والسلام عليه، ولا تكاد توجد أسرة مسلمة إلا وفي أبنائها محمد (٢) أو أحمد أو غيرهما من أسمائه، ولا تمر ذكرى مولده أو هجرته في معظم ديار المسلمين إلا احتفلوا بها.

ولكن أين هذا كله من خلق محمد الذي هو خلق القرآن؟ وهو الذي تخلق به أصحابه الكرام، وتلاميذهم من بعدهم، واقتبسوا من ضيائه، وتغذوا من غذائه، فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس، وكانوا الشهداء على الناس حقا، بأخلاقهم وأعمالهم، لا بدعاويهم وأقوالهم. وهم بأخلاقهم القرآنية نشروا الإسلام في العالم.

تأثير القرآن في العرب:

لقد كان العرب قبل الإسلام يعيشون في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، فسدت عقولهم، فعبدوا ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام وغيرها. وفسدت عواطفهم حتى قتلوا أولادهم من إملاق واقع، أو خشية إملاق متوقع.

فلما بعث محمد ﷺ، ونزل عليهم القرآن، أحدث في حياتهم زلزالا، وغيَّرهم تغييرا جذريا، وأنشأهم خلقا آخر.

أحدث القرآن فيهم ثورة في العقل والتصور، وثورة في الوجدان والشعور، وثورة في العمل والسلوك، وذلك لأنهم فتحوا له عقولهم وقلوبهم، فكانت أجهزة الاستقبال عندهم سليمة مهيأة لحسن التلقي، وكان الإرسال على أفضل ما يكون. فكانوا كما وصف الله عز

---

(١) رواه ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان. صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩).

(٢) بل رأينا بعض الأسر يسمون كل أبنائهم محمدا، ثم يضيفون إليه اسما أو لقبا آخر، وقد يرقمون الأبناء محمد الأول، والثاني، إلى الرابع أو الخامس، كما رأيت في الهند، وفي نيجيريا.

وجل تأثير كتابه في الأنفس: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

وكانت طريقة حفظهم للقرآن وتلقيهم له تعينهم على العمل به، وتطبيقه على حياتهم أولا بأول.

كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات من القرآن، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن (١).

وهذا موقوف لفظا، مرفوع معنًى، لأنه يتحدث عن عصر النبوة، فإن الذي كان يعلِّمهم هو رسول الله ﷺ.

وهكذا جاء عن عثمان وأبيّ بن كعب. وقد نقلناه من قبل.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ: أنهم كانوا يأخذون من رسول الله عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى، حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل. قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعا (٢).

ومن هنا اقتضت حكمة الله أن ينزل القرآن منجما مفرقا في ثلاث وعشرين سنة في مكة والمدينة، ليتمكن الناس من فهمه والعمل به في أناة وتمهل، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦].

القرآن للعمل والتنفيذ:

لقد اتخذ الصحابة - رضي الله عنهم - القرآن منهاجا لحياتهم، منه يستمدون، وإليه يرجعون، وعليه يعتمدون.

---

(١) رواه الطبري في مقدمة التفسير والأثر (٨١) وقال الشيخ شاكر في تخريجه: هذا إسناد صحيح (١: ٨٠) طبعة دار المعارف بمصر.

(٢) رواه أحمد من طريق عطاء بن السائب، وقد اختلط كما هو معروف. انظر: مجمع الزوائد (١/ ١٦٥). ورواه الطبراني أيضا برقم (٨٢) وقال الشيخ شاكر: هذا إسناد صحيح متصل (برغم وجود عطاء فيه!).

وكلما نزل شيء منه سارعوا إلى تنفيذه والعمل به، دون إبطاء أو تلكؤ أو تردد. وكان هذا مما ميز هذا الجيل الأول، جيل الصحابة، الجيل القرآني الفريد، كما قال الشهيد سيد قطب رحمه الله، فلم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، بل يتلقى أحدهم القرآن ليعمل به فور سماعه، وهذا ما شهدت به وقائع شتى.

آية ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]:

ذكر ابن كثير في تفسيره عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر الناس بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه (بيرحاء) - اسم حديقة له - وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قال أبو طلحة: يا رسول الله! إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال النبي ﷺ: «بخ بخ! ذاك مال رابح، ذاك مال رابح. وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه [(١)].

وفي الصحيحين: أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله! لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: «حبّس الأصل، وسبّل الثمرة» [(٢)]. ومعنى هذا: أن يجعله وقفا في سبيل الله، يحبس أصله، فلا يباع ولا يوهب، وتسبل ثمرته، أي تجعل في سبيل الله، أي في الخير وإعانة الضعفاء والفقراء.

تأثير سورة الزلزلة في أنفس الصحابة:

وأذكر هنا نموذجا واضحا لتأثير القرآن في أنفس الصحابة، وكيف كانوا يتلقونه بعقولهم وقلوبهم وإرادتهم. كما يتبين ذلك من تأثير سورة الزلزلة، وبخاصة الآيتان الأخيرتان منها [٧، ٨]: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. وحسبي هنا أن أسجل بعض ما ذكره الحافظ السيوطي من أحاديث وآثار في تفسيرها في كتابه (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) [(٣)]. قال رحمه الله:

---

(١) رواه أحمد والشيخان، كما ذكر ابن كثير جـ ١ / ٣٨١.

(٢) ابن كثير، السابق، واللؤلؤ والمرجان (١٠٥٦).

(٣) جـ٦/ ٣٨٠ - ٣٨٢.

أخرج إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه عن أسماء قالت:

بينما أبو بكر رضي الله عنه يتغدى مع رسول الله ﷺ، إذ نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. فأمسك أبو بكر رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله: أكل ما عملناه من سوء رأيناه؟ فقال: «ما ترون مما تكرهون فذاك ما تجزون به، ويدخر الخير لأهله في الآخرة».

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب البكاء، وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أنزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر رضي الله عنه قاعد فبكى، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: تبكيني هذه السورة. فقال: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم».

وأخرج ابن المبارك في الزهد وأحمد وعبد بن حميد والنسائي والطبراني وابن مردويه عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾. فقال: حسبي، لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها.

وأخرج سعيد بن منصور عن المطلب بن عبد الله بن حنطب أن رسول الله ﷺ قرأ في مجلس ومعهم أعرابي جالس: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. فقال الأعرابي: يا رسول الله! أمثقال ذرة؟ قال: نعم. فقال الأعرابي: واسوأتاه! ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله ﷺ: «لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان».

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الآية، فقام رجل، فجعل يضع يده على رأسه، وهو يقول: واسوأتاه! فقال النبي ﷺ: «أما الرجل فقد آمن».

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن النبي ﷺ دفع رجلا إلى رجل فعلمه حتى بلغ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ فقال الرجل: حسبي. فقال الرجل: يا رسول الله! أرأيت الرجل الذي أمرتني أن أعلمه لما

بلـغ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ فقال : حسبي ؟ فقال النبي ﷺ : «دعه فقد فقه» .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أن عائشة رضي الله عنها جاءها سائل فسأل ، فأمرت له بتمرة ، فقال لها قائل : يا أم المؤمنين إنكم لتصدّقون بالتمرة ؟ قالت : نعم والله ! إن الخلق كثير ولا يشبعه إلا الله ، أو ليس فيه مثاقيل ذر كثير ؟

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة : أن سائلا جاءها فقالت لجاريتها : أطعميه . فوجدت تمرة فقالت : أعطيه إياها ، فإن فيها مثاقيل ذر إن تقبلت .

وأخرج مالك وابن سعد وعبد بن حميد من طريق عائشة رضي الله عنها : أن سائلا أتاها وعندها سلة من عنب ، فأخذت حبة من عنب فأعطته ، فقيل لها في ذلك فقالت : هذه أثقل من ذر كثير ، ثم قرأت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن جعفر بن برقان قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب أتاه مسكين وفي يده عنقود من عنب فناوله منه حبة وقال : فيه مثاقيل ذر كثيرة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن سائلا سأل عبد الرحمن بن عوف وبين يديه طبق وعليه عنب ، فناوله حبة ، فكأنهم أنكروا ذلك عليه ، فقال : في هذه مثاقيل ذر كثير .

وأخرج ابن سعد عن عطاء بن فروخ : أن سعد بن مالك أتاه سائل وبين يديه طبق عليه تمر فأعطاه تمرة ، فقبض السائل يده ، فقال سعد : ويحك ! تقبل الله منا مثقال الذرة والخردلة ، وكم في هذا من مثاقيل الذر ؟

فانظر كم كان تأثير هذه الآية الكريمة في أنفس الصحابة وفي سلوكهم رضي الله عنهم .

الاستجابة لنداء الجهاد في سبيل الله:

ومن روائع استجابة الصحابة للقرآن : ما سطره التاريخ لمواقف الأصحاب رضي الله عنهم حين ناداهم القرآن للجهاد ، بمثل قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج :٧٨] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي

سبيل الله فيقتلون ويُقتلون ﴾ [التوبة: ١١١] فلقد وجدنا الرجل وابنه يتنافسان على الغزو حتى يقترع الرجل وابنه (مثل سعد بن خيثمة وأبيه): أيهما يخرج للجهاد؟ وأيهما يبقى لشؤون البيت والأسرة؟ فإذا فاز الابن بالقرعة قال له أبوه: آثرني بها يا بني! فيقول له: يا أبت! إنها الجنة، ولو كان شيء غيرها لآثرتك!

ونجد شيخا أعرج كعمرو بن الجموح الأنصاري يأبى إلا أن يخرج للمشاركة في غزوة أحد مع أن الله عذره في كتابه حين قال: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧]. ومع أن له أربعة بنين يشهدون المعارك خلفا له مع رسول الله ﷺ، ولكنه يسعى وراء أمنية غالية، هي الشهادة، وقد حققها الله له.

ويروي ابن عباس عن أبي طلحة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ [التوبة: ٤١]. قال: شبانا وكهولا، ما سمع الله عذر أحد. فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات، رضي الله عنه.

وعن أنس: أن أبا طلحة قرأ سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١]. فقال: أي بنيّ . . . جهزوني (أي بعدة الحرب). فقال له بنوه: يرحمك الله . . . فقد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات، فنحن نغزو عنك. قال: لا. جهزوني. فغزا في البحر، فمات في البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها، إلا بعد سبعة أيام، فدفنوه فيها.

وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل. فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثّرت السواد، وحفظت المتاع [1].

في الانتهاء عما حرم القرآن:

وفي مجال المنهيات والمحرمات يحسن بي أن أذكر موقفين إسلاميين هما من أروع المواقف التاريخية الإنسانية في المسارعة إلى الانقياد لشريعة القرآن، واجتناب ما نهى عنه بلا تردد ولا إبطاء.

---

(١) ذكر هذه الروايات القرطبي في تفسير آية ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ من سورة التوبة. وانظر: كتابنا: (مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) خصيصة (الربانية) ص ٩٢. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

أولهما: موقف العرب بعد إسلامهم من تحريم الخمر. وقد كان لهم في الجاهلية ولع بشربها وأقداحها ومجالسها، حتى سموها بنحو مائة اسم أو تزيد. وقد علم الله ذلك منهم، فأخذهم بسنة التدرج في تحريمها، إلى أن نزلت الآية الفاصلة من سورة المائدة تحرمها تحريما باتا: ﴿ يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠]: وبهذا حرم النبي ﷺ شربها وبيعها، وإهداءها لغير المسلمين. فما كان من المسلمين حينذاك إلا أن جاءوا بما عندهم من مخزون الخمر وأوعيتها، فأراقوها في طرق المدينة إعلانا عن براءتهم منها.

ومن عجيب أمر الانقياد لشرع الله: أن فريقا منهم حين بلغته هذه الآية، كان منهم مَن في يده الكأس قد شرب بعضها، وبقي بعضها في يده، فرمى بها من فيه، وقال ـ إجابة لقول الله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]: قد انتهينا يارب . . . قد انتهينا يارب.

ولو وازنا هذا النصر المبين، في محاربة الخمر والقضاء عليها في البيئة الإسلامية، بالفشل الذريع الذي منيت به الولايات المتحدة[1] ـ حين أرادت يوما أن تحارب الخمر بالقوانين والأساطيل ـ: لعرفنا أن البشر لا يصلحهم إلا تشريع السماء، الذي يعتمد على الضمير والإيمان، قبل الاعتماد على القوة والسلطان.

وثانيهما: موقف النساء المسلمات الأول مما حرم الله عليهن من تبرج الجاهلية، وما أوجب عليهن من الاحتشام والتستر، فقد كانت المرأة في الجاهلية تمر بين الرجال مسفحة بصدرها، لا يواريه شيء، وكثيرا ما أظهرت عنقها وذوائب شعرها، وأقراط آذانها، فحرم الله على المؤمنات تبرج الجاهلية الأولى، وأمرهن أن يتميزن عن نساء الجاهلية، ويخالفن شعارهن، ويلزمن الستر والأدب في هيئاتهن وأحوالهن، بأن يضربن بخمرهن على جيوبهن، أي يشددن أغطية رءوسهن بحيث تغطي فتحة الثوب من الصدر، فتواري النحر والعنق والأذن.

وهنا تروي لنا السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ كيف استقبل نساء المهاجرين والأنصار في المجتمع الإسلامي الأول، هذا التشريع الإلهي الذي يتعلق بتغيير شيء مهم في حياة النساء، وهو الهيئة والزينة والثياب.

---

(١) اقرأ هذه الموازنة في كتابنا «الإيمان والحياة»، في موضوع «الإيمان والأخلاق».

قالت عائشة: يرحم الله النساء المهاجرات الأُوَل، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن (أكسية من صوف أو خز) فاختمرن بها [1].

وجلس إليها بعض النساء يوما، فذكرن نساء قريش وفضلهن، فقالت: إن لنساء قريش لفضلا، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، ولا أشد تصديقا لكتاب الله، ولا إيمانا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهن فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وكل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحّل (المزخرف الذي فيه تصاوير) فاعتجرت به (شدته على رأسها) تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ «معتجرات كأن على رءوسهن الغربان» [2].

هذا هو موقف النساء المؤمنات، مما شرع الله لهن. موقف المسارعة إلى تنفيذ ما أمر، واجتناب ما نهى، بلا تردد ولا توقف ولا انتظار.

أجل . . . لم ينتظرن يوما أو يومين أو أكثر حتى يشترين أو يخطن أكسية جديدة تلائم غطاء الرءوس، وتتسع لتضرب على الجيوب. بل أي كساء وجد، وأي لون تيسر، فهو الملائم والموافق، فإن لم يوجد شققن من ثيابهن ومروطهن، وشددنها على رءوسهن، غير مباليات بمظهرهن الذي بدَوْن به كأن على رءوسهن الغربان، كما وصفت أم المؤمنين [3].

لم يكن تأثير القرآن على الرجال وحدهم، بل كان تأثيره على الرجل والمرأة جميعا. لقد غير القرآن المجتمع كله برجاله ونسائه، فتغيرت الحياة كلها من الجاهلية إلى الإسلام.

---

(١) رواه البخاري - والآية من سورة النور: ٣١.   (٢) ذكره ابن كثير في تفسير الآية عن ابن أبي حاتم.

(٣) انظر كتابنا: مدخل لدراسة الشريعة ص ٩٤- ٩٦.

٢ ـ القرآن منهاج لحياة الإنسان

ينبغي على كل مسلم أن يعلم أن الله تعالى نزل القرآن الكريم ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، كما قال منزله سبحانه. فهو منهاج للفرد، ودستور للجماعة. أجل هو منهاج عملي يتضمن الأصول الموجهة لحياة الفرد، وعلاقته بالرب سبحانه، وعلاقته بالكون والحياة من حوله، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته وجيرانه ومجتمعه، وعلاقته بأمته المسلمة، وعلاقته بالآخرين من غير المسلمين، ممن يسالمونه وممن يحاربونه.

علاقته بالله تعالى: أن يعبده ولا يشرك به شيئا: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ﴾ [الزمر: ١١-١٥].

وقد بين القرآن أن الله خلق الكون بسماواته وأرضه ليعرفه الناس بأسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]. فإذا عرفوا الله تعالى توجهوا إليه بالعبادة، التي خلقهم لها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وتتمثل هذه العبادة في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وذكر الله ذكرا كثيرا، وتسبيحه بكرة وأصيلا. ولا يكون مثل المنافقين الذين: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢]. ولا تتم هذه العبادة إلا بأن يحل ما أحل الله، ويحرم ما حرم الله، وأن يقف عند حدود الله في أمره ونهيه، قائلا: سمعنا وأطعنا.

وعلاقته بالكون: أن يتأمله وينظر فيه ليهتدي به إلى خالقه ومبدعه: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ثم يستخدمه فيما يعنيه على مهمته.

إنها علاقة الخليفة بما استخلف فيه وما سخر له. فهذا الكون علويه وسفليه سخر للإنسان ليستخدمه وينتفع به، ويعمر أرضه، ويحكم فيه بالحق والعدل. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]. وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]. وقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] . وقال: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]. ومعنى (استعمركم): أي طلب إليكم أن تعمروها ولا تخربوها.

ولا يجوز في منطق القرآن أن ينقلب الكون ـ الذي هو مسخر للإنسان ـ إلى إله معبود للإنسان، كما فعلت الوثنيات المختلفة، التي قلبت الحقائق، وأضلت الإنسان عن سواء السبيل.

وعلاقة الإنسان بالحياة الدنيا: أن يتخذها مزرعة للحياة الأخرى، وأن يستمتع بطيباتها دون أن يجعلها له غاية، وأن يعمل لدنياه كأنه يعيش فيها أبدا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا، وبذا يجمع الحسنتين، ويسعد في الدارين، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]. ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١] . وفي وصية قوم قارون له: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

وبهذا نهج المسلم النهج الوسط، بين الماديين الذين يقولون: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩]. وبين المسرفين في الروحية أو المثالية، مثل البرهمية

الهندية، أو البوذية الصينية، أو المانوية الفارسية، أو الرواقية اليونانية، أو الرهبانية النصرانية، وغيرهم من الذين حرموا طيبات ما أحل الله لهم، وعطلوا ما وهب الله لهم من طاقات لم يستغلوها في عمارة الحياة.

وعلاقة الإنسان بنفسه: أن يوجه قواها كلها في طلب الحق، وفعل الخير، ومجاهدة الباطل والشر، وأن يوازن بين مواهبها وملكاتها، فلا يكون همه فقط ما عني به (علماء الكلام) من النظر والتفكر واستخدام القوة العلمية، ولا يكون همه أيضا الاقتصار على ما عني به (علماء السلوك) وأهل الزهد من تعظيم الإرادة والمريد.

والصراط المستقيم: أن يستعمل القوتين، ويجمع بين الأمرين: العلم والإرادة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولهذا عني القرآن بالدعوة إلى العقل والفكر، في آيات لا تكاد تحصى [1]. ويكفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: ٤٦].

كما عني بالدعوة إلى تزكية النفس: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

وعلاقة الإنسان بأسرته: رسمها القرآن في مثل قوله تعالى في العلاقة الزوجية: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]. ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

كما رسم علاقة الأولاد بوالديهم في مثل قوله تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]. ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥].

---

(١) انظر في ذلك كتابنا: (العقل والعلم في القرآن الكريم).

وأشار إلى علاقة الآباء بأولادهم بمثل قوله تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١]. وبمثل دعاء عباد الرحمن: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

والأسرة في نظر القرآن هي الأسرة الموسعة الممتدة التي تشمل الإخوة والأخوات، بل الأعمام والعمات، والأخوال والخالات، من أولي القربى والأرحام، وقد قال تعالى: ﴿ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وعلاقته بجيرانه وجماعته المسلمة من حوله: رسمها في مثل قوله تعالى في آية الحقوق العشرة: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

كما رسمتها آيات أخرى كثيرة، وضعت الآداب الرفيعة التي ترقى بالناس في تعاملهم بعضهم مع بعض من أدب الخطاب، وأدب المشي، وأدب المجلس، وأدب التزاور، وغيرها.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وعلاقته بأمته الكبرى - أمة الإسلام - أن ينصح لها، ويعتبر نفسه جزءا منها، يعطيها ويأخذ منها، ويغار عليها، ويذود عنها، داعيا إلى الخير، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، مجاهدا في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وللأمة كلها حق عليه - وخصوصا الضعفاء من فئاتها المختلفة، مثل اليتامى والمساكين وابن السبيل - كما قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ [الإسراء: ٢٦] وقال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

وعلى الإنسان المسلم أن يكون ولاؤه لأمته، المنبثق من ولائه لله ولرسوله، وأن يعادي من يعاديها، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وعلاقته بالآخرين من غير المسلمين: رسمتها آيتان من كتاب الله هما بمثابة الدستور في تحديد العلاقات بين المسلمين وغيرهم. يقول تعالى في سورة الممتحنة: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

فللمسالمين من غير المسلمين: القسط، وهو العدل الذي يحبه الله ويحب أهله، والبر، وهو الإحسان، وهو أمر فوق العدل.

أما غير المسالمين - ممن قاتلوا المسلمين في دينهم وأخرجوهم من أوطانهم - فلهم ما يستحقونه من مناصبة العداء، ورفض الولاء: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وفيهم يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وإذا كان المسالمون من غير المسلمين، لهم البر والإقساط بصفة عامة، فإن لأهل الكتاب منهم بصفة خاصة حقًا أوكد، وصلة أوثق. وحسبك أن القرآن أجاز مؤاكلتهم ومصاهرتهم، أي أكل ذبائحهم، وتزوج نسائهم، وفي هذا ما فيه من توثيق عرا المودة:

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

٣ ـ القرآن دستور الحكم

وكما أن القرآن منهاج لحياة الإنسان المسلم، فهو كذلك منهاج، أو دستور للحكم وللسياسة في حياة الجماعة الإسلامية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وإذا كان من شأن الدستور أن يتضمن القواعد الأساسية، ولا يدخل في التفصيلات، فكذلك القرآن: اهتم بإرساء الأصول والركائز للسياسة والحكم الإسلامي.

وأول هذه الأصول: الإيمان والرضا بالله تعالى حاكما لعباده، يحل لهم، ويحرم عليهم، يأمرهم وينهاهم. ونعني بهذه الحاكمية: الحاكمية الأمرية التشريعية العليا. أما التفصيلات والتطبيقات الآنية والبيئية، فهي متروكة لاجتهاد المجتهدين، وعقول المسلمين، لا حجر عليهم فيها، ولا إلزام لهم بشيء، إلا أن يكون اجتهادهم في ضوء الأصول المرعية المقطوع بها. وبذلك ترد الظنيات إلى القطعيات، والمتشابهات إلى المحكمات.

والقرآن ذاته هو الذي أوجب الإيمان بهذه الحاكمية الإلهية، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال على لسان يوسف: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

وينكر القرآن على جماعة من المنافقين صدودهم عن حكم الله تعالى ورسوله، مع ادعائهم الإيمان، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

أُنزِلَ من قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ ... إلى أن يقول: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥].

فتراه قد وصف هؤلاء بالنفاق، وأقسم على نفي الإيمان عنهم حتى يرضوا بحكم رسول الله ﷺ، ومن باب أولى الرضا بحكم الله جل شأنه.

وفي سورة أخرى يصف جماعة أخرى تأخذ من حكم الله ما يعجبها ويروقها، أو ما ترى أنه في صالحها، وترفض ما ليس كذلك، وليس هذا شأن المؤمنين. يقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٤٧ - ٥١].

فنفى الله عنهم الإيمان بقوله: ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾. ثم بين حقيقة موقف المؤمنين، وهو السمع والطاعة لحكم الله ورسوله.

الحكم بما أنزل الله:

وإذا كان مفروضا على المؤمنين أن يذعنوا لحكم الله ورسوله، وأن يقولوا إذا دعوا إليه: سمعنا وأطعنا، حتى يفوزوا ويفلحوا، فكذلك يجب على الذين يتولون الحكم أن يحكموا بما أنزل الله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال عز وجل: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩]. ومعنى هذا: أن تحكيم (جميع ما أنزل الله) فريضة، ولا يجوز في منطق الإيمان قبول بعض أحكام الله المنزلة ورفض بعضها. ولهذا حذر من الذين يحاولون أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله، حتى لا يقع فيما وقع فيه أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض، فقرّعهم الله على ذلك تقريعا بليغا.

ومن أغرب ما قرأت: دعوى بعضهم أن الذين أمر الله رسوله أن يحكم بينهم بما أنزل الله هم أهل الكتاب، كما يدل سياق الآيات في سورة المائدة، وليسوا هم المسلمين!!

وقد رددنا على هذه الدعوى العجيبة فيما سبق، إذ ليس من المعقول أن يحكم بين اليهود والنصارى بما أنزل الله من القرآن، ولا يحكم به بين المسلمين الذي أنزله الله عليهم، وشرفهم به، وأمرهم بتلاوته وحفظه واتباعه والإذعان لحكمه!!

ومثل ذلك يقال عن الآيات التي جاءت في هذه السورة نفسها، دامغة من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والفسوق والظلم في آيات ثلاث في سياق واحد، لا مهرب منها. وكما قال الشاعر:

فلو كان رمحا واحدا لا تّقيته ... ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ!

وأعني بهذه الآيات قوله تعالى بعد حديث عن التوراة وأهلها: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وبعد حديث عما كتبه الله من قصاص في التوراة: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِما أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]. وبعد حديث عن الإنجيل قال: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

تملص بعضهم من الحكم الدامغ الحاسم الذي تضمنته هذه الآيات بأنه جاء في شأن أهل الكتاب، ولم يجئ في شأن المسلمين.

يريد هؤلاء أن يقولوا: إن ما أنزل الله على أهل الكتاب في التوراة والإنجيل يجب القضاء به والنزول على حكمه، وإذا لم يفعلوا ذلك كانوا كافرين أو ظالمين أو فاسقين، أو جامعين بين هذه الصفات. أما ما أنزل الله على المسلمين، فليس فرضا عليهم أن يحكموا به، وإذا أعرضوا عن الحكم به لم يوصفوا بما وصف به أهل الكتاب المعرضون عما أنزل عليهم، من الكفر والظلم والفسوق!!

ومقتضى هذا: أن ما أنزل الله على المسلمين هو دون ما أنزل الله على أهل الكتاب! إذ يجوز للمسلمين أن يفرّطوا فيه، وينأوا بجانبهم عنه، ولا يتهموا بكفر ولا ظلم ولا فسق، بخلاف أهل الكتاب! فهل يقول ذلك عاقل؟! هل يعتبر القرآن المعجز المبين الخالد المحفوظ أقل قدرا عند الله من الكتب الأخرى التي لم تتصف بالإعجاز ولا الخلود؟

أو يريد هؤلاء أن يقولوا: إن أهل الكتاب إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم، وصفوا بالكفر أو الظلم أو الفسوق، أو بها جميعا، أما المسلمون إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم، فلا يوصفون بذلك؟! ومعنى هذا الكلام: أن الله تعالى يكيل بكيلين: كيل للمسلمين وكيل لغير المسلمين، فرغم وحدة الجريمة عند الفريقين لا يتحد الجزاء والحكم عليهم. كأن الله تعالى يحابي المسلمين، ويشددعلى غير المسلمين، فأين عدل الله؟ وهو القائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وهذا ما لاحظه الصحابة رضي الله عنهم، وأنكروه بعبارات بليغة على من قاله، فقد سمعت هذه المقولة في عصرهم: أن الآيات في أهل الكتاب!

روي أبو جعفر الطبري في تفسيره: أن رجلا سأل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن آيات سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقيل لحذيفة: إنها في بني إسرائيل. فقال حذيفة: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كانت لهم كل مرة، ولكم كل حلوة[1]!

على أن المحققين من علماء الأصول ذهبوا إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإذا كان السبب هنا خاصا بأهل الكتاب فاللفظ عام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ بحيث يشملهم ويشمل غيرهم ممن يشاركهم وصفهم.

وهذا واضح من الاستعمال اللغوي حتى خارج القرآن. فإذا افترضنا أن حاكما خان وطنه، ووالى عدوه، فثار عليه الشعب وخلعه، وقلنا في ذلك: فلان خان وطنه فثار عليه شعبه، ومن خان الوطن ثار عليه الشعب، فالجملة الأولى خاصة بفلان هذا، ولكن الجملة الأخيرة لها صفة العموم بحيث يدخل في حكمها كل خائن لوطنه.

---

(١) تفسير الطبري: الأثر رقم (١٢٠٣٠) وقد روى نحوه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣١٢، ٣١٣) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وهنا أود أن أذكر أن بعض الناس لهم مماحكات غريبة، مثل ذلك الذي يقول: إن الحكم المراد هنا هو حكم القضاة الذين يفصلون بين الناس، ولا يدخل في ذلك الأمراء والرؤساء والملوك الذين يديرون دفة السياسة الداخلية والخارجية على غير ما أمر الله!!

وهذا أمر لا ينقضي منه العجب: لماذا يكون القاضي الذي لا يحكم بما أنزل الله كافرا أو ظالما أو فاسقا، والأمير أو الرئيس الذي يسوس الناس بغير ما أنزل الله مبرءا من ذلك؟ الحق أن كليهما لم يحكم بما أنزل الله.

ثم إن الرئيس أو الأمير هو الذي يعين القاضي، ويُلزمه أن يحكم بالشرع أو القانون الوضعي، فهو - من باب أولى - داخل فيما ذكرته الآيات الكريمة. فهو يبوء بوزره ووزر من ولاه القضاء بغير ما أنزل الله.

ومثل ذلك المجالس والبرلمانات التي تسن للناس القوانين، فإن كانت مستمدة من الشرع، فهم مثابون مأجورون، وإن كانت مخالفة للشرع، فعليهم وزرها ووزر من عمل بها.

وهذا ما ذهب إليه كل فقهاء العصر: العلامة رشيد رضا (١) والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت (٢)، وغيرهما (٣).

ماذا أنزل الله؟:

ويحسن بي أن أنبه هنا على معنى يغيب عن الكثيرين ممن كتبوا في هذه القضية، وهو: ما المقصود بـ(ما أنزل الله) الذي نطقت به الآيات التي أوردناها من سورة المائدة؟

الكثيرون يفهمون منها: النص الإلهي الذي أنزله الله على رسوله، وهو بالنسبة لنا - نحن المسلمين - القرآن الكريم. وهذا صحيح بلا ريب، فهذا الكتاب قد أنزله الله تعالى على رسوله كما بينت ذلك الآيات الوفيرة من كتاب الله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]. ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. ﴿وَإِنَّهُ

(١) انظر: تفسير الآيات في (المنار) جـ٦.

(٢) انظر: الفتاوى للشيخ شلتوت ص ٤٣ طبعة (دار الشروق) الثامنة.

(٣) انظر: كتابنا (فتاوى معاصرة) جـ٢ / ٦٩٧ - ٧١٤ ط. دار الوفاء بمصر.

﴿لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]. ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ – ٨٠]. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٣].

إلى غير ذلك من الآيات في مكي القرآن ومدنيه، وهي قاطعة بأن القرآن منزل من عند الله تبارك وتعالى.

ولكن الله تعالى كما أنزل (الكتاب) أنزل (الميزان). فالكتاب يمثل النص الإلهي الذي يرجع إليه في وضع الأسس، وتبيين الأصول، ورسم المنهج. والميزان هو الذي يرجع إليه في شرح تلك الأسس والأصول وتطبيقها على الواقع. فهو يجسد ما تشهد به الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، والأقيسة الصحيحة، من إقامة العدل، وغرس الفضائل، وتيسير الحياة الطيبة للناس، والحفاظ على الثروة المادية والبشرية، وعلى البيئة وغيرها.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]. وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وفي سورة الرحمن يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ – ٩].

فما هذا الميزان الذي قرنه الله تعالى بالكتاب حينا، وقرنه برفع السماء حينا آخر، وأمرنا ألا نطغى فيه ولا نخسره، وأن نقيم الوزن بالقسط؟ هل هو الميزان الحديدي الذي توزن به البضائع؟

ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، ولكن هذا يُقرن بالكيل لا بالكتاب، ثم لا يبلغ شأنه مبلغ الميزان المذكور في مطلع سورة الرحمن، والمقرون برفع السماء مسكن الملائكة، ومصدر الوحي الإلهي.

لابد أن يكون إذن ميزانا معنويا توزن به الأفكار لا الأشياء، والحقائق لا الحقائب،

والمعاني لا الصور، ميزانا تقوَّم به العقائد والأخلاق والأعمال والأشخاص، والأنظمة والمذاهب.

وأقرب عبارة لتحديد معنى هذا الميزان والله أعلم بمراده: أنه القيم الأخلاقية الأصيلة التي توارثتها الأجيال عن النبوات الهادية، وأنه المقاييس الإنسانية السليمة التي تهتدي بالكتاب الإلهي لمعرفة الحق، قياسا للأمر بنظيره، وردًا للفرع إلى أصله.

وقد جاء عن قتادة ومجاهد وغيرهما من مفسري السلف أن الميزان في الآية: هو العدل. واختاره ابن جرير شيخ المفسرين، وأيده ابن كثير قائلا [1]: وهو الحق الذي تشهدبه العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة. كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]. وقال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. وقال بعض الحكماء: «العدل ميزان الله في الأرض، وضعه للخلق، ونصبه للحق».

وبهذا نعلم أن الأديان السماوية كلها جاءت لتضع للناس ميزانا خلقيا ثابتا، غرس الله تعالى أصوله في فطرهم وعقولهم، ميزانا يتحاكمون إليه، إذا أعوزهم النص من الكتاب الإلهي.

وبهذه الآية استدل الفقهاء الذين يستعملون الرأي والقياس في معرفة الأحكام الشرعية، وبينوا أن النص الصريح لا يخالف القياس الصحيح، وأن الشرع لا يفرق بين متماثلين، كما لا يسوِّي بين مختلفين. قال المحقق ابن القيم: «قد ثبت أن الله أنزل الكتاب والميزان، فكلاهما في الإنزال أخوان، وفي معرفة الأحكام شقيقان. وكما لا يتناقض الكتاب في نفسه فالميزان الصحيح لا يتناقض في نفسه، ولا يتناقض الكتاب والميزان، فلا تتناقض دلالة النصوص الصحيحة ولا دلالة الأقيسة الصحيحة، بل كلها تتصادق متعاضدة متناصرة، يصدق بعضها بعضا، ويشهد بعضها لبعض، فلا يناقض القياس الصحيح النص الصحيح أبدا» [2].

وبهذا نعلم أن الله تعالى كما أنزل (الكتاب) أنزل (الميزان). ولذا يجب أن نحكم بهما كليهما. وبهذا يلتقي الوحي والعقل، أو الدين والعلم، ليكون منهما «نور على نور».

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٤١٤ طبعة عيسى الحلبي.
(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (١ / ٣٣١، ٣٣٢) طبعة السعادة بمصر، بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

٤ ـ القرآن دستور الدعوة

والقرآن له وظيفة أخرى في الحياة الإسلامية، إلى جوار كونه منهاج العمل لحياة الفرد المسلم، وقانون الحكم والتشريع للمجتمع المسلم، أو للدولة المسلمة، هو كذلك دستور الدعوة إلى الإسلام.

عالمية القرآن:

فهو كتاب عالمي، موجه إلى الناس كافة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١]، وإن نزل بلسان العرب. ومن قرأه وتدبره يلحظ فيه هذه العالمية ما بين أول آية بعد البسملة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وآخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ...﴾ [الناس: ١-٣].

فهذا هو القرآن يتحدث عن الله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أو ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ لا رب العرب ولا رب إسرائيل! كما تقول التوراة.

ونداءات القرآن الموجهة من الله تعالى، لا تحمل أي طابع عنصري أو إقليمي أو طبقي، لأنها إما موجهة إلى (الناس) كافة، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقد وجه هذا النداء إحدى وعشرين مرة في القرآن.

ومثله: ﴿ يَأَيُّهَا الإِنسَانُ ﴾ وقد وجه مرتين في القرآن: ﴿ يَأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦]. ﴿ يَأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

ومثلها ما وجه إلى ﴿ بَنِي آدَمَ ﴾ مثل: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقد جاء هذا النداء خمس مرات في القرآن.

ومثلها ما وجه إلى العباد مضافين إلى الله تعالى بياء المتكلم ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ وهي إضافة تشريف وتكريم مثل: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. أو إضافة إيناس وتقريب، مثل: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقد وجه هذا النداء في القرآن خمس مرات.

وإما موجهة إلى أهل الأديان السماوية السابقة من اليهود والنصارى. وقد اختار القرآن صيغة تؤنسهم وتقربهم، وهي ﴿ يَأَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ مثل: ﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٤]. ﴿ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١]. وقد تكررت اثنتي عشرة مرة.

وإما موجهة إلى (الذين آمنوا). وهذه الصيغة ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ لم تعرف إلا في القرآن المدني، بعد أن أصبح للمسلمين جماعة وكيان مستقل. وقد جاءت في القرآن أكثر من تسعين مرة.

وهذه النداءات كانت جديدة على العالم، وقد قرعت سمع الجزيرة العربية لأول مرة، بعد أن كان الناس لا يتنادون إلا بـ (يابني فلان) أو (يا عرب) أو (يا عجم). أما النداء بصيغة الإنسانية أو الإيمان، فلم يكن لأحد به عهد.

وقد أعلن القرآن عالمية دعوته، وأعلن الرسول الكريم عموم رسالته من أول يوم. فهي رسالة عامة في المكان، خالدة في الزمان، شاملة لكل شؤون الإنسان.

وأول ما أتيحت الفرصة للرسول الكريم بعث برسائله إلى ملوك العالم وأمرائه: قيصر

الروم، وكسرى الفرس، ونجاشي الحبشة، وأمراء الشام ومصر وغيرهم، يدعوهم إلى أن يسلموا ليسلموا في الدنيا والآخرة، وتسلم معهم شعوبهم؛ وإلا تحملوا إثم هذه الشعوب التي يحكمونها، ويحولون بينها وبين الهداية.

وقد ختم رسائله إلى قيصر وأمراء أهل الكتاب بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: **﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾** [آل **عمران**: ٦٤].

دعوى بعض المستشرقين حول عالمية الدعوة:

هذا، وقد زعم بعض المستشرقين: أن محمدا ﷺ لم يفكر في المراحل الأولى للدعوة - أي طوال العهد المكي، وسنوات من العهد المدني - في عالمية الدعوة، إنما كان ينظر إليها باعتبارها دعوة للعرب، أي لمكة ومن حولها من القبائل في جزيرة العرب. ولم يفكر في دعوة الأمم الأخرى إلا بعد أن استتب له الأمر في المدينة، وصالح قريشا صلح الحديبية المعروف، وأخذ يكتب رسائله إلى كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي، وغيرهم.

وقد اعتمدوا في تأييد هذه الدعوى على بعض آيات من القرآن، مثل قوله تعالى: **﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾** [الشعراء: ٢١٤]. وقوله سبحانه: **﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾** [الشوري: ٧] .وقوله تعالى: **﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾** [الأنعام: ٩٢].

ولو تتبع هؤلاء ما ورد في القرآن حول هذا الموضوع، لوضح لهم الحق وضوح الصبح لذي عينين - لو أرادوا معرفة الحق - ووجدوا من الآيات الصريحة الناطقة بعالمية الرسالة المحمدية ما يدحض كل دعوى مخالفة، ويزيل كل ريب أو سوء فهم ناشئ من النظر الجزئي في بعض الآيات التي لا تدل على ما أرادوا.

والعجيب أن الآيات المصرحة بعالمية الرسالة كلها من القرآن المكي بإجماع أهل العلم مثل قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان: ١].

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ص: ٨٧].

﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ: ٢٨].

ونحوها من الآيات.

وأيدها قوله ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»[(1)].

أما بعض الآيات مثل آية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾، وآية ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾، فهذه لبيان مراحل الدعوة، والتدرج فيها. أما عالمية الدعوة، فلا يتطرق إليها ريب ولا اشتباه، والنصوص صريحة قاطعة في شأنها، ويكفي ما ذكرناه منها.

ترجمة معاني القرآن إلى غير العرب:

وإذا كان القرآن عالمي الوجهة - وهو في الوقت نفسه عربي اللسان - فالواجب على العرب من أمة القرآن ترجمته إلى غير العرب، نشرا لدعوته، وتبليغا لرسالته، حتى لا تكون للناس عليهم حجة.

ولا نعني بالترجمة هنا: الترجمة الحرفية، فهذه لا تجوز، لأنها لا تستطيع أن تعبر عن محتوى القرآن ومضمونه، فالمطلوب والممكن هو ترجمة المعاني.

وهذه الترجمة للمعاني أشبه بتفسير مختصر للقرآن يترجم إلى اللغات الأخرى، فليس هو القرآن قطعا. فالقرآن هو اللفظ العربي الموحى به إلى الرسول ﷺ. وما لم يكن عربيا فليس قرآنا. ولهذا يضاف إلى صاحبه أو أصحابه فيقال: هذه ترجمة معاني القرآن أو تفسيره، كما فهمها فلان من الناس، أو كما فهمتها لجنة من العلماء المختصين.

---

(١) متفق عليه من حديث جابر كما في اللؤلؤ والمرجان (٢٩٩).

وكما أن التفسير ليس قرآنا، فإن الترجمة ليست قرآنا.

ومما يؤسف له: أنه لا توجد ترجمة لمعاني القرآن، جمعت الدقة والسلاسة والبلاغة، بحيث يرضى عنها العارفون من المسلمين تمام الرضا.

حتى اللغة الإنجليزية، وهي أكثر لغة في العالم يتكلم بها المسلمون، لا تتوافر فيها هذه الترجمة المنشودة، وإن قيل: إن ترجمة عبد الله يوسف على المشهورة، أقرب الترجمات إلى السلامة [1]، برغم أن لبعض الناس عليها بعض ملاحظات. وقال الدكتور عبد الله عباس الندوي في كتابه (ترجمات معاني القرآن الكريم): أجمع العلماء المعنيون بترجمات القرآن وتفاسيره: أنه لم يترجم القرآن إلى الإنجليزية أحسن من ترجمة بيكتهال (الإنجليزي المسلم) من ناحية الأسلوب وفصاحة اللغة، ومن ناحية الاحتفاظ بالعقائد التي يلتزم بها الجمهور من أهل السنة والسلفيين [2].

وإذا كانت كذلك ـ وقد تمت بمساعدة علماء الأزهر والهند ـ فلماذا لم تنتشر بين المسلمين كما ينبغي؟

وهذا الذي قاله الدكتور الندوي غير مسلّم لدى الكثيرين، لأن على هذه الترجمة عدة مآخذ حدت ببعض الجهات الرسمية في مصر أن تصادرها وتتصدى لمنع توزيعها.

وقد علمت من بعض الإخوة أيضًا أن ترجمة الدكتور تقي الدين الهلالي وزميله محسن خان تعد من أفضل الترجمات الموجودة الآن.

ولابد من بذل جهد منظم أكبر لترجمة معاني القرآن إلى لغات العالم في الغرب والشرق.

وهذه مسئولية الأمة المسلمة بالتضامن، ومسئولية الهيئات العلمية والدينية، مثل: الأزهر الشريف، ورابطة العالم الإسلامي، ومجمع الملك فهد بالمدينة، والجامعات الإسلامية في أنحاء العالم، كلها متكافلة ـ أو يجب أن تتكافل ـ في حمل هذا العبء، وإنشاء هيئة عالمية للقرآن الكريم، وهو ما ينادي به أخونا وصديقنا د. حسن المعايرجي منذ سنوات [3].

ولايزال المسلمون مقصّرين تقصيراً بليغًا في دعوة العالم إلى الإسلام، بلغاته المختلفة وبالأساليب التي يفهمها كل قوم، وبوسائل العصر وتقنياته الهائلة، وخصوصًا بعد عصر

---

(١) انظر: ترجمات معاني القرآن وتطور فهمه عند الغرب. د. عبد الله عباس الندوي ـ طبعة دار الفتح ص ٧٦ ـ ٨٢.

(٢) المصدر السابق ص ٧٢ ـ ٧٥.

(٣) قد أصدر بذلك كتابه عن ترجمات القرآن في العالم وضرورة عناية المسلمين بهذا الأمر، وجعل عنوانه (الهيئة العالمية للقرآن الكريم) وقد شرفني بكتابة مقدمته.

البث المباشر، و«الإنترنت» وغيرها من الأدوات الجبارة، التي أصبحت في يد الإنسان المعاصر.

منهج الدعوة في القرآن:

والقرآن الكريم قد رسم منهج الدعوة بوضوح في آيات كثيرة، لعل أجمعها قوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهذا خطاب للنبي ﷺ ولكل من يبلغه الخطاب من بعده.

خطاب العقل والقلب:

وهو يتضمن الدعوة بـ(الحكمة) التي تقنع العقل، و(الموعظة) التي تحرك القلب. وللحكمة أهلها، وهم الذين يغلب عليهم النظر العقلي، وللموعظة أهلها، وهم الذين يغلب عليهم التأثر العاطفي. ولا مانع من أن يمزج الداعية الحكمة بالموعظة أو العقل بالعاطفة، كما يفيده العطف والاقتران بينهما في الآية الكريمة، بل هذا هو أسلوب القرآن الذي يجمع بين إضاءة العقول، واستمالة القلوب، كما يتجلى ذلك في القرآن كله، مكيه ومدنيه.

وهذه الدعوة يجب أن تكون على بينة وبصيرة، كما قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهذا يدلنا على أن كل من اتبع محمدا ﷺ يجب أن يكون داعيا إلى الله، وأن تكون دعوته على بصيرة. وهذا يوجب عليه أن يعرف الدعوة ومضامينها، ومحتوياتها في العقيدة والشريعة والأخلاق، وما تقدمه من تصور عن الله تعالى، وعن الكون والإنسان والحياة. وما تقدمه من حلول لمشكلات الإنسان، ومن مناهج لتسديد فكر الإنسان وسلوكه.

الحوار بالتي هي أحسن:

وإذا كان المنهج القرآني يتضمن دعوة الموافقين بالحكمة والموعظة الحسنة، فإنه يتضمن أيضا: حوار المخالفين بأرقى أساليب الحوار وأرقها وألطفها. وهو ما يرشد إليه قوله تعالى في الآية: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ونلاحظ أن القرآن اكتفى في الموعظة بأن تكون حسنة، ولكنه لم يكتف في الجدال إلا بالتي هي أحسن، بمعنى أنه لو وجدت طريقتان للجدال أو للحوار: طريقة حسنة جيدة، وطريقة أحسن منها وأجود، فالمسلم مأمور أن يحاور المخالفين بالطريقة التي هي أحسن وأجود.

ولماذا خالف القرآن بين الموعظة والجدال أو الحوار؟ لأن الموعظة تكون عادة مع الموافقين لك في الدين، وأما الجدال أو الحوار فيكون مع المخالفين، والموافقون يكفي أن نخاطبهم بالأسلوب الحسن، أما المخالف فيحتاج إلى الذي هو أحسن.

وهذا ما علمنا القرآن في نماذج منه: في مثل قوله تعالى في جدال المشركين: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. فلم يجبههم بأنهم على ضلال، بل استخدم هذا الأسلوب: ﴿وإنا أو إياكم﴾ لإيناسهم وتقريبهم من المسلمين. وبعدها أيضا يقول: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]. كان مقتضى المقابلة أن يقول: «ولا نسأل عما تجرمون»، ولكنه لم يشأ أن ينسبهم إلى الإجرام صراحة، حتى لا يجرح شعورهم أو يوغر صدورهم، وهو يريد أن يفتح قلوبهم وعقولهم لدعوة الإسلام.

وإذا كان هذا في خطاب المشركين، فما بالك بخطاب أهل الكتاب: أهل التوراة، أو أهل الإنجيل؟

إن القرآن يستخدم معهم أسلوبا يبشر ولا ينفر، ويقرب ولا يباعد، وحسبنا أنه يناديهم بهذا الوصف المحبب: ﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ليشعرهم بقربهم من (أهل القرآن) فالجميع أهل دين سماوي.

وهو يعلمنا كيف نجادلهم، فيقول: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فهو يدعونا أن نستعمل أحسن الطرق في مجادلتهم، وأن نركز على مواضع الاتفاق، لا على نقاط الاختلاف بيننا وبينهم، فلا شك أن هناك قواسم مشتركة بيننا وبينهم، وهنا ينبغي أن نبرزها عند الحوار، ولهذا قالت الآية الكريمة: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾.

وهذا ما ينبغي أن نبرزه ونؤكده في عصرنا، وهو ما قلته في محاضرتي عن (الحوار الإسلامي المسيحي) في جامعة قطر. وهو أننا مع أهل الكتاب نقف في خندق واحد، وهو خندق الإيمان بالله ضد الإلحاد، وخندق الفضيلة ضد الإباحية، وخندق القيم الروحية والأخلاقية عموما ضد التحلل من كل الثوابت، وإن كان بيننا خلاف لا شك فيه في أصول العقائد.

مخاطبة كل قوم بلسانهم:

ومما هدى إليه القرآن في مجال الدعوة: مخاطبة كل قوم بلسانهم الذي يفهمونه، لا بلسان غريب عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد بينت فيما كتبت من قبل: أني أفهم (لسان القوم) في هذه الآية فهما أعمق من مجرد أن يخاطب الإنجليز بالإنجليزية، والروس بالروسية، والصينيين بالصينية، ولكن أكثر من هذا: أن لكل قوم لسانا يخاطبون به. فلسان الخواص غير لسان العوام، ولسان الحضر غير لسان البدو، ولسان الغربيين غير لسان الشرقيين، ولسان الذين وصلوا إلى القمر غير لسان الذين يعيشون في الأدغال.

ولابد أن توصل الدعوة إلى كل قوم حسب مستواهم، وبالطريقة التي تلائمهم، وباللغة التي يعقلونها، ولا تخاطب قوما بلسان قوم آخرين.

وهذا ما قاله عليّ رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون. أتحبون أن يكذب الله ورسوله [١]؟

وقال ابن مسعود: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة! [٢]

وقد روي مرفوعا: أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم [٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم موقوفا على عليّ (الفتح: ١ / ٩٠) دون قوله: «ودعوا ما ينكرون»، فهي مما رواه أبو نعيم في المستخرج.

(٢) رواه مسلم كما في الفتح، كتاب العلم جـ ١ / ٢٢٥.

(٣) قال في فيض القدير: رواه الحسن بن سفيان عن الحبر - ابن عباس - يرفعه، وسنده - كما قال ابن حجر - ضعيف جدا لا موضوع (٣ / ٣٧٨).

حسن الاستدلال بآيات القرآن:

ومما ينبغي للداعية أن يتحراه ويحرص عليه ويحكمه: حسن الاستدلال بالقرآن وآياته على ما يريد تقريره، أو تثبيته، من أحكام وتعاليم وأفكار. فإنه إذا أحسن الاستدلال بالنص القرآني، ووضعه في موضعه، أزاح كل شبهة، وقطع كل تعلة، وأخرس كل معارض. فلا دليل بعد القرآن، ولا حديث بعد كلام الله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾؟! [النساء: ٨٧]. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾؟! [النساء: ١٢٢]. ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾؟! [المائدة: ٥٠].

ولهذا لا يملك المؤمن أمام الدليل القرآني الصريح إلا أن يقول: آمنا وصدقنا، أو سمعنا وأطعنا. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد أدخل رجل على المأمون، كان يمشي في الناس، فيأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، دون أن يكون مأمورا من قبل الخليفة. فقال له المأمون: لم تأمر وتنهى وقد جعل الله ذلك إلينا؟ ونحن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١]. فقال الرجل: صدقت يا أمير المؤمنين، أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكن. غير أننا أولياؤك وأعوانك فيه، ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]. وقال رسول الله ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» (١). فأعجب المأمون بكلامه، وسر به وقال: «مثلك يجوز أن يأمر بالمعروف، فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا» (٢).

وهكذا حين أحسن الرجل الاستشهاد بالقرآن والسنَّة، انقطعت حجة الخليفة، ولم يجد بدا من إقرار الرجل على ما هو فيه.

---

(١) متفق عليه عن أبي موسى. اللؤلؤ والمرجان (١٦٧٠).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء.

وفي مقابل ذلك، دخل واعظ على المأمون فوعظه، وعنّف له في القول. فقال المأمون: يا رجل! ارفق، فإن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرفق: بعث موسى وهارون إلى فرعون، فأوصاهما بقوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وهنا كان موقف المأمون هو الأقوى، لأن الدليل القرآني معه. ولهذا لم يجد الرجل جوابا لكلامه.

وينبغي على المسلم الواعي أن يراعي في هذا المقام أن يستدل بالمتفق عليه. لا بالمحتمل والمختلف فيه، فإن الدليل الذي يتطرق إليه الاحتمال، يسقط الاستدلال به.

فعند الحديث عن شمول القرآن - مثلا - يستدل بعض الناس بقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

مع أن الكتاب في الآية يحتمل أن يكون هو القرآن، فيكون الاستدلال صحيحا، ويحتمل أن يكون المراد به (اللوح المحفوظ) الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]. وغيرهما من الآيات. والأولى هنا أن يستدل على شمول القرآن بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. فهي صريحة في الدلالة على المراد. ومثلها ختام سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

كما أن على الداعية أن يتجنب الاستدلال بما ليس بدليل.

مثل ذلك: أن بعض الناس يستدلون على أن من ثمار تقوى الله أن يعلّمه ما لم يكن يعلم، بقوله تعالى في ختام آية المداينة من سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والحق أن الآية لا تدل على هذه الدعوى، لأنها ليست أمرا وجوابا، فإنما كان يصح ذلك

لو كان لفظها: «واتَّقُوا اللَّهَ يُعَلِّمْكُمُ اللَّهُ». أما الآية أو هذه الفقرة منها، فإنها تتضمن أمرا بتقوى الله، كما هي سنة القرآن حين يقرن الأوامر والنواهي بالتقوى. ثم بعد ذلك قال: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ أي هذه الأوامر والأحكام، فهي جملة مستقلة، كما قال في آية أخرى: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ [النساء: ١٧٦].

أما الاستدلال على الدعوى المذكورة فينبغي أن يكون بقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]. أي نورا تفرقون به بين الحق والباطل.

ومثلها قوله سبحانه في سورة الحديد: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد: ٢٨].

بل يمكن أن يستدل بعموم قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢] لأنه يشمل المخرج من الشبهات والمتشابهات (١).

(١) ثقافة الداعية ص ٣٠ ـ ٣٣.

٥ـ ضرورة الإيمان بالكتاب كله

الإيمان بالكتاب كله:

لا يتحقق إيمان المسلم ما لم يؤمن بالقرآن الكريم، بل لا يتم إيمانه إلا إذا آمن بجميع كتب الله تعالى.

والإيمان بالقرآن يعني الإيمان بكل ما جاء فيه من عقائد ومفاهيم، وعبادات وشعائر، وأخلاق وآداب، وتشريعات ومعاملات.

ولا يجوز لمسلم أن يقول: آخذ من القرآن العقائد ولا آخذ منه الأخلاق، أو يقول آخذ منه العبادات ولا آخذ منه المعاملات، أو آخذ منه الجانب الروحي ولا آخذ منه الجانب الاقتصادي أو السياسي أو التشريعي لأمور الحياة.

آية الصيام وآية القصاص:

فإذا جاء قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، قال: سمعنا وأطعنا، وقبل الصيام عبادة وفريضة، يبتغي بها مثوبة الله عز وجل.

أما إذا قال تبارك وتعالى في السورة نفسها وقبل هذه الآية بأربع آيات فقط: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ

تتقون﴾ [البقرة: ١٧٨، ١٧٩]، هنا نجده قد ارتاب قلبه، وتلعثم لسانه، وتبدل موقفه، وقال: هذه من أمور الدنيا التي تقبل التغير، وتتسع للتطور، فلا مانع من إلغاء القصاص - عقوبة الإعدام - ليستبدل به السِّجن، كيلا تخسر البشرية نفسين آدميتين بدل نفس!

وهؤلاء لا شك قد ضلوا السبيل من عدة أوجه:

أولا: من ناحية استدراكهم على الله جل جلاله ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾؟! [البقرة: ١٤٠].

وثانيا: من ناحية تناقضهم بالنسبة لأمر الله سبحانه. فما الفرق بين قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾؟ والذي كَتَب عليهم هذا وذاك واحد، هو الله الجليل جل شأنه؟!

وثالثًا: من ناحية تهافت منطقهم. فإنهم ينظرون إلى القضية من زاوية واحدة، ويغفلون جملة زوايا مهمة.

يغفلون النفس التي قُتلت بغير حق، ولعل وراءها أطفالاً تيتموا، وأمّا ثكلت، وزوجة ترملت. ويغفلون أولياء المقتول وما يعتمل في نفوسهم من مرارة، تدفعهم إلى الثأر بأكثر مما يتطلبه القصاص العادل. ويغفلون أثر ذلك على المجتمع، وما قد يؤدي إليه من الاجتراء على القتل، ما دام القاتل سينجو برأسه.

ومثل ذلك يقال في قوله تعالى في السورة نفسها - سورة البقرة - وفي السياق نفسه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

ومثله قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فهذه كلها فرائض إلهية جاءت في سورة البقرة بصيغة واحدة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ فكيف يسوغ في منطق الإيمان وفي منطق العقل قبول بعضها ورفض بعضها؟!

يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض:

إن هذا لا يتفق مع الإيمان في شيء، وهو الذي نعاه الله تعالى على بني إسرائيل قديما، وسقط فيه العلمانيون حديثا. يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

وهو الذي حذر الله منه رسوله: أن يفتنه أهل الكتاب (عن بعض ما أنزل الله عليه). يقول تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

إن (ما أنزل الله) من الهدى والحق كل لا يتجزأ، ومن فرط في بعضه يوشك أن يفرط في كله، والإيمان يقتضي الإذعان لجميع أحكام الله تعالى.

يجب أن نتعامل مع القرآن على أنه كلام الله تعالى وهداه، فهو يحمل هداية الخالق إلى خلقه، ومعنى هذا أن يكون موقفنا منه موقف المخلوق مما يجيء من خالقه، وموقف المربوب من أمر ربه. فإذا توقف في ذلك أو تردد كان ذلك دليلا على أنه يشك في ربانية القرآن وإلهية مصدره.

وهذا شأن المرتابين من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، الذين ﴿ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

فهؤلاء يأخذون من القرآن ويدَعون، ويقبلون منه ويرفضون، يأخذون منه ما يوافق أهواءهم، أو يحقق منافعهم الخاصة، ويدعون منه ما يصادم أهواءهم، ويحرمهم من شهواتهم وامتيازاتهم على الناس بغير حق. هذا مع زعمهم أنهم مؤمنون مصدقون.

وقد كذّب الله تعالى هؤلاء في زعمهم الإيمان، إذا لم يتبعه انقياد وإذعان لحكم الله تبارك وتعالى. ونزلت في ذلك آيات حاسمة في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى.

نذكر من ذلك موضعين:

أولهما: في سورة النساء. حيث يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

وهكذا دمغ الله هؤلاء الصادّين عن حكم الله ورسوله بالنفاق، وخاطب رسوله في شأنهم قائلا: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾.

إلى أن قال سبحانه: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥].

والموضع الثاني: في سورة النور، حيث تصور هنا الآيات الكريمة موقف جماعة من المنافقين أو ضعاف الإيمان، فتقول: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٤٧ - ٥١].

هذا هو موقف المؤمنين إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله: إذعان بلا تردد، وطاعة بلا تلكؤ: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

ذلك أن عقد الإيمان بالله ربا، وبمحمد رسولا، وبالقرآن إماما، يقتضي ويوجب ويلزم الرضا بما رضيه الله ورسوله، والالتزام بما ألزما به، وإلا كان الإيمان لفظا بلا معنى، ودعوى بلا حقيقة: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أما الآخرون الذين لا يذعنون لحكم الله ورسوله - إلا إذا كان لهم فيه حق ومصلحة وهوى - فهم مرضى القلوب المرتابون: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ - ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

القرآن وحدة لا تتجزأ:

والقرآن وحدة لا تتجزأ، وتعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة، بين بعضها وبعض، ما يشبه الوحدة العضوية بين أعضاء الجسم الواحد، فبعضها يؤثر في بعض، ولا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر منها عن سائر الأجزاء.

فالعقيدة تغذي العبادة، والعبادة تغذي الأخلاق، وكلها تغذي الجانب العملي والتشريعي في الحياة.

ولا يسوغ في منطق الإيمان ولا منطق العقل أن يأخذ أحد آية من القرآن ويدع أخرى.

ولماذا؟ لأن الآية الأولى في مجال العبادات، والأخرى في مجال العقوبات!

ومعنى هذا أن الإنسان أصبح معقبا لحكم الله تعالى، يأخذ منه ويدع، ويقبل منه ويرد، بهواه وحده، والله لا معقب لحكمه.

لا يجوز أن يأخذ من سورة البقرة آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولا يأخذ منه آية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

لأن آية الكرسي في الإلهيات، وآيات الربا في المعاملات!!

ومثل ذلك يقال فيمن يقبل من سورة المائدة قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦].

ويرفض من السورة قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

أو يقبل من نفس السورة قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

ويرفض بعدها بآية واحدة قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

ويقبل من سورة الحج قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧].

ويرد الآية التي بعدها: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ [الحج: ٧٨].

بل في هذه الآية يقول تعالى: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [الحج: ٧٨]، فيقول: آخذ الصلاة ولا آخذ الزكاة، لأن الصلاة شعيرة روحية خالصة، أما الزكاة ففريضة تتعلق بالمال والاقتصاد، فأنا أقبل تلك، ولا أقبل هذه!

يا لله العجب! هل غدا العبد أعلم من ربه؟ أو بات المخلوق أعلى من خالقه؟!!

إنه لم يعد ندا لله فحسب، بل زاد على ذلك، فجعل من نفسه محكمة عليا للتمييز، أو للنقض والإبرام، فينقض ما شاء له عقله أو هواه أن ينقض من أحكام الله، ويبرم ما شاء له أن يبرم!

الروحيات والماديات سواء في القرآن:

إن الشيء المؤكد الذي لا خلاف عليه، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة - بمعنى أنه لم يعد في حاجة إلى إقامة أدلة عليه، لأنه مما يشترك في معرفته الخاص والعام - أن تعاليم القرآن كلها واجبة التنفيذ، ولا فرق فيها بين ما يسمَّى «روحيًا» وما يسمى «ماديًا»، ما يُعتبر من «شئون الدين» وما يُعتبر من «شئون الدنيا»، ما يتعلق بحياة «الفرد» وما يتعلق بحياة «الجماعة».

إن هذه التسميات والعناوين لا وجود لها في كتاب الله تعالى، ولا توجد فوارق معتبرة بين بعضها وبعض، ما دامت كلها في دائرة أمر الله سبحانه أو نهيه.

ولقد وجدنا من الناس من يزعم - في جراءة يحسد عليها - أن القرآن المكي وحده هو الذي يلزمنا، أما القرآن المدني بما فيه من تشريعات وأوامر ونواه لإقامة المجتمع وتنظيمه فلا تلزمنا[1]، لأنها تتعلق بأمور تتغير وتتطور، فلا يجوز أن نجمدها بقرآن ولا سنة، وهذا أخطر ما قيل في الموقف من القرآن.

ومن فتح المصحف وقرأ سورة الفاتحة، ثم شرع في سورة البقرة، وجد أول ما يطالعه وصف المتقين المهتدين بكتاب الله بأنهم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. فقرن بين الجانب الاعتقادي «الإيمان بالغيب»، والجانب الشعائري «إقامة الصلاة»، والجانب الاقتصادي «الإنفاق مما رزق الله».

وهكذا نجد أوصاف المؤمنين وأهل التقوى والإحسان، في سائر سور القرآن مكيه ومدنيه، لا تفرق بين جانب وجانب. كما نجد ذلك واضحا في وصف المؤمنين في أوائل سورة (الأنفال: ٢ - ٥)، وأول سورة (المؤمنون: ١ - ١١) وفي وصف أولي الألباب في سورة (الرعد ١٩ - ٢٤)، وفي وسط سورة (الشورى: ٣٦ - ٣٩)، وفي أوصاف عباد الرحمن من أواخر سورة (الفرقان: ٦٣ - ٧٦)، وفي أوصاف المحسنين من سورة (الذاريات: ١٥ - ١٩) وفي أوصاف المكرمين في الجنات من سورة (المعارج ١٩ - ٣٥) وغيرها.

ومثل ذلك نجده في الأوامر والنواهي والوصايا القرآنية، مثل: الوصايا العشر في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣]. ووصايا الحكمة في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وبيان حقيقة البر في سورة البقرة: ﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب﴾ [الآية: ١٧٧].

فهذه كلها تجمع بين العقيدة والعبادة والخلق والسلوك، مما يتعلق بالدين وما يتعلق بالدنيا، وما يتعلق بالفرد أو بالأسرة أو بالمجتمع، في سياق واحد، ونسيج واحد لا ينفصل بعضه عن بعض، ولا يتميز بعضه عن بعض.

---

(١) قال ذلك محمود محمد طه السوداني المرتد المعروف.

وأحيانا يستخدم القرآن صيغة واحدة في طلب الأمور التي يعتبرها الناس مختلفة باختلاف مجالاتها، مثل ما أشرنا إليه من قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فهذه صيغة واحدة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ وهي تفيد تأكيد الوجوب والفرضية، استعملت في القصاص وهو في القانون الجنائي، وفي الوصية وهي من الأحوال الشخصية وشؤون الأسرة، وفي الصيام وهو من شعائر العبادات، وفي القتال وهو من شؤون العلاقات الدولية . . . وكلها مما كتبه وفرضه على المؤمنين.

ومن تدبر القرآن وجد أنه - في تعليلاته للأحكام والأوامر والنواهي - يربط الجوانب الروحية والمادية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية بعضها ببعض، دون فصل أو تمييز.

فهو يعلل الأمر بالصلاة بعلة أخلاقية حين يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ويعلل الأمر بالزكاة - الفريضة المالية الإسلامية - بعلة أخلاقية أيضا فيقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

ويعلل الحج - وهو شعيرة تعبدية - بعلة اقتصادية واجتماعية، مع العلة الروحية فيقول: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

ويعلل الأمر باجتناب الخمر والميسر واعتبارهما رجسا من عمل الشيطان بعلة اجتماعية وروحية، فيقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

فهذا هو منهج القرآن : الربط بين جوانب الحياة كلها برباط لا ينفصم ، لأنها هكذا في الواقع ، كما بينا ذلك في حديثنا عن «شمول الإسلام» (١) .

وإذا كانت الحياة كلها مترابطة متلازمة ، فلابد أن تكون الأحكام التي تُشرع لها كلها مترابطة متلازمة كذلك ، وذلك هو حكم الله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

* * *

(١) انظر : كتابنا (شمول الإسلام)، وهو الكتاب الأول في سلسلة (نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ، ومؤسسة الرسالة في بيروت . وانظر : خصيصة «الشمول» من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام» .

٦ ـ الاهتمام بالأشياء على قدر اهتمام القرآن بها

عناية القرآن بأمر ما معيار لأهميته:

وهنا قضية مهمة تتعلق بفقهنا للقرآن، وبالتالي فقهنا للإسلام كله، وقد كنت نبهت عليها من قديم في كتابي (العبادة في الإسلام)، وهي: أن نجعل اهتمامنا بالأمور على مقدار اهتمام القرآن بها. بمعنى أن نتخذ القرآن معيارا لمدى أهمية الشيء أو عدمها.

فما عني القرآن بذكره من المعاني والموضوعات، وجعله في بؤرة اهتمامه، وكرر الحديث عنه، بصورة و أخرى، وبأسلوب و آخر، يجب أن يأخذ من عنايتنا واهتمامنا المكان اللائق به في الفكر والشعور والسلوك، وأن يكون لذلك أثره العملي في ميادين التثقيف والتربية والتشريع، اقتداء بالقرآن.

وما كانت عناية القرآن به أقل، كانت عنايتنا به في نفس الدرجة.

فهذا ـ في رأيي ـ معيار لا يضل ولا يخطئ.

فالأمر الذي يُعنى به القرآن الكريم ـ بحيث يكرره ويؤكده في أكثر من سورة وأكثر من مناسبة، وبأكثر من أسلوب ـ يدل بوضوح على أن له أهمية ومنزلة وأثرا في الدين والحياة، توجب الالتفات إليه، والتنبيه عليه، وإعطاءه حقه من التأمل والعناية الفكرية والعاطفية والعملية، على قدر حجمه في القرآن.

والأمر الذي يهمله القرآن تماما، ولا يذكره بحال في مكيه ولا مدنيه، دليل على أنه ليس من مقومات الدين، ولا أساسياته، لأن القرآن قد حوى كل ما يتعلق بأساسيات الدين، بل فصل في بعضها تفصيلا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فكلمة ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ المذكورة في معرض تبيان القرآن، لا يقصد بها كل شيء في أمور الدنيا، الخاضعة للعقل والتجارب والتطور، على وجه القطع، فهذه تركت لعقول الناس، فهم أعلم بأمر دنياهم. فلم يبق إلا أن يقصد بها (كل شيء) من أمور الدين. فإن القرآن بينها ولو على وجه الإجمال، وترك للسنَّة تفصيلها بالبيان النظري والتطبيق العملي.

فما لم يذكره القرآن قط يدل على أنه أمر هامشي، وليس أساسيا، لذا تركه للسنَّة الشريفة وحدها، أو تركه للعقل المسلم، ليستنبط له حكمه من خلال ما نص عليه، بطريق القياس أو الاستصلاح، أو مراعاة المقاصد، وغيرها. وما ذكره القرآن بإيجاز وسرعة، دون تفصيل لأمره، ولا تكرار له، ولا تركيز عليه، وربما ذكره من باب الإشارة والتلميح لا العبارة والتصريح، فينبغي أن يكون حظه من عناية أمة القرآن، فكرا وشعورا وعملا، بمقدار حظه في القرآن.

بين آيات العقيدة والسلوك وآيات الأحكام:

وهذا ما كان عليه المسلمون في الزمن الأول في غالب الأمر، ثم انتكس موقفهم حين ساء فهمهم للإسلام، ودخلت عليهم ثقافات الأمم الأخرى، من وثنيين، وأهل كتاب محرَّف. ومن ثم ينبغي إعادة النظر في موقفنا من الآيات المتعلقة بالأحكام العملية مثل الشعائر والحدود وأحوال الأسرة والمعاملات . . . والآيات الأخرى المتعلقة بالتوجيه الإيماني والفكري والأخلاقي، والعناية بالألوهية والنبوة والآخرة، والكون والحياة والإنسان، وأصول الأخلاق، فضائل مأمورا بها، أو رذائل منهيا عنها.

فقد أخذت الآيات الأولى، وهي محدودة - حيث قدرت بنحو ٥٠٠ آية - مساحة كبيرة من فكرنا وثقافتنا وتربيتنا، على حين أهملت الأخرى إلى حد كبير، ولم تنل حقها بما يساوي حجمها في ميادين التوجيه والتثقيف والتفكير والتشريع.

بين الجهاد والطهارة:

لقد ذكرت في كتابي ذاك (العبادة في الإسلام) أن المسلمين بالغوا في (فقه الطهارة) حتى أخذ من كتبهم الفقهية، ومن حياتهم العملية، حيزا كبيرا، لم يطالبهم به كتاب ولا سنَّة. وليس هو نهج الصحابة ولا من تبعهم بإحسان.

وقد ذكرت موقفا وقع لي مع بعض مشايخ المساجد، وأنا طالب في كلية أصول الدين، لا بأس من إعادة ذكره هنا، لأنه أليق بموضوعنا:

كان الشهر شهر رمضان، وكانت الليلة السابعة عشرة منه، أعني الليلة التي كانت صبيحتها غزوة بدر الكبرى. وقد دعيت في إحدى القرى لألقي موعظة هناك في هذه الذكرى. وتقبل الجمهور كلمتي بقبول حسن، وعرفوا بعض ما كانوا يجهلون من تاريخ دينهم وسيرة نبيهم. ولكن رجلا واحدا هو الذي لم يعجبه هذا الموضوع كله، ذلك هو أحد الشيوخ الذين يعلمون الناس الدين في الريف، وهو الإمام لهذا المسجد الذي ألقيت خطبتي فيه عن غزوة بدر. إن الرجل لم يكن يعرف هذا اللون من الأحاديث الدينية. إنه كغيره - ممن رأيت بعيني وسمعت بأذني - يظل يدرس للناس طيلة ليالي رمضان، في آداب الاستنجاء، وفرائض الوضوء وسننه، ومستحباته، ونواقضه، وأعذاره، والمياه التي يجوز بها التطهر، والتي لا يجوز، إلخ ما نعرف في لغة الفقه، وينتهي الشهر الكريم، والمسكين لم يخرج بعد من دورة المياه!!

قال الشيخ: حديثك عظيم يا أستاذ، ولكن أما كان الأنفع أن يتعلم الناس في هذه الليلة شيئا من أمور دينهم؟

قلت له: وسيرة رسول الله وغزواته، أليست من أمور دينهم؟! لقد قال سعد بن أبي وقاص: كنا نُرَوِّي أبناءنا مغازي رسول الله ﷺ، كما نعلمهم السورة من القرآن!

قال: أقصد أن يتعلموا كيفية الوضوء والغسل، ويعرفوا شروط ذلك وواجباته وسننه، إلى غير ذلك مما لا تصح الصلاة إلا به.

قلت: يا سيدي الشيخ! أنت تحفظ القرآن، فهل تستطيع أن تجيبني: في كم آية ذكر الله شؤون الوضوء والغسل وما بينهما من أمور الطهارة؟ وسكت الشيخ. فقلت: إنه آية واحدة جمعت ذلك كله [1]. قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم

---

(١) وهناك آية أخرى في سورة النساء، تناولت الموضوع أيضًا باختصار وإجمال ولم تفصله كآية المائدة. هذا كل ما في القرآن عن الطهارة.

مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

ثم قلت : وفي كم سورة ذكر الله شأن الجهاد والقتال في سبيل الله ؟

وسكت الشيخ . فقلت له : إن عندنا مجموعة من السور القرآنية توحي أسماؤها وحدها بموضوعها - وهو الجهاد - منها : «الأنفال» - أي غنائم الحرب - و«التوبة» - أي توبة المتخلفين عن الجهاد - «الأحزاب» ، «القتال» ، «الفتح» ، «الصف» ، «الحشر» - أي الجلاء - «الحديد» ، «العاديات» - الخيل التي تعدو في الحرب - «النصر» .

وهذا غير السور الكثيرة التي ذكرت فيها آيات شتى عن القتال والغزوات كسورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها .

فكيف نهمل ما عني القرآن به هذه العناية في هذه السور والآيات الغزيرة ، ونعيش شهرا أو أكثر ندور حول آية واحدة ؟! (١) .

ما عني به القرآن من السيرة النبوية:

لقد اهتم المسلمون في عصور التخلف بمولد الرسول ﷺ ، وكتبوا قصة المولد في كتب تتلى كل عام في شهر ربيع الأول ، مع صلوات وتسليمات ملحنة ، وجعلوا أوائل ربيع الأول من كل عام بمثابة موسم أو عيد ديني . ولعلهم فعلوا ذلك تقليدا للنصارى الذين يعتبرون ميلاد المسيح أعظم أعيادهم ، فأراد المسلمون أن يثبتوا حبهم لرسولهم العظيم ، وتقديرهم له بهذه الاحتفالات .

ولو نظرنا إلى القرآن الكريم لم نجد فيه أي ذكر لمولد الرسول الكريم ، لا بالعبارة ولا بالإشارة ، بخلاف مولد المسيح عليه السلام ، فقد عني به القرآن وأبرزه ، لأنه كان ميلادا خارقا للعادة ، ميلاد طفل من غير أب ، حتى اتهمت أمه من أجله : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٨] .

---

(١) من كتاب «العبادة في الإسلام» للمؤلف صـ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، التاسعة عشرة .

وماذا تصنع الأم البتول أمام هذا الاتهام الصارخ: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٢٩ -٣٣].

فهذا الميلاد (الخارق) للمسيح - بما صحبه من كلامه في المهد صبيا مبرئا لأمه عليها السلام - جدير أن يعتنى به، تثبيتا للإيمان، وردا على المتهمين لمريم، والمكذبين للمسيح، وعلى المؤلهين له أيضا، فلم يكن إلا عبدا لله آتاه الكتاب وجعله نبيا. فلم يكن إلها ولا ابن إله: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥].

ونحو ذلك عناية القرآن بميلاد يحيى بن زكريا عليهما السلام، لأنه جاء خارقا للمعتاد، فقد ولد من أب شيخ هرم وأم عقيم. ولهذا حين استجاب الله دعاء زكريا أن يهب له ذرية طيبة وبشره بغلام اسمه يحيى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٨، ٩].

وقبل المسيح ويحيى اهتم القرآن بقصة ميلاد مريم نفسها، حيث كان فيها عبرة ينبغي أن تذكر، فقد حملت بها امرأة عمران، وهي تتوقع أن تكون ذكرا يستطيع أن يقوم بخدمة الهيكل - المعبد المقدس عند بني إسرائيل - فقالت: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

أما ميلاد محمد ﷺ، فقد كان ميلادا طبيعيا جاريا على مقتضى السنن التي أجراها الله تعالى في الكون، فلا عجب إذا لم يذكر في القرآن.

وهذا وأمثاله من أظهر الأدلة على أن هذا القرآن ليس من عند محمد ﷺ، إنما هو من

عند الله تعالى، ، وإلا لاهتم بأمر نفسه وما يتعلق بشخصه أكثر من اهتمامه بغيره بمقتضى الطبيعة البشرية.

ومما عُني به المسلمون وألفوا فيه واحتفلوا به كذلك - وإن كان دون الاحتفاء بالمولد النبوي - الإسراء والمعراج، مع أن كل نصيب الإسراء من القرآن آية واحدة افتتحت بها السورة التي سميت باسمه، وإن كان هناك من سماها (سورة بني إسرائيل)، لما تضمنته من قصة إفسادهم مرتين وعقوبة الله تعالى على كل مرة منهما بتسليط من يؤدبهم ويسومهم سوء العذاب.

أما المعراج فلم يرد ذكره صريحا في القرآن، بل جاءت الإشارة إليه في سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ⑭ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [**النجم**:١٣-١٥].

ولهذا قال العلماء: إن من كذب بالإسراء فقد كفر ومرق ! لأنه كذب صريح القرآن. ومن كذب بالمعراج فقد ابتدع وفسق؛ لأنه خالف ما أشار إليه القرآن، وما ثبت بالسنة الصحيحة.

فينبغي أن يكون اهتمام المسلمين بالإسراء والمعراج، في حجم اهتمام القرآن بهما، ولا سيما الربط بين مبتدإ الإسراء: المسجد الحرام، ومنتهاه: المسجد الأقصى. فإن في هذا الربط عبرة، تبينّاها في عصرنا، حين أراد اليهود أن يقيموا الهيكل مقام الأقصى.

وإذا كان المسلمون في عصور التراجع والانحطاط قد اهتموا بالمولد والإسراء، فإنهم لم يهتموا مثل هذا الاهتمام بالغزوات، التي احتلت مساحة غير قليلة من كتاب الله.

فنجد سورة الأنفال إنما هي تسجيل وتعقيب وتذكير وتنبيه على غزوة بدر، وأهم ما وقع فيها من أحداث، وما يؤخذ منها من عبر، بعد ما هيأ الله فيها للمسلمين من نصر.

ونجد سورة آل عمران - أو ستين آية منها - تعقيبا كذلك على غزوة أحد، بعد ما مس المسلمين فيها من قرح، واتخذ الله منهم شهداء.

ونجد سورة الأحزاب تعقيبا على غزوة الخندق وبني قريظة وما وقع من ابتلاء ونصر.

ونجد سورة الحشر تعقيبا على إجلاء بني النضير حتى كان ابن عباس يسميها: (سورة بني النضير).

ونجد سورة الفتح تعقيبا على غزوة الحديبية، وما وقع فيها من صلح.

ونجد سورة التوبة تعقيبا على غزوة تبوك ومواقف المنافقين منها، مع الإشارة إلى غزوة حنين، وما أصاب المسلمين فيها من انكسار أعقبه انتصار.

وقد كانت هذه الغزوات وما فيها من روائع البطولة، وعظائم الدروس، مصدر إلهام وقوة للمسلمين الأول، حتى قال ابن أبي وقاص: كُنا نُروِّي أبناءنا مغازي رسول الله ﷺ كما نحفظهم السورة من القرآن.

وكان العلماء يسمون علم (السيرة) علم (المغازي).

ولكن الأمر لم يستمر على هذا النهج القويم.

فمع كل هذه العناية البالغة من القرآن الكريم بهذا الجانب من السيرة النبوية ـ فضلا عما يبينه ويشرح تفصيلاته من السنة ووقائع السيرة ـ نجد المسلمين في عصور الغفلة وسوء الفهم لحقائق الإسلام ومقاصد القرآن، قد أغفلوه ولم يعطوه حقه، حتى جاء المجددون الأصلاء، فذكّروا به الناسين، ونبهوا الغافلين، وعلموا الجاهلين.

وأبرز من رأيته عُني بذلك أكبر العناية في دعوته وتربيته هو الإمام حسن البنا رحمه الله ورضي عنه.

فقد اتخذ من هذه الغزوات وذكرياتها كل عام، وسيلة لإحياء (معنى الجهاد) الذي ضمر أو اختفى في العقل الإسلامي، والوجدان الإسلامي، والسلوك الإسلامي. جعل من هذه المناسبات مدارس لتجديد الفكرة، وإيقاظ المشاعر، وإلهاب جذوة الحماسة، لتحقيق هدفين كبيرين: تحرير الأرض الإسلامية، ونصرة الدعوة الإسلامية.

ما عني به القرآن من تواريخ الأمم:

خذ مثلا في تاريخ الأمم التي ذكرها القرآن . . . .

فقد ذكر القرآن (الروم)، وأنزل في شأن حربهم مع الفرس أوائل السورة التي سميت باسمهم (سورة الروم)، ودل ذلك على اهتمام الإسلام المبكر بالأحداث العالمية، وعلاقتها بالوجود الإسلامي، وانتباه الوعي الإسلامي لها، وجداله حولها.

كما دل على منزلة أهل الكتاب في الإسلام وقربهم من المسلمين، وخصوصا النصارى منهم، وإن أنكر عليهم عقائدهم في تأليه المسيح وأمه، وغير ذلك.

ولكن القرآن لم يفصل عن (الروم) أكثر من ذلك باعتبارهم (رومًا)، وإن تحدث عن النصارى في مناسبات كثيرة، وخصوصا في سورة المائدة، وسورة التوبة التي ذكر فيها كيدهم للإسلام: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

أما الفرس فلم يذكرهم باسمهم صراحة، إنما ذكروا ضمنا في أوائل سورة الروم باعتبارهم أنهم كانوا الفريق الغالب أولا، وأنبأ القرآن أنهم سيُغلبون في بضع سنين.

ويرى بعض كبار العلماء في عصرنا، وعلى رأسهم علاّمة الهند أبو الكلام آزاد، أن ذا القرنين المذكور في القرآن في سورة الكهف والذي شرّق بفتوحه وغرب، وأقام السد العظيم، ليحول دون يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض، إنما هو الملك الفارسي الشهير (قورش)، وأنه كان مؤمنا موحدا، وأن الديانة الزرادشتية كانت في الأصل ديانة توحيدية، ثم دخل عليها التحريف، والقول بالثنوية في الألوهية وعبادة النار، وما انتهى إليه دين المجوس.

ويبدو أن ذكر الفرس بهذه الإشارة، دون التصريح، كان لحكمة علمها منزل القرآن جل جلاله، وهي أن الفرس سيسلمون، ويصبحون عضدا للإسلام وجزءا من أمته، ويكون منهم العلماء والفقهاء واللغويون والأدباء، الذين يخدمون القرآن والسنة وعلوم الشريعة واللغة، فلا حاجة إلى التنبيه على أمرهم، أو التحذير منهم.

الاهتمام بقصة بني إسرائيل:

على حين نجد القرآن الكريم أفاض كل الإفاضة فيما يتعلق ببني إسرائيل وتاريخهم ومواقفهم مع أنبيائهم، وخصوصا مع محررهم ومنقذهم من عسف فرعون وجبروته، وهو موسى عليه السلام، حتى قال بعض المفسرين: كاد القرآن أن يكون لموسى وقومه!

وذلك لكثرة تكرار قصته في القرآن مختصرة ومطولة.

وحسبك أن تقرأ ما جاء في سورة البقرة من آيات عن بني إسرائيل، وقد أخذت جل الجزء الأول من السورة (من الآية ٤٠ إلى الآية ١٤٨).

وتقرأ ما جاء عنهم في سورة آل عمران: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ... ﴾ [آل عمران: ١٨١ - ١٨٣].

وفي تلك السورة: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وتقرأ عريضة الاتهام المركزة والموجهة إليهم في سورة النساء، وذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ....﴾ [الآيات ١٥٣ - ١٦١].

وقبلها في السورة نفسها: الآيات التي تحدثت عن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب. وعن الذين هادوا، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ووقوفهم مع الوثنيين ضد المسلمين الموحدين، إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾ انظر الآيات من٤٤ ـ ٥٥ من سورة النساء.

وتقرأ ما جاء عنهم في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤].

وقبلها: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾، إلى قوله تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٢، ١٣].

وقوله تعالى، بعد ذلك: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ...﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ...﴾ ثم إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢١ - ٢٦].

وتقرأ في سورة الأعراف تفصيلات أخرى عن حياتهم، مع نبيهم موسى، عليه السلام، بعد خروجهم من مصر.

هذا الحشد من الآيات. وتكراره في القرآن وتأكيده: دليل بالغ على أن لبني إسرائيل شأنا في حياة المسلمين ولذا وجب أن يعرفهم المسلمون على حقيقتهم، ويعرفوا تاريخهم ومواقفهم، وسلوكهم وطبائعهم، وتعاملهم مع أنبيائهم، حتى يعاملوهم بما ينبغي من حرص وترقب وحذر. وفرق بين من يعامل قوما وهو يعرف كل شيء عن معتقداتهم، وأخلاقهم وأعمالهم، وتوجهاتهم الفكرية، والنفسية، وآخر لا يعلم عنهم شيئا أو يعلم عنهم عكس ما هم عليه.

وقد صدق التاريخ والواقع ما جاء به القرآن عن اليهود وبني إسرائيل، وفاجأنا الزمن بما نحن عليه اليوم. هم الذين كانوا في كنفنا وحمايتنا، وعاشوا قرونا في ذمة الله ورسوله والمسلمين، آمنين في ديار الإسلام، بعد أن اضطهدهم العالم كله، وطردتهم الأمم من أوطانهم، ولم يجدوا الملاذ والأمان إلا في دار الإسلام، هؤلاء أنفسهم ينقلبون على المسلمين ويغتصبون أرضهم، ويخرجون منها أهلها بالنار والدم، لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة، ويهددون العرب والمسلمين بما يملكون من قوة عسكرية، وترسانة نووية، ومساندة من القوى الكبرى.

وبهذا خرجوا من العزلة التي ضربت عليهم، وهو خروج استثنائي من هذا الأصل العام، الذي قرره القرآن، بسبب حبل من الناس تشبثوا به، كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

ولكن هذا (الحبل من الناس) لن يدوم لهم، ولابد أن يقطع الله عنهم هذا الحبل الذي مده لهم فترة من الزمن، وخصوصا بعد عدوانهم وعتوّهم وغرورهم، وبغيهم في الأرض بغير الحق، ثم يحكمهم القانون العام الذي عاملهم به القدر الأعلى طوال تاريخهم، من بخت نصر إلى هتلر، وهو الذي يعبر عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]. وقد عادوا إلى الفساد والطغيان، فلابد أن يعود عليهم القدر الإلهي بالتأديب والعقاب.

وإنا لهذا القانون الإلهي العادل لمنتظرون.

محتويــــات الكتـــــاب

صفحة

الباب الرابع: كيف نتعامل مع القرآن العظيم اتباعا وعملا ودعوة

رقم الإيداع ١٣٢٦٠/ ٩٨
الترقيم الدولى 1 - 0496 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)